# الهادي

## في تفسير القرآن الكريم

تأليف

العلامة سيد مرتضى المهري

الجزء السادس

مؤسسة المعارف الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

# الهادي

# في تفسير القرآن الكريم

## المجلّد السادس

شبكة الفكر
alfeker.net

تأليف

العلامة سيّد مرتضى المهري

سرشناسه : مُهري، سيدمرتضى، ۱۳۲۴ -
عنوان و نام پديدآور : الهادي في تفسير قرآن كريم [كتاب] سيد مرتضى مُهري.
مشخصات نشر : قم : مؤسسة المعارف الإسلامية، ۱۴۳۷ق.= ۱۳۹۵
مشخصات ظاهرى : ۵ج.
فروست : مؤسسة المعارف الإسلامية؛ ۲۰۹، ۲۱۹.
شابك : دوره: ۹- ۰۱۵- ۱۴۶-۶۰۰- ۹۷۸
ج۱) -۱۶-۰۱۶-۱۴۶-۶۰۰-۹۷۸؛ ج۲) ۳-۰۱۷-۱۴۶-۶۰۰-۹۷۸؛ ج۳) ۷-۰۱۹-۱۴۶-۶۰۰-۹۷۸
ج۴) ۲-۰۳۰-۱۴۶-۶۰۰-۹۷۸؛ ج۵) ۹-۰۳۱-۱۴۶-۶۰۰-۹۷۸؛ ج۶) ۵-۰۳۹-۱۴۶-۶۰۰-۹۷۸
وضعيت فهرست‌نويسى : فاپا
يادداشت : عربى.
يادداشت : ج.۳ (چاپ اول: ۱۳۹۴).
يادداشت : ج.۴ (چاپ اول: ۱۳۹۵).
يادداشت : ج.۵ (چاپ اول: ۱۳۹۷) (فيپا).
يادداشت : ج.۶ (چاپ اول: ۱۳۹۹) (فيپا).
مندرجات : - ج.۳. تفسير سوره الشورى. - ج.۴. تفسير سوره الاحقاف. - ج.۵. تفسير سوه الذاريات.-ج.۶. تفسير سوره حديد
موضوع : تفاسير شيعه -- قرن ۱۴
شناسه افزوده : بنياد معارف اسلامى
رده بندى كنگره : ۱۳۹۵ ۲ه۸۶۶م / ۹۸ BP
رده بندى ديويى : ۲۹۷/۱۷۹
شماره كتابشناسى ملى : ۳۴۸۳۰۶۱

۲۲۷

**هويّة الكتاب:**

اسم الكتاب : الهادي في تفسير القرآن الكريم/ ج ٦
المؤلّف : العلامة السيد المرتضى المُهري
الناشر : مؤسّسة المعارف الإسلاميّة
الطبعة : الأُولى ١٤٤٢ هـ. ق
المطبعة : عترت
العدد : ١٠٠٠ نسخه
رقم الايداع الدولي للدورة : 978 -600 -146-015-9
رقم الايداع الدولي / ج ٦: 978 - 600-146 -039-5

حقوق الطبع محفوظة لمؤسّسة المعارف الإسلاميّة

قم المقدّسة - هاتف : ٠٩١٢٧٤٨٨٢٩٨ - ٣٧٧٣٢٠٠٩ - فاكس ٣٧٧٤٣٧٠١ ص ب ٧٦٨ / ٣٧١٨٥
www.maarefislami.com
E-mail : bonyad.maaref@gmail.com

# تفسير سورة الحديد

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ
وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾

سورة الحديد مدنية بشهادة آياتها وسياقها حيث إنّ الغرض البيّن منها هو الحثّ على الإنفاق في سبيل الله تعالى ومن أجل الجهاد، وكذلك مساعدة الفقراء، ولعلّه لذلك قدّم التسبيح والتنبيه على الصفات الحسنى لدفع توهّم الحاجة ـ كما في «الميزان»[1] ـ وقد توهّم ذلك بعض الغفلة الجاهلين، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾[2] والمراد بهم طائفة من اليهود.

ومن مميّزات هذه السورة ستّ آيات في أوّلها اشتملت على مجموعة من

---

١. راجع: الميزان في تفسير القرآن ١٩: ١٤٤.

٢. آل عمران (٣): ١٨١.

أسماء الله الحسنى وصفاته وأفعاله. وقد ورد في صحيحة عاصم بن حميد قال: سئل علي بن الحسين ـ صلوات الله عليه ـ عن التوحيد، فقال: «**إنّ الله عزّ وجلّ علم أنّه يكون في آخر الزمان أقوام متعمّقون فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ والآيات من سورة الحديد إلى قوله: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، فمن رام وراء ذلك فقد هلك**».[1]

﴿سَبَّحَ لِلهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾. التسبيح تنزيه تعالى عن كلّ ما لا يليق به، واللام لتأكيد تعلّق الفعل بمتعلّقه؛ لأنّ التسبيح يتعدّى بنفسه، قال تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[2] فهو مثل ما يقال: نصحته ونصحت له.

﴿السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ تعبير عن الكون كلّه، أي أنّ كلّ ما في الكون يسبّح لله تعالى.

و«ما» تشمل ذوي العقول وغيرهم. والفعل ورد في بعض السور بصيغة الماضي كما هو هنا، وفي بعضها بصيغة المضارع كسورة الجمعة، فالمضارع للدلالة على الاستمرار وأنّ هذا دأبهم وديدنهم، والماضي يدلّ على القدم وأنّ هذا ليس أمراً حادثاً تحت تأثير الأديان ونحوها، بل هو مقتضى طبيعة الأشياء وفطرة الإنسان.

وقد وقع الكلام في أنّ المراد به التسبيح القولي والاعتقادي، أو الدلالة التكوينية للشيء على خالق مدبّر منزّه عن النقص، ولا شكّ أنّ ظاهر التعبير هو الأوّل، بل الأمر الثاني لا يعدّ تسبيحاً؛ لأنّ التسبيح في الحقيقة أمر إنشائي يتوقّف

---

١. الكافي ١: ٩١، الحديث ٣، باب النسبة.
٢. الأحزاب (٣٣): ٤٢.

على القصد، مضافاً إلى دلالة بعض الآيات على وجود نوع من الإدراك في الأشياء، لا تصل إليه أفهامنا، كقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[١] وحيث ينفي فهم الإنسان وإدراكه لتسبيحهم فلا يمكن حمله على التسبيح التكويني الذي تدلّ عليه الأشياء؛ لأنّه أمر معلوم مفهوم، وكقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أو كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾،[٢] فإنّ التعبير بالطاعة يدلّ على نوع من الإدراك في الأشياء خصوصاً مع المقابلة للكره، وكقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كلّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾[٤] وغير ذلك. وأمّا الروايات التي تدلّ على ذلك، بل على الشهادة بالرسالة والولاية لأهل البيت عليهم السلام فهي كثيرة.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. العزيز فعيل من العزّة بمعنى الشدّة والغلبة والقوّة، وأصله من الأرض العزاز، أي الصلبة. والمقصود هنا الغالب على أمره أو الذي لا يؤثّر فيه شيء ولا يمنعه شيء من تحقيق غرضه.

والحكيم من الحكمة بمعنى المنع، يقال: حكمت الدابّة أي ألجمتها، والحكمة ما يمنع صاحبه من السفاهة والعمل بما لا يليق. واتباع العزّة بالحكمة يفيد أنّ عزّته وغلبته لا تستوجب أن يفعل ما لا ينبغي أو يظلم أحداً حيث إنّه لا

---

١. الإسراء (١٧): ٤٤.

٢. فصلت (٤١): ١١.

٣. النور (٢٤): ٤١.

٤. ص (٣٨): ١٨ ـ ١٩.

يمنعه مانع فيفعل ما يشاء، فإنّ الله تعالى لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾. ﴿السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ كناية عن الكون بأكمله كما مرّ، والملك هو التمكّن من التصرّف، وقد تعارف التعبير عن السلطة العامّة بالملك بضم الميم، وعن السلطة الشخصية على ما تحت اليد بكسره.

والتمكّن قد يكون تكوينياً وقد يكون اعتبارياً وقانونياً، فالإنسان يملك أطرافه تكويناً ويملك ما تحت يده قانوناً بمعنى أنّ المجتمع يعترف بحقّه الخاص في التصرّف ومنع غيره عن التجاوز إليه ويدافع عنه.

والتعبير في الآية بتقديم الجارّ والمجرور يفيد الحصر، وأنّ الملك في الكون ليس إلا له تعالى. وأمّا غيره فلا يتمكّن من كلّ تصرّف وإنّما هو سلطة محدودة وهناك شؤون لا يمكنه التحكّم فيها حتّى تسلّط الإنسان على جسمه، بل على نفسه، فإنّه ناقص فضلاً عن التسلّط على الغير، فالملك حقيقة لله تعالى فقط بالنسبة لكلّ شيء لا بالنسبة للمجموع، كما ظنّ بعضهم حيث وجّه الحصر في الآية بأنّ ملك غيره تعالى ليس على كلّ شيء، وإنّما هو بالنسبة لما تحت سلطته فحسب، فالسلطة العامّة ليست إلا لله تعالى والصحيح أنّ غيره تعالى لا يملك السلطة حتّى على نفسه سلطة مطلقة. مضافاً إلى أنّ تمكّنه ليس من ذاته، فإنّ كلّ قدرة وقوّة تنتهي إليه تعالى، فتسلّط الإنسان على نفسه وعلى أطرافه ليس إلا بتمكين منه تعالى، ولو شاء لسلب منه القوّة فلا يسيطر حتّى على نفسه فضلاً عن غيره.

والحاصل أنّ السلطة الذاتية المطلقة في جميع الكون لله تعالى؛ لأنّ وجود

الموجودات بلا استثناء وكيانها وبقاءها وكلّ شؤونها متقوّمة بإرادته تعالى. وأمّا غيره فلا يملك سلطة مطلقة ولا ذاتية ولا عامّة.

﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾. الحياة من أعجب أسرار الكون ولم يصل إلى كنهها البشر حتّى الآن.

وقوله تعالى: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ بعد قوله: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ من دون الإتيان بعاطف يشعر بأنّ الإحياء والإماتة من شؤون الملك المطلق، فهو تعالى حيث إنّه ما من دابّة إلا هو آخذ بناصيتها ويملك أمرها، فهو الذي يمنحها الحياة وهو الذي يسلبها إيّاها. وليس معنى ذلك أنّها لا تتّبع العوامل الطبيعية، بل كلّ ما في الطبيعة من فعله تعالى. وإنّما ذكرهما باعتبار أنّهما شأن من شؤون الربوبية.

والفعل المضارع يدلّ على الاستمرار، فما من لحظة إلا ويحيي الله تعالى فيها ما لا يحصي عدده غيره من مختلف أنحاء الأحياء، ويميت أيضاً فيها ما لا يحصيه أحد غيره ولا يمكن إحصاؤه. هذا مع أنّ منحه للحياة ليس هبة وتمليكاً، بل الحياة كغيرها من الشؤون قائمة بإرادته ومستمرّة بمنحه وعطائه، فهو يحييها مستمرّاً ويميتها متى شاء. بل استمرار وجود الشيء حيّاً كان أو ميتاً، جماداً كان أم حيواناً متقوّم بإرادته تعالى.

﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فليس أمام القدرة المطلقة أمر عجيب، وإذا تعجّبنا من أمر كمنح الحياة فإنّما هو بالقياس إلى القدرة المحدودة التي نتصورّها ونفهمها، وأمّا القدرة المطلقة التي لا يصل إلى كنهها فهم البشر فلا استغراب هناك ولا تختلف الأمور، فلا شيء أصعب من شيء ولا شيء أهون من شيء.

والشيء واحد الأشياء، قالوا: إنّه بمعنى ما يخبر عنه، ولذلك يطلق على الله

تعالى أيضاً، كما ورد في الكتاب العزيز: ﴿**قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ**﴾،[١] وبناءاً عليه فالمراد بالشيء هنا معنى خاصّ وهو كلّ أمر ممكن، فإنّ الشيء يطلق على المستحيل أيضاً، يقال: هذا شيء محال، فالشيء أمر مبهم. وقيل إنّه مصدر كالمشيئة من شاء يشاء بمعنى المفعول، أي المشيء وأنّ إطلاق الشيء على الله تعالى بمعنى اسم الفاعل؛ لأنّه الذي يشاء، فإن صحّ ذلك فالمعنى في هذه الجملة أنّه قادر على كلّ ما يشاؤه. والقدير مبالغة في القدرة.

﴿**هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ**﴾، الأوّل أفعل من الأوْل أو الوَوْل على ما اختلفوا فيه، ومهما كان فالأوّل هو ما تبدأ به المجموعة أيّ مجموعة كانت، والآخر اسم فاعل من أخر وهو ما تنتهي به المجموعة. ومن هنا يتبيّن أنّهما أمران نسبيان، فقد يكون الأوّل في مجموعة آخراً في مجموعة أُخرى، وأنّهما لا يمكن صدقهما على فرد واحد في مجموعة واحدة.

ويتبيّن أيضاً بوضوح أنّ المراد بهما في الآية معنى آخر؛ لأنّهما أُطلقا معاً على الله تعالى وبصورة مطلقة، فهو تعالى أوّل في حال أنّه آخر، ومعنى الآية انحصار الصفة في ذاته تعالى، فهو الأوّل لا أوّل غيره، والآخر لا آخر غيره. وفي «الكشّاف» أنّ الواو بين الأوّل والآخر للجمع لا للعطف، وكذلك بين الظاهر والباطن، فيكون المعنى أنّ الصفة المنحصرة فيه تعالى هو أنّه أوّل وآخر معاً، وظاهر وباطن معاً.[٢] وقد اختلفت كلمات المفسّرين وغيرهم في معنى الأوّل والآخر، ويكفينا فيه ما ورد في «نهج البلاغة» عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام.

---

١. الأنعام (٦): ١٩.

٢. راجع: الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل ٤: ٤٧٢.

قال عليه السلام: «**الْحَمْدُ للهِ الأَوَّلِ قَبْلَ كلّ أَوَّلٍ وَالآخِرِ بَعْدَ كلّ آخِرٍ، وَبِأَوَّلِيَّتِهِ وَجَبَ أنْ لا أَوَّلَ لَهُ، وَبِآخِرِيَّتِهِ وَجَبَ أنْ لا آخِرَ لَهُ**».[1]

ولعلّ المراد بكونه تعالى أوّلاً قبل كلّ أوّل أي قبل كلّ ما يفرض أوّلاً، وكذلك في الآخر، فالأوّلية والآخرية فيه تعالى ليستا نسبيتين ولا تلاحظان بالنسبة إلى مجموعة. والجملة التالية تفيد أنّ الأوّلية فيه تعالى ليست بمعنى أنّه أوّل الموجودات وأنّه متقدّم على جميعها زماناً، بل بمعنى أنّه لا أوّل له، أي لا بدو له، ومعنى آخريته المطلقة أيضاً أنّه لا آخر له، أي لا نهاية له، وذلك لأنّه واجب الوجود ويستحيل عليه العدم.

وهذا ثابت بالدليل العقلي الواضح وهو أنّ الوجود لا بدو له ولا ختام، أي لا يمكن عليه العدم، فالوجود هو الحقّ الأزلي والأبدي والعدم باطل محض، والله تعالى هو حقيقة الوجود وكلّ موجود غيره متقوّم به في ذاته وكيانه ووجوده.

وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام: «**لَيْسَ لأَوَّلِيَّتِهِ ابْتِدَاءٌ وَلا لأَزَلِيَّتِهِ انْقِضَاءٌ هُوَ الأَوَّلُ وَلَمْ يَزَلْ وَالْبَاقِي بِلا أَجَلٍ**»[2] الظاهر أنّ مراده عليه السلام من الجملة الأُولى أنّ أوّليته تعالى ليست بالابتداء وأنّ كونه تعالى أوّلاً لا يعني أنّه أوّل موجود، لأنّه يوهم الحدوث ولا يلازم الأزلية بمعنى القدم الذاتي، فإنّ الابتداء من شؤون الزمان والزمانيات. وقوله عليه السلام «**ولا لأزليته انقضاء**» لعلّه يقصد به أنّ أزليته ملازمة للأبدية، فكما أنّ العدم مستحيل عليه بدواً مستحيل أيضاً استمراراً، فلا انقضاء لأزليته.

وقوله عليه السلام: «**هو الأوّل ولم يزل**» يؤكّد ما سبق، فإنّ معناه أنّه تعالى لم يزل من

---

١. نهج البلاغة (صبحي الصالح): ١٤٦، الخطبة ١٠١.
٢. نهج البلاغة (صبحي الصالح): ٢٣٢، الخطبة ١٦٣.

الأزل أوّلاً وهو نفس ما أفاده بقوله عليه السلام: «**ليس لأوّليته ابتداء**»، أي أنّ أوّليته أزلية وليست أمراً حادثاً كسائر الأوّليات، بل ولا أمراً مرتبطاً بزمان وإن كان لا نهائياً، فإنّ الزمان إمّا أمر موهوم أو مخلوق له تعالى.

وقوله: «**والباقي بلا أجل**»، أي بلا غاية ونهاية، وهذا يختلف عن القول: إنّه باق إلى ما لا نهاية، بل هو منزه عن الأجل والنهاية لاستحالة العدم عليه. ومثل ذلك أيضاً قوله عليه السلام: **﴿الأوَّلُ لا شَيْءَ قَبْلَهُ وَالآخِرُ لا غَايَةَ لَهُ﴾**.[1] وقوله عليه السلام: «**الأوَّلُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ قَبْلٌ فَيَكُونَ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَالآخِرُ الَّذِي لَيْسَ لهُ بَعْدٌ فَيَكُونَ شَيْءٌ بَعْدَهُ**».[2]

والحاصل أنّ المراد بأوّليته تعالى أنّه واجب الوجود ويستحيل عليه العدم لا أنّه أوّل موجود، ولو فرض أنّ المراد به القدم الزماني فالمعنى أنّه خارج عن حيطة الزمان والمكان ولا يعني أنّه موجود منذ اللانهاية من الزمان وإلى اللانهاية منه، فإنّ الزمان ـ كما قلنا ـ مهما فرض إمّا موهوم أو مخلوق له تعالى، فلا يمكن أن يتقيّد به.

والقدم بهذا المعنى أيضاً خاصّ به تعالى، وما يقال من أنّ المجرّدات المحضة والموجودات النورية العالية غير مقيّدة بالزمان أيضاً، لأنّ الزمان من خصائص الأجسام ومن أعراض حركتها فلعلّه مجرّد اصطلاح؛ إذ كما يمكن انتزاع الزمان من امتداد حركة الأجسام ـ كما يقولون ـ يمكن انتزاعه أيضاً من امتداد بقاء المخلوق، وإنّما ينزه منه الباري سبحانه؛ لأنّه مخلوق له تعالى لو فرض كونه موجوداً حقيقياً ولذلك ورد في الروايات أنّه تعالى كان ولا شيء

---

١. نهج البلاغة (صبحي الصالح): ١١٥، الخطبة ٨٥.

٢. نهج البلاغه (صبحي الصالح): ١٢٤، الخطبة ٩١ (خطبة الأشباح).

غيره، وبهذا يردّ على من يدعي قدم العالم.

فمن الروايات صحيحة محمّد بن مسلم، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال سمعته يقول: «**كان الله عزّ وجلّ ولا شيء غيره ولم يزل عالماً بما يكون، فعلمه به قبل كونه كعلمه به بعد كونه**».[1]

ومنها ما رواه الصدوق في مكاتبة للإمام الصادق عليه السلام: «**كان الله عزّ وجلّ ولا شيء غير الله معروف ولا مجهول**».[2]

وروي عنه عليه السلام أنّه قال: «كان الله ولم يكن معه شيء» ولم أجد له مستنداً في كتب الحديث. وهذه الجملة بألفاظ متقاربة مشهورة على الألسن وتنسب إلى الرواية، ولكن لم نجد رواية بهذا اللفظ في كتب الفريقين.

ومنها ما رواه الكليني مرسلاً ورواه الصدوق عنه مسنداً عن أبي الحسن الرضا عليه السلام أنّه قال: «**لا شيء قبل الله ولا شيء مع الله في بقائه وبطل قول من زعم أنّه كان قبله أو كان معه شيء وذلك أنّه لو كان معه شيء في بقائه لم يجز أن يكون خالقاً له؛ لأنّه لم يزل معه فكيف يكون خالقاً لمن لم يزل معه**».[3]

ومن هنا يتبيّن أنّ الأوّلية لو فسّرت بمعنى القدم زماناً وكونه تعالى أوّل الموجودات فهي أيضاً صفة خاصّة به تعالى. وأمّا بالنسبة للأبدية بناءاً على أنّ الآخر بهذا المعنى، فقد يقال: إنّها لا تنحصر فيه تعالى؛ لأنّ الإنسان أيضاً أبدي، كما هو مقتضى الآيات الدالّة على الخلود في الجنّة والنار. وقد وقع الكلام في خلود أهل النار وأنكره بعضهم ولكن لا كلام في خلود أهل الجنّة، لقوله تعالى:

---

١. الكافي ١: ١٠٧، الحديث ٢، باب صفات الذات.

٢. التوحيد (الصدوق): ٢٢٧.

٣. الكافي ١: ١٢٠، الحديث ٢؛ التوحيد (الصدوق): ١٨٦؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٤٥.

**﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾**[١] مع أنّ ظاهر الآية المباركة حيث وصفه تعالى بالآخر أنّه وحده هو الأبدي الباقي.

ويمكن أن يجاب عنه بوجوه:

الأوّل: أنّ ظاهر الآيات المباركات أنّ الكون يفنى تماماً، ثمّ يعيد الله تعالى الوجود، ويمكن أن يستدلّ على ذلك بقوله تعالى: **﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾**،[٢] فإنّ ظاهر الآية أنّه تعالى يعيد الخلق بعد الفناء تماماً، ليصدق أنّه كالبدء بالخلق الأوّل. وأيضاً بقوله تعالى: **﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾**[٣] بناءاً على أنّ المراد بالهلاك الفناء، ليصدق حمله على كلّ شيء لا الموت الخاصّ بالأحياء، وأيضاً بناءاً على أنّ المراد به عروض الهلاك في آخر الأمر ولا يقصد به أنّ كلّ شيء هالك بالفعل باعتبار ذاته، فإنّ كلّ موجود بذاته ليس شيئاً، وإنّما هو موجود بإرادته تعالى.

وهذا هو الظاهر من روايات كثيرة، منها ما رواه الصدوق في «التوحيد» بإسناده إلى علي بن مهزيار قال: كتب أبو جعفر عليه السلام إلى رجل بخطّه وقرأته في دعاء كتب يقول: «**يا ذا الذي كان قبل كلّ شيء، ثمّ خلق كلّ شيء، ثمّ يبقى ويفنى كلّ شيء**»[٤] بناءاً على أنّ المراد به فناء الأشياء قبل يوم القيامة لا بعدها.

هذا ولكن هذا الجواب لو فرض كونه صحيحاً لا يغني شيئاً؛ لأنّ مقتضاه أنّ

---

١. هود (١١): ١٠٨.

٢. الأنبياء (٢١): ١٠٤.

٣. القصص (٢٨): ٨٨.

٤. التوحيد (الصدوق): ٤٨.

الكون بكامله يفنى قبل يوم القيامة، ولكن لا يمنع خلود الإنسان وأبديته بعد الحشر والجزاء؛ كما أنّ قوله‌ﷺ: «ثمّ يبقى ويفنى كلّ شيء» لا يمنع من ذلك أيضاً.

الثاني: أنّه يمكن أن يراد بالخلود والأبدية للإنسان بعد الحشر البقاء الطويل جدّاً، وهذا المعنى ممّا يطلق عليه الخلود والأبدية حتّى في هذه الحياة، كالقول بأنّ فلاناً حكم عليه بالسجن المؤبّد، ومثله ما يعبّر عنه بالوقف المؤبّد وغير ذلك. وربما يؤيّد إرادة هذا المعنى قوله تعالى: ﴿لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً﴾[1] ممّا يدلّ على أنّ للنار نهاية. ولا ينافي ذلك قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾[2] لاحتمال أن ينتهي الأمد بفناء النار ومن فيها. ومثل ذلك يمكن أن يقال في قوله تعالى: ﴿عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾، فإنّ الجذّ هو القطع وعدم انقطاع النعمة عنهم لا ينافي فناءهم وفناء النعمة معهم.

ولكن ذلك ينافي الآيات الظاهرة والروايات الصريحة في أبدية النعمة والعذاب يوم القيامة، بل الظاهر أنّ خلود المتّقين والصالحين في الجنّة ممّا اتفقت عليه كلمة المسلمين، بل أتباع الشرائع السماوية جميعاً. والله العالم.

الثالث: أنّه يمكن أن يحمل الأوّل والآخر على معنى آخر غير الأزلية والأبدية. قال العلامة الطباطبائي في «الميزان»: «لما كان تعالى قديراً على كلّ شيء مفروض كان محيطاً بقدرته على كلّ شيء من كلّ جهة، فكلّ ما فرض أوّلاً فهو قبله، فهو الأوّل دون الشيء المفروض أوّلاً، وكلّ ما فرض آخراً فهو بعده لإحاطة قدرته به من كلّ جهة، فهو الآخر دون الشيء المفروض

---

١. النبأ (٧٨): ٢٣.

٢. المائدة (٥): ٣٧.

آخراً، وكلّ شيء فرض ظاهراً فهو أظهر منه لإحاطة قدرته به من فوقه، فهو الظاهر دون المفروض ظاهراً، وكلّ شيء فرض أنّه باطن فهو تعالى أبطن منه لإحاطته به من ورائه، فهو الباطن دون المفروض باطناً، فهو تعالى الأوّل والآخر والظاهر والباطن على الإطلاق، وما في غيره تعالى من هذه الصفات فهي إضافية نسبية.

وليست أوّليته تعالى ولا آخريته ولا ظهوره ولا بطونه زمانية ولا مكانية بمعنى مظروفيته لهما وإلا لم يتقدّمهما ولا تنزه عنهما سبحانه، بل هو محيط بالأشياء على أيّ نحو فرضت وكيفما تصوّرت. فبان ممّا تقدّم أنّ هذه الأسماء الأربعة الأوّل والآخر والظاهر والباطن من فروع اسمه المحيط وهو فرع إطلاق القدرة، فقدرته محيطة بكلّ شيء».[1]

وحاصل هذا الوجه أنّ المراد بالأسماء الأربعة أنّه تعالى قادر على كلّ شيء، والتعبير عن ذلك بالأوّل، من جهة أنّ كلّ شيء فرض أوّلاً فالله تعالى محيط عليه قبله إحاطة قدرة، فهو الأوّل دونه، والتعبير عنه بالآخر من جهة أنّ كلّ شيء فرض آخراً غيره تعالى فهو محيط عليه بعده إحاطة قدرة، فهو الآخر دونه.

ومعنى ذلك أنّه يمكن أن يفرض غيره تعالى أزلياً أو أبدياً، وذلك لا يمنع من كونه تحت سلطانه وقدرته تعالى، فلو فرض العالم أزلياً وقديماً ـ كما يعتقده بعض الفلاسفة ـ أو قلنا بأنّ هناك شيء أزلي غيره تعالى فهو مخلوق له وهو قادر على إفنائه، وهذا معنى إحاطته به قبله، فيكون تعالى هو الأوّل فحسب وإن كان ذلك الشيء أزلياً، وليس معنى عبارة العلامة رحمه الله التسليم بأزلية شيء غيره تعالى،

---

١. الميزان في تفسير القرآن ١٩: ١٤٥.

بل المعنى أنّ فرض الأزلية للشيء لا ينافي كونه مخلوقاً له تعالى وتحت سلطته وقدرته.

وكذلك يمكن أن يفرض غيره تعالى أبدياً وذلك لا يمنع من قدرته تعالى على إفنائه، فالله تعالى هو الآخر؛ لأنّه المحيط على ذلك الأبدي بعده. وبناءاً على هذا التفسير فلا مانع من كون الإنسان في الآخرة أبدياً، ولكنّ الآخر هو الله تعالى؛ لأنّه قادر على إفنائه.

ويلاحظ على ما ذكره‌ رحمه الله أوّلاً أنّه مخالف لما ذكرناه وما لم نذكره من الروايات التي يستفاد منها أنّ المراد بالأوّلية الأزلية، وأنّه ليس قبله ولا معه شيء، وأنّه لا قبل له تعالى، ومخالف لظاهر الآية المباركة أيضاً، فإنّ حمل الأوّلية على إحاطة القدرة تأويل بعيد، وظاهرها الأزلية الذاتية كما مرّ، وهو أيضاً تأويل ولكنّه ممّا لا بدّ منه؛ إذ حمل الأوصاف المشتركة عليه تعالى لا يمكن بدون تأويل، ولكن ما في الروايات تأويل مناسب للمعنى المتعارف بالنسبة لغيره تعالى.

وثانياً أنّ فرض أزلية شيء غيره تعالى فرض باطل في نفسه، وإذا فرض شيء أزلياً فلا يمكن فرض كونه مخلوقاً، كما ورد في الحديث المنقول عن الإمام الرضا عليه السلام.[1] نعم يمكن فرضه منتسباً إلى العلّة غير المريدة وهو ليس خلقاً.

وأمّا تفسير الآخر بما ذكره‌ رحمه الله فيرد فيه ما ذكرناه من مخالفة الظاهر والروايات، فإنّ ظاهر التعبير هو كونه آخراً بمعنى أنّه تعالى ليس له نهاية، وقد مرّ في كلام أمير المؤمنين عليه السلام: **«والآخر الذي ليس له بَعد فيكون شيء بعده»**.[2]

---

١. الكافي ١: ١٢٠، الحديث ٢؛ التوحيد (الصدوق): ١٨٦؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٤٥.

٢. نهج البلاغه (صبحي الصالح): ١٢٤، الخطبة ٩١ (خطبة الأشباح).

الرابع: يمكن أن يقال على ضوء ما قاله العلامة﴿ إنّ المراد بالآخر الأبدي الذي أبديته بالذات وهو الله تعالى؛ لأنّه يستحيل عليه العدم، وأمّا غيره لو فرض كونه أبدياً فإنّما يبقى بإرادته تعالى، ولا يستحيل عليه العدم بذاته فيرتفع الإشكال.

وورد تفسير الأوّل والآخر بوجوه أُخرى كثيرة في عبارات المفسّرين لا دليل على شيء منها.

**﴿وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾** في تفسير الظاهر وجهان مرويان:

الأوّل ما عن أمير المؤمنين﴿ في «نهج البلاغة»: «**وَالظَّاهِرِ فَلا شَيْءَ فَوْقَهُ وَالْبَاطِنِ فَلَا شَيْءَ دُونَهُ**»،[1] وعليه فالظهور بمعنى العلوّ، ومنه قوله تعالى: **﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾**[2] والمراد به السلطة المطلقة على كلّ شيء. وفي خطبة أُخرى مروية في «الكافي» و«توحيد الصدوق» عنه﴿ «**الظاهر على كلّ شيء بالقهر له**».[3]

وظاهر الآية الكريمة هنا أيضاً هو الحصر، وأنّه لا ظاهر غيره، وبناءاً على هذا التفسير فالوجه واضح؛ إذ السلطة المطلقة والعلوّ بالذات ليس لأحد غيره تعالى.

الثاني ما عن أمير المؤمنين﴿ أيضاً في «الكافي»: «**الذي بطن من خفيات الأمور وظهر في العقول بما يرى في خلقه من علامات التدبير**»،[4] فمعنى الظاهر بناءاً على هذا هو

---

١. نهج البلاغة (صبحي الصالح)، ١٧٠، الخطبة ٩٥.

٢. الكهف (١٨): ٩٧.

٣. الكافي ١: ١٤٢، الحديث ٧، باب جوامع التوحيد؛ التوحيد (الصدوق): ٣٣.

٤. الكافي ١: ١٤١، الحديث ٧، باب جوامع التوحيد؛ التوحيد (الصدوق): ٣١.

ما يتبادر إلى الذهن من ظهور آيات قدرته وحكمته بحيث لا ينكره، إلا مكابر أو متّبع لهواه.

وقد ورد المعنيان معاً في رواية مرسلة رواها في «الكافي» عن الإمام الرضا عليه السلام: «**وأمّا الظاهر فليس من أجل أنّه علا الأشياء بركوب فوقها وقعود عليها وتسنّم لذراها، ولكن ذلك لقهره ولغلبته الأشياء وقدرته عليها، كقول الرجل: ظهرت على أعدائي وأظهرني الله على خصمي، يخبر عن الفلج**[1] **والغلبة، فهكذا ظهور الله على الأشياء. ووجه آخر أنّه الظاهر لمن أراده ولا يخفى عليه شيء وأنّه مدبّر لكلّ ما برأ، فأيّ ظاهر أظهر وأوضح من الله تبارك وتعالى، لأنّك لا تعدم صنعته حيثما توجهت وفيك من آثاره ما يغنيك، والظاهر منّا البارز بنفسه والمعلوم بحدّه، فقد جمعنا الاسم ولم يجمعنا المعنى**».[2]

وبناءاً على هذا التفسير فكون الظهور منحصراً فيه تعالى يمكن أن يكون مبنياً على نحو من الادّعاء من جهة أنّ غيره تعالى وإن كان ظاهراً إلا أنّ ثبوت كلّ شيء حيث كان به تعالى وظهوره فرع ثبوته، فظهور كلّ شيء مستند إلى إرادته تعالى، والظهور بالذات أيضاً منحصر فيه.

وحديث الإمام الرضا عليه السلام يفيد وجهاً آخر في الحصر، وهو أنّ ظهور غيره تعالى يختلف عن ظهوره، فظهور كلّ شيء ببروزه بذاته ومعلوميته بحدوده وأبعاده، والله تعالى ليس محدوداً ولا جسماً، فتكون له أبعاد إلا أنّه تعالى يظهر ويبرز في كلّ شيء ببديع صنعه وتدبيره وحكمته، قال تعالى: ﴿**قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾[3] ولذلك قال عليه السلام: «**فقد جمعنا الاسم ولم يجمعنا المعنى**»،

---

١. الفلج ـ بضم الفاء وسكون اللام ـ الفوز والظفر.

٢. الكافي ١: ١٢٢، الحديث ٢؛ التوحيد (الصدوق): ١٨٩.

٣. إبراهيم (١٤): ١٠.

أي أنّ معنى الظاهر فيه تعالى يختلف عنه في غيره.

وقد مرّت عبارة العلامة الطباطبائي في تفسير الأسماء الأربعة وأنّها فرع اسمه «المحيط» بمعنى إحاطة القدرة وهو يعود بنحو إلى المعنى الأوّل ممّا ذكرناه إلا أنّ تقييده بإحاطة القدرة من فوق لتبرير التعبير عنه بالظهور لا وجه له بعد ما تبيّن أنّ الظهور بنفسه بمعنى السلطة والعلوّ.

وأمّا الباطن فقد ورد في العبارة السابقة المروية في «نهج البلاغة»: «**والباطن فلا شيء دونه**» والمراد به القرب، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾[1] وقال: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ**﴾[2] وقال: ﴿**عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**﴾،[3] وعليه فالمراد بالباطن إحاطته تعالى بخفايا الأُمور بحيث لا يختلف لديه الظاهر والباطن، فكلّ الكون بكلّ زواياه وخباياه حاضر لديه.

وعن الإمام الرضا في الحديث السابق: «**وأمّا الباطن فليس على معنى الاستبطان للأشياء بأن يغور فيها، ولكنّ ذلك منه على استبطانه للأشياء علماً وحفظاً وتدبيراً كقول القائل: أبطنته يعنى خبرته وعلمت مكتوم سرّه، والباطن منّا الغائب في الشيء المستتر، وقد جمعنا الاسم واختلف المعنى**» والمعنى واضح.

وفي موضع آخر من «نهج البلاغة» قال: «**الحمد لله الذي بطن خفيات الأُمور**

---

١. ق (٥٠): ١٦.

٢. الأنفال (٨): ٢٤.

٣. سبأ (٣٤): ٣.

**ودلّت عليه أعلام الظهور»**[1] وظاهر هذه الجملة هو نفس المعنى السابق، أي أنّه تعالى علم بواطن الأُمور الخفية.

ولكن في الخطبة التي نقلناها من «الكافي» و«التوحيد»: «**الذي بطن من خفيات الأُمور وظهر في العقول بما يرى في خلقه من علامات التدبير**»،[2] واحتمل فيه نفس المعنى السابق، ومعنى آخر وهو أنّه تعالى أخفى من خفيات الأُمور، فإنّ الأُمور الخفية التي لا تدرك بالحواس يمكن الإحاطة عليها بالعقول. والذات الإلهية لا تمكن الإحاطة بها وإدراكها لأحد. وورد في دعاء في «مصباح المتهجد»: «**بطنت في خفيات الأُمور وظهرت في العقول بما نرى من خلقك من علامات التدبير**»[3] ولعلّه أيضاً يحتمل المعنيين.

والحاصل أنّ للباطن أيضاً معنيين؛ أحدهما إحاطته تعالى ببواطن الأُمور وخفياتها، والآخر أنّ الإحاطة بحقيقته تعالى غير ممكن لأحد. وقد مرّت عبارة «الميزان» وتفسيره للباطن بالإحاطة من وراء أيّ شيء فرض كونه باطناً، فالله تعالى هو الباطن لا ذلك الشيء؛ لأنّه محيط عليه من ورائه إحاطة قدرة.

﴿**وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾. عليم صفة مشبهة تدلّ على ثبوت الصفة ودوامها. وهذه الجملة تناسب التعقيب لوصف الباطن على ما مرّ من أنّ المراد إحاطته تعالى بكلّ شيء وبكلّ ذرّة في السماوات والأرض، وكونه تعالى أقرب إلى كلّ شيء من نفسه.

---

١. نهج البلاغة (صبحي الصالح): ٨٧، الخطبة ٤٩.
٢. الكافي ١: ١٤١، الحديث ٧؛ التوحيد (الصدوق): ٣١.
٣. مصباح المتهجد ١: ٣٣.

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا
يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا
كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ
ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾

﴿هُوَ الَّذي خَلَقَ السَّمَواتِ وَالأرْضَ في سِتَّةِ أَيّامٍ﴾. يمكن أن يكون المراد بالسماوات والأرض الكون بكامله، إمّا من جهة أنّه كناية عن هذا المعنى ومصحّح الكناية أنّ الإنسان إذا نظر إلى ما حوله لا يجد إلا السماء فوقه والأرض تحته، وإمّا من جهة أنّ المراد بالسماوات العوالم العلوية والتي هي خارجة عن نطاق الطبيعة باعتبار أنّ السماء جهة العلو، والمراد بالأرض عالم الطبيعة الذي يشمل كلّ الكواكب والأنجم، فعالم الطبيعة أرض بالنسبة لماوراءها. ويمكن أن يكون المراد بالسماوات والأرض ما نراه من الأجرام وما بينهما من الروابط، فيكون موضوع الكلام هنا عالم الطبيعة فقط.

والإنسان يتوق إلى معرفة بدء الكون، ولكنّه أمر مستعص عليه وكلّ ما يقال عنه إمّا خرافات وأساطير، وإمّا فرضيات يذكرها علماء الطبيعة ولا تدعمها شواهد قطعية. والقرآن لا يبيّن ذلك بوضوح؛ إذ ليس الهدف من هذا الكتاب بيان الحقائق الكونية، بل التنبيه على ما يوجب الإيمان بالله تعالى منها. والذي ورد في هذا الباب هو أنّ الله تعالى بدأ الخلق في ستّة أيّام. ولكن ما هو المراد بالأيّام الستة؟

هناك عقيدة خرافية منشؤها التوراة الحالية، وهي أنّ الله تعالى بدأ الخلق في

يوم الأحد وانتهى منه يوم الجمعة، ففرغ يوم السبت ومن هنا جعل اليهود يوم السبت عطلتهم، كأنّهم افترضوا أنّ هذا يوم استراح فيه الله سبحانه وتعالى عمّا يقولون علواً كبيراً.

وبطلان هذه العقيدة واضح لا يحتاج إلى تقدّم في العلم، حيث إنّ تكوّن الليل والنهار وتحديد اليوم ثمّ تحديد الأسبوع وتسمية أيّامه كلّها أُمور حدثت بعد تكوّن الكون وحركة الكواكب ودوران الأرض حول نفسها، ولا يمكن أن يكون هناك سبت وأحد قبل بدء الخليقة. مع أنّ تحديد الأيّام في سبعة أمر اعتباري لا يتبع أمراً كونياً واقعياً، وبالإمكان أن نعتبرها ثمانية أوخمسة مثلاً.

والظاهر أنّ المراد بالأيّام الستّة ستّة مراحل من تكوّن الخليقة وتطوّرها ولا يعلم أحد غير الله تعالى بحقيقتها.

واليوم يطلق على كلّ مجموعة من الزمان لها طابع خاصّ، كما يطلق يوم القيامة على عالم عظيم لا يعلم حدوده إلا الله عزّ وجلّ. ولذلك أُطلق اليوم على يوم خلق الكون مع أنّه حسب هذه الآيات ليس يوماً واحداً، قال تعالى: ﴿**إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ**﴾.[1] ومن هذا الباب أيضاً قوله تعالى: ﴿**وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ**﴾.[2]

وهنا يبدو سؤالان:

**الأوّل:** أنّ الله تعالى قادر على أن يخلق الكون في مرحلة واحدة، فلماذا خلقه في ستّة مراحل؟ والثاني أنّه ما فائدة التنبيه المتكرّر في القرآن على هذا الأمر

---

١. التوبة (٩): ٣٦.

٢. إبراهيم (١٤): ٥.

المبهم الذي لا يصل إلى حقيقته البشر حيث لا يعلم معنى اليوم أو المرحلة؟

أمّا بالنسبة للسؤال الأوّل، فيمكن أن: يقال إنّه تعالى أراد بحكمته أن يجري الأُمور بأسبابها وأن يحكم في الكون النظام الذي وضعه حتّى في جزئيات الأُمور، ولذلك نجد أنّه تعالى إذا أراد أن ينصر دينه يقيّض له رجالاً ينصرونه مع أنّه قادر على نصرته بدونهم، وإذا أراد إنجاء نوح عليه السلام ومن معه مثلاً وإهلاك الكافرين بغرقهم أمره أن يصنع الفلك وهو قادر على إنجائه بدونه، وهكذا في سائر الموارد: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾.[١]

وبوجه آخر الأمر التكويني الصادر من الله تعالى ليس له تدرّج ولا يتوقّف على زمان، بل ليس هناك أمر لفظي، وإنّما يريد الله شيئاً، فيكون إلا أنّ تكوّن هذا الشيء في عالم الطبيعة لا يكون إلا بالتدرّج قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[٢] ولكن عيسى عليه السلام لم يتكوّن فجأة بل بالتدرّج بل هذا الأمر سار في كلّ شيء، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.[٣] فكلّ ما نراه وما لا نراه في الكون يوجد فجأة بلحاظ الأمر الإلهي، ويوجد بالتدريج بلحاظ الطبيعة.

وبذلك يتبيّن الجواب عن السؤال الثاني أيضاً وهو أنّه تعالى أراد أن يبيّن لنا هذه الحقيقة السارية في كلّ ما يصدر منه، فبإرادته تتحقّق الأشياء من دون تدرّج ولا تأخير، ولكن بروز الشيء على أرض الواقع يتوقّف على

---

١. الأحزاب (٣٣): ٦٢.

٢. آل عمران (٣): ٥٩.

٣. يس (٣٦): ٨٢.

المرور بمراحل تقتضيها طبيعته.

﴿ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ﴾ قيل: إنّ «ثمّ» هنا للترتيب في الكلام لا للتراخي الزماني، فإنّ استيلاءه تعالى على الملك ليس أمراً حادثاً، فيكون متأخّراً عن خلق السماوات والأرض. ولكن يلاحظ على ذلك تكرار هذا التعبير في عدّة موارد: في سورة الأعراف: ٥٤، وسورة يونس: ٣، وسورة الرعد: ٢، وسورة الفرقان: ٥٩، وسورة السجدة: ٤، وهذا هو المورد السادس، فالظاهر أنّ هناك عناية وتأكيداً على التراخي، ولا يبعد كون ذلك بلحاظ الترتّب الخارجي بمعنى أنّه تعالى خلق الكون، ثمّ استولى على الملك؛ إذ لا معنى للملك قبل ذلك إلا بمعنى القدرة على الإيجاد. والغرض هنا بيان التدبير في الكون وهو أمر حادث باعتبار حدوث متعلّقه.

ولذلك عقّبه في سورة يونس بقوله: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ بدون واو العطف ممّا يعني تفسير استوائه تعالى على العرش بالتدبير، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأمر مَا مِنْ شَفِيعٍ إلا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾[1] وكذا في سورة السجدة مع فصل قليل، قال تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّموَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ الأمر مِنَ السَّمَاءِ إِلى الأَرْضِ﴾.[2]

وأمّا العرش فالبسطاء من الناس يتصوّرون أنّه عرش عظيم يملأ السماوات والأرض والله تعالى جالس عليه وهو واضح الفساد. وربما يظهر ذلك من عبارات

١. يونس (١٠): ٣.
٢. السجدة (٣٢): ٤ ـ ٥.

بعض المدّعين لاتباع السلف، وهناك من يقول ممّن يدّعي العلم: لا نعلم ما هو العرش؟ فهو في قرارة نفسه يحتمل أن يكون الأمر كما يتصوّره العامّة من الناس ولكنّه يخجل من التصريح به.

والظاهر أنّ العرش تعبير عن السلطة والحاكمية المطلقة على كلّ أجزاء الكون، وهو تعبير متعارف، يقال: فلان قد زال عرشه، أي ملكه مع أنّه ربما لا يكون له عرش بمعنى السرير الخاصّ بالملوك. وهذا التعبير لدفع توهّم أنّ الله تعالى خلق السماوات والأرض، ولكنّ السلطة والربوبية لغيره كالأرواح التي تمثّلها الأصنام، كما ادعاه الوثنيون ومثله توهّم أنّ الكون يحكمه النظام والقانون فحسب، لا تدبير العزيز الحكيم، أو توهّم أنّ الإنسان حرّ طليق يفعل ما يشاء في إطار القانون الكوني.

هذا وللعلامة الطباطبائي ﵀ كلام مفصّل وعميق حول حقيقة العرش والكرسي وتفسير الأحاديث الواردة بهذا الشأن في تفسير سورة الأعراف: ٥٤ فليراجع.[١]

وأمّا الإستواء فقد قال المفسّرون: إنّه بمعنى الاستيلاء والاستعلاء. ولكن ربما يستبعد هنا أيضاً تكرّر هذا التعبير في القرآن مع عدم ورود الاستيلاء في شيء من الموارد، فلو كان بمعناه لم يكن وجه لهذا التكرار. ولا يبعد أن يكون الوجه فيه أنّ الاستواء يشتمل على معنى زائد على نفس الاستيلاء وهو استواء نسبة الأشياء إليه تعالى، فيكون المعنى استولى على العرش باستواء، والغرض منه التنبيه على أنّ سلطته وحاكميته لا تختلف باختلاف الأشياء، فليس شيء أقرب إليه من شيء ولا يختلف لديه السماء والأرض، ولا الصغير والكبير، ولا العلل

---

١. راجع: الميزان في تفسير القرآن ٨: ١٥٣ ـ ١٥٧.

والمعاليل، وليس شيء أهون عليه من شيء.

﴿يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها﴾. الولوج دخول شيء في شيء، والمراد أنّ كثيراً من الأجسام الموجودة على ظاهر الأرض تتحوّل تدريجاً وتتغيّر إلى أن يتمّ امتصاص الأرض لها، فتدخل في مسارب الأرض وتتحلّل في باطنها وتخرج منها بصورة جسم آخر، فهذه عملية مستمرّة لتجديد الحياة على هذا الكوكب، وتدخل فيها أيضاً المعادن لتحتفظ بخصائصها طيلة القرون، ويدخل فيها الماء ويخرج مصفّى وغير ذلك من أنحاء الدخول في الأرض ثمّ الخروج منها. والغرض التنبيه على عموم علمه تعالى للأشياء جليلها وحقيرها. وهو في نفس الوقت تنبيه على إمكان البعث وردّ لتوهّم منكريه استبعاداً لإحياء الموتى المبعثرة أجسامهم.

وعنوان ﴿مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ﴾ شامل لجميع الأجسام الموجودة على كوكب الأرض مع ملاحظة التغيّر والتحوّل الطارئ عليها بتشتّت الأجزاء وامتصاص الأرض لها، ثمّ تحوّلها في باطنها إلى مواد أُخرى أو تغيّر حالتها وخروجها منها، فهو يعلم بها حين الولوج وحين الخروج وقد تغيّرت ماهيتها وتبدّلت صورتها، وهكذا تستمرّ عملية إحياء الموتى بمعنى عامّ.

﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فيهَا﴾. يمكن أن يراد بالسماء ما يعمّ السماء بالمعنى المادي، أي جهة العلو الحسي، والسماء بمعنى جهة العلو المعنوي أي عالم الملائكة وما وراء الطبيعة. وهذا التعبير أيضاً يشمل مجموعة من حقائق الكون ممّا ينزل من جهة العلو، سواء كان علواً مادياً كالمطر والأشعة أو معنوياً كالملائكة والكتب والأحكام والوحي، وما يصعد إلى العلو ويعرج في السماء

وهو أيضاً علو مادي كالأبخرة والأدخنة الصاعدة، ومعنوي كالملائكة أيضاً والأعمال والدعاء ونحو ذلك، فيكون أيضاً إشارة إلى عموم علمه تعالى لحقائق الكون وخصوصاً ما يتوقّف عليه إنشاء المحكمة الكبرى يوم القيامة من الأحكام الشرعية النازلة وأعمال الإنسان الصاعدة.

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ﴾. المعية هنا كناية عن الإحاطة العلمية والوجودية بجميع الأشياء ومنها الإنسان. ويتناسب التعبير مع عموم علمه تعالى بما ينزل من السماء من الشرائع وما يصعد إليها من الأعمال، حيث إنّ هذا التعبير يؤكّد الرقابة العامّة الإلهية على جميع البشر في جميع الحالات والأمكنة والأزمنه وإن كان الوارد في العبارة حيثية المكان؛ لأنّ «أين» سؤال عنه إلا أنّ إطلاق المعية في كلّ مكان يشمل كلّ الحالات وكلّ الأزمنة، فالرقابة عامة مشدّدة.

﴿وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصيرٌ﴾. يقال عادة في مثل هذه الموارد: إنّ المراد بصفة البصير والسميع فيه تعالى هو العلم لا المعنى المتعارف. ولكنّ الصحيح أنّ المعنى يختلف، فالسمع غير العلم بالمسموعات، والإبصار غير العلم بالمبصرات إلا أنّه تعالى كما في الحديث: «سميع بغير جارحة وبصير بغير آلة»،[1] ومعنى ذلك أنّ المسموعات والمبصرات حاضرة لديه كسائر الأشياء وهو محيط بها.

والغرض من التأكيد على كونه تعالى معنا أينما كنّا وفي أيّ حالة وفي أيّ زمان، وأنّه بصير بكلّ أعمالنا هو الحثّ على التقوى والخشية من الله تعالى في السرّ والعلن، والتخوّف من عذابه ومحاسبته يوم القيامة. مضافاً إلى أنّ معيته تعالى للإنسان المؤمن يطيب خاطره ويريح نفسه من القلق والاضطراب لما ينزل

---

١. الكافي ١: ٨٣، الحديث ۶، باب إطلاق القول بأنّه شيء.

عليه من البلاء وما تعرضه من مصائب الدنيا، فهو لا يشعر بالوحدة والانفراد، بل يعتمد على ربّه الذي هو معه أينما كان.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾. مرّ الكلام في هذه الجملة ولعلّها أُعيدت هنا مقدمة لبيان رجوع الأُمور كلّها إلى الله، كما أنّها ذكرت هناك للتنبيه على أنّ الإحياء والإماتة بيده تعالى.

﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾. قيل: إنّ المراد بالأمور أعمال العباد أو العباد بأنفسهم، فهم الذين يرجعون إلى الله تعالى يوم القيامة. ولكنّ الظاهر ـ كما ذكره العلامة الطباطبائي ـ أنّ المراد بهذه الجملة التي تكرّرت في الكتاب العزيز هو ما مرّ ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْـمُنْتَهَى﴾[1] من أنّ المراد انتهاء كلّ الأُمور في كينونتها وبقائها وتدبير أُمورها إليه تعالى، فهو الموجد لكلّ شيء والمبقي له ومدبّر جميع أُموره، فإليه ينتهي كلّ شيء، ويشمل هذا المعنى مصير العباد وأعمالهم إليه تعالى يوم القيامة.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾[2]، وقوله تعالى ﴿أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمور﴾،[3] كما أنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[4] تطبيق لهذه الآية بجزءيها على الإنسان، فقوله: ﴿إِنَّا للهِ﴾ تطبيق لقوله هنا: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّموات وَالأَرْضِ﴾ وهذا يشمل الإنسان وقوله: ﴿إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ تطبيق لقوله هنا: ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾، فكلّ الأُمور ترجع إليه في كلّ النشآت، ومنها الإنسان وشؤونه في الدنيا والآخرة.

---

١. النجم (٥٣): ٤٢.

٢. هود (١١): ١٢٣.

٣. الشورى (٤٢): ٥٣.

٤. البقرة (٢): ١٥٦.

ولعلّ التعبير بـ «الأمور» بدلاً من «الأشياء» ليشمل الشؤون والأعمال وغيرها. وتقديم الجارّ والمجرور يفيد الحصر، أي أنّ الأمور لا ترجع إلا إليه تعالى، كما حصر ملك السماوات والأرض فيه تعالى في الجملة الأولى. والإتيان بالاسم الظاهر: ﴿إِلَى اللهِ﴾ للتأكيد على الاختصاص وللإشارة إلى السبب، فالأمور ترجع إلى من منه ابتدأ الوجود، وليقرع التعبير وذكر الاسم الجليل مسامع التالين والسامعين ويرجف قلوبهم لتعود بعد ذلك مطمئنّة إلى ذكره تعالى، وفي ذلك غرض آخر وهو إرسال هذه الجملة كالمثل السائر. ولعلّ الإتيان بالفعل مبنياً للمجهول. ﴿تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ كما هو الحال في سائر موارد هذه الجملة للإشارة إلى أنّ رجوع الأمور إليه تعالى إنّما هو بالقهر والغلبة.

ومن هنا يتبيّن أنّ الجملة الأولى كالدليل للجملة الثانية، فحيث إنّ الملك له تعالى وحده، فالأمور لا ترجع إلا إليه؛ لأنّ الملك هنا هو الملكية الحقيقية التي تعني تقوم الأمور كلّها بإرادته، تعالى فلا كيان ولا قوام لها إلا بها وهو الأساس في كونه تعالى منتهى كلّ شيء.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ﴾. تكرّرت هذه الجملة في أربع مواضع من القرآن الكريم وهذا آخرها، وقد مرّ الكلام حولها في تفسير سورتي لقمان وفاطر، ومجمل القول أنّ فيها احتمالين:

**الأوّل:** أنّ المراد النقص من كلّ منهما والزيادة في الآخر بالتدريج وببطء ووفق نظام دقيق لا يتغيّر طيلة القرون، فعبّر عن ذلك بالإيلاج كأنّ كلاً منهما يدخل شيئاً فشيئاً في الآخر.

**والاحتمال الثاني:** أنّ المراد الحالة المتوسّطة بين النهار والليل في طرفيهما،

حيث يدخل نور الشمس تدريجاً في طرف الصباح من خلال الغلاف الجوي فيختلط بظلام الليل، وكذلك في جانب الغروب لئلا يباغت الإنسان وسائر الأحياء ضوء شديد وحرارة عالية صباحاً، ولا ظلام دامس وبرد قارس ليلاً. وهذا المعنى أنسب بالتعبير بالإيلاج.

وقلنا في تفسير سورة لقمان: إنّ هناك احتمالاً آخر أيضاً في بعض موارد هذه الجملة وهو الإشارة إلى تداخل الحقّ والباطل في كثير من الأُمور بحيث لا يتميّز النور عن الظلام، فيقع الإنسان في الباطل من حيث لا يشعر، كما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: «**فَلَوْ أَنَّ الْبَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزَاجِ الْحَقِّ لَمْ يَخْفَ عَلَى الْمُرْتَادِينَ، وَلَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ الْبَاطِلِ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمُعَانِدِينَ، وَلَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا ضِغْثٌ وَمِنْ هَذَا ضِغْثٌ فَيُمْزَجَانِ فَهُنَالِكَ يَسْتَوْلِي الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ وَيَنْجُو الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللهِ الْحُسْنَى**».[1]

﴿**وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾. المراد بـ«الصدور» النفوس فأُطلق الصدر وأُريد به القلب وهو كناية عن النفس الإنسانية. و«ذات» مؤنث ذو، أي الصاحب، ولا يأتي إلا مضافاً، فذات الصدور، أي المصاحبة للنفس التي لا تتركها. والمراد الأسرار التي يحاول الإنسان إخفاءها عن كلّ أحد، والله تعالى عليم بها.

و«العليم» صيغة المبالغة؛ لأنّه تعالى يعلم السرّ وأخفى، أي ما لا يدركه الإنسان نفسه من خبايا ذاته ودواعيه التي لا يشعر بها.

وقال بعض المفسّرين: إنّ مناسبة هذه الجملة لما قبلها أنّ الله تعالى يدخل الليل في النهار برفق ولطف بحيث لا يشعر به الإنسان، وكذلك علمه بأسرار

---

١. نهج البلاغة (صبحي الصالح): ٨٨، الخطبة ٥٠.

النفس وخباياها. وبناءاً على الاحتمال الأخير الذي ذكرناه في تداخل الليل والنهار يمكن أن يقال في وجه المناسبة: إنّ تداخل الحقّ والباطل ربما يكون عذراً لبعض من ترك الحقّ واتّبع الباطل إلا أنّ ذلك يتبع عدم تمامية الحجّة على الإنسان بحيث تسكن إليها النفس، وهذا أمر لا يعلمه أحد إلا الله تعالى، وربما يخفى حتّى على الإنسان نفسه.

ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ
وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ
بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ
بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا
تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ
مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا
وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٠﴾

﴿آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾. اعتبر بعضهم[1] هذه الآية وتاليتها مكّيتين باعتبار أنّه أمر بالإيمان بالله ورسوله، بل عاتب المخاطبين بعدم إيمانهم بالله، فلا بدّ من كون الخطاب موجّهاً إلى المشركين في مكّة، ولا يمكن أن يؤمر المؤمنون في المدينة بذلك.

والجواب عنه أوّلاً: أنّ الخطاب يمكن أن يكون موجّهاً إلى المنافقين والذين في قلوبهم مرض والمستسلمين للإسلام من دون اعتقاد قلبي، كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَـمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾،[2] فإنّ هؤلاء كلّهم كانوا من المجتمع الإسلامي، بل يعتبرون من الذين آمنوا، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[3] فإنّ قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ﴾ يدلّ

١. راجع: التحرير والتنوير ٢٧: ٣٢٠.
٢. الحجرات (٤٩): ١٤.
٣. النساء (٤): ٥١.

على أنّ الذي يتولّى اليهود والنصارى من المخاطبين بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

وثانياً أنّ الإيمان له مراتب مختلفة جدّاً، فهناك من يؤمن بالله تعالى ورسوله ما درّت معايشه، فإذا ابتلي في الدين نكص على عقبيه، وهناك من يؤمن ويصلّي ويصوم ولا ينفق في سبيل الله تعالى لما رسخ فيه من شحّ النفس، وهناك من ينفق أيضاً ولكنّه لا يبذل نفسه في سبيل الله تعالى، بل ربما لا يتحمّل قليلاً من الشدائد، وهناك من يزداد نوراً وإيماناً كلّ ما زيد في بلائه. وعليه فلا مانع من أن يخاطب المؤمنون عامّة بلزوم بذل الجهد لتحصيل أعلى مراتب الإيمان.

ثمّ إنّ الآية تدلّ على عدم كفاية الإيمان بالله تعالى، كما ربّما يتوهّمه كثير من المدّعين للإيمان، بل لا بدّ من الإيمان بالرسول، وقد تكرّر الأمر في الكتاب العزيز بالإيمان بالرسول، بل صرّح بأنّه لا يعتبر الإنسان مؤمناً حتّى يسلّم أمره إلى الرسول ﷺ ولا يشعر بحرج في نفسه، قال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾.[1]

وممّا يلاحظ في هذا الباب أنّ الله تعالى قرن اسم رسوله الكريم ﷺ باسمه المتعالي جلّ شأنه في موارد كثيرة جدّاً، بل اعتبر في بعضها ما يخصّ الرسول ﷺ من الأمور مرتبطاً به، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ﴾،[2] فإنّ المهاجرة واقعاً كانت إلى الرسول ﷺ ولكنّ الله تعالى اعتبرها مهاجرة إليه أيضاً. وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾[3] ونحو ذلك، والله

---

١. النساء (٤): ٦٥.
٢. النساء (٤): ١٠٠.
٣. الأحزاب (٣٣): ٥٧.

تعالى لا يتأذّى من شيء ولا يؤثّر فيه شيء. ومن لطيف هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا إلا أنْ أغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾،[١] فالإغناء من الله تعالى ولذلك أتى بضمير المفرد في قوله: ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ إلا أنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حيث كان الواسطة أسند الإغناء إليه أيضاً. ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إلى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾[٢] فأتى بضمير المفرد في قوله: ﴿لِيَحْكُمَ﴾؛ لأنّ المباشر للحكم هو الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ولكنّهم مدعوّون إلى الله ورسوله، وغير ذلك من الموارد.

ويلاحظ أيضاً اهتمام القرآن بتكريم سائر الأنبياء عليهم السلام والتنويه على عظمة مقامهم وقربهم لدى الله تعالى، فوصف إبراهيم عليه السلام بأنّ الله اتخذه خليلاً وموسى عليه السلام بأنّ الله تعالى كلّمه تكليماً وعيسى عليه السلام بأنّه كلمته وروح منه وهكذا. ومع ذلك فإنّا نجد بعض من يدّعي الإسلام والتشدّد فيه يقلّل من شأن الأنبياء عامّة بدعوى أنّهم بشر لا يختلفون عن سائر الناس، ويعبّرون عنهم عليهم السلام بتعابير نابية لا يناسب مقامهم الرفيع، ويعتقدون أنّ ذلك من شدّة الإيمان بالله وتوحيده. وهذا هو نتيجة التأثّر بالفكر الوهابي الذي يفتخر بعض معتنقيه أنّه دخل مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عشرين سنة ولم يسلّم عليه مرّة واحدة. وإن كان هؤلاء الأتباع لا يقرّون بتبعيتهم لذلك التطرف.

ويلاحظ أنّه كان هناك من المؤمنين بالمعنى العامّ في عهد الرسالة من كان لا يؤمن بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم أو لم يكن إيمانه بالدرجة المطلوبة، فكان هناك من يعترض على توزيعه للصدقات، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا

---

١. التوبة (٩): ٧٤.

٢. النور (٢٤): ٤٨.

**مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾**[١] وكان فيهم من يعرّض بتكذيبه إذا نزلت آية تخصّصه بميزة، كما حكي عن إحدى النساء أنّها قالت لهﷺ: «**أرى ربّك يسارع في هواك**» حينما نزل قوله تعالى: **﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾**.[٢]

وكان هناك أيضاً من يعتبر نفسه أعلم من النبيﷺ وأورع وأقرب إلى الله تعالى منه، فكان بعضهم يعترض عليه في موارد كثيرة، ومنهم من لم يقبل منه التمتّع في الحجّ وأصرّ على ردّ كلامه حتّى قال له الرسولﷺ: «**أمّا إنّك لن تؤمن بهذا أبداً**»،[٣] ووقف بعضهم في وجه الرسولﷺ في مواقف شتّى حتّى في آخر أيام حياته الشريفة حيث منعوه من كتابة ما أراده من الوصية التي لا تضلّ الأُمّة بعده أبداً، واتّهمه بعضهم بالهجر والهذيان ورفعوا شعار الاكتفاء بكتاب الله تعالى.

وكم من مواقف في التاريخ إلى زماننا هذا تمسّك فيها المضلّون بكتاب الله تعالى، بل رفعوا المصاحف على الرماح لصدّ الحقّ وللتمويه على عامّة الناس؟! وسرى هذا المنع من التمسّك بحديثهﷺ حتّى منعوا من تدوين الحديث بحجّة أنّه يخاف أن يكتفى به عن كتاب الله تعالى واستمرّ المنع مائة عام تقريباً ممّا تسبب في حرمان الأُمّة من تسجيل السنّة المطهّرة، وبالنتيجة حرمانهم من أوسع المصدرين للتشريع، فإنّ المصدر الأهمّ وهو الكتاب العزيز ليس واسعاً بحيث يشمل كلّ موارد الحاجة إلى التشريع، ومن هنا نشأ هذا الخلاف العظيم بين

---

١. التوبة (٩): ٥٨.

٢. الأحزاب (٣٣): ٥٠.

٣. ورد ذلك في صحيحة معاوية بن عمّار، راجع: الكافي ٤: ٢٤٦، الحديث ٤، باب حجّ النبيﷺ.

المسلمين حتّى في أوضح الشعائر والأعمال التي كانت تتكرّر في المجتمع الإسلامي يومياً عدّة مرّات كالأذان والوضوء.

ثمّ إنّ مصنع الأحاديث سارع في وضع ما يدلّ على أنّ الوحي كان ينزل بموافقة رأي بعض الناس ومخالفة الرسول ﷺ ممّا يؤيّد النزعة النفسية لهؤلاء من كونهم أعلم وأورع وأقرب إلى الله تعالى منه ﷺ. ولذلك نجد بعض المسلمين يهتمّون ببعض هذه البدع أكثر ممّا سنّه الرسول ﷺ. ومن الغريب سراية هذه النفسية في بعض أتباع هؤلاء حيث نجد في عهدنا هذا أو من قارب عهدنا من يعتقد وينشر أنّ دور النبي ﷺ هو دور المبلّغ للقرآن فقط، فإذا ورد عنه ﷺ تفسير للكتاب يخالف ما وصلنا إليه أخذنا بما نراه!

﴿**وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ**﴾. «من» في قوله: ﴿**مِمَّا**﴾ للتبعيض، أي أنفقوا بعض ما جعلكم مستخلفين فيه. ومن هنا يبدأ بالحثّ على الإنفاق في سبيل الله تعالى، والظاهر أنّ الاهتمام الأوّل في الآيات بالإنفاق من أجل الجهاد والقتال بقرينة ما سيأتي من الفرق بين الإنفاق قبل الفتح وبعده وبقرينة قوله: ﴿**فِي سَبِيلِ اللهِ**﴾. ومن هنا يتبيّن بوضوح أنّ الآيات مدنية وأنّ الخطاب للمؤمنين؛ إذ لم يرد أمر بالجهاد في مكّة ولم يمكن ذلك.

وقد مرّ احتمال أن يكون الغرض الأساس من هذه السورة الحثّ على الإنفاق، وأنّ تقديم آيات التمجيد والثناء على الله تعالى وذكر صفاته الجلالية والجمالية ربما يكون كالمقدّمة لهذا الترغيب وقصد به التأكيد على غناه تعالى عن إنفاق الناس، وإنّما أراد حثّهم على ما يوجب استحقاقهم للأجر والثواب، واتصافهم بما يوجب الفلاح والسعادة، كما قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ**

**﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾**،[١] ولتكميل نفوسهم بتنزّههم عن البخل والشّحّ، فإنّه من أقبح الصفات النفسية.

والاستخلاف المذكور في الآية بأحد معنيين:

**الأوّل:** استخلاف الإنسان في الأرض حيث إنّ الله تعالى جعله خليفته فيها، كما قال تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾**[٢] ولعلّ المراد أنّه جعله مختاراً يفعل ما يشاء في إطار القانون الكوني، وليس كسائر أنواع الحيوان حيث إنّها مسيرة طبقاً للغرائز المودعة فيها. وعليه فالمراد أنّ هذه الأموال وإن حصلتم عليها بتعبكم ودهائكم فإنّها ممّا جعلها الله تعالى لكم واستخلفكم فيها، فإذا أمركم الله تعالى بالإنفاق منها فإنّما هو من قبيل أمر صاحب المال الوكيل المستأمن بإنفاق ماله، فلا معنى لإمساكه.

**الثاني:** استخلافهم بعد الأجيال السابقة التي كانت تتحكّم في هذه الثروات الطبيعية، كما قال تعالى في حكاية قول هود عليه السلام لقومه: **﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾**[٣] وقال أيضاً: **﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾**[٤] وعليه فالمراد حثّهم على الإنفاق؛ لأنّ هذه الأموال لا تبقى لكم كما لم تبق لمن كان قبلكم، فانتفعوا بها لحياتكم الأبدية قبل أن تنتقل إلى من بعدكم.

والإنفاق من النفق ـ بفتحتين ـ أي نفاد الزاد أو النفوق وهو التلف، يقال:

---

١. الحشر (٥٩): ٩.
٢. البقرة (٢): ٣٠.
٣. الأعراف (٧): ٦٩.
٤. يونس (١٠): ١٤.

نفقت الدابّة إذا هلكت، فالمراد بالإنفاق مطلق الصرف، فإنّه إتلاف له وإن كان يحصل غالباً على بدل له، سواء كان مالاً أو تمتّعاً أو حاجة. والمراد به هنا ـ كما يتبيّن ممّا بعده ـ الإنفاق في سبيل الله تعالى.

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾. تكرار الموضوع والتأكيد مرّة أُخرى على الإيمان، مع أنّه يخاطب المؤمنين، بل التصريح بكونه منهم لعلّه من أجل التنبيه على أنّ الإنفاق بذاته لا يستتبع الأجر الكبير وإن كان المنفق مؤمناً، بل لا بدّ من كون الإنفاق مترتّباً على الإيمان بمعنى أن يكون الداعي للإنفاق التقرّب إلى الله تعالى، فكثيراً ما ينفق الإنسان المؤمن في بناء المساجد والمدارس ولكنّه يقصد بذلك منافع مادية ويشترط على من بيده الأمر أن يكتب اسمه على البناء، فهذا الحكم الجزائي لا يشمله. والأجر الكبير تعبير رفيع من الله العلي الكبير، والتنكير يدلّ على أنّ عظمة هذا الأجر بحيث لا يعلمها إلا الله تعالى.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، أي ماذا حدث لكم حيث لا تؤمنون بالله والحال أنّ الرسول يدعوكم. والاستفهام للاستنكار أو ما يدعى بالإنكار التوبيخي، ومعنى ذلك أنّه تعالى لم يكتف بالأمر بالإيمان والحثّ عليه كما في الآية السابقة، بل وبّخهم لعدم إيمانهم ممّا يدلّ بوضوح على أنّ القوم كان فيهم من لا يؤمن بالله تعالى أيضاً، وهذا هو ما صرّح به في سورة الحجرات، كما مرّ في تفسير الآية السابقة. ويمكن أن يكون التوبيخ باعتبار عدم إيمانهم ذلك الإيمان المستتبع للإنفاق في سبيل الله، وذلك لأنّ عدم الإنفاق كثيراً مّا يستند إلى ضعف الإيمان.

وقوله: ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ جملة حالية تكمل وجه الاستنكار، فموضوع

الاستنكار عدم الإيمان بالله تعالى إيماناً واقعياً بعيداً عن النفاق أو إيماناً قوياً يستتبع الإنفاق في سبيل الله، مع أنّ الرسول ﷺ يدعوكم إلى الإيمان بالله، ومع أنّه أخذ منكم الميثاق باعتباركم مؤمنين حسب الظاهر، فكلّ من يظهر الإيمان بالله يعاهد الرسول ﷺ على الالتزام بكلّ ما يستتبعه الإيمان ومنه الإنفاق في سبيل الله وفي سبيل إعلاء كلمة الدين.

وهنا يحدث تساؤل في النفس وهو أنّ الاستنكار حسب ظاهر الآية يبتني على أنّ عدم الإيمان غير متوقّع منهم بلحاظ أنّ الرسول ﷺ يدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى، وهذا لا يستوجب استنكاراً، بل هو أمر طبيعي فكلّ واحد من الرسل يدعو إلى ذلك والناس قد يستجيبون، وقد لا يستجيبون ودعوة الرسول بذاتها لا تستلزم الإيمان بالله تعالى، فما هو الموجب للاستنكار وما هو المستغرب هنا؟!

الجواب عن ذلك بوجهين:

**الوجه الأوّل:** ما يظهر من التفاسير من أنّ سبب الاستغراب هو وجود الرسول ﷺ بين أظهرهم يسمعون كلامه وبراهينه ويرون معاجزه وآياته، فعدم الإيمان في مثل تلك الظروف وهم يلمسون وجود الرسول ﷺ بينهم ويشعرون نزول الوحي في كلّ صغيرة وكبيرة أمر يدعو إلى الاستنكار الشديد.

والمراد بالإيمان بناءاً على ذلك الإيمان الكامل الذي ينافي النفاق ومرض القلب. فتلك الحقبة من الزمان بالرغم من قداستها لحضور الرسول ﷺ ونزول الوحي، وبالرغم من كرامة تلك الجماعة وما ورد بشأنهم في الكتاب والسنّة من الإكرام والتقدير إلا أنّ مسؤوليتهم أيضاً كانت عظيمة وخطيرة وما

يتوقّع منهم أكثر ممّا يتوقّع من غيرهم. وهكذا الأمر في كلّ من يكون أقرب إلى الوحي والرسالة كأهل البيت وزوجات الرسول ﷺ والأقربين من قومه وأصحابه.

ومن هنا نزلت الآية الكريمة بشأن زوجاته ﷺ: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾[١] وورد في بعض أحاديثنا أنّ هذا الحكم يسري في قرابته ﷺ[٢]، فكلّ ذلك من جهة القرب من الرسول ومن جهة تمامية الحجّة عليهم، فكلّ ما كانت الحجّة أتمّ وأكمل كانت المسؤولية أعظم، كما أنّ النعمة كلّ ما كانت أتمّ وأكبر كان الشكر المطلوب عليها أهمّ وأعظم.

ومن هنا أيضاً ورد في عدّة من الروايات المروية في كتب العامّة أنّ الرسول ﷺ كان يتباهى بمن يأتون بعده ويؤمنون به وهم لم يروه ولم يسمعوا كلامه ولم يشاهدوا آياته ومعاجزه، وإنّما يؤمنون بحبر على ورق، وهذه الروايات بمضامين مختلفة جمعها السيوطي في «الدرّ المنثور»[٣] في تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾.[٤]

فمنها ما رواه عن أحمد والدارمي والباوردي وابن قانع معاً في معجم الصحابة، والبخاري في تاريخه، والطبراني والحاكم عن أبي جمعة الأنصاري قال: قلنا: يا رسول الله هل من قوم أعظم منّا أجراً آمنّا بك واتبعناك؟ قال: «**ما يمنعكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم يأتيكم الوحي من السماء، بل قوم يأتون من بعدي**

---

١. الأحزاب (٣٣): ٣٠.

٢. راجع: مجمع البيان في تفسير القرآن ٨ ـ ٧: ٥٥٦.

٣. راجع: الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور ١: ٢٦ ـ ٢٧.

٤. البقرة (٢): ٣.

**يأتيهم كتاب بين لوحين فيؤمنون به ويعملون بما فيه أُولئك أعظم منكم أجراً**.[١]

ومنها ما رواه عن أحمد وابن حبّان، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ أنّ رجلاً قال: يا رسول الله طوبى لمن رآك و آمن بك. قال: «**طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى ثمّ طوبى ثمّ طوبى لمن آمن بي ولم يرني**».[٢]

ومنها ما رواه عن ابن أبي شيبة في مسنده، عن عوف بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا ليتني قد لقيت إخواني**» قالوا: يا رسول الله ألسنا إخوانك وأصحابك؟ قال: «**بلى ولكنّ قوماً يجيئون من بعدكم يؤمنون بي إيمانكم ويصدقوني تصديقكم وينصروني نصركم، فيا ليتني قد لقيت إخواني**».[٣]

ومنها ما رواه عن ابن عباس ـ في حديث ـ قال: ... قالوا: فأصحابك يا رسول الله، فقال: «**وكيف لا يؤمن أصحابي وهم يرون ما يرون ولكن أعجب الناس إيماناً قوم يجيئون بعدي يؤمنون بي ولم يروني، ويصدقوني ولم يروني، أُولئك إخواني**»،[٤] وغير ذلك من الروايات.

وحكي عن سفيان بن عيينة أنه قال في تفسير هذه الأحاديث أنّها تنطق عن مضمون الآية الكريمة: ﴿**وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ**﴾.[٥]

وبناءاً على هذا الوجه من تفسير الآية وتأويلها يكون قوله تعالى: ﴿**وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ وجهاً آخر للاستغراب، ولذلك تردّدوا بين أن يكون

---

١. الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور ١: ٢٧.
٢. نفس المصدر.
٣. الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور ١: ٢٦.
٤. نفس المصدر.
٥. آل عمران (٣): ١٠١.

الضمير في ﴿أَخَذَ﴾ راجعاً إلى الله تعالى أو الرسولﷺ. ومن هنا أيضاً احتمل بعضهم أن يكون المراد بالميثاق ميثاق عالم الذرّ.

**الوجه الثاني:** أنّ الآية الكريمة جاءت لتستنكر عدم إنفاقهم في سبيل الله تعالى، وحيث إنّه ينشأ بالطبع من ضعف الإيمان بالله تعالى فالأمر المستنكر في الواقع هو عدم الإيمان بالله تعالى وبما وعد من الأجر على الإنفاق في سبيله بحيث يستتبع عدم الإنفاق ـ كما هو الغالب ـ في ترك الإنفاق، فإنّا نجد أنّ من البشر من لا يتّصف بالبخل، ولكنّه مع ذلك يتوقّف عن الإنفاق في سبيل الله تعالى حتّى بالنسبة للواجب منه، كالخمس والزكاة الواجبة. وليس ذلك إلا لضعف الاعتماد على ما ورد من الأمر به والحثّ عليه، وأنّ الله تعالى يضاعف أجره أضعافاً مضاعفة، فكأنّ هذا الإنسان يخشى أن يكون مخدوعاً في ماله.

ويبدو من الآية الكريمة أنّ ذلك كانت ظاهرة منتشرة في المجتمع آنذاك، وإلا لم يستوجب هذا الإنكار الشديد واتهامهم بعدم الإيمان بالله تعالى مع أنّهم مؤمنون به ظاهراً، ولكن إلى حدّ الصلاة والصيام ونحوهما فحسب، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَآتُوا الزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾.[1]

وهذا أمر طبيعي في البشر عموماً حتّى في تلك الجماعة الممتازة وذلك المجتمع المشرق بنور الإيمان والحافل بالآيات والمعجزات، فهناك من الناس من تجذبه الظواهر والشعارات ويؤمن بالله تعالى، ولكنّه ليس مطمئناً في قرارة

---

١. النساء (٤): ٧٧.

نفسه بدرجة عالية حتّى أنّ منهم من كان يتجسّس للمشركين ويخبرهم عن أسرار دار الإسلام العسكرية ولم يكن ذلك إلا تحسّباً ليوم ربما ينقلب فيه الأمر ويعود المشركون إلى زعامة المجتمع، فكان الرجل يخدمهم بذلك ليكون له يد عندهم.

ومن هذا القبيل ما يلاحظ من بعضهم أنّه لم يظهر منه أيّ تشدّد بالفعل في مقابلة المشركين ولم يرم أحداً منهم بحجر في كلّ غزوات الرسولﷺ بالرغم من الحضور في جميعها أو أكثرها، وكان في المقابل يتبجّح بضرب أعناق بعض الأُسارى حيث كان يعلم أنّ الرسولﷺ لا يأذن به. ولا غرابة في ذلك، فضعف الإيمان بين المؤمنين أمر شائع ونحن نجده في أوساطنا أيضاً بوضوح.

أليس كلّ معجزة وحديث شيّق عن القرآن والوحي والرسالة والإمامة يبعث فينا قوة للإيمان واطمئناناً أكثر؟! فلو كنّا قد بلغنا إلى مرحلة نؤمن بالله تعالى كما نصدّق الأُمور المحسوسة كالشمس في رائعة النهار لم نستزد إيماناً بهذه الأُمور، وليس منّا أحد لا يستزيد إيماناً بذلك، بل إنّنا نستزيد إيماناً بأقلّ شيء، كما لو صادف في الاستخارة بالقرآن الكريم أن خرجت لنا آية واضحة كأنّها نزلت في هذا الشأن فتجد قلوبنا تخشع لها وتطمئنّ بها أكثر ممّا تطمئنّ بمضمون الآيات والأدلة والبراهين العقلية والعلمية.

بل نجد أنّ بعض المؤمنين يتضعضع إيمانه ويتخلّله الشكّ والشبهة بأُمور تافهة وطائف ضعيف من الشيطان وينسى كلّ ما رآه من الآيات والمعجزات وكلّ ما تعلمه من الكتاب والحديث بمجرّد أن يسمع رجلاً ضعيفاً معقّداً ومقعداً لا يسمع

ولا ينطق، ولكنّه يدعى عالماً كبيراً في الفيزياء قد أنكر وجود الخالق لشبهة مضحكة وهي أنّه كان يتصوّر قبل هذا أنّ الكون خلق من أجل الإنسان وربط إيمانه بالله تعالى بهذا الأمر، ثمّ انكشف له أنّ هناك في الكون كواكب يحتمل أن يكون فيها موجودات كالبشر!

ومهما كان فانتشار ضعف الإيمان بين المؤمنين في حدّ ذاته أمر طبيعي لا ينبغي أن نستوحش منه. ولكنّ المراد به هنا إيجابه للتقاعس عن أداء الواجب تجاه الدين ونشره والدفاع عنه في مقابل أعدائه المتمكّنين مالاً وقوّة. فكان الواجب على النخبة المؤمنة التضحية بالمال في سبيل إعلاء كلمة الحقّ. وليس ذلك لحاجة، فالله تعالى غني عن عباده إلا أنّه لا يكمل الإنسان ولا يكمل المجتمع إذا لم يبادر إلى الإنفاق في سبيل العقيدة والدين.

ولو لم تتحقّق هذه الظروف أو كان الرسول ﷺ مستغنياً عن أموالهم بصورة طبيعية بحيث لم يكن يطالبهم بالإنفاق لبقوا على هذا المرض والضعف ولم تكمل نفوسهم، و كمال النفوس هو الهدف الأسمى من الدين وإرسال الرسل وإنزال الكتب. وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة وتحاول علاجه، ومنشأ الاستنكار ليس وجود الرسول ﷺ بين أظهرهم كما قيل في الوجه الأوّل، بل كونه قد أخذ ميثاقهم حينما أخذ منهم البيعة. ومن هنا فإنّ قوله تعالى: ﴿**وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ**﴾ مكمّل لما يستوجب الاستنكار وليس وجهاً آخر للاستغراب.

فالمعنى ـ والله العالم ـ ما لكم لا تؤمنون بالله وبما وعدكم من الجزاء يوم القيامة، فلا تنفقون في سبيله مع أنّ الرسول يدعوكم لتؤمنوا بربّكم وقد أخذ منكم الميثاق والعهد حين البيعة إن كنتم مؤمنين، أي كنتم مبايعين الرسول ﷺ

كما هو مقتضى الإيمان. فالمراد بدعوة الرسول ﷺ إلى الإيمان دعوته إلى هذه الدرجة منه التي تستتبع الإنفاق في سبيله بل التضحية. والمراد بأخذ الميثاق أنّ بيعتهم له ﷺ يستلزم تعهّدهم بهذا الإنفاق والتضحية.

وتبيّن بما ذكرناه أنّ التقييد بقوله: ﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ لإحراز موضوع المبايعة وهي الميثاق المشار إليه قبل ذلك، وأمّا إن أُريد به ميثاق عالم الذرّ ـ كما قيل ـ فإنّه لا يختصّ بالمؤمنين، بل هو مأخوذ من كلّ إنسان. وتبيّن أيضاً أنّ الضمير في ﴿أَخَذَ﴾ يعود إلى الرسول ﷺ كما هو ظاهر السياق أيضاً.

﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾. هذه الآية تحثّهم أيضاً على الإيمان بالله تعالى ذلك الإيمان الذي يستتبع الإنفاق في سبيله. وذلك بالتنبيه على أنّه تعالى هو الذي ينزّل هذه الآيات على الرسول ﷺ وأنّه ليس الغرض من ذلك إلا إخراج المؤمنين من ظلمات الجاهلية والكفر إلى نور الإيمان. فلماذا هذا التقاعس عن الإيمان به والإنفاق في سبيله وطلب مرضاته وجزائه؟

ومن اللطيف الذي لم أجد من تنبّه له التعبير عن الرسول ﷺ هنا بالعبد، والإعراض عن التعبير السابق الدالّ على أنّه رسوله تعالى فيهم. ويبدو لي أنّ السبب فيه هو التأكيد على ربط المخاطبين به تعالى مباشرة؛ لأنّه لا يريد في هذه الآية أن يؤكّد على دور الرسول، بل على قوّة ارتباطهم به تعالى ليحثّهم على الإيمان به والاطمئنان بمواعيده، فيعتبر الرسول هنا عبداً يرتبط بربّه ليبلّغ عنه إلى الناس ما يخرجهم من الظلمات إلى النور، ولا يذكر جهة الرسالة التي تستوجب ارتباطهم بالرسول كوليّ من قبله تعالى عليهم، فإنّ العبودية علاقة بين الإنسان

وربّه فحسب، وأمّا الرسالة فهي علاقة بينه وبين ربّه من جهة، وبينه وبين الناس من جهة أُخرى.

والظاهر أنّ المراد بالآيات القرآن الكريم لا المعجزات أو ما يشملها؛ لأنّها لا دخل لها في المقصود هنا، وهو إخراجهم من الظلمات إلى النور بحثّهم على الإنفاق، وإنّما المؤثّر في ذلك هو آيات الكتاب العزيز، وهي آيات بيّنات، أي واضحات وإن كانت كثيراً ما تحتاج إلى تفسير وتأويل لمعرفة دقائقها ولطائفها إلا أنّ دورها في الهداية وتبديد ظلمات الكفر والجاهلية لا يتوقّف على توضيح، فبإمكان أيّ فرد يتقن اللغة أن يستنير بالآيات الكريمة ويستعين بها في هذا السبيل.

ومن اللطيف أيضاً التعبير في هذه الآية وغيرها من آيات الكتاب العزيز بالظلمات جمعاً والنور مفرداً، فالظلمات كثيرة تشمل شحّ النفس وضعف الإيمان وكلّ ما يوجب البعد عن الله تعالى، وأمّا النور فهو واحد وهو الإيمان الكامل بالله تعالى والركون إليه والاطمئنان بمواعيده، فهذا هو الشيء الوحيد الذي يبدّد ظلمات الجهل والجاهلية. ويتبيّن بما مرّ أنّ ضمير الفاعل في: ﴿لِيُخْرِجَكُمْ﴾ يعود إلى الله لا إلى عبده.

﴿وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾. هذه الجملة تدلّ بوضوح على السبب في الاهتمام بما مرّ ذكره من الإنفاق في سبيل الله تعالى، وأنّ تركه ينشأ من ضعف الإيمان به. وهو أنّه تعالى رؤوف بعباده يريد لهم الخير والكمال، وإلا فلا حاجة له إلى عبادتهم ولا إلى إيمانهم، فكيف بالأموال التي أودعهم إيّاها.

والرأفة والرحمة أمر واحد على ما في كثير من كتب اللغة. وفي «تهذيب

اللغة» أنّ الرأفة أخصّ من الرحمة وأرقّ،[١] وفي «الصحاح» أنّها أشدّ الرحمة.[٢] وقيل: إنّ الرحمة تصدق فيما إذا أضرّ الراحم بالمرحوم لمصلحته، والرأفة لا تصدق في ذلك. وهذا صحيح حسب المتعارف من موارد الاستعمال، فيصحّ أن يقال: إنّ الطبيب قطع رجل المريض رحمة به لئلا ينتشر المرض، ولا يقال: رأفة به، بل بالعكس يصحّ أن يقال في ما إذا لم يقطع رجله مع الحاجة إلى قطعه أنّه إنّما ترك ذلك رأفة به وإن لم تكن لمصلحته، كما يلاحظ كثيراً في رأفة الأبوين. ولكنّ المراد بهما هنا أمر واحد. ثمّ إنّه تعالى رؤوف ورحيم بجميع الناس لا بالمؤمنين خاصّة وان كان الخطاب هنا لهم، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.[٣]

﴿وَما لَكُمْ أَلا تُنْفِقُوا في سَبيلِ اللهِ وَللهِ ميراثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ الخطاب للمؤمنين في المدينة وهذه الآيات مدنية قطعاً بمقتضى الجمل التالية حتّى عند من ظنّ أنّ بعض آيات السورة مكّيّة، وقد مرّ التنبيه على ذلك. والآية تحثّهم على الإنفاق في سبيل الله تعالى بعد حثّهم على الإيمان به وبرسوله ﷺ في الآيات السابقة، فالاستفهام للانكار التوبيخي، أي ماذا حدث لكم حيث لا تنفقون في سبيل الله تعالى مع أنّ ميراث السماوات والأرض له فقط وليس لغيره، كما يفهم من تقديم الجارّ والمجرور. وهذه الجملة حالية.

والمراد بسبيل الله تعالى كلّ مورد يوصل الإنسان إلى رضاه وثوابه تعالى. ولكنّ المراد به هنا خاصّة الإنفاق للجهاد في سبيله تعالى وفي سبيل إحياء الدين

---

١. تهذيب اللغة ١٥: ١٧٢.
٢. الصحاح ٤: ١٣٦٢.
٣. الحجّ (٢٢): ٦٥.

وإعلاء كلمة الحقّ ونصرة الرسول ﷺ. والدليل على ذلك الجملة التالية.

والميراث اسم لما يورث وليس مصدراً؛ لأنّه ليس من أبنية المصادر، كما قال ابن سيدة، فالمراد أنّ كلّ ما في السماوات والأرض ومنها أموالكم التي تبخلون بها لا تبقى لكم، بل يرثها الله تعالى؛ لأنّه يرث السماوات والأرض وما فيهما، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾،[١] فإضافة الميراث إضافة بيانية، كما قاله العلامة رحمه الله.[٢]

والإرث والورث في الأصل ـ على ما في «كتاب العين»: «الإبقاء للشيء»،[٣] ومنه ما ورد في الدعاء: «ومتّعني بسمعي وبصري واجعلهما الوارثين مني»؛[٤] أي أبقهما لي إلى الموت. ومنه أيضاً قولهم: أورثته الحمى ضعفاً، أي بقي فيه الضعف حتّى بعد زوال الحمى. وقيل: أصله تحصيل مال أو غيره بلا تعب أو بلا محاسبة. وفي «معجم مقاييس اللغة»[٥] هو أن يكون الشيء لقوم فيصير إلى قوم آخرين ومنه الإرث من الميّت».

ولعلّ هذا الأخير هو الأنسب بما يتحصّل من ملاحظة موارد استعمال اللفظ في الكتاب العزيز، كما يلاحظ ذلك في الآيات التالية: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾[٦] ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾[٧] ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا

---

١. مريم (١٩): ٤٠.
٢ راجع: الميزان في تفسير القرآن ١٩: ١٥٢.
٣. كتاب العين ٨: ٢٣٤.
٤. الكافي ٢: ص٥٧٨، الحديث ١.
٥. راجع: معجم مقاييس اللغة ٦: ١٠٥.
٦. الأعراف (٧): ١٦٩.
٧. مريم (١٩): ٤٠.

فَرْداً﴾[1] ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[2] ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾[3] وإن كان انطباق المعنى في بعض الموارد بنوع من التجوّز كوراثة أهل الجنّة لها.

ومهما كان فالمراد هنا التنبيه على أنّ الأموال التي بأيديكم لا تبقى لكم، وإنّما يرثها الله تعالى كما يرث الكون كلّه، فإذا كانت هذه الملكية موقتة وكلّ ذلك إلى الفناء، فلماذا لا تنفقون أموالكم في ما هو الأصلح لكم وأبقى أثراً، وهذا يخاطب به كلّ من له مال، سواء كان قليلاً أم كان كثيراً وهو يحبّ أن يستمتع بماله بأحسن وجه، فإنّ أحسن وجوه الاستمتاع هو صرفها فيما يبقى ويدوم، ولذلك نجد من أنفسنا الاهتمام بمستقبلنا في هذه الدنيا مع أنّه غير معلوم وقد لا نبقى إلى أمد بعيد ومع ذلك فإنّا نتعب أنفسنا لضمان مستقبلنا ومستقبل أولادنا، فإن كان هذا أمراً منطقياً فالأولى بنا أن نهتمّ بالمستقبل الدائم والحياة الخالدة حتّى لو لم نؤمن بها إيماناً قاطعاً ولم نتيقّنها، فإنّ الأمر المهمّ يكفي في تنجزّه الاحتمال الضعيف وكلّما زادت أهمية الأمر قلّ ما يعتبر في تنجّزه من قوّة الاحتمال.

ولعلّ تكرار اسم الجلالة للتأكيد على انحصار الملكية الواقعية والبقاء والوراثة فيه تعالى وأضاف السماوات إلى الأرض مع أنّ ملكيتها ليست محطّ النظر هنا للإشارة إلى السرّ في الأمر وهو أنّ الوجود كلّه لله تعالى وكلّه إلى الفناء

---

١. مريم (١٩): ٨٠.
٢. الأنبياء (٢١): ١٠٥.
٣. المؤمنون (٢٣): ١٠ ـ ١١.

ولا يبقى إلا وجهه الكريم.

﴿لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقاتَلَ﴾، أي لا يستوي هو ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل، كما ورد ذكره في الجملة التالية، فاكتفي بها عن ذكر العديل هنا. والظاهر أنّ المراد بـ«الفتح» فتح مكّة وهذا يدلّ على تاريخ نزول الآيات تقريباً وأنّه كان بعد الفتح، وقيل: المراد به صلح الحديبية كما عبّر عنه بالفتح في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾[1] ولكنّ الأوّل أقرب، وذلك لأنّ فتح مكّة هو الحدث الفاصل الذي تسبب في استقرار أمر الدين ودخول الناس فيه أفواجاً وخضوع العرب وجبابرتهم للرسول ﷺ.

ومن هنا يبدو أنّ الفرق بين الإنفاق والقتال قبل الفتح وبعده في خلوص النية لله تعالى، فإنّ من كان ينفق قبل الفتح ويقاتل لا يأمل من ذلك التوصّل إلى أهداف دنيوية حيث لم يكن الأُفق واضحاً أمام الدين الجديد وأتباعه، وأمّا بعد الفتح فاستقرّ الأمر وانجلت الآفاق وقويت شوكة الدين وعزيمة المسلمين.

﴿أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقاتَلُوا﴾. الدرجة: المرتبة والمنزلة. والمعنى أنّ منزلة قربهم لدى الله أعظم من الذين أنفقوا بعد الفتح أو قاتلوا بعده. والسبب واضح كما مرّ وخصوصاً بالنسبة للجهاد والمقاتلة في سبيل الله تعالى، فإنّه تضحية للنفس لا يقدم عليها إلا ذوو الإيمان القوي والعزيمة الراسخة، خصوصاً في ذلك العهد الذي كان الإسلام فيه ضعيفاً ولم يكن للمسلمين عتاد كامل ولا عدد كافٍ من المقاتلين. ومن الواضح أنّ الآية عامة لكلّ من أنفق وقاتل في سبيل الله قبل الفتح ولا يختص بأحد ولو كانت خاصّة بأحد لاختصّ

---

١. الفتح (٤٨): ١.

بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الذي قام الإسلام بسيفه ومجاهدته لا يدانيه في ذلك أحد. ومن الغريب أنّ بعضهم ادّعى أنّ الآية نزلت في شأن من لم يقاتل ولم يقتل أحداً من المشركين ولم يرم حجراً إليهم!

﴿وَكُلاً وَعَدَ اللهُ الْحُسْنى﴾، أي المثوبة الحسنى أو الدرجة الحسنى يوم القيامة، أي وعد الله الحسنى كلّ واحد من السابقين على الفتح في جهادهم وإنفاقهم والمتأخّرين. والله تعالى لا يبخس أحداً عمله مهما كان صغيراً أو كبيراً، ولا شكّ في أنّ الإنفاق في سبيله تعالى وبالأحرى القتال والتضحية في سبيله لا يمكن أن يسقط من أعمال الإنسان، بل لا يسقط منها أقلّ عمل عمله المؤمن حتّى لو كان مجرّد الرغبة والشوق إلى كسب رضا الله تعالى وإلى الإنفاق والجهاد في سبيله، فكيف به إذا برز ذلك في عمله وإن لم يكن بمثابة عمل السابقين.

﴿وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبيرٌ﴾ أي خبير بحقيقة ما تعملون، فإنّ حقائق الأعمال تختلف بالنيات والله يعلم ما تخفي الصدور من النوايا، وهذا هو الذي يقصم الظهر، فلربما يكون المقاتل مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ولا يحصل على شيء من الثواب لعدم الإخلاص في عمله، بل ربما يقصد الوصول إلى أهداف مادية، فقد كان هناك في صفوف المؤمنين منافقون أيضاً، وربما يكون الإنسان متأخّراً في الجهاد والإنفاق ولكنّه متقدّم على غيره في الإخلاص لله تعالى، وربما يكون عبد صالح في غير عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ينفق ويقاتل وله ثواب من قاتل مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، بل ربما يكون أعظم.

مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى
ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ
ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟
وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن
قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ
وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ
لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ
ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

﴿مَنْ ذَا الَّذي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَريمٌ﴾، «من» للاستفهام و «ذا» للإشارة، أي من هذا الذي يقرض الله، وإنّما يطلق هذا التعبير في مثل هذا المقام مع أنّه لا يوجد من يشار إليه للمزيد من الحثّ والتحضيض، فكأنّه يفرض أنّ هناك من استجاب لدعوته قبل هذا الإعلان وأنّ المقرض موجود بالفعل، فهو يشير إليه ليبشّره بالجزاء.

والقرض: القطع. ويقال لمن دفع جزءاً من ماله لأحد ليتقاضاه منه بعد ذلك أنّه أقرضه من ماله، كأنّه قطع له منه قطعة. ومن الواضح أنّ مورد الآية الكريمة الإنفاق في سبيل الله، إمّا من باب الصدقة أو للإنفاق في الجهاد ونحوه. ومن الخطأ المشهور الاستشهاد بهذه الآية للحثّ على إقراض الناس.

وقد تكرّر في الكتاب العزيز التعبير عن الصدقة بإقراض الله تعالى، كأنّه

تعالى يقترض من المؤمنين بعض مالهم للفقراء ليردّه عليهم أضعافاً مضاعفة يوم القيامة. وهذا غاية اللطف والإحسان، فالمال مال الله تعالى والعبد عبده وكلّ شيء له، وإنّما يريد أن يبتلي الناس ليرى من يحاول أن يبلغ رضاه، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**وَاسْتَقْرَضَكُمْ وَلَهُ خَزَائِنُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**».[1]

والحاصل أنّه تعالى لجوده وكرمه ولطفه بعباده اعتبر المال مالاً لعبده، مع أنّ كلّ شيء منه، ومع أنّ العبد لا يعمل عملاً إلا بإذنه وبتوفيقه، ولكنّه تعالى لم يلاحظ هذا الأمر، بل اعتبر العمل عملاً له بالاستقلال ووعده أحسن الجزاء وهو مع غاية الجود والكرم يستحيل عليه أن لا يفي بوعده، فليستبشر المقرض له تعالى إذا خلصت نيته فإنّه سيستفيد من ذلك يوم القيامة مهما كان عمله.

والمشهور بينهم أنّ التوصيف بالحسن للتأكيد على أنّ الحكم لا يشمل ما إذا كان الإنفاق للرياء والسمعة وطلب الجاه، أو مع المنّة والتحقير للمستحقّ، أو مع إيذاء السائل، كما يلاحظ في كثير من الموارد. ولكنّ هذا صفة الإنفاق الحسن لا القرض الحسن، ولعلّ المراد من هذا الوصف أنّه قرض مضمون، بل مضمون أنّه يعاد إليكم أضعافاً مضاعفة؛ لأنّ المقترض هو الله الغني الحميد.

وأمّا مضاعفة الجزاء فإن كان بملاحظة ما تبرّع به وأنفق في سبيل الله تعالى فهو واضح، فإنّ ما يدفعه الإنسان في هذه الدنيا من مال وينفقه في سبيله تعالى لا يحسب شيئاً إذا قيس بأدنى جزاء يوم القيامة، لأنّ ما يثيبه الله تعالى يوم القيامة من الجزاء دائم لا يخاف زواله ولا يشوبه أدنى مرارة وشقاء وتعب، ولا يعرض

---

١. نهج البلاغة (صبحي الصالح): ٢٦٨، الخطبة ١٨٣.

على المستمتع به أدنى تخوّف من سقم أو علّة، فلا يقاس بما هنا من النعم التي لا تجد شيئاً منها يخلو من ذلك.

ولكن لا يبعد أن يكون المراد بالأضعاف أضعاف ما يتصوّر له من الجزاء المناسب له، وليس معناه أنّه يثيبه ضعف ما دفع، ولعلّ هذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾، أي أنّ هذه الجملة تحدّد كيفية الجزاء وأنّه ليس من سنخ ما تصدّق به، بل هو كريم بمعنى كونه قيّماً لا يمكن للإنسان تحديد قيمته بما يعرفه من المقاييس، وهذا ما يفهم من تنكير الأجر وتوصيفه بأنّه كريم.

وقد تكرّر في الكتاب العزيز كون جزاء الصدقة أضعافاً، قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾[1] وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ﴾،[2] فيكون الجزاء على هذا سبعمائة ضعفاً. والغرض ليس هو التحديد بالعدد، فالجزاء هناك لا يقاس بهذه المقاييس المادية؛ لا من حيث الزمان، فإنّه أبدي مع أنّ ما أنفق في سبيل الله أمر زائل، ولا من حيث الكيفية، فإنّ ما يثاب به هناك ليس من سنخ ما أنفق ولا علاقة له به أصلاً.

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ ظرف لما ذكر في الآية السابقة من مضاعفة الجزاء، وكونه أجراً كريماً. وتوصيف الظرف وهو اليوم بما ذكر ليتناسب مع المظروف. وقوله: ﴿تَرَى﴾، إمّا خطاب للرسول ﷺ أو خطاب لكلّ من يسمع أو يتلو الآية.

---

١. البقرة (٢): ٢٤٥.

٢. البقرة (٢): ٢٦١.

وفي الآية أيضاً بيان لنوع من الأجر الكريم الذي يؤتاه المؤمنون والمؤمنات في ذلك اليوم، فحيث يكون الناس كلّهم في ظلام دامس تجد المؤمنين يسبقهم ويصاحبهم نور واضح يسعى، أي يتحرّك بسرعة.

وقيل: إنّ الظرف متعلّق بمقدّر، أي اذكر يوم...، وذلك لأنّ كون الجزاء يوم القيامة أمر واضح. وهذا غير صحيح، بل ربما يتوهّم حتّى الآن كثير من الناس أنّ الإنفاق في سبيل الله يزيد في أموالهم وسعادتهم في الدنيا أو هكذا يتوقّعون، وكثيراً ما نجد بعض الناس تركوا الإنفاق بعد أن خسروا أموالهم، مع أنّهم أدّوا الحقوق الشرعية المتعلّقة بها. ونسمع أيضاً كثيراً منهم يتصوّر أنّ الزيادة في ماله إنّما نشأ من أداء تلك الحقوق. والآية الكريمة تردّ على كلّ هذه الأوهام وتعلن للمؤمنين أنّ الجزاء المتوقّع إنّما هو يوم القيامة، وهذا لا ينافي كون الإنفاق مؤثّراً في الحياة الدنيا أيضاً إلا أنّ ما وعده الله تعالى ليس ذلك.

وليس المراد بـ«النور» نور محسوس من قبيل ما نجده في الدنيا كما قاله بعضهم، بل هو أمر آخر ناشئ من العمل الصالح والتقوى يعبّر عنه بالنور. وهذا لا ينافي كونه واضحاً مرئياً للجميع أو كالمرئي، بل أوضح منه، فإنّ الحقائق المعنوية تشاهد يوم القيامة أوضح ممّا تشاهد المحسوسات في هذه النشأة، فالبصر هناك ليس كما هنا، قال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.[١] والأُمور أيضاً ليست كما هنا.

ويدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعى

---

١. ق (٥٠): ٢٢.

**بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا وَاغْفِرْ لَنا﴾**،[١] فإنّ دعاءهم يدلّ على أنّ هناك نقصاً في نورهم، فيطلبون من الله تعالى أن يتمّه بغفران الذنوب ليستحقّوا الجنّة أو يتمّ أعمالهم الناقصة ويغفر الذنوب التي تستوجب الظلمات. كما أنّ ذلك مقتضى إضافة النور إليهم في الآيتين، وحتّى في تعبيرهم في الدعاء، فإنّ معنى ذلك أنّ هذا النور شيء أحدثوه بعملهم أو هو نفس العمل يتمثّل في تلك النشأة بصورة نور، كما أنّ الاعمال السيّئة تتمثّل بما يناسبها.

والمعروف بين المفسّرين أنّ المراد بالسعي سعيه بسعيهم، فالمؤمنون هم الذين يسعون ابتداءاً والنور يتبعهم في السعي، قال بعضهم: ولولا ذلك لبقوا بلا نور. ولكنّ الذي يبدو بملاحظة كون النور هو العمل الصالح والتقوى أنّ الأمر بالعكس والنور هو الذي يسعى بهم إلى الجنّة. وهو المناسب أيضاً لكون النور بين أيديهم، أي أمامهم، فكأنّه يقودهم إلى الجنّة والتعبير عن حالته بالسعي وهو التحرّك السريع لأنّهم يمرّون على الصراط كالبرق الخاطف، كما في الروايات، وأمّا كونه بأيمانهم فلعلّه كناية عن كونه منشأ سعادتهم؛ لأنّ العرب تعبر عن السعادة باليمن ولذلك كانت تتفأّل بما يمرّ عن الأيمان. والتعبير بالمؤمنين يشمل المؤمنات من باب التغليب كما في سائر الموارد، ولكنّه أكّد بذكرهنّ مستقلاً للتأكيد على عدم الفرق في نتيجة الأعمال والتقوى بين الرجال والنساء.

**﴿بُشْراكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ خالِدِينَ فيها﴾**. البشرى: الخبر السارّ، وعليه ففي الجملة تقدير أو تجوّز في الإسناد، فإنّ الجنّات مورد للبشرى وليست هي نفس الخبر السارّ. والمذكور في التفاسير أنّ هذه الجملة يخاطبون بها ذلك

---

١. التحريم (٦٦): ٨.

اليوم من قبل الملائكة بأمر من الله تعالى، وعليه فيقع السؤال عن وجه تقييد البشرى بذلك اليوم، مع سبق التبشير بالجنّة في الحياة الدنيا. ويمكن أن يقال: إنّه من جهة تبيّن استحقاقهم للجنّة؛ إذ لا يتبيّن ذلك إلا يوم القيامة، فمادام الإنسان في هذه الحياة يمكن أن يعرض عليه ما يمنع الاستحقاق. نعوذ بالله من سوء العاقبة.

ولكن لا يبعد أن تكون الجملة إنشاءاً لخطاب دنيوي، والمراد باليوم، أي ذلك اليوم لا يوم الخطاب، والمعنى أنّ الجنّات هي مورد استبشاركم ذلك اليوم، والبشرى بناءاً على ذلك ليس هو الخبر السارّ، بل نفس ما يوجب السرور. فالمعنى أنّ ما يوجب استبشاركم وابتهاجكم في ذلك اليوم جنّات... .

﴿ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظيمُ﴾. اسم الإشارة يشار به إلى دخولهم الجنّات وخلودهم فيها، أو كلّ ما يتلقّونه في ذلك الموقف، ومنه النور الذي يسعى بين أيديهم. والإتيان بضمير الفصل للتأكيد والحصر.

و«الفوز» هو الظفر بما يبتغيه الإنسان ولا شكّ أنّ أعظم الظفر وأعلى الأماني هو نيل الجنّة ولكنّ الإنسان لا يشعر بهذه الحقيقة إلا ذلك اليوم.

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْـمُنافِقُونَ وَالْـمُنافِقاتُ لِلَّذينَ آمَنُوا انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ ظرف آخر لما ذكر في الآية السابقة يذكر فيه نعمة أُخرى للمؤمنين وهي تحقير أعدائهم المنافقين وإذلالهم، والظرف هنا بدل عن الظرف السابق.

والآية تصوّر مشهداً عجيباً من مشاهد يوم القيامة، فإنّ المنافقين كانوا يجاورون المؤمنين في مدنهم ويستفيدون من كلّ ما يستفيد منه المؤمنون، وربما كانوا يشاركونهم أيضاً في الظاهر في الدفاع عن البلد، كما كانوا يحضرون

مجامعهم كصلاة الجماعة وغيرها، ومع ذلك فكانوا يعيشون في معزل عن عقائدهم وعن دوافعهم ونيّاتهم، فكانوا في الظاهر من المجتمع الإسلامي وفي الباطن يوادّون المشركين وأعداء الدين. وهذا الاختلاف بين الظاهر والباطن يظهر بوضوح في لقائهم مع المؤمنين يوم القيامة. وحيث يرى المنافقون نور المؤمنين يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ويجدون أنفسهم في ظلمة حالكة لا يهتدون طريقاً يتشبّثون بهم، كما كانوا يفعلون في الدنيا.

والقرآن ينقل لنا مواقف في الآخرة يبدو فيها بعض الناس يتعاملون مع الوضع السائد هناك، كما كانوا يتعاملون في الدنيا، ولا يعلمون أنّ ما يحكم هناك من القوانين والنظم ليس كما كان في الدنيا، فتجد بعضهم يكذّبون وينكرون أنّهم كانوا مشركين، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إلا أنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[1] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ألَا إنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.[2]

ومن ذلك أيضاً أنّ بعضهم يطلبون من خزنة النار أن يشفعوا لهم عند الله تعالى ليخفّف عنهم العذاب أو أن يقضي عليهم فيموتوا. ومنه أيضاً محاجّة المستكبرين والمستضعفين في مواطن عديدة حيث يطلبون من كبرائهم أن يتحمّلوا شيئاً من العذاب عنهم؛ لأنّهم كانوا لهم تبعاً، ونحو ذلك ممّا يدلّ على أنّهم يتعاملون في تلك الحياة بمثل ما كانوا يتعاملون في الدنيا. فما تحكيه هذه

---

١. الأنعام (٦): ٢٣ ـ ٢٤.

٢. المجادلة (٥٨): ١٨.

الآية من كلام المنافقين وطلبهم النور من المؤمنين من هذا القبيل أيضاً، كما سيأتي في الآية التالية.

وهنا أيضاً أضاف المنافقات إلى المنافقين مع أنّ التعبير بالمذكّر يشملهنّ من باب التغليب لكي يؤكّد على عدم الفرق بين الرجال والنساء في النفاق أيضاً. ومن المعلوم أنّ المنافقات لعبوا دوراً هامّاً في تضليل الناس.

ثمّ إنّ المراد بالمنافقين هنا ليس ـ كما يتوهّم ـ الجماعة الخاصّة التي عرفت بالنفاق، فإنّ خطرهم كان أقلّ بكثير من خطر المنافقين الذين أخفوا أمرهم ولم يعرفهم أحد، وهذا واضح في كلّ مجتمع. وقد أُشير إلى ذلك في الكتاب العزيز أيضاً، قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[1] وقال أيضاً: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾.[2] وفي حديث مشهور أنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أخبر أباحذيفة بأسماء المنافقين أو بعضهم،[3] وأنّ بعض الصحابة كانوا يسألونه هل اسمهم مذكور في القائمة أم لا ممّا يدلّ على أنّ بعضهم كان شاكّاً في إيمانه.

والحاصل أنّ النفاق لا يختصّ بمجموعة خاصّة، كما لا يختصّ بمن كانوا يعيشون في ذلك العهد، فكلّ من يرفض بعض أحكام الدين ويقبل بعضها منافق؛ لأنّه لا يؤمن واقعاً، وإنّما يظهر الإيمان لمصلحة، وربما يظهره لأنّه تربّى في بيئة مسلمة. والإعلان بترك دين الأسلاف ممّا يعاب عليه. وأمّا المؤمن الحقيقي فلا يمكن أن يقبل حكماً ويرفض آخر، ونحن نجد في من حولنا من

---

١. محمّد (٤٧): ٣٠.

٢. التوبة (٩): ١٠١.

٣. أُسد الغابة: ج ١، ص ٤٦٨.

يستنكر بعض أحكام الله تعالى حتّى لو صرّح بها الكتاب العزيز، لأنّها لا تعجبه أو لا تناسب وضعه الخاصّ أو يعتبرها ظلماً لطبقة من الناس وغير ذلك، وهذه صفة المنافق.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ * وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1]

ومن أنحاء النفاق بل من أوضحه إنكار الولاية التي نزلت بها الآيات وصرّح بها الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم ولكنها لم تعجب كبراء القوم فأنكروها ورفضوا أن يعيّن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم عليهم ولياً من بعده، أو رفضوا أن تكون النبوّة والإمامة في بيت واحد؛ كأنّهم هم الذين يحدّدون الحكمة في ما يشرّعه الله تعالى، كما رفض المشركون أن تكون النبوّة لسيّد الرسل صلّى الله عليه وآله وسلّم لأنّه لا يملك مالاً وأولاداً.

وقوله: ﴿انْظُرُونَا﴾ الظاهر أنّه بمعنى الانتظار، كقوله تعالى: ﴿إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾[2]، فالمراد أنّهم يطلبون منهم التريث لكي يستضيئوا بنورهم. وقيل إنّه بمعنى النظر بالعين وأنّ الموجب لذلك الاقتباس من نورهم بلحاظ أنّ نظرهم يستلزم التوجه إليهم فيقابلونهم بوجوههم بما لها من نور فيستضيئون بنورهم لا محالة. ولكنّه بعيد، بل غير صحيح؛ إذ يتوقّف على كون النور محسوساً مع كون

---

١. النور (٢٤): ٤٧ ـ ٥١.
٢. الأحزاب (٣٣): ٥٣

منبعه وجوههم.

والاقتباس أخذ القبس وهو الشعلة من النار، كما في كتاب العين وغيره،[١] ولكنّ المراد هنا قطعة من النور، والظاهر أنّ المراد به ـ كما قلنا ـ أمر معنوي، فليس الغرض من الاقتباس الاستضاءة لرؤية الطريق كما يقال، وإنّما هو اقتباس معنوي أيضاً، فلعلّ المراد به الاستشفاع بهم لما لهم من القرب لدى الله تعالى.

﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً﴾. القائل من الملائكة أو بعض المقرّبين من البشر وهو الأقرب، ولعلّه من أصحاب الأعراف؛ لأنّهم هم الذين يأذنون لأصحاب الجنّة بدخولها، كما قال تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ * أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.[٢] ومنهم من هو الذي يؤذّن بين الناس أنّ لعنة الله على الظالمين، كما قال تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾،[٣] وفي الحديث أنّ المؤذّن هو أمير المؤمنين عليه السلام.[٤] وقلنا في موضعه: إنّ هذا الأذان ليس إعلاناً، بل هو صبّ اللعنة عليهم بإذن الله تعالى.

والمراد بـ «الوراء» على الظاهر هو الدنيا، فالمعنى أنّ النور الذي تجدونه لدينا إنّما اكتسبناه بالعمل الصالح والإيمان في الدنيا، فإن أمكنكم فارجعوا إليها واكتسبوا النور بهما، وأنّى لكم ذلك؟ وهذا أمر تعجيزي، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ

---

١. راجع: كتاب العين ٨: ٨٦؛ جمهرة اللغة ١: ٣٣٨.

٢. الأعراف (٧): ٤٨ ـ ٤٩.

٣. الأعراف (٧): ٤٤.

٤. راجع: الكافي ١: ٤٢٦، الحديث ٧٠.

﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾[١] وهو شماتة بهم وعذاب لهم. ويمكن أن يكون ذلك على وجه الاستهزاء بهم.

وقيل: إنّ المراد الرجوع إلى ما وراءهم في نفس الموقف حيث قسم النور وناله المؤمنون، فيرجعون ولا يرون شيئاً. وهو بعيد.

وقيل: إنّه من باب الخدعة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾[٢] ولكنّه غير محتمل؛ لأنّه كذب ولا يمكن إسناده إلى الله؛ وهذا القول منه تعالى وبإذنه وإن قاله ملك أو بشر، والله تعالى يخدعهم في الدنيا من دون كذب.

والالتماس: الطلب. قال ابن دريد في «الجمهرة»: «اللمس أصله باليد ليعرف مسّ الشيء، ثم كثر ذلك في كلامهم حتّى صار كلّ طالب ملتمساً».[٣]

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ﴾، السور كلّ شيء مرتفع، والمراد به هنا حائط حاجز يفصل بين الفريقين بعد تجمّعهم، وهذا التجمّع ثم التفرّق لهما مدلولهما، فما يظهر هناك انعكاس لما هنا والقوم كانوا مجتمعين في الدنيا تجمعهم شؤون دينية ودنيوية، فكانوا جميعاً يؤمنون على الظاهر بدين واحد ورسولهم واحد وكتابهم واحد وقبلتهم واحدة، ويتعايشون في بلد واحد وتحت ظلّ حكومة واحدة، ويجتمعون في المساجد والمجامع، بل ربما يجمعهم بيت واحد وأُسرة واحدة وقد تكون بينهم علاقة الزوجية أو الأُخوّة أو البنوّة والأُبوّة ونحو ذلك ومع كلّ هذا يفترقون قلباً وعقيدة ومقصداً.

---

١. القلم (٦٨): ٤٢ ـ ٤٣.

٢. النساء (٤): ١٤٢.

٣. جمهرة اللغة ٢: ٨٥٩.

والأمر ـ كما مرّ ـ لا يختصّ بعهد الرسالة والمنافقين والمؤمنين في ذلك العصر، بل هو مستمرّ في القرون المتتالية. والنفاق ـ كما قلنا ـ لا يختص بمن وصفوا في القرآن بالنفاق في ذلك العصر، بل كان هناك نفاق أخطر و أشدّ وأعمق في صفوف من عرفوا بالإيمان والتقوى وهو قائم إلى يوم القيامة.

وهذا السور يمنع اختلاطهم في تلك النشأة وذلك لأنّه يوم الفصل، كما قال تعالى في عدّة موارد، ومن أعجب ما نزل فيه قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ﴾[1] حيث جمع بين الفصل والجمع، ومعنى ذلك أنّ كلّ البشر في القرون المتعاقبة يجتمعون ومع ذلك فإنّ بينهم الفصل ولا يختلط قوم بقوم، بل يفصل حتّى بين أفراد الأُسرة الواحدة ولا يرغب أحد منهم في الآخر، بل يفرّ منه، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾.[2]

وظاهر الآية أنّ هذا السور أمر يحدث بعد ما يجدون أنفسهم في ظلمة ويجدون الفرق بينهم وبين المؤمنين الذين يسعى نورهم بين أيديهم ويطلبون منهم النور فيؤمرون بالعود إلى الوراء، ثمّ يضرب السور ويفرق بينهم، ومعنى الضرب أنّه يحدث فجأة لا تدريجاً. ولعلّ هذا هو السبب في قول من قال إنّه غير الحجاب المذكور في سورة الأعراف، قال تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاً بِسِيمَاهُمْ﴾[3] حيث يظهر منه أنّ هذا الحجاب موجود بذاته وهذا السور حادث، ولكن مع ذلك لا يبعد كونهما واحداً.

ومهما كان فالظاهر أنّ السبب في حدوث هذا السور هو أنّ الله تعالى يجمع

---

١. المرسلات (٧٧): ٣٨.

٢. عبس (٨٠): ٣٤ ـ ٣٦.

٣. الأعراف (٧): ٤٦.

الفريقين ابتداءاً ثم يفرق بينهم ويميّز الصالحين من المجرمين، كما قال تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾[١] والمراد بأصحاب الجنّة في هذا الموقف ـ على ما يبدو ـ هم الأبرار وأصحاب اليمين الذين وصفوا في سورة الأعراف بأنّهم لم يدخلوها وهم يطمعون دون المقرّبين الذين هم أصحاب الأعراف الذين يعرفون كلاً بسيماهم، والذين بأمرهم يدخل الجنّة أصحابها، فإنّهم لا يختلطون بأصحاب النار، بل ولا بأصحاب الجنّة.

ولعلّ وجود الباب للسور إشارة إلى عدم الانقطاع التامّ، بل هناك نوع من الارتباط كما كان بينهم في الدنيا ومن هنا ينادونهم ألم نكن معكم، ومن هنا أيضاً يتطّلع بعض أهل الجنّة إلى النار، فيجد صاحبه الكافر أو المنافق في سواء الجحيم، كما قال تعالى: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾[٢] ومن هنا أيضاً يسأل المؤمنون المجرمين: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾.[٣]

﴿باطِنُهُ فيهِ الرَّحْمَةُ وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ﴾. الظاهر أنّ الضمير في باطنه وظاهره يعود إلى السور لا إلى الباب، وقوله: ﴿مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ﴾ أي من جانبه والضمير فيه يعود إلى ﴿ظَاهِرُهُ﴾ وليس معناه ـ كما قالوا ـ من أنّ جانب المنافقين فيه العذاب، بل معناه أنّ العذاب يأتيهم من قبل ظاهر السور بذاته فهو سور له تأثيران متناقضان.

ولعلّه تجسيم لما توافق الفريقان في إنجازه من إعلاء كلمة الإسلام في

---

١. يس (٣٦): ٥٩.
٢. الصافّات (٣٧): ٥٥.
٣. المدّثر (٧٤): ٤٢.

الظاهر والجهاد في مواجهة أعدائه وبسط سلطانه ونشر معارفه وأحكامه، وكذلك الأعمال الفردية كالعبادات، فإنّ المؤمن والمنافق مشتركان فيها ولكن هذا العمل يوم القيامة له وجهان، فهو رحمة للمؤمن وعذاب على المنافق وذلك بسبب اختلاف القصد والنيّة، فالمنافق لا يصلّي إلا رياءاً وسمعة وهذه الصلاة تتحوّل عذاباً له، فتركه لهذه الصلاة أولى وكذلك سائر الأعمال الفردية والاجتماعية.

ويقع السؤال عن وجه اعتبار جانب المؤمنين باطناً وجانب المنافقين ظاهراً فقال في «الميزان»: «ويظهر من كون باطن السور فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب أنّ السور محيط بالمؤمنين وهم في داخله والمنافقون في الخارج منه»،[1] ومعنى ذلك أنّ المنافقين غير محصورين في موضع، فهم في خارج السور والمؤمنون محصورون في الجنّة وهي التي أحاط بها السور وهو أمر مستبعد، فإنّ أهل النار أضيق مكاناً، قال تعالى: ﴿**وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً**﴾[2] وأمّا الجنّة فعرضها كعرض السماء والأرض.

والأولى أن يقال: إنّ الظاهر والباطن أمران نسبيان، فكلّ جانب من السور ظاهر لمن يليه وباطن لمن وراءه، ومن هنا فهذا التعبير يعبّر عمّا يشعر به المنافق فهو يشعر بأنّ السور من ورائه رحمة لمن هناك، ولعلّه يرى ذلك أو يشعر به بشعور أقوى من الرؤية، كما أشرنا إليه مراراً وهو متألّم من العذاب الذي يأتيه من هذا الجانب من السور ولا تتعرّض الآية لما يشعر به المؤمن من باطن السور حيث يعذّب المنافقون، ولعلّ الله تعالى يخفيه عنهم وإن كانوا يعلمون به حتّى لا

---

١. الميزان في تفسير القرآن ١٩: ١٥٧.
٢. الفرقان (٢٥): ١٣.

ينغص عيشهم بأقلّ شائبة خصوصاً إذا لاحظنا أنّ فيهم من يرتبط بالمؤمنين بأقرب القرابات، ولا شكّ أنّ الإنسان يتأذّى برؤية ابنه أو أبيه أو أخيه في العذاب.

وحيث إنّ المنافقين يرون أنّ عملاً واحداً له وجهان من التأثير يستغربون من هذه الإزدواجية ولا يجرؤون على الاعتراض على ربّهم، فيسألون المؤمنين عن سرّ هذه المفارقة والبون الشاسع مع أنّهم كانوا معهم ويشاركونهم في كثير من الشؤون الاجتماعية، كما ورد في الآية التالية.

﴿يُنادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾، أي أنّ المنافقين ينادون المؤمنين من وراء السور، فهو لا يمنع من التحدّث معهم، بل لا يمنع من الرؤية أيضاً كما قلنا آنفاً خلافاً لما استظهره بعض المفسّرين من الآية من أنّه يمنع الرؤية. والتعبير بالنداء بدلاً من القول إمّا من جهة وجود هذا السور الحاجز كما قالوا، أو من جهة الاستغاثة والاسترحام ولذلك جاء الجواب بالقول فقط. والجملة تحكي باختصار شديد عن كلّ ما كانوا يشاركون المؤمنين فيه: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ هكذا من دون أيّ قيد معكم في السرّاء والضرّاء، في الحرب والسلم، في البيعة ورفع الشعار، في تعيين الخليفة والحاكم، وفي كلّ شأن من الشؤون الاجتماعية، بل الفردية أيضاً.

﴿قالُوا بَلَى وَلكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمانِيُّ حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾. «بلى» حرف جواب يأتي بعد النفي فيفيد الإثبات؛ لأنّ فيه معنى «بل» كقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلَى﴾[1] أي بل أنت ربّنا، وهنا أيضاً بمعنى أنّكم كنتم معنا ولكن هناك عوامل لهذا الفصل بيننا:

---

١. الأعراف (٧): ١٧٢.

١ ـ أنّكم ﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ والفتن ـ بفتح الفاء وسكون التاء ـ في الأصل الإحراق واستعمل بهذه المناسبة في إذابة الفضّة والذهب وغيرهما، وحيث إنّهما بالإذابة يتبيّن خلوصهما وتفصل عنهما الزوائد استعمل في كلّ اختبار وامتحان يتبيّن به خلوص الإنسان وإيمانه وتقواه، وحيث إنّ الامتحان في الغالب لا ينتهي إلى ظهور الحسن، بل تظهر به خبايا الإنسان من المفاسد والخبث اعتبر الامتحان خداعاً، ومن هنا استعملت الفتنة في الخداع وسمّي الشيطان فتّاناً، واعتبر إضلال المضلّين فتنة، فالظاهر ـ بناءاً على هذا ـ أنّ المراد بالفتنة هنا هذا المعنى، أي خدعتم أنفسكم.

وخداع النفس من أوسع المفاسد الخلقية انتشاراً في البشر، وقلّما تجد إنساناً يحكّم ضميره وعقله حتّى في محاسبة نفسه، بل قلّما يوجد من يحاسب نفسه، فالغالب على البشر هو القناعة بما لديه من كمال وعدم الاعتراف بالنقص في نفسه حتّى لو اعترف به في الظاهر. وهذا الأمر أي القناعة ـ في أيّ مجال كان ـ يوجب تخلّف الإنسان في ذلك المجال، فإذا تصوّر الفرد أو المجتمع أنّه كامل في مجال الطبّ مثلاً، فإنّه لا يحاول التقدّم في هذا المجال وكذلك إذا تصوّر كماله في العقيدة ومعرفة الكون، فإنّه لا يحاول التغيير، بل يحارب كلّ محاولة في هذا المجال، وهذا هو السبب الأساس في عدم قبول البشر ما يأتي به الرسل من هدايات.

والمنافقون كانوا باقين على عقيدتهم الفاسدة أيّام الجاهلية، بل مصرّين عليها بالرغم من تواجدهم في المجتمع الإسلامي وقربهم من الرسول ﷺ ومشاهدتهم للمعاجز والكرامات، وكان هذا ممّا يزيد في شقائهم وبعدهم عن الحقّ وكلّ

ذلك ينشأ من خداع النفس وفتنتها. ولكنّ المذكور في غالب التفاسير أنّ المراد بالفتنة إهلاك النفس ومحنتها بالنفاق وتعابير مشابهة أُخرى.

٢ ـ ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾. التربّص: انتظار حلول خير أو شرّ لأحد. وفي غالب التفاسير أنّه إشارة إلى ترقّب الفرص لإيقاع الشرّ بالمؤمنين، أو لنزول الشرّ عليهم ممّا ينمّ عن سوء سريرتهم، أو إشارة إلى أنّهم يتربّصون موت الرسول ﷺ كما كان المشركون يظهرون ذلك علناً، والمنافق بحكم تظاهره بالإيمان يبطن هذا التربّص، وحكي عن ابن عباس أنّ المراد تربّصهم للتوبة، وهذا أيضاً ممّا يغترّ به الإنسان في معاصيه، فيسوّف التوبة اعتماداً على أنّ العمر يسمح له بالتسويف وأنّ الموت بعيد عنه وهو غافل عمّا قدّر له.

ويمكن أن يكون إشارة إلى تردّدهم وعدم استقرارهم على إيمان أو كفر، فهم دائماً ينتظرون حدوث أمر يحدّد لهم المسار.

٣ ـ ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾. الارتياب هو الشكّ وهو سمة المنافق الأُولى، فهو لا يؤمن واقعاً بالله ولا بالرسالة ولا يختلف عن الكافر إلا في إظهار الإيمان، قال تعالى: ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[١] والمؤمن لايشكّ في سبيله، ولذلك يضحّي بالنفس والنفيس من أجل دينه وإعلاء كلمته. ولعلّ بعض الملاحظين يستغرب من كون الشكّ موجباً للعذاب وهو حالة نفسية وأمر غير اختياري. ولكنّ الواقع أنّه كغيره من الحالات النفسية ليس دائماً خارجاً عن الاختيار حتّى الحبّ والبغض ممّا يمكن للإنسان أن يعقد النفس عليهما أو لا يعقد. والشكّ أيضاً ممّا يمكن للإنسان أن يزيله عن قلبه إلا من كان مريضاً بالوسواس القهري.

---

١. التوبة (٩): ٤٥.

٤ ـ ﴿وَغَرَّتْكُمُ الأمانِيُّ﴾. الغرور: الخداع. والأماني جمع أمنية وهي ما يقدّره الإنسان لمستقبله. والمَنْي في الأصل بمعنى التقدير وهو في الغالب يبتني على أوهام وآمال لا تتحقّق، ولكنّ الإنسان يخدع نفسه بها. وليس معنى ذلك توبيخه على تقدير مستقبله، بل المراد توبيخه على تقديره مبنياً على آمال كاذبة، فهي تضرّ الإنسان وتمنعه من رؤية الواقع الذي يعيشه وتوجب تخلّفه وبقاءه في موضعه الأوّل.

وفي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «**تجنّبوا المنى فإنّها تُذهب بهجة ما خُوِّلتم وتستصغرون بها مواهب الله تعالى عندكم وتُعقبكم الحسرات فيما وَهّمتم به أنفسكم**»[1] ومعنى ذلك أنّ تمنّي الآمال البعيدة يضرّ من ثلاث جهات: فهو لا يتلذّذ أوّلاً بما لديه من نعمة بخلاف القانع بما خوّله الله تعالى من النعم وثانياً لا يشكر ربّه ويستصغر نعمه وثالثاً يتحسّر ويتألّم حينما يجد أنّ ما تمنّاه لم يكن إلا مجرّد أوهام زائفة. والظاهر أنّ المراد بالأمانيّ هنا ما كان المنافقون يتمنّونه من زوال الدين والعود إلى ما كانوا عليه أيّام الجاهلية.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللهِ﴾ المراد به الموت، أي بقيتم في تلك الآمال والأماني الكاذبة ولم تستفيقوا من غفلتكم إلى أن جاء الموت بأمره تعالى. وهذا شأن الإنسان حيث يسوّل نفسه ويمنّيه بالتوبة إذا شاب وكبر، ولا يعلم أنّ الموت قد لا يمهله. مع أنّه يكبر وتكبر معه الأماني، كما قيل: «يشيب ابن آدم وتشبّ فيه خصلتان الحرص وطول الأمل» ونسب ذلك إلى الحديث ولم أجده في كتب

---

١. الكافي ٥: ٨٥، الحديث ٧، باب كراهية الكسل.

حديث العامّة والخاصّة إلا في بعض الجوامع كـ«البحار»[١] بعنوان «وفي الحديث» ممّا ينبئ عن الاعتماد على الشهرة.

٥ ـ ﴿وَغَرَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾. «الغَرور» صيغة مبالغة من الغرور وهو بمعنى الخداع، مأخوذ من الغرّة بكسر الغين، أي الغفلة، يقال غرّه أي أخذه على غفلة. والظاهر أنّ المراد به الشيطان وإن أمكن تعميمه لكلّ من يغرّ الناس ويخدعهم من شياطين الإنس والجنّ. وما أكثرهم؟! ومهما كان فالآية تقصد بذلك تنبيه الإنسان أن لا يغترّ بأوهامه وأمانيه ولا بتسويل الشياطين، فهو محاط بالأعداء وأعدى عدوّه نفسه التي بين جنبيه.

ومن الغريب أن يتمّ خداع الإنسان وتغريره بالله تعالى لا بالمال والجاه والشهوات، وذلك لأنّ من وسائل الخداع أن يقال للإنسان إنّ الله غفور رحيم، فلا تبتئس واعمل ما شئت واعتمد على رحمته تعالى وعفوه، والإنسان كثيراً ما يخدع نفسه بذلك أيضاً ولا يلاحظ أنّه تعالى شديد العقاب أيضاً وسريعه، فالاعتماد على عفوه تعالى إن كان في سبيل الرجوع والتوبة فنعم الاعتماد! أمّا إذا اعتمد عليه في سبيل ارتكاب الإثم أو الاستمرار فيه فهو غرور وخداع.

ويجب التنبّه إلى أنّ هذه الأُمور التي يترتّب عليها الوقوع في الظلمات في تلك النشأة والانفصال عن المؤمنين لا تخصّ من عرفوا بالنفاق، فلابدّ لكلّ مؤمن أن يراقب نفسه هل وقع في هذا الشراك أم لا، وكثير ممّن يدّعون الدين بل يدّعون الريادة والقيادة فيه تنطبق عليهم هذه الصفات، فليكن الإنسان على حذر.

---

١. بحار الأنوار ٧٠: ٢٢.

﴿فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذينَ كَفَرُوا﴾. ظاهر السياق أنّه من تتمّة كلام المؤمنين وليس معنى هذا الخطاب أنّهم لهم الحكم هناك، وإنّما هو إخبار منهم يقصد به الشماتة بهم، والغرض من بيان ذلك في القرآن تحذير المنافقين بأنّ أنواع العذاب في انتظارهم وممّا يخافونه ويهتمّون به هو شماتة المناوئين. ويحتمل أن يكون ذلك من كلامه تعالى تعقيباً لكلام المؤمنين.

والفدية ما يدفع من المال لتخليص الأسير، وقد ورد في عدّة آيات نفي الافتداء يوم القيامة، وذلك لأنّ التصوّر السائد في تلك المجتمعات هو إمكان الافتداء بالمال حتّى بعد الموت وأمام الله تعالى، ولذلك يحكى عن بعض الملوك أنّهم كانوا يوصون بدفن الذهب والجواهر معهم ليفتدوا بها هناك. ولعلّ التعرّض لنفي أخذ الفدية هنا ليناسب الأمر بالإنفاق، فكأنّ الآية تقول: أنفقوا في سبيل الله تعالى بأموالكم في هذه الحياة قبل أن يأتي يوم لا تقبل منكم إنفاق وفدية. كما قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفاعَةٌ﴾[١] ولذلك قدّم الظرف أي اليوم، فقال: ﴿فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ﴾، أي ليس هذا اليوم كما كان سابقاً حيث يقبل منكم الإنفاق.

وأمّا عطف الكفّار عليهم فقد قيل: إنّه لدفع توهّم الكفّار أنّ هذا خاصّ بالمنافقين، فلعلّ الفدية تقبل منهم وهو غير صحيح، فإنّ الآيات الرادّة لهذا التوهّم على الإطلاق كثيرة والسورة مدنية، والظاهر أنّ الغرض منه تنبيه المنافقين بأنّهم في ذلك اليوم يحشرون في صفّ الكفّار وأنّ مصيرهم واحد، وهذا ممّا

---

١. البقرة (٢): ٢٥٤.

يستبعده كثير من المسلمين ويتوهّمون أنّ أهل القبلة يختلف حالهم عن الكفّار وإن فعلوا ما فعلوا، حتّى أنّ بعضهم يتصوّر أنّ جبابرة المسلمين الذين طغوا في الأرض وبغوا وقتلوا الأولياء والأبرياء وهدموا الكعبة ونشروا الفسق والفجور وشربوا الخمر في أقدس أماكن المسلمين يعاملون يوم القيامة معاملة المؤمنين الصالحين!

﴿مَأْواكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾. المأوى: المكان الذي يلجأ إليه الإنسان من الحرّ والبرد وغير ذلك، فهو في الواقع محلّ أمنه واستراحته. والجملة تفيد الحصر، أي لا مأوى لكم إلا النار، والتعبير عن النار بالمأوى من باب الاستهزاء بهم أو من باب التأكيد على أنّهم لا مأوى لهم ولا ملجأ من النار إلا النار، ومن الواضح أنّها ليست بملجأ وملاذ فمعناه نفي المأوى مؤكّداً.

وقوله: ﴿هِيَ مَوْلاكُمْ﴾ أيضاً يفيد الحصر، والمولى قد يكون بمعنى الناصر فيكون المراد نفي الناصر عنهم،كما نفى المأوى بالجملة السابقة، وكما نفى الفدية صريحاً قبله. والبشر في هذه النشأة كثيراً مّا يتشبّث بالفدية أو الناصر للوصول إلى مآربه، كما أنّه نفى في الآية التي مرّ ذكرها آنفاً البيع والخلّة والشفاعة، فمعنى حصر الناصر في النار عدم إمكان التوصّل إلى ناصر لوضوح أنّها ليست ناصرة، فهو كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إلا مِنْ ضَرِيعٍ﴾[1] مع أنّه ليس طعاماً، فمعناه نفي الطعام مطلقاً. ومثله كثير.

ويمكن أن يكون المولى ـ كما قال العلامة الطباطبائي قدس سره[2] ـ بمعناه المعروف،

١. الغاشية (٨٨): ٦.

٢. راجع: الميزان في تفسير القرآن ١٩: ١٥٨.

أي الذي يتولّى أُموركم وشؤونكم، فإليها مرجعكم وفيها مأكلكم وهو الزقّوم والضريع، ومشربكم وهو الحميم، وملبسكم وهو السرابيل من قطران، وفيها مهادكم وغواشيكم، وعلى كلّ حال فهو من باب التهكّم والاستهزاء.

ويحتمل أن يكون المولى من الولي ـ بالفتح فالسكون ـ بمعناه الأصلي وهو القرب. والصيغة اسم مكان منه، أي المكان الذي تقربون منه وهو كناية عن استقرارهم فيه. والمصير المكان الذي صاروا إليه ومنزلهم ومنتهاهم.

۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟
كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ
فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ
وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ
عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ
ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله وَما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾. استفهام إنكاري واستبطاء من خشوعهم لذكر الله تعالى، وقوله: ﴿يَأْنِ﴾ من أنى يأني إذا أدرك إناه، أي وقته، ومثله في المعنى آن يئين، أي حان يحين، وعليه ورد في بعض القراءات «ألم يئن» بكسر الهمزة. ومن الواضح أنّ الآية تأتي في نفس السياق السابق، وهو الحثّ على الإنفاق في سبيل الله تعالى، وفي هذه الآية يأتي الحثّ من جهة التنبيه على لزوم التورّع والخشوع إذا ذكّروا بالله تعالى وبآياته.

وقيل: إنّ الآية مكية لرواية رواها مسلم عن ابن مسعود، يقول فيها: «إنّه لم يكن بين إسلامنا ونزول الآية إلا أربع سنين»،[1] والقوم لا يسعهم الترديد في أحاديث ما يسمّى بالصحاح، وقد مرّ أنّ سياق الآيات يأبى عن تفريق زمان النزول فهو سياق متّحد يهدف إلى التحريض على الإنفاق في سبيل الله تعالى وتمويل الحرب الدفاعية المفروضة على المسلمين.

---

١. صحيح مسلم ٤: ٢٣١٩، باب في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ (على ما في المكتبة الشاملة).

مضافاً إلى استبعاد هذا الاستبطاء والعتاب بعد مرور أربع سنين من إسلامهم فقط، ومضافاً إلى أنّهم كانوا في مكّة بعيدين عن الاشتغال بغير ما أُنزل عليهم من ربّهم وإنّما حدث هذا التباطؤ بعد دخول الناس أفواجاً في الدين، وبعد توالي الانتصارات والاستيلاء على الغنائم والوصول إلى بعض الرفاه والرخاء في العيش، كما هو مقتضى طبيعة الإنسان إذا توغل في المادّة وتوجّه إلى الدنيا. فالصحيح ـ كما أسلفنا ـ أنّ السورة مدنية بتمامها.

وقيل: انّ المراد بالذين آمنوا المنافقون، إذ يبعد مثل هذا الخطاب للمؤمنين. وإنّما استبعد هذا القائل ذلك لحسن ظنّه بالصحابة بأجمعهم، وهو خطأ واضح، فهم أيضاً كغيرهم مختلفون في درجات الإيمان وهذا الاستبطاء لا ينافي الإيمان ولا وجه للحمل على المنافقين بتاتاً، نعم لا شكّ أنّ المراد به بعضهم لا الجميع إلا أنّ الخطاب يدلّ على تفشّي الابتعاد عن الدين نوعاً مّا.

ومهما كان فالآية تحثّ المؤمنين على استشعار الخشوع والخوف من الله تعالى كلّما ذكر اسمه وكلّ ما تليت آياته، وهذا بالطبع مقتضى الإيمان بالله تعالى إلا أنّ الإنسان ربما لا يتأثّر من ذلك إذا توغّل في الأُمور المادّية واشتغل بالدنيا، خصوصاً إذا كان اشتغاله بالملاهي والمنكرات، فإنّ ذلك يميت القلب ويبعد الإنسان عن الله تعالى كثيراً، وربما يجرّه إلى الكفر وإنكار المعاد، كما قال تعالى: **﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ الله وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾**.[١]

والظاهر أنّ الآية ـ كما قال العلامة الطباطبائي ﵀[٢] ـ عتاب وتوبيخ للمؤمنين

---

١. الروم (٣٠): ١٠.
٢. راجع: الميزان في تفسير القرآن ١٩: ١٦١.

بأنّهم مع مرور زمان طويل على الرسالة ونزول الوحي لم يصلوا إلى حدّ مطلوب من التورّع والتقوى، وليس كما يقول بعض المفسّرين من أنه تحذير لهم حتّى لا يكونوا كذلك، فإنّ هذا المعنى لا يناسب استنكار عدم وصول زمان الخشوع، كما هو صريح الآية المباركة.

ولا يستبعد ذلك من المجتمع الإسلامي في ذلك العهد وإن كان كثير منهم أو أكثرهم مجاهدين في سبيل الله، فإنّ لسان الآية في تربية المجتمع نظير ما ورد بشأن تحريم الخمر والميسر حيث كان العرب مولعين بهما، كما يظهر من قصّة الأعشى حيث ترك الإسلام ليعود إلى أهله ويشرب ما بقي لديه من الخمر، فإذا انتهى منه عاد إلى الرسول ﷺ فلم يمهله الأجل وسلب عنه التوفيق، وكما يظهر من رفض بعض الصحابة من الانصياع لتركه بالرغم من الآيات النازلة حتّى نزل قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ**﴾،[1] فانتهوا لما رأوا العتاب الشديد من ربّهم، والظاهر أنّ ذلك كان في أواخر عهد الرسالة، فإنّ سورة المائدة من أواخر ما نزل.

والظاهر أنّ المراد بذكر الله كلّ ما يذكّر بالله تعالى من التوجّه القلبي والذكر اللساني واستماع ذكره تعالى من غيره، سواء من تلاوة آيات الكتاب أو الأدعية أو غير ذلك، والمراد بما نزل من الحقّ القرآن الكريم، فلا موجب للقول بأنّهما واحد كما قيل.

﴿**وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ**

---

١. المائدة (٥): ٩١.

فاسِقُونَ﴾ عطف على تخشع، أي ألم يأن لهم أن تخشع قلوبهم وأن لا يكونوا...، وهو تحذير لهم من أن تكون عاقبتهم كعاقبة أهل الكتاب. والمراد بـ ﴿الَّذينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ﴾ اليهود والنصارى وغيرهم أيضاً ممّن اتبعوا الأنبياء السابقين، ثمّ جرفتهم التيارات المادّية وانحرفوا عن دين الأنبياء عليهم السلام واتبعوا الشهوات، فقست قلوبهم بعد ما كانت خاشعة مطمئنة بذكر الله تعالى وباستماع آياته وتلاوتها.

والقسوة: الغلظ والصلابة، والأصل فيه الحجر القاسي الذي لا تؤثّر فيه المعاول، وقساوة القلب كناية عن كون الإنسان صلباً شديداً في مقابلة الحقّ، فيرفض ما يقال له من النصح والإرشاد. والسبب ـ كما في هذه الآية ـ هو أن طال عليهم الأمد وهو ـ كما في «العين»[1] ـ منتهى كلّ شيء وآخره. وفي «معجم المقاييس»[2] أنّه بمعنى الغاية.

واختلفوا في المراد منه هنا فقيل: إنّه الفاصل بينهم وبين أنبيائهم، أي بَعُد العهد بينهم وبين الرسل فضَعُف تأثير الرسالة فيهم. وهذا غير بعيد في حدّ ذاته إلا أنّه يبعد التعبير عنه بالأمد الذي هو بمعنى الغاية، إذ لا يوجد هنا ما يفرض بقاؤه إلى أجل فيتأخّر أجله إلا إذا أمكن حمل الأمد على مطلق الزمان ولو مجازاً. وهو بعيد.

وقيل: إنّ المراد آجالهم الشخصية وامتداد أعمارهم. وهو بعيد في حدّ ذاته كما يبعد اعتبار ذلك مؤثّراً في قسوة القلوب.

وقيل: المراد طول توقّعهم لنزول العذاب ممّا كانوا يعملون، فحيث تباطأ

---

١. كتاب العين ٨: ٨٩.

٢. معجم مقاييس اللغة ١: ١٣٧.

عنهم العذاب أمنوا مكر الله تعالى وقست قلوبهم. وهو أيضاً بعيد، أوّلاً من جهة اعتبار تأثيره في القسوة؛ لأنّه يؤثّر في الاغترار وهو غير القسوة، وثانياً من جهة التعبير عنه بالأمد بقول مطلق من دون قرينة.

وقيل: المراد طول الفاصل الزمني بينهم وبين الرسالة المتأخّرة؛ لأنّها أمد وغاية للرسالة السابقة لقوله تعالى: **﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ ميثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْري قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدينَ﴾**[1] ويبدو أنّ أهل الكتاب كانوا ينتظرون الرسالة الأخيرة، كما وردت بها البشارات في العهدين، وورد ذكر ذلك في قوله تعالى: **﴿وَكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾**[2] فلمّا أبطأت الرسالة وبَعُد العهد ضَعُف إيمانهم وبذلك قست قلوبهم.

وهذا أقوى الاحتمالات، ويؤيّده ما رواه الصدوق‌ﷺ بسنده عن سماعة وغيره عن أبي عبدالله‌عليه السلام قال: «**نزلت هذه الآية في القائم‌عليه السلام**»،[3] فإنّ الظاهر أنّ المراد بالحديث انطباق ما في الآية على انتظار الإمام المهدي ـ عجّل الله فرجه ـ وأنّه يطول الانتظار كثيراً بحيث تقسى القلوب ويضعف الإيمان به‌عليه السلام، ونحن نلاحظ أنّ المؤمنين به يقلّ عددهم يوماً فيوماً وتكثر عند الناس الشبهات حول قيامه بالرغم من أنّه ممّا أخبر به الرسول‌صلى الله عليه وآله وسلم بما ورد عنه متواتراً وفي كتب الفريقين.

وربما يستبعد هذا الوجه من جهة أنّ الخطاب حينئذٍ لا يشمل المؤمنين

---

١. آل عمران (٣): ٨١.

٢. البقرة (٢): ٨٩.

٣. كمال الدين: ٦٦٨.

المخاطبين في ذلك العصر، إذ لم يتحقّق طول الأمد بهذا المعنى لهم. والجواب أنّ طول الأمد بأيّ معنى يفسّر لا يشملهم، فالمراد ليس منع تشبّههم بأهل الكتاب في هذه الجهة، بل في أصل القسوة والفسق وإن كان لسبب آخر.

ويمكن أن يكون التحذير من القسوة لطول الأمد، ولكنّ الذين يشبهون أهل الكتاب في ذلك ليسوا هم المؤمنين في ذلك العهد، بل في المستقبل فيكون المراد بالآية أنّ المجتمع الإسلامي يجب أن يتقدّم ويتطوّر بحيث لا يكون هذا مصيره كما كان ذلك مصير أهل الكتاب، ولا شكّ أنّ هذا التحوّل إنّما يحدث في المجتمع تدريجاً، فالواجب في ذلك العهد هو منع ما يسبب ذلك في زمانه المتوقّع. فالحاصل أنّ هذا الاحتمال هو الأقوى في الآية وبعده الاحتمال الأوّل.

وأمّا قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ﴾ فالظاهر أنّ المراد بالفسق الكفر وإن كان الفسق في الأصل هو الخروج عن الطاعة إلا أنّ أكثر موارد استعماله في القرآن في مقابل الإيمان، فالغرض التحذير من أن ينجرّ المجتمع الإسلامي إلى مجتمع ينتشر فيه الكفر والتخلّي عن العقيدة، كما هو نتيجة التوغّل في المعاصي على ما مرّ من دلالة الآيات عليه.

وربما يقال: إنّهم جميعاً في عهد الرسالة كفّار؛ لأنّهم لم يؤمنوا بالرسالة الجديدة، فإسناد الفسق إلى كثير منهم دون الجميع لا يناسب تفسيره بالكفر. والجواب أنّ إسناده إلى الكثير دون الجميع لعلّه باعتبار أنّ كثيراً منهم فسقوا عن دينهم الذي يعتزّون به ويدّعون اعتناقه، كما نجدهم اليوم أيضاً قد تخلوا عن عقيدتهم نتيجة توغّلهم في الفساد والمعاصي.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها﴾ تقديم الأمر بالعلم لتنبيه المخاطبين بأهمية

ما يراد إعلامهم به مع أنّه من الواضح أنّ الله تعالى يحيي الأرض بعد موتها، وهذا أمر طبيعي يتكرّر دائماً وبمرأى من الجميع، فلم يكن الأمر بحاجة إلى التنبيه وتصدير الكلام بقوله: ﴿اعْلَمُوا﴾ فيتبيّن بذلك أنّ هناك أمراً آخر يقصد من ذكر هذا التنبيه تشبيهاً وهو إحياء القلوب القاسية، فيكون الغرض بهذا التنبيه منع حصول اليأس للمؤمنين من الآية السابقة بالتنبيه على أنّه حتّى لو قست القلوب، فمن الممكن أن تحيا بذكر الله تعالى كما تحيا الأرض الميتة بالمطر. والأمر بيد الله تعالى فهو الذي يحيي الأرض الميتة والقلوب الميتة على السواء.

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وهذا التعقيب أيضاً للتنبيه على أنّ الجملة السابقة يراد بها معنى آخر من باب التشبيه، وللإشارة إلى لزوم الدقّة لتعقّل ما وراء ظاهر التعبير. ولعلّه لذلك لم يقل: «لَعَلَّكُمْ تُؤمنون» بل ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

والمراد بـ «الآيات» آيات الكتاب، والمراد بتبيينها إنزالها بيّنة واضحة، ولا ينافي ذلك أنّها تشتمل على كنايات وتشبيهات وأنّ الوصول إلى الغرض الأسمى منها يحتاج إلى دقّة وتأمّل، إذ أنّ هذا هو شأن الكلام البليغ لئلا يتعامل معه، كما يتعامل مع المحادثات العرفية.

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ عود على بدء، للتأكيد على الغرض الأسمى من السورة المباركة، وهو الحثّ على الإنفاق في سبيل الله تعالى. وقوله: ﴿الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾ بتشديد الصاد والدال في الأصل «المتصدّقين والمتصدّقات» فأُبدل التاء صاداً وأُدغم فيها. وعطف الجملة الفعلية ﴿وَأَقْرَضُوا اللهَ﴾. على الجملة الإسمية بلحاظ المعنى، فإنّ قوله: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ﴾ بمعنى أنّ الذين اصّدّقوا... فيكون عطف الإقراض لله تعالى

عطفاً تفسيرياً قصد به بيان حقيقة التصدّق عند الله وأنّه بمنزلة إقراضه تعالى.

وقرئ الوصفان بدون تشديد الصاد، فيكون من التصديق وعلى ذلك فعطف الإقراض على التصديق تطبيق لما مرّ في أوائل السورة من قوله تعالى: ﴿آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا...﴾.

وأمّا عطف المصدّقات على المصّدّقين فهو كعطف المؤمنات على المؤمنين والمنافقات على المنافقين للتأكيد على عدم الفرق بين الرجال والنساء في موجبات الخير والشرّ. وقد مرّ الكلام في معنى القرض الحسن ومضاعفة الأجر والأجر الكريم في تفسير الآية ١١ من هذه السورة.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾. لا يبعد أن يكون الغرض من هذه الآية تطييب خاطر المؤمنين الفقراء الذين لا يملكون ما يتصدّقون به فتنطبق عليهم آيات الإنفاق، فهذه الآية تؤكّد لهم أنّ مقامهم محفوظ عند الله تعالى لإيمانهم به وبرسله. ولم يقل «برسوله» لأنّ المطلوب هو الإيمان بكلّ الرسالات وهذا هو الفارق بين أهل الكتاب والمؤمنين بهذه الرسالة، فلا يكفي عندنا الإيمان برسول دون رسول، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾[1] وأهل الكتاب رفضوا الإيمان بالرسالة المتأخرة فلا يقبل إيمانهم.

وأكّد الحكم بإتيان اسم الإشارة وضمير الفصل والألف واللام ممّا يدلّ على الحصر، وأنّهم هم الصدّيقون فحسب. وبالطبع لا يراد بهم من آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم أو لم يلتزموا بمقتضى إيمانهم في مقام العمل.

---

١. البقرة (٢): ٢٨٥.

والصدّيق مبالغة في الصدق أو التصديق، ففي مثل قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾[١] يقصد به المبالغة في الصدق، فإنّه من كلام صاحبي سجنه عليه السلام وحيث لم يسمعوا منه إلا الصدق وصفوه بذلك. وأمّا هنا فلا يبعد أن يكون المراد المبالغة في التصديق وهو في حدّ ذاته ليس مدحاً، إذ لا ينبغي للعاقل أن يصدّق كلّ ما يقال إلا أنّه مدح لمن يصدّق الرسل والكتب ويصدّق الوحي ورسالات السماء دون استثناء، فإنّ المبالغة في هذا التصديق لا تكون إلا ممّن قوي إيمانه ورسخ في قلبه. ويقابله المنافق والذي في قلبه مرض وهو مرض الشكّ والريب والتردّد.

و الظاهر أنّ قوله تعالى: ﴿وَالشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ عطف على قوله ﴿الصِّدِّيقُونَ﴾، فالمعنى أنّ الذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرّقوا بينهم هم الصدّيقون والشهداء عند ربّهم أي أنّ الله تعالى يعتبرهم شهداء. وهو جمع شهيد بمعنى الشاهد. والشهداء يوم القيامة على الظاهر هم الذين تتمّ بهم الحجّة على الخلق، فيستشهد بهم وبسيرتهم على كلّ من تهاون في أمر دينه بحجّة عدم إمكان حفظ الدين ومتابعة الشريعة في ظروف الحياة الدنيا، وهذا العنوان يشمل الأنبياء والأولياء والصالحين من الأُمّة على اختلاف درجاتهم في الإيمان والصبر على الطاعة.

ولعلّ التعبير عن الذين قتلوا في سبيل الله بالشهداء أيضاً من هذا الباب، فإنّهم أكبر شاهد في مقام الاحتجاج؛ لأنّهم من عامّة الناس وليسوا معصومين وقد ضحّوا بأغلى ما عندهم في سبيل الدين فيحتجّ بهم الله تعالى على الناس أجمعين.

---

١. يوسف (١٢): ۴۶.

والضمائر في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ تعود إلى الذين آمنوا، ومعنى ذلك أنّهم لا يبخس من حقّهم شيء، فلهم أجرهم المناسب لهم ونورهم الذي صنعوه بأعمالهم. وهذا التعبير يؤتى به في مقام الإعجاب بالشيء، فيقال: فلان له مقامه ومنزلته أو له علمه وفضله. والمراد هنا أنّ لهم ذلك الأجر الجزيل والنور الباهر.

وقيل: إنّ الضمير في قوله: ﴿لَهُمْ﴾ للذين آمنوا، وفي قوله: ﴿أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ للصدّيقين والشهداء، وإنّ معنى الآية أنّ الله تعالى يعطي الذين آمنوا به وبرسله أجر الصدّيقين والشهداء، وإنّ المراد بقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ أنّهم بمنزلتهم عند الله والتنزيل يستلزم التغاير، فهم ليسوا من الصدّيقين والشهداء، ولكنّهم بمنزلتهم عند الله تعالى، ولذلك يؤتون نفس الأجر ونفس النور. وحيث يستبعد أن يكون أجر المؤمنين عامّة كأجر الصدّيقين والشهداء، قالوا: إنّ ذلك إنّما يتمّ بعد أن يضاعفه الله تعالى.

وهذا لا يرفع الاستبعاد، فالصدّيقون أيضاً يضاعف أجرهم ونورهم فلا يتساوون وتبقى الآية غير واضحة. وأمّا بناءاً على التفسير الأوّل فإنّ عنوان الصدّيقين والشهداء شامل وعامّ، ولكنّه من العناوين التي تختلف أفرادها شدّة وضعفاً، فيشمل المؤمنين الصالحين الملتزمين في مقام العمل وإن لم يكونوا بدرجة الأنبياء والأولياء والشهداء بالمعنى المعروف.

ومثل هذه الآيات لا تحدّد العناوين بدقّة بحيث يمكن تشخيص مصاديقها بسهولة وتطبيق الأحكام عليها، فإنّ ذلك نقض للغرض الذي هو عبارة عن بعث الأمل والرجاء مشوباً بالحذر والخوف في نفوس المؤمنين، وليست هذه العناوين

مرتبطة بالشريعة ومقام العمل فتحتاج إلى تحديد.

وقيل: إنّ قوله: ﴿وَالشُّهَدَاءُ﴾ مبتدأ خبره ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ وما بعده خبر ثانٍ، فتكون جملة مستقلّة عطفت على الجملة السابقة.

وهذا يستلزم تفكك السياق وعدم ارتباط الجمل، فكأنّ الآية جاءت لتقسّم الناس على ثلاثة أقسام فحسب: الذين آمنوا، والشهداء، والذين كفروا. ولا يعلم وجه لهذا التقسيم ولا حكمة مترتّبة عليه في المقام ولا ارتباط بالموضوع الذي يبحث عنه في هذه السورة والآيات السابقة.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾. الظاهر أنّ المراد بالكفر كفرهم بالله تعالى، إمّا بإنكار وجوده أو بإنكار ربوبيته، والكفر هو الإنكار، والمراد بالآيات ما أنزله الله تعالى على رسله من الأحكام والشرائع كلّ ذلك بقرينة مقابلته بـ ﴿الَّذينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾ وتوصيفهم بالصدّيقين، فيقابل الكفر بالله الإيمان به ويقابل تكذيب الآيات الإيمان برسله.

ويحتمل أن يتعلّق الكفر والتكذيب بالآيات، ويراد بها آيات الكتاب والتكوين وحينئذٍ فيمكن أن يكون التكذيب عطف تفسير للكفر، ومعناهما إنكار دلالة الآيات على وجوده أو ربوبيته تعالى، ويمكن أن يكون الكفر متعلّقاً بالآيات الكونية بمعنى إنكار دلالتها، فيتّحد مع الكفر بالله، والتكذيب متعلّقاً بآيات الكتاب بمعنى تكذيب استنادها إليه تعالى، ومعناه تكذيب الرسالات.

ومهما كان فتعقيب الآية السابقة بحكم الكفّار ربما يكون قرينة على ما مرّ من أنّ المراد بعنوان ﴿الَّذينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾ ما يشمل مختلف درجات الإيمان بحيث يقابله الكفر والتكذيب. ولعل الغرض من هذه الجملة إفادة هذا المعنى.

ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ
وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ
حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا
مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ
وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ
وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى
كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ
وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ
وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكاثُرٌ فِي الأَمْوالِ وَالأَوْلادِ﴾

إعلام خطير للبشرية وتنبيه لما يغفل عنه الإنسان من واقع حياته، فيمكن أن يكون الخطاب في قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا﴾ للبشر عامّة ويمكن اختصاصه بالمؤمنين، لأنّهم المعنيون ابتداءاً والمؤمّل فيهم النجاة. ولا يخفى تناسب موقع الآية مع الغاية المتوخّاة من السورة وهي الحثّ على الإنفاق في سبيل الله تعالى حيث إنّ الامتناع من الإنفاق ليس إلا حبّاً في المال والملذّات في الحياة الدنيا، فلزم تنبيههم على كونها زائلة وغير مهمّة، بل مضرّة بحالهم ومستقبلهم.

وقد مرّ سابقاً الكلام حول إفادة «إنّما» للحصر، وقلنا: إنّ الظاهر أنّ ذلك يتبع القرائن المكتنفة بالكلام، وظاهر السياق هنا هو الحصر مع أنّ من الواضح أنّ الأعمال الصالحة التي يأتي بها الصالحون من البشر ويقصد بها وجه الله تعالى لا

تدخل ضمن المذكورات، وذلك لأنّها وإن كانت ممّا تصدر في الحياة الدنيا ولكنّها مقدمة للحياة الآخرة، فالمراد بالحياة الدنيا في الآية الكريمة كلّ ما يطلب به شؤون هذه الحياة من دون قصد الآخرة. وليس المراد أنّ هذه الأعمال محرّمة، بل الغرض بيان أنّها ليست مهمّة في مقابل العمل للآخرة، فلا ينبغي للإنسان أن يصرف جلّ وقته في هذا المجال ويجعل العمل للآخرة في الهامش.

واللعب عمل لا يقصد به في الغالب هدف مطلوب لدى العقلاء ويقابله الجدّ. وربما يطلق على ما له هدف مطلوب كألعاب الرياضة من باب التشبيه. ولا يختصّ اللعب بالأطفال وإن كان الغالب على أعمال الطفل هو اللعب إلا أنّ كثيراً ما يلعب الإنسان البالغ العاقل لهدف صحيح كالمداعبة الجنسية المحلّلة، وقد ورد التعبير عنه باللعب في بعض الروايات، منها ما رواه الكليني مرفوعاً عن رسول الله ﷺ: **«كلّ لهو المؤمن باطل إلا في ثلاث في تأديبه فرسه ورميه عن قوسه وملاعبته أمرأته فإنّهنّ حق...»**[١] الحديث، بل ربما يلعب الإنسان البالغ العاقل لعباً خاصّاً بالأطفال ويكون له في هذا الحال هدف عقلائي كمداعبة الطفل أو الترويح والتسلية إذا تعب من الجدّ، ولا يقبح ذلك إلا إذا أفرط فيه.

واللهو كلّ ما يشغل الإنسان عن غيره، ويطلق غالباً على ما يشغله عن أمر مهمّ وهو بذاته ليس مهمّاً أو ليس بتلك الأهمّية.

والزينة اسم لما يتزيّن به، فلا بدّ من تقدير فعل كاتخاذ الزينة أو استعمالها أو يقال بأنّها أُطلقت وأُريد بها الفعل مجازاً.

والتفاخر تفاعل من الفخر، وهو المباهاة واستعظام الإنسان ما لديه من مزايا.

---

١ الكافي ٥: ٥٠، الحديث ١٣، باب فضل ارتباط الخيل.

والفخر قد لا يقع بين اثنين، بل يتبجح به شخص واحد، وأمّا التفاخر فهو بين اثنين أو أكثر كلّ يفخر على الآخر ولذلك قال: ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾. والظاهر أنّ المراد بالتفاخر هنا ليس خصوص التفاخر بالباطل، بل حتّى لو كان بالحقّ، فإنّه قبيح إلا في ما إذا أُريد به استعلاء الدين وحتّى لو لم يكن قبيحاً، فإنّ الغرض من الآية ـ كما مرّ ـ ليس هو النهي أو التحريم.

والظاهر أيضاً أنّ المراد به ليس نفس التفاخر كعمل، بل كونه هدفاً لعمل الإنسان، فإذا كان غرضه من عمله الفخر على الآخرين فهو من شؤون الدنيا وإن كان بظاهره عملاً صالحاً، فربما يتعلّم الإنسان علم الدين ويجتهد في تفقّه أحكام الشريعة ويقصد بذلك التفاخر على الأقران. ولذلك لا يهتمّ الرجل بما هو دخيل واقعاً في الوصول إلى الواقع، بل ما يكثر البحث حوله في المحافل العلمية. وهكذا في سائر المجالات.

والتكاثر تفاعل من الكثرة، والمراد به محاولة كلّ أحد أن يكون ماله وولده أكثر من غيره، فهذا التسابق يعتبر تكاثراً وهو مشهود في جهة المال دائماً وفي كلّ مكان، وأمّا في الأولاد فقد خفّ، بل ربما انتهى في أكثر المجامع البشرية، والسبب أنّ كثرة الأولاد في العهود السابقة كانت مقصودة لغرض تكثير الجنود المدافعين عن الأُسرة والعشيرة وتكثير العمّال في حقول الزراعة ونحوها، ولم يبق في هذا العصر مجال لذلك. ومع ذلك فهناك دوافع في بعض المجتمعات المتخلّفة لتكثير النسل، وربما يكون لبعضهم دوافع صحيحة ومشروعة.

والغرض من الآية الكريمة ليس هو التنبيه على أنّ من عمل الإنسان في الدنيا ما لا قيمة له؛ لأنّه لعب الأطفال وما يشغله عن الأمر المهمّ وهو لهو الشباب

والمراهقين ونحو ذلك كما يظهر من كثير من تعابير المفسّرين حيث اعتبروا الآية ناظرة إلى مراحل من حياة الإنسان، فهو بصورة طبيعية يلعب في دور الطفولة ويلهو في دور الشباب، ويهتمّ بالزينة في دور الكهولة بعد ما فقد زينة شبابه ويتفاخر بعد ذلك بماله وجاهه ويحاول تكثير المال والولد في دور الشيخوخة. ليس هذا هو الغرض، بل الآية تنظر إلى لعب الإنسان البالغ العاقل ولهوه وزينته وتفاخره وتكاثره.

ولعلّ الغرض منها ـ والله العالم ـ التنبيه على أنّ الغالب من عمل الإنسان في الحياة الدنيا يتّسم بهذه السمات فهو:

إمّا لعب، أي ليس له هدف منطقي صحيح ينبغي أن يشتغل به الإنسان العاقل. وهذه هي سمة أكثر الأعمال في الحياة الدنيا ممّا يقصد به الدنيا؛ لأنّ كلّ هدف دنيوي فهو وهم إذا قيس بالحياة الأبدية، والإنسان يتخيّل أنّه يسعد بما يعدّه لنفسه في هذه الحياة مع أنّه يشقى به ويبتعد عن ما يفيده في الحياة الأبدية، فهو يخسر بما يظنّ أنّه ربح. واللعب هو كلّ ما كان الهدف منه أمراً وهمياً غير واقعي كألعاب الأطفال.

وإمّا لهو فله هدف، ولكنّ الهدف منه مجرّد الانشغال وصرف الوقت والابتعاد عن التفكير في الحقيقة المرّة و عن الاشتغال بما هو أهمّ وهو العمل والتخطيط للآخرة، واللهو أيضاً كثير في أعمال الدنيا حتّى بالنسبة لمن يعتقد بالآخرة، فلو لاحظنا أعمالنا بدقّة لوجدنا أكثرها مضيعة للوقت إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ المطلوب من الإنسان في هذه الحياة أن يعمل من أجل الآخرة.

وإمّا زينة وهي وإن لم تكن بذاتها مرجوحة، بل ربما تكون راجحة، بل

واجبة كالتزين للزوج بل الزوجة أيضاً، ولكنّ الغرض التنديد بمن يضحّي بشأن مهمّ يتوقّف عليه حياته في سبيل ما يتعلّق بالزينة، كمن يصرف ماله في تزيين بيته بدلاً من تحكيم أعمدته وأساسه وهذا بعينه هو حال من لا يهتمّ بآخرته وهي الحياة الواقعية ويهتمّ بشؤون الدنيا وإن كان في شؤونها الأساسية.

وإمّا تفاخر في المجتمع، فليس هو محقّقاً لغرض منطقي يفيد الإنسان وإنّما يحاول الإنسان بجهده أن يتمكّن من الاستعلاء على الآخرين بمزاياه وان كان خاوياً في واقع الأمر، فالإنسان غالباً ما يفتخر بنسبه أو بقومه وعشيرته أو بعضلاته أو بماله ونحوها، وكلّ ذلك باطل تافه.

وإمّا تكاثر في ما لا ينتفع به نفعاً أساسياً ومصيرياً، بل في المال والولد مع أنّ كثرتهما لا يزيد الإنسان إلا مسؤولية وابتلاءاً.

هذا هو واقع النشاط البشري في الدنيا وإن كان العمل في الظاهر ممّا يهتمّ به العقلاء، بل يعتبرونه من أهمّ ما يشغل بالهم، فالإنسان مثلاً يهتمّ غاية الاهتمام بجمع أكثر مبلغ ممكن من المال ليدخل في قائمة الأثرياء وهذا الهدف ليس إلا التفاخر. ولو لم يدخل في تلك القائمة فإنّه يجمع ويجمع حبّاً للمال، كما قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً﴾[1] ولو لم يكن لحبّ المال فهو يجمع ليزيد من ترفه أكلاً وشرباً وثياباً ومركباً ومسكناً ونحو ذلك من زينة الدنيا وهو لا يشبع كلّما توغّل في ملذّاته وشهواته ولا يصل إلى بغيته.

بل إنّ ما يعتبر من الأعمال المفيدة للمجتمع البشري كالتطوّر العلمي والخدمات الطبية أيضاً من هذا القبيل، فإنّ غاية ما تفيده هذه الأعمال هو إطالة

---

١. الفجر (٨٩): ٢٠.

عمر إنسان أو عمر الإنسان بصورة عامّة وتأمين متطلباته في الحياة الدنيا ورفع مستواه المعيشي ونحو ذلك ممّا يهتمّ به البشر في هذه الدنيا، وكلّ ذلك ليس إلا ضمن المجموعة التي وردت في الآية المباركة إذا قارنّاها بالعمل من أجل الآخرة، وهذا هو الغرض الأساس من الآية.

والسرّ في ذلك أنّ الحياة هي تلك الحياة وهذه الحياة ليست إلا ممرّاً ومعبراً، والإنسان فيها كمسافر تمنح له فرصة يسيرة ليتمكّن فيها من جمع أكثر ما يمكن جمعه من الزاد لتلك الحياة، كما قال تعالى:﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[1] وقال أيضاً: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى * يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾.[2]

ومن هنا فإنّ كلّ ما يعمله الإنسان في سبيل تطوير العيش في الحياة الدنيا يعدّ في نظر من يلاحظ الحياتين لعباً ولهواً، أي لا هدف له أصلاً أو الهدف منه الاشتغال والالتهاء بأمر تافه عن الأمر المهمّ كمن يترك شأناً هامّاً من شؤون الحياة الدنيا كالدفاع عن النفس والأهل والوطن، ويشتغل بالخمر والميسر ونحوهما فإنّ هذا لا يقبل له عذر عند العقلاء.

﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً﴾. تشبيه للحياة الدنيا بنبات الأرض وسرعة زواله، وهو أمر مشهود في الحياة بنحو مستمرّ. والغيث هو المطر ولكنّ التشبيه ليس به في الواقع، بل بالنبات وتحرّكه وتكامله السريع المنتهي إلى زواله إلا أنّه حيث كان نزول المطر سبباً لتكوّنه وكان هو

---

١. العنكبوت (٢٩): ٦٤.

٢. الفجر (٨٩): ٢٣ ـ ٢٤.

الباعث للأمل، فهو يشكّل أوّل مرحلة من هذه الحركة. وحيث كان المراد تشبيه كلّ مراحل الحياة بمجموع مراحل النبات ذكر في المشبّه به أوّل مراحله وهو الغيث.

ومثل هذه الآية في التشبيه بالمطر مع أنّ المشبّه به هو مصير النبات قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾.[2]

والمعروف أنّ المراد بالكفّار الزرّاع حيث يسترون البذر. والكفر هو الستر. وعليه فيمكن أن يكون اختيار هذا التعبير لإيهام التناسب والإشارة إلى أنّ الكفّار هم أكثر الناس إعجاباً بالمشبّه وهو الحياة الدنيا؛ لأنّها غاية أفكارهم ومطمح أنظارهم. وقد نسب القول به إلى ابن مسعود.[3] وقيل: إنّ المراد هم الكفّار بالمعنى المعروف وإن كان الإعجاب بالزرع لا يختصّ بهم إلا أنّهم أكثر إعجاباً بكلّ ما في الدنيا، كما هو واضح والأوّل أظهر.

والنبات اسم لما ينبت من الأرض ولا يراد به المصدر هنا فالزرّاع لا تعجبهم كيفية النبت، وإنّما يعجبهم ما نبت بذلك الغيث.

وهيجان النبات بمعنى صفرته ـ كما قيل ـ أو يبسه كما في «معجم مقاييس

---

١. يونس (١٠): ٢٤.

٢. الكهف (١٨): ٤٥.

٣. الكافي ١: ١٠٧، الحديث ٢، باب صفات الذات.

اللغة»[١] وهو أولى بالنظر إلى لفظ الآية حيث جعل الاصفرار مترتّباً على الهياج، فلا بدّ من اختلاف المعنى. والظاهر أنّ الهياج بمعنى الحركة أو الثوران معنى آخر، كما في «المعجم» أيضاً ويبعد كونهما من أصل واحد، فإن الهياج بالمعنى الآخر ليس بمعنى الحركة التدريجية التي تنتهي إلى اليبس والاصفرار، بل بمعنى الحركة الدفعية.

والحطام ما تكسر من الشيء، وهذا نهاية النبات والله تعالى يشبّه الحياة الدنيا بكلّ ما فيها من زينة وأموال وبهاء وجمال وعلم وحضارة بهذا النبات الذي ينتهي في تطوّره إلى حطام يابس تذروه الرياح، فيبقى الإنسان في آخر حياته ينظر إلى الرياح كيف تفرق هذه الحطام التي جمعها وهو يظنّ أنّه يجمع خيراً كثيراً، فإذا به يرى وجهها الآخر في حياة أُخرى قبيحاً مقززاً ويتمنّى لو كان بعيداً عنها بعد المشرقين وأنّى له الوصول إلى ما يتمنّاه؟

﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَديدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوانٌ﴾ يقابل واقع الحياة الدنيا التي تشبه نهاية النبات الذي يعجب الزرّاع وهي تبدّله إلى الحطام بواقع الحياة في العالم الآخر، فالحياة هناك تنقسم إلى قسمين: عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان. فالعذاب هناك شديد حتّى في أدنى درجاته لا يتحمّله الإنسان الذي لم يتعوّد مثله وهذا إخبار من الله تعالى وهو خبير بما خلق. وفي الجانب الآخر مغفرة من الله ورضوان. وهذا هو حقيقة الثواب الجزيل، فكلّ ما يذكر من الجنّات والأنهار فرع لهما، بل لا يعدّ شيئاً في مقابلهما، ولا شيء أعظم وأهمّ للإنسان منهما، فالمغفرة وهي الستر تمحو كلّ ما يشينه ويعيبه ويؤذيه، والرضوان

١. معجم مقاييس اللغة ٦: ٢٣.

من الله تعالى أعظم وأجل كلّ النعم في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ﴾. الغرور: الغفلة. والغارّ: الغافل وكذلك المغرور. والغرر: الخداع. وإضافة المتاع إلى الغرور باعتبار أنّه يوجب الغفلة والانخداع بظاهره، والمراد أنّ زينة الحياة الدنيا ولذائذها ليست إلا متعة عاجلة تخدع الإنسان وتغفله عن الأمر الأهمّ وهو الحياة الأبدية.

والمتاع اسم لما يتمتّع به، أي ينتفع به مؤقّتاً، والغرور والغفلة من جهة أنّ الإنسان يتصوّر أنّه متاع دائم أو يتعامل معه كأنّه دائم أو يغترّ به، لأنّه يراه طويل الأمد مع أنّه مهما طال فإنّه بالقياس إلى الآخرة لا يعدّ شيئاً. ولذلك قال تعالى: ﴿فَمَا مَتاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ﴾.[1]

﴿سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْض السَّماءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾. السبق هو التقدّم على الأقران والمسابقة محاولة التقدّم، فالآية تحرّض على محاولة التقدّم على الأقران لا مجرّد المسارعة إلى الخير، وذلك من جهة أنّ الآية السابقة بيّنت أنّ الناس يتسابقون في تكثير المال والأولاد ويشتغلون باللعب واللهو، فحثّهم في تاليتها بالتسابق في ما يؤول إلى المغفرة والجنّة. وهذا أيضاً يأتي في سياق الحثّ على الإنفاق في سبيل الله تعالى.

وقال بعضهم: إنّ التقدير المسابقة إلى أسباب المغفرة ولكن لا حاجة إلى هذا التقدير، بل المطلوب المسابقة إلى نفس المغفرة وهي الغاية التي يحاول كلّ من المتسابقين الوصول إليها، وبالطبع لا تتمّ المسابقة في الوصول إليها إلا عن طريق العمل بموجباتها. وقدّم ذكر المغفرة على الجنّة، إذ لا يستحقّ دخولها المذنب

---

١. التوبة (٩): ٣٨.

إلا بعدها. وفي التعبير بـ ﴿رَبِّكُمْ﴾ تطميع في رحمته الواسعة. والمراد بـ «العرض» السعة لا ما يقابل الطول.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1] إلا أنّ المسابقة تزيد على المسارعة من جهة اشتمالها على محاولة كلّ أحد السبق على الآخرين، وليس في المسارعة معنى المغالبة.

ولا فرق بين الآيتين من جهة الإتيان بكاف التشبيه هنا دون الأُخرى، فإنّه على كلا التعبيرين تشبيه للجنّة من حيث السعة بعرض السماوات والأرض، وليس المراد أنّها تملأ الكون بناءاً على أنّ هذا التعبير يراد به الكون المادي، بل المراد تشبيه سعته في ذلك العالم بما ذكر وهو خارج عن هذا الكون المادي الذي نشاهده. كما لا فرق بينهما من جهة ذكر السماوات هناك والسماء هنا، إذ المراد بها جنس السماء وليس سماءاً بعينها، كما هو واضح. ولا فرق أيضاً من جهة إعداد تلك الجنّة للمتّقين وهذه للذين آمنوا بالله ورسله، فإنّ الإيمان لا يستوجب دخول الجنّة إن لم يستتبع التقوى.

﴿ذلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾. إشارة إلى الثواب المذكور، أي المغفرة والجنّة. وهذا التذييل لدفع توهّم أنّ السابق في هذا السباق يحصل على ما ذكر بفضل جهوده، كما هو الحال في السباق على الأُمور المادية في الدنيا، بل إنّما يحصل عليه بفضل من الله تعالى، والفضل هو كلّ ما يمنح لأحد فوق ما يستحقّه، فإذا زاد المستأجر على الأُجرة المسماة للأجير كان فضلاً منه، وحيث إنّه لا يستحقّ أحد على الله شيئاً فكلّ ما يمنحه فضل منه تعالى.

---

١. آل عمران (٣): ١٣٣.

وقوله: ﴿يُؤْتيهِ مَنْ يَشاءُ﴾ لا يقصد به أنّه يمكن أن يؤتيه من لا حكمة في إتيانه، فيطمع الظلمة والجابرة في فضله يوم القيامة، بل المراد أنّه تعالى لا يُغلب في إرادته ومشيئته ولا يلزمه شيء حتّى ما وعد به وما سنّه من القوانين الطبيعية والجزائية، فيداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ولا يخرج شيء عن سلطته ومشيئته وهو العزيز الغالب القهّار، ولكنّه مع ذلك ذو الفضل العظيم وكلّ ما في الكون من سعة فضله وعظمته.

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾. السياق مستمرّ في الحثّ على الإنفاق في سبيل الله تعالى والتنديد بالبخل. والإصابة ـ على ما في «معجم المقاييس»[1] ـ نزول شيء واستقراره قراره. ومنه الصوب بمعنى المطر، وهي تستعمل في الخير والشرّ، قال تعالى: ﴿وَيا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقي أَنْ يُصيبَكُمْ مِثْلُ ما أصابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صالِحٍ﴾[2] وقال أيضاً عن المطر: ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[3] ولكنّ المصيبة لا تستعمل غالباً إلا في الشرّ وإن كانت في الأصل بمعنى ما يصيب الشيء من خير وشرّ.

والمراد بالمصيبة في الأرض الحوادث الطبيعية، وبمصيبة الأنفس ما يصيب الإنسان من الأمراض والموت وفقدان الأحبّة والفقر وسائر مشاكل الحياة. والآية تفيد الحصر بوضوح وأنّه ما من حادثة إلا وهي مسجّلة في كتاب قبل خلق الحادثة وإيجادها. والبرء هو الخلق. والضمير في: ﴿نَبْرَأَهَا﴾ يعود إلى المصيبة.

---

١. معجم مقاييس اللغة ٣: ٣١٧.
٢. هود (١١): ٨٩.
٣. الروم (٣٠): ٤٨.

والغرض من الآية تطييب خاطر المنفق في سبيل الله تعالى بأن لا يخاف الفقر والعَوَز، والتنديد بمن يبخل بماله فرحاً بما نال من ثراء كلّ ذلك من جهة أنّ كلّ ما تجدونه من خير أو شرّ فهو مكتوب مقدّر من عند الله تعالى، ولا يوجد شيء صدفة لسوء حظّ أو حسن حظّ، وإنّما الكون سلسلة من العلل والمعاليل، فكلّ حادث في زمانه لا بدّ من وجوده نتيجة لهذه السلسلة التي تفرض وجوده.

ومن هنا فإنّ المصيبة هنا لا يبعد أن تشمل الخير والشرّ لقوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتاكُمْ﴾ إلا أنّ المفسرين فسّروها بالنائبة، لأنّها لا تستعمل غالباً إلا فيها، ولما قيل من أنّها لم ترد في القرآن الكريم إلا في النائبة، فيكون عدم ذكر الخير من باب التقدير، أي ما أصاب من مصيبة ولا نال أحد خيراً إلا في كتاب. والحذف في مثل ذلك غير عزيز، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾.[١]

وربما يتوهّم أنّ ما ذكر من التقدير والتسجيل يستلزم أن لا يحاول الإنسان تغيير القضاء وأن يسلّم نفسه للحوادث، فلا مناص له من تقبّلها والتسليم لها، وذلك خلاف الواقع المشهود من سيطرة الإنسان في نطاق قوانين الطبيعة على نفسه وعلى مستقبله وإن كان بعض ما يحصل خارجاً عن إرادته.

والجواب أنّ التسجيل والتقدير ليس بمعنى أنّ الله تعالى قدّر أن يتحقّق الأمر، سواء تحقّقت علته وموجبه أم لا، بل المقدّر هو تحقّق الشيء بتحقّق علّته، ومن العلل جهود الإنسان في معالجة الموقف وتوسّله بالأسباب الطبيعية وغيرها كالدعاء والصدقة ونحو ذلك، ولكنّه ليس عالماً بكلّ المؤثّرات وليس قادراً على كلّها، فكثيراً ما يبذل الإنسان جهده ولا يتوصّل إلى ما يريد، بل يقع ما ليس

---

١. النحل (١٦): ٨١.

بالحسبان، كما أنّه قد لا يفعل شيئاً ولكنّه يصل إلى ما يريد، بل إلى ما لا يتوقّعه من الخير من حيث لم يحتسب، فما يفعله الإنسان أيضاً جزء من التقدير.

﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾. «يسير» صفة مشبّهة من اليسر وهو بمعنى السهولة والخفة والانقياد، والمراد أنّ التقدير والتسجيل يسير عليه تعالى؛ لأنّه ـ كما ذكرنا ـ يتوقّف على عموم العلم وشموله ولا شيء يعزب عن علمه تعالى.

﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ﴾. الجملة تعليل للإخبار عن هذه الحقيقة لا لنفسها، أي أعلمناكم بذلك حتّى لا تحزنوا على ما فاتكم، فإنّ ذلك كلّه مقدر مكتوب.

والأسى: الحزن. والفوت يصدق في كلّ ما لم يدركه الإنسان من منافعه وما يهواه. و﴿آتَاكُمْ﴾ أي أعطاكم والفاعل هو الله تعالى.

ومن الطبيعي أن يأسف الإنسان ويحزن لما فاته ممّا تعلّق به قلبه من شؤون الدنيا من مال وجاه وأحبّة، ومن الطبيعي أيضاً أن يفرح الإنسان بما يؤتيه الله تعالى من نعم في هذه الدنيا خصوصاً إذا لوحظ جانب كونه ممّا آتاه الله تعالى وهو ما تشير إليه الآية الكريمة، بل ينبغي أن يفرح به بهذا اللحاظ ويشكر ربّه على نعمه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.[1] ومن هنا يتبيّن أنّ المراد ليس النهي عن مطلق الأسى والحزن أو الفرح والابتهاج، وإنّما القصد النهي عن الإفراط في ذلك كما هو الحال في الغالب. فإذا فقد الإنسان شيئاً فليصبر وليحتسب بذلك أجراً من الله تعالى، وإذا أُوتي شيئاً من مال الدنيا فليتنبّه إلى أنّه ابتلاء له وامتحان، وليس إكراماً كما يتوهّم، فلا

---

١. يونس (١٠): ٥٨.

يمتنع من إنفاقه في سبيل الله تعالى ولا يبخل به حبّاً له.

﴿وَاللهُ لا يُحِبُّ كلّ مُخْتالٍ فَخُورٍ﴾. المختال اسم فاعل من الاختيال وهو الكبر والغرور والإعجاب بالنفس، وهو مأخوذ من الخيال، أي الظنّ والوهم، كمن أُوتي مالاً كثيراً أو سلطة أو قوّة جسمية فهو يتبختر ويتعالى، وربما يتوهّم أنّ له على الله كرامة ويخيّل إليه نفسه أكبر ممّا هو عليه وأعظم. وإذا بلغ منصباً دنيوياً ـ سواء بنصب أو انتخاب أو وراثة أو قوّة عسكرية ـ فإنّه يتصوّر أنّ ذلك إنّما كان لميزة له على غيره بينما لم يميّزه شيء عن غيره، بل ربما يكون أقلّ علماً وكمالاً وامتيازاً عن كثير من الناس، وإنّما ساعدته الظروف أو انتخبه الناس عن جهل كما هو ديدنهم، فإنّ أكثر الناس لا يشعرون.

والفخور الذي يفتخر بما فيه وإن لم يكن منه، أو بما ينسبه الناس إليه جهلاً وخطأً وهو من الفخر، أي التباهي واستحسان ما فيه من خصال والإعجاب به، بل فسّره بعضهم بالكبر.

والمراد بالمختال الفخور هنا من بطر بكثرة ماله وفرح به فرحاً شديداً ومرحاً تسبّب في بخله وإمساكه عن الإنفاق في سبيل الله تعالى.

وهذا تنديد بالبخل بعد الحثّ على الإنفاق، وبدأ بالتنديد بما يوجبه وهو الاختيال والكبر والفرح والفخر بالمال، وإنّما يتسبّب ذلك في البخل من جهة أنّ هذا الإنسان يتصوّر أنّ المال هو أساس امتيازه على الآخرين وهو يختال ويفتخر به، فيحاول بكلّ جهده الإبقاء على ما به شرفه وميزته. ومن هنا يتبيّن مناسبة هذه الجملة لما قبلها وأنّ الاختيال والفخر من أسباب البخل، كما أنّ الفرح الشديد بالمال والحزن الشديد على ما فات الإنسان من عوائد الدنيا أيضاً من أسبابه.

ونفي حبّه تعالى لهؤلاء بمعنى نفي حبّه للصفة، أي أنّه تعالى لا يرضى لكم ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾.[1] ومعنى حبّه ورضاه تعالى بفعل علمه بحسنه وتناسبه للإنسان وكونه صالحاً له ونافعاً، فإنّه تعالى لا ينتفع بشيء.

﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمرونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ بدل من المختال الفخور. ومن هنا ينتقل السياق إلى التنديد بنفس البخل وهو إمساك ما يقتنيه الإنسان ومنع الغير من الانتفاع به، وربما يطلق على الصفة النفسية التي تدعو إلى هذا المنع في مرحلة العمل. وأقبح البخل أن يبخل الإنسان بمال غيره وهو الذي يأمر الناس بالبخل، وإنّما يأمرهم بذلك ليكون له من الناس شركاء في صفته المذمومة فيقلّ قبحه. وهذا لا يختص بالبخل، ونحن نجد كثيراً من أتباع الهوى يحاولون نشر المفاسد الخلقية في المجتمع من أجل ذلك.

وأقبح منه من يمنع الناس أموالهم كالمتسلّطين على الأمّة وأذنابهم ممّن يسرقون المال العامّ ويخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾، أي ومن يتولّ عن أمر الله ويعرض عنه، فالتقدير هنا التولّي عن الشيء من الوَلْي والأصل فيه القرب، والتولّي إذا تعدّى بنفسه يفيد معنى الإقبال على الشيء أو المتابعة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغالِبُون﴾،[2] وإذا تعدّى بـ«عن» أفاد معنى الإعراض. فالمراد هنا من لم يأتمر بأمره تعالى بالإنفاق في سبيله.

و«من» شرطية والجواب مقدّر وهو أنّه لا يضرّ الله شيئاً، والجملة المذكورة

---

١. الزمر (٣٩): ٧.

٢. المائدة (٥): ٥٦.

في الجواب تغني عنه؛ لأنّه السبب وهو أنّه تعالى غني عن عباده، وإنّما يـأمرهم بذلك لمصلحتهم ولتربيتهم.

وهو الحميد أي المحمود، فكلّ الحمد له. والحمد إنّما يكـون علـى صـفات الكمال وله الكمال المطلق فلا ينقصه شيء، وهذا مكمّل لمعنى الغنى ويبـيّن أنّ غناه المطلق من جهة أنّ له الكمال المطلق، فلا نقص فيه ليكمله بفعل غيره، بـل لا غير له يقابله، فكلّ ما في الوجود متقوّم به وبإرادته في كيانه ووجوده.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْميزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾.

المقطع الأخير من السورة المباركة يتعرّض لبيان الهدف من رسالات السماء وإنزال الكتب والشرائع، واختلف المفسّرون في ارتباط هذا المقطع بالآيات السابقة، ففي «الميزان»[1] اكتفى بالإشارة إلى أنّ هذه الآيات تعرّضت لهدف الرسالات بعد أن أشار في الآيات السابقة إلى فتور المؤمنين وتثاقلهم في قبول الدعوة والإيمان بالرسول خصوصاً في أمر الجهاد والإنفاق من أجله.

وقال بعضهم: إنّ الغرض تهديد المنافقين المعنيين بالذين تولّوا في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَميدُ﴾ بالمواجهة والحرب. وهو أمر بعيد غاية البعد عن سياق هذه الآيات. وبعضهم رأى أنّ هذه الآيات ترتبط بقوله تعالى: ﴿وَسابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وتبيّن طريق الوصول إلى هذا الهدف؛ وبعضهم

١. راجع: الميزان في تفسير القرآن ١٩: ١٧٠ ـ ١٧١.

اكتفى بأنّ هذا المقطع لبيان وحدة الرسالات وهدفها؛ وبعضهم اكتفى بتفسير الآيات من دون إشارة إلى علاقتها بالسياق.

ولا يبعد أن يكون وجه الارتباط أنّ الغرض الأساس من السورة ـ كما مرّ ـ هو الحثّ على الإنفاق في سبيل الله وفي خصوص الجهاد، وهذا الأمر مع أنّه من الأُصول المهمّة في تأسيس المجتمع وتبليغ الدين والإبقاء على أمن البلاد والعباد، وكان من اللازم على المؤمنين التكاتف في ذلك في بدء تأسيس المجتمع الإسلامي إلا أنّ الناس غالباً كانوا يعتذرون من المشاركة فيه ويبحثون عن الأعذار. والنفاق أيضاً يواصل إلقاء الشبهات، فلعلّ من شبهاتهم المؤثّرة في تقاعس القوم هو السؤال عن سبب نشوب الحرب وأنّ الدين يجب أن يكون مسالماً كما يقال في هذا العصر أيضاً، فهذا المقطع يرد على هذه الشبهة.

توضيح الجواب أنّ الرسالات من أسباب الاختلاف بين الأُمم والذي بدوره يستوجب الحروب ويستدعي الجهاد، قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إلا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾،[1] فالبغي والاختلاف حصلا بعد إرسال الرسل، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾.[2] وهذه الآية أيضاً تدلّ على أنّ الاختصام حصل بينهم بعد إرسال الرسول فجأة. لقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ﴾، والمراد بمفاجأته أنّه لم يكن متوقّعاً، إذ لم يكن بينهم اختلاف.

---

١. البقرة (٢): ٢١٣.

٢. النمل (٢٧): ٤٥.

والحاصل أنّ الحروب الدينية نشأت من اختلاف الناس في مواجهة الرسالة الإلهية التي جاءت لمصلحتهم وهدايتهم وليقوم الناس بالقسط، ولكن كثيراً من الناس لا يعجبهم العدل والإنصاف، ولا يهتدون بهدايات السماء ويحرضون العامّة على مواجهة الرسالة، ويقع الاختلاف ويشتدّ شيئاً فشيئاً إلى أن تقوم الحرب بين الفريقين.

والمراد بـ «البيّنات» الأدلّة الواضحة على الرسالة، والباء للمصاحبة، أي أرسلناهم مصحوبين بأدلّة واضحة من البرهان العقلي والمعجزات التي تدلّ على أنّهم مرسلون من الله تعالى.

والمراد بـ «الكتاب» جنسه، فيشمل كلّ الكتب السماوية، ولعلّ الإتيان به بدلاً عن الجمع للإشارة إلى وحدة الهدف والمضمون. والكتاب بمعنى المكتوب وهو في الأصل بمعنى المجموع، قال ابن دريد في «الجمهرة»: «كتب الكتاب يكتب كَتْباً إذا جمع حروفه، وأصل الكتب ضمّك الشيء إلى الشيء»،[١] فيطلق الكتاب على كلّ مجموعة من الأفكار والألفاظ والمعاني، والمراد به هنا مجموعة من الحقائق الغيبية وأخبار السماء وشرائع الدين والأخلاق الفاضلة.

و«الميزان» ما يوزن به وهو اسم آلة ،ولكن ليس المراد هنا نفس آلة الوزن التي تستعمل في توزين البضائع كما توهّمه بعضهم، ومن الغريب ما قيل من أنّه ممّا نزل مع آدم عليه السلام من الجنّة، بل المراد ما يميّز به بين الحقّ والباطل، وتتحدّد به حقوق الناس في ما بينهم وهو الدين وشريعة السماء. والكتاب وإن كان يشتمل على بعض الحدود أو معظمها إلا أنّه لا يشتمل على الجميع، والرسول يوحى

---

١. جمهرة اللغة ١: ٢٥٥.

إليه سائر الأحكام في مواضع الحاجة. ولعلّ الإفراد هنا أيضاً يدلّ على وحدة «الميزان» في أُصوله بين الشرائع وإن اختلفت الجزئيات.

و«القسط» هو العدل، وقد مرّ الكلام حوله في سورة الرحمن، وقيام الناس بالقسط بمعنى إقامة العدل والعمل به في جميع شؤونهم.

وقال بعضهم: إنّ الآية تدلّ على أنّ الهدف من الرسالات هو قيام الناس بأنفسهم بالعدل من دون ولاية لأحد عليهم، فإنّه لم يقل ليقيموا القسط بين الناس، بل ليقوموا هم بأنفسهم بالقسط.

وهذا الاستنتاج غير صحيح بالنسبة إلى الرسل، فإنّه تعالى قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[1] وإنّما نسب القيام بالقسط إلى الناس لعدم اختصاص العدل والقسط بالأمور العامّة التي يتولاها ولي الأمر، فالمطلوب من كلّ إنسان أن يراعي العدل في كلّ أفعاله تجاه الآخرين، وأكثر ما يتحقّق من الظلم بين الناس إنّما هو من قبيل الاعتداءات الشخصية والتي قلّما تصل إليها سلطة القانون، كما نشاهده في العلاقات الزوجية والأُسرية وغيرها.

﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾. في هذه الجملة إشارة إلى الحروب التي تستوجبها الرسالات وتتوقّف على استخدام الحديد لصنع الأسلحة وممّا لا شكّ فيه أنّ الرسل ما كانوا يبدأون الحروب ولا يحاولون نشر الأديان بالقوّة، بل بالتبليغ والدعوة والإنذار والتبشير، وإنّما كانت الحروب تنشأ من صدّ الطغاة والظلمة عن سبيل الله ومنعهم من انتشار الرسالة وقتلهم الأنبياء والمؤمنين. وهذا واضح لمن يلاحظ تاريخ الرسل وسننهم.

---

١. النساء (٤): ٦٤.

ومعنى إنزال الحديد هو خلقه، كما ورد في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام[١] والسبب في هذا التعبير أنّ كلّ ما يخلق ويتكوّن فهو بأمر الله تعالى ومن السماء أي من جهة العلو المعنوي، ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾[٢] ومن المضحك ما قاله بعضهم من أنّ السيف أيضاً ممّا أتى به آدم عليه السلام من الجنّة!

والحديد معدن معروف، وأصل الحدّ بمعنى المنع، وسمّي بذلك لصلابته وامتناعه من الليّ والكسر.

و«البأس» يستعمل في معان كثيرة، ولعلّ الأنسب أن يكون بمعنى القوّة، أي فيه قوّة وصلابة شديدة، كما قال تعالى: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾.[٣] ويمكن أن يكون بمعنى العذاب باعتبار أنّه آلة القتل، فيتسبّب في عذاب الناس وقتلهم بأيدي أعدائهم في الحروب وغيرها. وأمّا منافع الحديد فكثيرة جدّاً وباكتشافه تحقّقت ثورة عظيمة في الحضارة البشرية منذ أقدم العصور.

﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾. الواو في أوّل الجملة للإشارة إلى معطوف مقدّر، أي لينتفعوا به في مجالات كثيرة من حياتهم وليعلم الله. والمراد أنّ الحديد والسلاح ممّا يستخدم في الحروب هجوماً ودفاعاً، فإن قام بعض المعاندين بحرب ضدّ الرسول قام بنصره المؤمنون واستخدموا السلاح لصدّ الأعداء، فيتبيّن بذلك من ينصر الله وينصر رسله ويتميّز عن غيره، فوجود السلاح يهيّء الأرضية الصالحة لبروز المجاهدين والمدافعين عن الحقّ وتميّزهم عن

---

١. راجع: الاحتجاج ١: ٣٧٢.
٢. الزمر (٣٩): ٦.
٣. الفتح (٤٨): ١٦.

غيرهم، وهذا من منافع الحديد. والله تعالى يعلم حال الناس قبل أن يبرز منهم شيء، ولكن لا أثر للعلم بما سيحصل وإنّما الأثر للجهاد المتحقّق على أرض الواقع، فمعنى قوله: ﴿لِيَعْلَمَ اللهُ﴾ أي ليتحقّق في واقع الأمر.

والمراد بنصرة الله تعالى نصرة دينه وشرائعه ورسله، والله تعالى يعتبر كلّ أمر يتحقّق بالنسبة إلى الرسول بما هو رسول منتسباً إليه، وأمثلة ذلك في القرآن كثيرة، فيلاحظ أنّ البيعة للرسول اعتبرها بيعة له وإيذاءه إيذاءاً له وإطاعته إطاعة له ومعصيته معصيته وإعطاء الرسول لهم إعطاءه وغير ذلك.

وقوله: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ بمعنى أنّهم ينصرون الله تعالى ولا يرونه بأُمّ عينهم مراقباً لهم ولعملهم. وفي ذلك إشارة إلى الغاية من خلق الإنسان وهو إيمانه بالغيب، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾،[1] فالكمال البشري لا يتحقّق إلا بارتباطه بالغيب وعدم إخلاده إلى الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾[2] وكلّما زاد من تعلّقه بالغيب وارتباطه بالسماء زاد كمالاً وزادت نفسه سعة وعلواً، وكلّما توغّل في الإخلاد إلى الأرض وتشبّث بالدنيا وزاد من تشبّثه بها زاد تخلّفاً ونقصاً وبعداً عن الكمال.

﴿إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾. المعروف بين المفسّرين أنّ هذه جملة مستقلّة، والغرض منها دفع توهّم أنّه تعالى بحاجة إلى نصرة الناس له ولرسله ولدينه وشرائعه، ولذلك يطلب منهم النصر، فهذه الجملة تردّ على هذا الوهم بأنّه تعالى لا يحتاج إلى نصرة أحد؛ لأنّه قوي ولا قوّة في الكون إلا به وهو عزيز، أي لا يؤثّر فيه

١. البقرة (٢): ٣.

٢. الأعراف (٧): ١٧٦.

شيء، فطلب النصرة والحثّ على الجهاد يعود بالنفع إلى العباد وهو واضح.

ولكن هذا التقرير يتنافى مع ظاهر الجملة حيث إنّ البدء بـ: ﴿إنّ﴾ ظاهر في كونها تعليلية، ولذلك عمد بعضهم إلى تفسيرها بأنّه تعليل لأصل إرسال الرسل والميزان، ولكنّه أيضاً خلاف ظاهر السياق، والظاهر أنّه تعليل لاختصاص التعليل في الجملة السابقة بالعلم والتبيّن حيث إنّ معناه أنّه تعالى لم ينزل الحديد لتنصروا دينه ورسله، بل ليتبيّن من ينصره وينصر رسله، فهو ليس بحاجة إلى أصل النصرة؛ لأنّه قويّ عزيز.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً وَإِبْراهِيمَ وَجَعَلْنا في ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ﴾. المعروف بين المفسّرين أنّ هذه الآية تفصيل للإجمال المذكور في الآية السابقة. ولكن لا يبعد ـ بناءاً على ما ذكرنا في الآية السابقة ـ أن يكون الغرض من هذه الآية الإشارة إلى تعامل الناس مع الرسالات طيلة تاريخها، حيث إنّ هذا الأمر هو الموجب للاختلاف بين الأُمم وحدوث الحروب الدينية.

وإنّما خصّ نوح وإبراهيم عليهما السلام بالذكر؛ لأنّ العرب وهم المخاطبون يعلمون أنّهم من ذرّيّتهما ويفتخرون بذلك، وإبراهيم من ذرّية نوح عليهما السلام أيضاً لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾[1]، فذكره بالخصوص من جهة أنّ الرسالات المعروفة بعد نوح كانت في الغالب في ذرّيّته. والمراد بـ«الكتاب» ما كان يوحى إليهم من المعارف والأحكام والسنن، كما مرّ آنفاً.

﴿فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ﴾. الضميران يعودان إلى الأُمم المرسل إليهم لا الذرّيّة كما ذكره بعضهم؛ لأنّ المراد بالذرّيّة الرسل ولأنّ الغرض على ما ذكرنا

---

١. الصافّات (٣٧): ٧٧.

الإشارة إلى تعامل الناس مع الرسل الذي استتبع الحروب. والتعبير عن الفساق بالكثير في مقابل المهتدي الذي ذكره بالإفراد وبـ:«من» التبعيضية ممّا يدلّ على قلته للإشارة إلى أنّ الأغلب من بين الأُمم كانوا كفرة. وعبّر بالفسق ليشمل من يخرج عن طاعة الرسول وإن آمن بالله تعالى، والفسق هو الخروج عن الطاعة وهو منشأ الحرب.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنا عَلَى آثارِهِمْ بِرُسُلِنا وَقَفَّيْنا بِعيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْناهُ الْإِنْجيلَ﴾. التقفية جعل شيء قفو شيء آخر، أي بعده مأخوذ من القفا وهو وراء العنق. والآثار جمع أثر وهو في الأصل ما يبقى على الأرض من أثر السير. والمعنى ثم أتبعنا بعدهم رسلاً على نفس الطريقة والشاكلة، أي من جهة تعاملهم مع الناس حيث أتوهم بالكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، ومن جهة تعامل الناس معهم حيث فسق الغالب منهم.

والظاهر أنّ ذكر عيسى عليه السلام بالخصوص لدفع توهّم ينشأ من ذكر الرسل والأنبياء واستيجاب دعوتهم للحروب وهو أنّه عليه السلام أورث في أُمّته الرهبانية وترك الدنيا ممّا أبعد عنهم شبح الحرب، فلماذا لا نتبعه في ذلك ونترك الحروب المذهبية؟

فالجواب أنّه أيضاً اتبع أثر الرسل السابقين وهذا يظهر من التعبير بالتقفية، وأمّا الرهبانية فهي من بدع أتباعه عليه السلام بعد وفاته، وليس ممّا كتبه الله تعالى عليهم. ولم أجد من ذكر وجهاً لتخصيصه عليه السلام بالذكر ولا لذكر الرهبانية. والظاهر أنّ الغرض من ذكر الإنجيل هنا أنّه عليه السلام أيضاً أتى بكتاب يشتمل على ما قد لا يروق لبعض الناس متابعته، فكان يستوجب الاختلاف والحروب المذهبية.

﴿وَجَعَلْنا في قُلُوبِ الَّذينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلا ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللهِ فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها﴾ وهذا هو الفارق الأساس بين أتباعه عليه السلام في ذلك العصر وغيرهم من الناس ممّا خفّف من حدّة الاختلاف ومنع من نشوب الحروب الدينية. وهو أمر تكويني لا علاقة له بالتشريع الإلهي وهو أنّه تعالى جعل في قلوب أتباعه الرأفة والرحمة. وقد مرّ في هذه السورة في تفسير الآية (٩) وجه الفرق بين الرأفة والرحمة.

والرهبانية مصدر جعلي من الرهبان، وهي صيغة المبالغة من الرهب وهو الخوف، فتدلّ على المبالغة والغلوّ في التخوّف والحذر، وهي اصطلاحاً نوع تعبّد شائع بين النصارى يبتني على اعتزال المجتمع والسكنى في الصومعة وترك التزوّج، ومنهم من كان يختصي ويعلّق على نفسه السلاسل، كلّ ذلك خوفاً من الله تعالى ومن الوقوع في معصيته، ويلازمه بالطبع ترك الجهاد في سبيل الله تعالى. والإسلام منع عن ذلك وأعلن أنّ المطلوب من الإنسان أن يمتنع من المعاصي مع بقائه في المجتمع وابتلائه بما يدعوه إلى المعصية، وأن يجاهد في سبيل الله مع الكفّار ومع نفسه وهو الجهاد الأكبر.

واختلفوا في تفسير هذه الجملة وتركيبها ونظمها على أقوال مختلفة لعلّ الأشهر بينهم أنّ الرهبانية ليست معطوفة على ما قبلها، بل هي منصوبة بفعل مقدّر يفسّره قوله: ﴿ابْتَدَعُوهَا﴾، أي وابتدعوا رهبانية، وقوله: ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ يفسّر الابتداع، وأمّا الاستثناء فهو منقطع وأصله لكنّهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله ومع ذلك كان عليهم أن يراعوها ولا يفرطوا فيها فما رعوها، بل أفرطوا وخرجوا فيها عن الحدود المسموحة شرعاً.

ولكنّ الأقرب إلى الصواب وظاهر اللفظ أن يقال: إنّ الرهبانية عطف على ما قبلها، والمراد بها نفس المعنى المصدري وهو الرهبة والخوف من الله تعالى، فإنّه هو ما يجعل في القلب دون الرهبنة المتعارفة التي هي عمل خارجي وليست أمراً قلبياً، وقوله تعالى: ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ على ظاهره، ولكنّه لا يفسّر معنى الابتداع وهو إحداث أمر في الدين ليس منه ولم يأمر به الله تعالى؛ لأنّ الضمير لا يرجع إلى الرهبانية التي ابتدعوها، بل إلى الرهبانية بالمعنى الأوّل، أي ما كتبنا عليهم الخوف من الله تعالى إلا لابتغاء رضوانه، و«الكتابة» هنا ليست بمعنى التشريع، بل بمعنى الجعل التكويني، كما هو الحال في جعل الرأفة والرحمة أيضاً. وجملة ﴿فَمَا رَعَوْهَا﴾ على ظاهرها، أي أنّهم لم يراعوا حقّ الرهبة والخوف من الله تعالى، فابتدعوا من أنفسهم أُموراً باطلة ونسبوها إلى الشرع من ترك التزوج واعتزال المجتمع وغير ذلك.

والذي يرتكب في هذا التفسير من مخالفة الظاهر أنّ الضمير في ﴿ابْتَدَعُوهَا﴾ وهي جملة وصفية لا يرجع إلى الرهبانية بنفس المعنى المقصود في الجملة السابقة، بل بالمعنى الآخر وهو ما تعارف إطلاق لفظ الرهبنة عليه ممّا يرتكبه الرهبان، فيكون حاصل معنى الآية: وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبة، أي خوفاً من الله، ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله، ولكنّهم ما رعوها حقّ رعايتها، بل ابتدعوا رهبانيّة من عندهم.

﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ﴾. الضمير في ﴿مِنْهُمْ﴾ يعود إلى الذين اتبعوه، والمراد الأتباع في الظاهر كما يُدعى كلّ من يدّعي الإسلام متبعاً للرسول ﷺ مع أنّ كثيراً منهم خالفوا أمره في كثير من الموارد أهمّها الولاية.

والمراد بالإيمان هنا التسليم للشريعة التي جاء بها عيسى عليه السلام بحذافيرها، ومنها البشارة بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فمن رفض الإيمان بذلك كان من الفاسقين. والفسق هنا يشمل الكفر بالرسالة كما يشمل الخروج عن طاعة الله ورسوله عملاً.

وكرّر التعبير بكثرة الفاسقين فيهم، كما مرّ ذكره في الأمم السابقة عليهم للتنبيه على أنّهم لم يختلفوا عن سائر الأمم في أنّ الغلبة فيهم كان للفاسقين. وفي ذلك تحذير للأُمّة المسلمة أن لا يحذوا حذوهم. وفي القرآن الكريم موارد عديدة تنبّه على أنّ ما حدث في الأمم السالفة يحدث في هذه الأُمّة أيضاً.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ عود على بدء، كما هو طريقة القرآن في كثير من السور، فحيث كان الحديث في السورة حول الإنفاق في سبيل الله تعالى وهو يتوقّف على الإيمان العميق بالرسالة، فإنّ الغالب على الإنسان إذا طلب منه المال أن يشكّ في موجبات الدعوة، لذلك أمرهم في الآية (٧) بالإيمان بالله ورسوله والإنفاق وعاد في آخرها ليؤكّد على الإيمان بالرسول ﷺ وربط ذلك بتقوى الله تعالى، فإنّ الشكّ في نزاهة الرسول ﷺ ينشأ من الشكّ في الله الموجب لضعف التقوى، فعلى من آمن بالله تعالى أن يتّقي الله في رسوله ويحسن الظنّ به ويطيعه في جميع شؤون الحياة.

وحيث وصف المخاطبون في الآية بالإيمان وأمروا أيضاً بالإيمان ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ المراد بالذين آمنوا هنا أهل الكتاب، وقالوا: إنّ ذلك يتأيّد بملاحظة الآية السابقة حيث وصف جمعاً من أهل الكتاب بالإيمان، فمعنى هذه الآية يا أيّها الذين آمنوا من أهل الكتاب آمنوا بالرسول.

ولكنّ الظاهر أنّ المراد بالذين آمنوا في القرآن على ما يفيده التتبّع هم الذين آمنوا بالرسول ظاهراً ويشمل ذلك حتّى المنافقين ما لم تكن قرينة على خلافه، مضافاً إلى أنّه ينافي ما سنذكره في الآية التالية حيث جعل علم أهل الكتاب مترتّباً على هذا الإيمان، فلا يمكن أن يراد بهم أنفسهم أو بعض منهم.

وأمّا الأمر بالإيمان فلا ينافي توصيف المخاطبين به، كما ورد في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾،[١] فلا بدّ من حمل الإيمان المأمور به على الإيمان الواقعي الذي يستتبع الإطاعة التامّة والعمل بما يأمر به الرسول ﷺ برحابة صدر، فهو يضاهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[٢] وغيرها من الآيات التي تأمر باللوازم البيّنة للإيمان، بل ينفي الإيمان عن من لم يتمكّن من قلبه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾.[٣]

﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ جواب للأمر بالإيمان، أي إن آمنتم بالرسول ﷺ فإنّه تعالى يجازيكم بهذه الأمور الثلاثة.

والكفل: النصيب، وقيل: إنّه بمعنى الضعف. والظاهر أنّ المراد بالتثنية هنا التكرّر، أي يكرّر عليكم الرحمة فلا تنقطع عنكم، وقد مرّ بعض الكلام حول ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبانِ﴾. وعليه فلا حاجة إلى التأويل بكون أحد الكفلين في الدنيا والآخر في الآخرة، أو أنّ أحدهما للإيمان بالله والآخر للإيمان بالرسول ﷺ ونحو ذلك ممّا قيل في التفاسير.

والظاهر أنّ المراد بالرحمة المتواصلة الرحمة في الدنيا وإن كان الجزاء

---

١. النساء (٤): ١٣٦.

٢. الأنفال (٨): ٢٤.

٣. النساء (٤): ٦٥.

الأُخروي هو الجزاء واقعاً، ولكنّ الغرض هنا هو التوفيق والنجاح في الدنيا، وهذا الأمر محبوب ومطلوب للإنسان حتّى الذين يؤمنون بالآخرة ويعلمون أنّ الفلاح والنجاح الواقعي لا يحصل إلا هناك وأنّ هذه الحياة شأنها حقير، والسرّ فيه أنّ الإنسان خلق عجولاً، والله تعالى لم يندّد بهذا الاستعجال، قال تعالى: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾.[1] والقرينة على ذلك الآية التالية، أي كون ذلك منبّهاً لأهل الكتاب وهم المنافسون للمسلمين منذ ذلك اليوم إلى عصرنا هذا، فإنّ ترتّب علمهم على ذلك لا يكون إلا إذا تحقّقت الرحمة المتكرّرة للمؤمنين في هذه الحياة. كما أنّ المراد بالنور الذي يمشون به على الظاهر هو النور في هذه الدنيا، ولعلّه لذلك وصفه بالمشي به الذي هو تعبير عن أنحاء النشاط في الدنيا، فهو نظير قوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾،[2] ولا وجه لحمله على النور في الآخرة ولم نجد في القرآن التعبير بالمشي في تلك النشأة.

بل لا يبعد أن يكون المراد به ما يشمل معرفة الأمور المادية في الدنيا ممّا يتوقّف عليه شؤون هذه الحياة لنفس القرينة أيضاً، فإنّ التقدّم في هذه الشؤون أبلغ تأثيراً في نفوس المناوئين، بل والموافقين أيضاً، فالتقدّم في شؤون الحياة الدنيا يكون سبباً واضحاً ومؤثّراً في تنبّه أهل الكتاب لهذه الحقيقة وهي أنّ التوفيق الإلهي والرحمة الإلهية لا تختصّ بهم.

ومن هنا يمكن أن يقال: إنّ الأمرين الأوّلين جزاء دنيوي والأخير أُخروي، بل

---

١. الصفّ (٦١): ١٣.

٢. الأنعام (٦): ١٢٢.

الأخير أيضاً يفيد في النشأتين، فإنّ الغفران هو الستر وستر الذنب بمعنى منعه من التأثير السلبي يفيد في الدنيا أيضاً. والجملة الأخيرة تعليل لكلّ ذلك وتنبيه على أنّ ما ذكر من الجزاء سببه غفران الله تعالى ورحمته وليس لاستحقاق العبد شيئاً على الله تعالى. وهذا التفسير هو المناسب لسياق الآيات ولغرض السورة المباركة. وللقوم في الآية وجوه من التفسير آثرنا الإعراض عنها.

﴿لِئَلا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ أَلا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾. الظاهر أنّ أصحّ الوجوه في تفسير الآية أن تكون «لا» في ﴿لِئَلا﴾ زائدة، أي لأن يعلم أهل الكتاب أي لكي يعلموا ألا يقدرون على شيء من فضل الله، ولعلّ المراد أنّ هذا العلم والتنبّه من أهل الكتاب يترتّب على إيمان المؤمنين بالرسول ﷺ إيماناً كاملاً يستتبع متابعتهم لأوامره وإنفاقهم في سبيل الله تعالى لإقامة الدين وإقامة النظام الإسلامي الصحيح حسبما أراده الله تعالى لهذه الأمّة، فلو فعلوا ذلك قويت شوكتهم وغلبوا على أعدائهم. وتبيّن لأهل الكتاب أنّ دعواهم الاختصاص برحمة الله تعالى وفضله توهّم باطل، فمعنى ﴿ أَلا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾، أي أنّهم لا يستطيعون أن يمنعوا أحداً من نيل فضله ونعمته.

﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظيمِ﴾، أي وليعلموا أنّ الفضل وهو كلّ ما ينعم الله تعالى به على خلقه بيده تعالى وتحت سلطته وقدرته، وليس هناك ما يمنعه تعالى من تفضلّه على أيّ قوم وأيّ أحد وفضله عظيم لا يتحدّد بحدود ولا يتقيّد بقيود إلا بإرادته تعالى وإن كانت إرادته تتبع حكمته.

وهنا أيضاً اختلفت كلمات المفسّرين اختلافاً عظيماً ولم أجد فيها ما يشفي الغليل، والظاهر أنّ ما مرّ ذكره هو الأولى.

والحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على رسوله الأمين وآله الميامين.

# تفسير سورة المجادلة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ
إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ
أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ
لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن
قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ
فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ
مِسۡكِينٗاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٤﴾

السورة مدنية تنقل قصّة الظهار التي حدثت في المدينة المنوّرة، وتذكر حكم الله تعالى فيها وتتبعه بأحكام يتناسب مع سياق القصّة. وقد مرّ في تفسير سورة الأحزاب أنّ الظهار كان من عادات الجاهلية يعاقبون به المرأة فيعتبرونها كالأمّ يحرم نكاحها ولا يطلّقونها، فتبقى معلّقة وهذا من أسوأ أنواع الظلم الذي كان

المجتمع الجاهلي المتخلّف يفرضه على النساء.

والروايات مختلفة في اسم المرأة صاحبة القصّة وزوجها وفي بعض شؤونها، ونحن نذكر هنا ما رواه الصدوق بسند صحيح عن أبان عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «**كان رجل على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقال له أوس بن الصامت، وكانت تحته امرأة يقال لها خولة بنت المنذر، فقال لها ذات يوم: أنت عليّ كظهر أُمّي ثم ندم من ساعته، وقال لها، أيّتها المرأة ما أظنّك إلا وقد حرمت عليّ، فجاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: يا رسول الله إنّ زوجي قال لي: أنت عليّ كظهر أُمّي، وكان هذا القول فيما مضى يحرّم المرأة على زوجها، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أيّتها المرأة ما أظنّك إلا وقد حرمت عليه، فرفعت المرأة يدها إلى السماء، فقالت: أشكو إليك فراق زوجي، فأنزل الله عزّ وجلّ: يا محمّد ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتي تُجادِلُكَ في زَوْجِها...﴾**».[1]

**﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتي تُجادِلُكَ في زَوْجِها وَتَشْتَكي إلى اللهِ﴾**. «قد» حرف تحقيق تؤكّد المضمون و في «الكشّاف»[2] أنّها هنا تفيد تحقّق المتوقّع حيث كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يتوقّع استجابة دعاء المرأة وهي أيضاً كانت تتوقّع ذلك، والسماع هناك بمعنى استجابة الدعاء و الشكوى لا العلم بهما.

والجدال والمجادلة: المناظرة والمخاصمة، و أصله من جَدْل الحبل أي فَتْله و إحكامه، فكأنّ كلاً من المتجادلين يحاول إحكام ما ارتآه، أو أنّ الكلام بينهما كالحبل بين شخصين يفتلانه و يشدّان فتله. ومهما كان فالمجادلة في الغالب تشتمل على الاعتراض و عدم القبول، وهذا يدلّ على أنّ المرأة أصرّت على

---

١. من لا يحضره الفقيه ٣: ٥٢٧، باب الظهار.
٢. راجع: الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل ٤: ٤٨٥.

مطالبة الرسول ﷺ بحلّ المشكل وإرجاعها إلى بيت الزوجية، كما ورد في عدّة من الروايات.

والاشتكاء والشكوى بمعنى إظهار التوجّع من شيء، وقيل: إنّ الاشتكاء مبالغة في الشكوى. وحيث إنّ المرأة واجهت رفض الرسول ﷺ لحلّ مشكلها وإعلامها بأنّها قد حرمت على زوجها فاشتكت من الحكم الشرعي وطلبت من الله تعالى أن يفرج عنها، وفي بعض الروايات أنّها قالت: لي صِبْية لو أعطيته إيّاهم ضاعوا ولو أخذتهم منه جاعوا.

﴿وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾. التحاور من الحَوْر أي الرجوع، ويطلق على المكالمة بلحاظ أنّ كلاً من المتحاورين يرجع الكلام إلى الآخر، والجملة مستأنفة تفيد التعليل لاستجابة الشكوى، ولذلك أُبدل الفعل الماضي إلى المضارع ليدلّ على أنّه لا يتقيّد بوقت ولا بهذه القضية. كما أُبدل المجادلة إلى التحاور الذي يشملها ويشمل غيرها من أنحاء المكالمة ليكون المعنى أعمّ من القضية الخاصّة ثمّ علّل ذلك بأنّه تعالى سميع بصير، أي سميع لكلّ صوت ومبصر لكلّ جسم.

والسماع هنا بمعناه الحقيقي، وهو إدراك الصوت والله تعالى يسمع الأصوات لا بآلة كما يبصر الأشياء بدونها، وربما يأوّل هذان الوصفان بالعلم بالمسموعات والمبصرات، ولكنّ الصحيح أنّ المراد بهما إدراكها، والظاهر أنّ حقيقة الوصفين فيه تعالى أنّ المسموعات والمبصرات كلّها بذواتها حاضرة عند الله تعالى غير غائبة عنه والله العالم. وهناك فرق واضح بين العلم بالصوت وبين سماعه، وهذا الفرق نشعر به عندنا بوضوح، وإنّما اضطرّوا إلى التأويل؛ لأنّ السماع متلازم في

أذهاننا مع الإحساس بالصوت عن طريق الأُذن وهو مستحيل عليه تعالى، ولكنّ المعنى في الواقع هو إدراك الأصوات وهو يشمل ما يكون بالإحساس وما يكون بحضور الأشياء عند السامع المدرك لذواتها.

والتأكيد على كونه تعالى سميعاً بصيراً يؤثّر إيجاباً في نفسية الإنسان، فإنّ استشعار أنّ الله تعالى يسمع كلامنا ويبصرنا وأنّه حاضر معنا ومشرف علينا، كلّ ذلك يوجّه سعينا وعزمنا ويبعدنا عن ما لا يناسب حضوره تعالى، وفي نفس الوقت يبعث في نفوسنا الطمأنينة والأمان، ولذلك قال الإمام الحسين عليه السلام على ما في الخبر: «**هوّن عليّ ما نزل بي أنّه بعين الله**»[1] وليس كذلك مفهوم العلم بالأشياء.

﴿**الَّذينَ يُظاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسائِهِمْ ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلا اللائي وَلَدْنَهُمْ**﴾. بهذا البيان الواضح والقاطع نزل الوحي لينصر المرأة المظلومة ويزيل الإحساس الخاطئ لدى الرجل المظاهر حيث إنّه كان يتصوّر أنّ قبح معاشرة المرأة المظاهرة يوازي قبح معاشرة الأُمّ وهو ممّا تعافه النفس السليمة والضمير الحيّ ولذلك اختار الله تعالى نفس التعبير لمنع الزواج من زوجات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته، فقال تعالى: ﴿**وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ**﴾[2] وهذا التعبير أبلغ في المنع من أيّ نهي أو تهديد بالعذاب.

والحاصل أنّ الكتاب العزيز نبّه المجتمع الساذج المتقيّد والمكبّل بالتقاليد الجاهلية الباطلة بأنّ الأُمومة لا تحصل بمجرّد اعتبار امرأة أُمّاً مهما بالغ الإنسان في التعبير عن ذلك، كما كانوا يفعلونه بالظهار حيث يشبّهون المرأة بظهر الأُمّ

---

١. اللهوف في قتلى الطفوف: ٦٩.
٢. الأحزاب (٣٣): ٦.

مبالغة في تقبيح معاشرتها بأنّ ذلك كركوب ظهر الأمّ فلا أثر لهذا الاعتبار، وإنّما الأُمومة علاقة طبيعية بين الإنسان والمرأة التي ولدته.

و«من» في قوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ للتبعيض وفي ﴿نِسَائِهِمْ﴾ للتعدية بتضمين معنى الانفصال، يقال: «ظاهر امرأته» و «ظاهر من امرأته»، كما يقال في الإيلاء: «آلى من امرأته» باعتبار أنّ المظاهر ينفصل من زوجته وكذلك في الإيلاء وهو الحلف على ترك معاشرة الزوجة.

وجملة ﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ تعليل لنفي الأُمومة و«إن» نافية، أي ما أُمّهاتهم. والحصر المستفاد من النفي والاستثناء إضافي بالنسبة إلى الزوجة المظاهرة، فلا ينافي الأُمومة بالرضاع.

وقد ورد التنبيه على هذا الحكم أيضاً في قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَما جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللائي تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾[1] وقلنا في تفسيرها: إنّ اعتبار الزوجة أُمّاً والدَّعِيّ ابناً اعتبار باطل لا يقرّه الشرع. والاعتبار القانوني لا يصحّ إلا من الله تعالى والله هو الذي يقول الحقّ، فقط، وأمّا غيره فقد يقول الحقّ وقد يقول الباطل، وهو تعالى لم يجعل الأزواج المظاهرات أُمّهات حتّى يحرم نكاحهنّ، كما كان يظنّ أهل الجاهلية.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُور﴾. الضمير يعود إلى المظاهرين، وفي الجملة تأكيد بلام القسم وهي تؤكّد أنّ ما يقولونه منكر وزور.

والمنكر ما ينكره عامّة الناس أو خصوص المتشرّعة، ولا يعني كلّ ما هو

---

١. الأحزاب (٣٣): ٤.

محرّم، وأمّا ما اشتهر بين الفقهاء في باب النهي عن المنكر أنّه بمعنى الحرام، فلا بدّ من التأمّل فيه.

﴿مِنَ الْقَوْلِ﴾ بيان، أي أنّه قول منكر وزور. ولعلّ توصيف جملة الظهار بالمنكر من القول لأنّها تعرّض الأُمّ التي يجب احترامها وإكرامها لهذا الكلام الفظيع والتصوّر القبيح لمجرّد تشنيع العمل بقصد إنشاء تحريم المرأة.

وأمّا الزور فهو في الأصل بمعنى العدول والاعوجاج، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾،[1] أي تميل عن كهفهم. ويطلق الزور على الكذب؛ لأنّه انحراف عن الواقع، فلعلّ التعبير به عن هذا القول من جهة أنّه خلاف الواقع؛ لأنّ المرأة ليست أُمّه، أو لأنّه ظلم وانحراف عن الحقّ؛ لأنّه يستوجب حسب معتقدهم ترك المرأة مع بقاء الزوجية، فتبقى معلّقة لا يمكنها أن تتزوّج بغيره، ولا أن تستمتع به وتنال حقوقها الزوجية.

والعفو هو الترك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾،[2] أي كلّ ما تركته من المال لا حاجة لك فيه. وكلّ من استحقّ عقاباً فترك فقد عفي عنه.

والغفران هو الستر، وهو مرحلة متقدّمة من الترحّم والاشفاق على المذنب، فالعفو لا يعني إلا تركه ولا ينافي أن تبقى الوصمة عليه، والغفران يقتضي ستر عيبه فلا يرى عيبه أحد. وصيغة «فعول» من صيغ المبالغة ويدلّ على الثبات والاستمرار على ما قيل، ولعلّ ذلك إشارة إلى أنّ عفوه وغفرانه تعالى يشملان عالم الآخرة ولا تختصّان بالدنيا.

---

١. الكهف (١٨): ١٧.
٢. البقرة (٢): ٢١٩.

وتعقيب التنبيه على كون القول منكراً وزوراً بذلك من رحمته تعالى بعباده، فهو لا ينبّه على معصية ويعرّض بعقابها إلا ويعقّبه بتنبيه على إمكان التخلّص منه بالتوبة وأنّ الله تعالى عفوّ غفور.

وربّما استفيد من هذا التعقيب أنّ الظهار حرام معفوّ عنه، ولكنّه لا يدلّ على ذلك، بل الظاهر أنّ العفو والغفران يترتّبان على التوبة.

﴿وَالَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَماسَّا﴾. من هنا يبتدئ بيان حكم المظاهر بعد أن ارتكب الجريمة، فإنّ ما سبق تنديد بها وتحريم لها، ولكن ما هي وظيفة الرجل بعد ذلك، هل تبقى المرأة معلّقة أم يجوز لهما الاستمتاع؟ فهذه الآية وما بعدها جواب عن هذا السؤال. وكرّر ذكر الموضوع وهو: ﴿الَّذِينَ يُظاهِرُونَ﴾ للتأكيد على أنّ هذا حكم من صدر منه ذلك، والجملة بمنزلة أن يقال: وأمّا من ظاهر... ولذلك أتى بالفاء على الخبر: ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ وإنّما قدّر «أمّا» لأنّ هذه الجملة بمنزلة الجواب عن السؤال المقدّر كما ذكرنا. وأمّا قوله: ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا﴾ فهو تقييد للموضوع، و«ما» مصدرية واللام بمعنى «إلى»، أي يعودون إلى قولهم. وأمّا العود فقد اختلف فيه المفسّرون قديماً وحديثاً، وبنى الفقهاء على ذلك اختلافهم في الفتوى.

والظاهر ـ كما قال به أكثرهم ـ أنّ المراد به العود إلى ما حرّموه على أنفسهم وهو الاستمتاع، وذلك على تأويل القول بالمقول فيه، فلا يكون المراد بما قالوا نفس القول، بل المراد العود إلى ما قالوا قولهم فيه وهو الاستمتاع، والمراد بالعود إرادة العود، نظير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾،[1]

١. النحل (١٦): ٩٨.

أي إذا أردت قراءة القرآن... وقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾،[1] بناءاً على أنّ المراد «وإذا أردتم القيام»، وفيه احتمال آخر، فالمعنى أنّ من يظاهر ثمّ يندم ولا يريد مفارقة زوجته يجب عليه أن يكفّر قبل المواقعة.

ويدلّ على ذلك ما ورد في بعض روايات أهل البيت عليهم السلام من عدم وجوب الكفّارة إلا إذا أراد المواقعة، منها ما رواه الكليني بسند صحيح عن جميل بن درّاج، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام الرجل يقول لامرأته أنت عليّ كظهر عمّته أو خالته؟ قال: «**هو الظهار**». قال: وسألناه عن الظهار متى يقع على صاحبه الكفّارة؟ فقال: «**إذا أراد أن يواقع امرأته**». قلت: فإن طلّقها قبل أن يواقعها أعليه كفّارة؟ قال: «**لا، سقطت عنه الكفّارة...**» الحديث.[2]

وقيل: إنّ المراد العود إلى الظهار مرّة أُخرى، والنتيجة أنّ الكفّارة لا تجب إلا بعد الظهار الثاني، وهو مخالف للروايات الصحيحة والسنّة المروية عن طرق الفريقين، مع أنّ العود لا يقتضي الرجوع إلى نفس العمل، بل يصحّ التعبير إذا عاد إلى بعض متعلّقاته.

وقيل: المراد العود إلى عادتهم في الجاهلية بعد أن تركوه في الإسلام. وهذا يوجب تخصيص الحكم بمن كانت هذه عادته في الجاهلية، ولا يشمل من ظاهر أوّل مرّة وهو مسلم وهو بعيد عن ظاهر الآية وتخصيص غير مبرر.

وقيل: المراد بالعود تدارك ما قالوه كقولهم عاد الغيث على ما أفسد، أي

---

١. المائدة (٥): ٦.

٢ الكافي ٦: ١٥٥، الحديث ١٠، باب الظهار.

تداركه بعد الجفاف، وذلك بتقدير الإرادة أيضاً، أي يريدون العود والتدارك، وهذا لا يختلف في النتيجة عن القول الأوّل مع كونه أظهر.

وقيل: إنّ المراد العود إلى الظهار بعد ظهار الرجل الأوّل، أي الأوس بن الصامت على ما في الخبر، ولا وجه له والآية لا تنطبق عليه أوّلاً لأنّ قوله ﴿ثُمَّ﴾ يدلّ على التراخي، فهذا العود مترتّب على الظهار، مع أنّ الأمر حسب هذا القول بالعكس، وثانيا لأنّ هذا المظاهر لم يقله قبل هذا الظهار، وإنّما قاله أوس، فهذا عود لما قاله غيره، بل لا يعتبر عوداً من الأساس، ومن الغريب أنّ هذا الوجه ورد في بعض الروايات، فقد روى علي بن إبراهيم، في تفسيره حديثاً ورواه عنه الكليني في «الكافي» وفيه: فأنزل الله عزّ وجلّ: **﴿وَ الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا﴾**، «**يعني لما قال الرجل الأوّل لامراته أنت عليّ حرام كظهر أُمي قال: فمن قالها بعد ما عفى الله وغفر للرجل الأوّل فإنّ عليه تحرير رقبة...**».[١] وفقهاؤنا أعرضوا عن مضمون هذا الحديث ولم يعملوا به بالرغم من صحّة سنده في «الكافي».

والكفّارة هنا مرتّبة، فالمرتبة الأُولى تحرير رقبة، والمراد عتق الرقيق وعبّر عنه بالرقبة لأنّها العضو الذي يتوقّف عليه الحياة، فهو تسمية للكلّ باسم الجزء، ولكن لا يعبّر به عن كلّ إنسان بل المملوك والأسير، ولعلّه لكونه محبوساً لدى المالك والموسر فكأنّ رقبته مغلولة ولا يعبّر عنه بالعنق مع اتحاد المعنى.

والإسلام اعترف بالرقّ إذا اقتضته الحرب؛ لأنّ استعباد الإنسان أولى له من القتل ولأنّ الدين يهتمّ بالشأن الأُخروي، فبالاسترقاق يحاول الإبقاء على حياته وهدايته إلى ما يسعد به في الآخرة، والقتل يفقده كلّ شيء ولا يبقى أمل في

---

١ الكافي ٦: ١٥٢، الحديث ١، باب الظهار.

نجاته في تلك النشأة. ولكنّه مع ذلك حاول تحرير الرقيق عن طريق اعتباره كفّارة لكثير من الذنوب ودية في القتل وموجباً للتقرّب إلى الله تعالى.

والمراد بالتماسّ المواقعة، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ﴾[١] وغيرها من الآيات. وهذا تعبير كنائي يقتضيه أدب القرآن الرفيع. ومقتضى الآية عدم جواز المواقعة قبل التكفير، كما وردت به الروايات، ومنها صحيحة جميل بن دراج التي مرّ ذكرها آنفاً. ومقتضى الآية والروايات أيضاً عدم لزوم التكفير لو اختار الطلاق، فهو ملزم بأحد الأمرين، فلا تجب الكفّارة لمجرّد الظهار وذلك لأنّه قيّد موضوع الوجوب بالعود، فالذين يظاهرون ليس بنفسه موضوعاً للحكم، بل بعد العود. والنتيجة إلزامه بأحد الأمرين.

﴿ذلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبيرٌ﴾. الوعظ كما يستفاد من «العين»: «هو التذكير بالخير بنحو يرقّ له قلبه»،[٢] وفي «المفردات»: «زجر مقترن بتخويف»،[٣] والظاهر أنّ المراد باسم الإشارة النهي عن الظهار والأمر بالكفّارة، ومعناه أنّ الله تعالى يعظكم باجتنابه وبدفع الكفّارة وعدم المواقعة قبلها. والجملة الأخيرة تشتمل على تهديد حتّى لا يتصوّر الإنسان أنّه في قرارة البيت بمعزل عن القانون وتطبيقه، فإنّ الله تعالى خبير بكلّ ما يعمله الإنسان وينويه حتّى في خبايا ضميره. فكيف بزوايا البيت؟!

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَماسَّا﴾. وهذه كفّارة المرتبة الثانية لمن كان لا يملك رقّاً ولا قيمته، أو كان في زمان أو مكان لا يوجد فيه الرقّ

---

١. الأحزاب (٣٣): ٤٩.

٢. كتاب العين ٢: ٢٢٨.

٣. مفردات ألفاظ القرآن: ٨٧٦.

كزماننا هذا، فإنّ عدم الوجدان يشمل كلّ ذلك. وحكمه في هذا الحال صوم شهرين متتابعين أي متواليين، فلا يكفي التفريق. والظاهر منهما الشهر العربي، كما أنّ الظاهر لزوم التتابع بينهما كاملين وهناك أبحاث في الفقه حول كفاية ستين يوماً وإن كان ضمن ثلاثة أشهر، فلا يلزم أن يبدأ الصوم من أوّل الشهر وكذا في كفاية التتابع بين شهر ويوم من الشهر الثاني، ثمّ تفريق باقي أيّامه أو تتابع واحد وثلاثين وتفريق تسعة وعشرين يوماً مطلقاً، أو في ظروف خاصّة.

وكرّر التقييد بكون ذلك قبل المواقعة ليفيد عدم جوازها حتّى مع عدم التمكّن من العتق إلا بعد أن يصوم الشهرين جزاءاً له، وتدلّ الآية على لزوم إتمام الشهرين قبل أن يتماسّا فلا يكفي الشروع، بل لا تجوز المواقعة حتّى لو بقي يوم واحد من صوم الكفّارة.

﴿**فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعامُ سِتِّينَ مِسْكيناً**﴾ حيث إنّ الصوم ربما لا يتمكّن منه بعض الناس لمرض أو كبر فالله تعالى جعل هذه الكفّارة وهي الإطعام في المرتبة الثالثة لهذا القسم من الناس. وهنا أيضاً أبحاث فقهية في مقدار الطعام ونوعيته وكفاية تقديم الطعام وشروط المسكين وتعريفه. والمسكين من السكون ـ على ما في كتب اللغة ـ كالمنطيق وقد اشتقّوا منه الفعل، فقالوا: تمسكن، ثمّ اشتقّوا منه المصدر وهو المسكنة ومن حيث المعنى يختلف عن الفقير في أنّ المسكنة تطلق على الذلّة حتّى من دون فقر، كما قال تعالى: ﴿**وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ**﴾[1] بناءاً على أنّه عطف تفسير.

وفي الروايات الفرق بينهما بأنّ الفقير هو الذي لا يسأل والمسكين يسأل، ففي

---

١. البقرة (٢): ٦١.

صحيحة محمّد بن مسلم عن أحدهما ـ أي الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام ـ أنّه سأله عن الفقير والمسكين، فقال: «**الفقير الذي لا يسأل والمسكين الذي هو أجهد منه الذي يسأل**».[1]

وفي رواية أبي بصير، قال: قلت: لأبي عبد الله عليه السلام قول الله عزّ وجلّ: ﴿**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ للفقراء والمساكين**﴾ قال: «**الفقير الذي لا يسأل الناس، والمسكين أجهد منه والبائس أجهدهم**».[2]

وأمّا من حيث الحكم الفقهي فهما واحد. والظاهر أنّ المراد به في الآية هو نفس الفقير حسبما فهمه الفقهاء من الروايات وهو الذي لا يملك قوت سنته لا فعلاً ولا بالقوّة.

﴿**ذلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ**﴾. الظاهر أنّ الإشارة إلى جعل الكفّارات، وحيث إنّ الخطاب موجّه للمؤمنين فالمراد به أنّ هذه الكفّارات إنّما جعلت ليتمكّن الإيمان في قلوبكم ويمنعكم من الظهار، وهو يدلّ بالطبع على أنّ هذا العمل ينافي الإيمان وهو كذلك؛ لأنّه من بقايا الرواسب والعادات الجاهلية التي يجب على المؤمن أن ينتزعها من نفسه ولا يحوم حولها أبداً.

﴿**وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَلِلْكافِرينَ عَذابٌ أَليمٌ**﴾. الحدّ: المنع، فالمراد من كون شيء من حدود الله تعالى أنّه يمنع من تجاوزها. والله لا يمنع في هذه النشأة أحداً من ارتكاب أكبر الجرائم منعاً تكوينياً، فالمراد بالمنع منعه حسب القانون الإلهي، ومعناه أنّه تعالى جعل لمرتكبه جزاءاً صارماً يوم القيامة، وللحدّ معنى آخر إن لم

---

١. الكافي ٣: ٥٠٢، الحديث ١٨، باب فرض الزكاة.

٢. الكافي ٣: ٥٠١، الحديث ١٦، باب فرض الزكاة.

يرجع إلى هذا المعنى وهو طرف الشيء ومنتهاه، فالمعنى ـ بناءاً عليه ـ أنّ هذه الأُمور منتهى ما يجوز الوصول إليه، فلا يجوز التعدّي عن هذه الحدود. والتعبير بكون شيء من حدوده تعالى أبلغ في المنع من النهي إنشاءاً، بل حتّى من التصريح بالعقاب؛ لأنّه يعتبره كأنّه حدّ ومنع تكويني وكأنّه تعالى جعل مانعاً عن الوصول إليه. ولذلك عبّر عن من يتجاوز هذه الحدود بالكافر، فالتذييل بالجملة الأخيرة يصعد بالحكم إلى أعلى المستويات.

والظاهر أنّ المراد باسم الإشارة في أوّل الجملة ما مرّ من حرمة الظهار ووجوب التكفير قبل المواقعة، فعدم الاهتمام بذلك يستلزم تجاوز الحدود الإلهية ويستوجب وصمة الكفر وتعقّب العذاب الأليم. ولعلّ السرّ في هذا التشدّد في التعبير عن هذا الحكم هو كونه من بقايا الجاهلية. والإسلام يبالغ في المنع عن العود إلى الجاهلية وعاداتها حتّى لو لم يكن بنفس تلك الطقوس، ومن هنا ورد التأكيد في تحريم التصوير والتجسيم وأنّ المصوّرين من أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة؛ لأنّ ذلك كان يجذبهم نحو ما تعودوا عليها وترسخت في نفوسهم من عبادة الأصنام وتقديسها.

ومن هذا الباب ما ورد في صحيحة زرارة عن أبي جعفرعليه السلام قال: سألته عن المريض كيف يسجد، فقال: «**على خمرة أو على مروحة أو على سواك يرفع إليه هو أفضل من الإيماء، إنّما كره من كره السجود على المروحة من أجل الأوثان التي كانت تعبد من دون الله وإنّا لم نعبد غير الله قطّ، فاسجدوا على المروحة وعلى السواك وعلى عود**»[1] والظاهر أنّ الإمامعليه السلام أشار إلى ما ورد في كتب العامّة من أنّ النبيصلى الله عليه وآله وسلم عاد مريضاً فرآه

١. وسائل الشيعة: ٥: ٣٦٤، باب جواز السجود على المروحة.

يصلي وقد رفع إليه مروحة أو نحوها ليسجد عليه، فأخذ منه الرسول ﷺ ورماه وأمره بالإيماء.

ويلاحظ أنّ هذا التعبير ورد في موارد أُخرى تتعلّق أيضاً بحقوق النساء أو كيفية التعامل معهنّ، منها قوله تعالى: ﴿وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ الله فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾[1] ومنها قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إلا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ الله فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ الله فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ الله فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ الله فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ الله وَتِلْكَ حُدُودُ الله يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[2] ومنها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إلا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ الله وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ الله فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أمراً﴾.[3]

فلعلّ في ذلك وجهاً آخر أيضاً وهو تحذير الناس من الاعتداء في عقر البيوت حيث لا يراهم أحد إلا الله تعالى، وهناك موارد كثيرة من الظلم يقع على النساء فلا يجدن مخرجاً ولا ملجأ لعدم وجود الشهود على ما يحدث في البيوت، فالله تعالى جعل على كلّ إنسان رقيباً من نفسه بهذه التحذيرات، وهذا ممّا لا يمكن لأيّ قانون أن يفرضه في المجتمع إلا القانون الإلهي، وأمّا أتباع

---

١. البقرة (٢): ١٨٧.

٢. البقرة (٢): ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

٣. الطلاق (٦٥): ١.

القانون الوضعي فيلجأون إلى اعتبار الحقّ دائماً مع الجانب الضعيف بالطبع، أي المرأة ولكنّ ذلك لا يحقّق العدالة دائماً، بل ولا غالباً.

ومن ذلك أيضاً ما ورد في ذيل أحكام الإرث قال تعالى بعد ذكر مجموعة من الفرائض: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ خالِدِينَ فيها وَذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظيمُ * وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ ناراً خالِداً فيها وَلَهُ عَذابٌ مُهينٌ﴾.[١] ولعلّ الوجه فيه كون هذه الأحكام أيضاً في معرض الاعتداء الاسري الذي لا يتدخّل فيه النظام الاجتماعي غالباً خصوصاً في الأعصار القديمة.

---

١. النساء (٤): ١٣ ـ ١٤.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾. المحادّة مفاعلة من الحدّ وهو ـ كما مرّ ـ إمّا بمعنى المنع فمعناها الممانعة، أي المخالفة والامتناع عن امتثال أوامر الله تعالى، وإمّا بمعنى طرف الشيء ومنتهاه، فالمراد أنّه يجعل لنفسه حدّاً غير الحدّ الذي فيه رسول الله ﷺ وشريعة الله وهذا تعبير عن المعاداة والمخاصمة، ومثلها أيضاً المشاقّة، أي كلّ من الخصمين في شقّ غير شقّ الآخر. والمحادّة بالمعنى الثاني كانت بالمباشرة مع الرسول ﷺ ولكنّ الله تعالى ـ كما مرّ سابقاً ـ يعتبر هذه الأمور متعلّقة به حتّى أنّ إيذاء الرسول ﷺ يعتبره إيذاءاً لنفسه.

والكبت قيل: إنّه بمعنى الإذلال، وقيل: أصله الكبّ وهو الصرع، وهذا أيضاً يعود إلى المعنى الأوّل بوجه، إذ لا يراد بصرعهم على وجوههم معناه الحقيقي بل الكنائي وهو الإذلال والقهر. والمراد به إذلالهم في الحياة الدنيا، كما يظهر ذلك من التشبيه بما حصل للسابقين.

والإتيان بصيغة الماضي إمّا لأنّه دعاء عليهم، أي أكبتهم الله كما أكبت الذين

من قبلهم، والدعاء من الله حكم، أي أنّه سيكبتهم قطعاً، وإمّا أنّه إخبار عن الوقوع في المستقبل ولكنّه حيث كان قطعياً فكأنّه وقع.

والمراد بالذين كبتوا من قبلهم إمّا الأُمم السالفة حيث كانوا يحادّون الله ورسله وصرعوا وأذلّوا وأخزاهم الله بعذاب الدنيا قبل الآخرة، أو المراد من سبقهم إلى ذلك من المشركين كما قيل.

إنّما الكلام في من أُريد بهذه الآية، والمعروف بين المفسّرين أنّ المراد بهم الكفّار وأنّ التعرّض لهم جاء بمناسبة ذكر حدود الله تعالى في الآية السابقة، وقال بعضهم: إنّ المراد بها المنافقون، ولكنّ الظاهر ـ كما أشار اليه العلامة الطباطبائي[١] رحمه الله ـ أنّها أتت في سياق الآية السابقة وأنّ المراد بمن يحادد الله ورسوله هو الذي يتعدّى على حدود الله تعالى، ولكن يمكن أن لا يكون المراد مجرّد من يخالف حكم الله مخالفة عملية، بل من لا يؤمن بهذا الحكم وإن آمن بالله تعالى وبأصل الرسالة، فهناك كثير من المؤمنين يستخفّون بهذا الأمر، فإن جاءهم حكم من الله لا يروق لهم أو لا يتماشى مع مصالحهم أو لا يهتدون إلى وجه الحكمة فيه حاولوا بطريقة أو بأُخرى التشكيك فيه، فإن توسّط الفقيه في إبلاغ الحكم شكّكوا في فقهه، وإن توسّطت الرواية شكّكوا في صحّتها.

ومن الغريب من يشكّك في ذلك في عهد الرسالة المجيدة مع أنّ الإيمان بصحّة كلّ ما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو من صلب العقيدة والتشكيك فيه يوجب الكفر ولذلك جاء في ذيل هذه الآية ـ كالآية السابقة ـ تحذير الكافرين من العذاب إيذاناً بأنّ هذا كفر. ومع أنّه مستغرب فقد كان في ضمن الجماعة

---

١. راجع: الميزان في تفسير القرآن ١٩: ١٨٠.

المسلمة من لم يؤمن ببعض الأحكام كمتعة الحجّ وهو يصرّح بذلك ويواجه به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وفي بعض الأحاديث أنّه صلى الله عليه وآله وسلم أخبره أنّه لن يؤمن بذلك أبداً وكان كما قال عليه وآله السلام، فأصرّ الرجل على ذلك بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً ولكنّ الصحابة عامة لم يقبلوا منه ذلك وإن تبعه بعض الناس.

ومن أوضح الموارد التي رفض فيها بعض من كان في ذلك العهد حكم الله تعالى ولاية أمير المؤمنين عليه السلام ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لا يصرّح بها في حشد عامّ حتّى نزل قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾[1] ولا شكّ أنّ المراد بما أُنزل أمر خاصّ وإلا لم يكن معنى للشرطية حيث يكون مفادها إن لم تبلغ فإنّك لم تبلغ. ويفهم من قوله تعالى: ﴿**وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾ السرّ في تخوّفه صلى الله عليه وآله وسلم من الإعلان عنها. ويجب أن تلاحظ الجملة الأخيرة التي تدلّ على كفر من يرفض ذلك.

والحاصل أنّ المراد بالمحادّة على ما يبدو الترديد في قبول الأحكام النازلة من السماء لمخالفتها النزعات الجاهلية أو المصالح الشخصية أو غيرها. وهذه صفة كثير من الناس حتّى من كانوا في ذلك العهد.

وربما يتصوّر أنّ تشبيههم بمن كان قبلهم ينافي ذلك؛ لأنّ المراد بهم الكفّار من الأُمم السابقة. ولكنّه غير صحيح، إذ يمكن أن يكون المراد بهم أمثالهم من المؤمنين بحسب الظاهر في الأُمم السالفة حيث كانوا يشكّكون حتّى في أُصول العقائد، فنجد قوم موسى عليه السلام طلبوا منه بعد كلّ ما رأوه من الآيات أن يجعل لهم

---

١. المائدة (۵): ۶٧.

إلهاً كما لهم ـ أي للمشركين ـ آلهة، ولمّا غاب عنهم أربعين يوماً عبدوا العجل. ولذلك أخزاهم الله تعالى وأكبتهم ولم يقبل منهم التوبة إلا بقتل أنفسهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلى بارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بارِئِكُم﴾،[1] وقال تعالى فيهم أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾.[2] هذا مع أنّ التشبيه بالكفّار والمشركين من الأُمم السابقة في المحادّة مع الله والرسول لا ينافي أن يكون المراد بهم هنا جمع من المعتنقين للدين.

﴿وَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ بَيِّناتٍ﴾. لعلّ الواو حالية، أي حادّوا الله مع أنّا أنزلنا آيات واضحات. والمراد بها ـ بناءاً على التفسير المشهور في الجملة السابقة ـ كلّ آيات الكتاب أو الآيات التي تدلّ على نزول العذاب على الأُمم السالفة لإثبات الكبت على من قبلهم أو الأعمّ من آيات الكتاب وسائر المعاجز. وعلى ما ذكرنا المراد بها الآيات التي تشرع الأحكام من قبيل ما مرّ هنا من تحريم الظهار ولزوم التكفير، فإنّ الغرض التنديد بالمحادّة بعد نزول الآيات الواضحة على الحكم الشرعي.

﴿وَلِلْكافِرينَ عَذابٌ مُهينٌ﴾ حيث كانت المحادّة ناشئة من الكبر ورفض الانصياع لأحكام الله تعالى، فكان عذابهم مهيناً جزاءاً وفاقاً لكبرهم. وتكرار ثبوت العذاب على الكافرين يؤكّد ما ذكرناه من أنّ هذه الآية في سياق الآية السابقة ويدلّ على أنّ المراد بالكفر فيهما أمر واحد وهو تعدّي حدود الله تعالى ولا يبعد أن

---

١. البقرة (٢): ٥٤.

٢. الأعراف (٧): ١٥٢.

يكون المراد خصوص من لا يؤمن بها كما مرّ.

وللكفر مراتب كما أنّ للإيمان مراتب وكذلك النفاق، ومن الخطأ أن نصنف كلّ مجموعة بدقّة في هذه الحياة. نعم يوم القيامة حيث تتبيّن الحقائق وتنكشف خبايا القلوب يصنف كلّ مجموعة بدقّة، ولعلّ هذا هو المعنى الصحيح لقوله تعالى: ﴿وَ إِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾[1] فربما نجد هناك في عداد الكفّار أو المنافقين من اعتبرناه هنا مؤمناً خالصاً تقياً.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ظرف لثبوت العذاب للكافرين أو للإهانة في قوله: ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ وقوله: ﴿جَمِيعاً﴾ إمّا مصدر مؤكّد، أي لا يفلت منهم أحد، كما قال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾[2] وإمّا بمعنى مجتمعين، فيكون حالاً كما قال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ﴾.[3]

و ﴿يُنَبِّئُهُمْ﴾ أي يعلمهم. والخزي والكبت والإهانة تتمّ بإعلامهم بما عملوا؛ لأنّه يتحقّق بعرض الأعمال، بل عرض ما في النفوس من نوايا خبيثة ومقاصد باطلة. وسيأتي بعض الكلام حول حقيقة الإعلام بالأعمال يوم القيامة في تفسير الآية التالية إن شاء الله.

وقوله: ﴿أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ﴾ جملة استينافية في مقام تعليل إعلامهم بأعمالهم، والضمير يعود إلى ﴿مَا عَمِلُوا﴾.

والإحصاء معرفة العدد بدقّة مأخوذ من الحصاة؛ لأنّهم كانوا يعدون الأشياء

---

١. التكوير (٨١): ٧.

٢. الكهف (١٨): ٤٧

٣. المرسلات (٧٧): ٣٨.

بالحصى. والله تعالى لا يعزب عن علمه شيء ولا ينسى وهو شهيد، أي شاهد على كلّ نفس وعلى كلّ عمل وعلى كلّ ما يخطر بالبال، وأمّا الإنسان فإنّه ينسى ما عمله خصوصاً ما كان شرّاً.

والنسيان في حدّ ذاته نعمة من الله تعالى، إذ لولاه لم يشعر الإنسان بالسعادة على وجه الأرض حتّى في لحظة، سواء في ذلك نسيان ما يصدر من الإنسان من قبائح أو ما يجري عليه من مصائب. ولكن لا بدّ لمن يريد إكمال نفسه أو التحلّي بالفضائل أو اجتناب غضب الله تعالى وعذابه أن يستذكر ما عمله ويصلح نفسه ويتوب إلى ربّه ويعوّض عن ما خسر بصالح الأعمال.

﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّمواتِ وَما فِي الأَرْضِ**﴾. الخطاب للرسول ﷺ أو لكلّ قارئ وسامع، والمراد بالرؤية العلم؛ لأنّ علم الله تعالى بالأمور ليس ممّا يرى بالعين، ولكنّه لشدّة ظهوره يعبّر عنه بالرؤية. والاستفهام للتقرير، أي أنّ الأمر واضح بحيث يراه كلّ أحد مع أنّه ليس ممّا يرى.

والجملة مرتبطة بما قبلها وهو شهادته تعالى على كلّ شيء، وبما بعدها وهو حضوره في كلّ نجوى ومسارّة. ويتبيّن بها أنّ السرّ في كلّ ذلك عموم علمه تعالى لكلّ شيء صغير أو كبير، فشهوده وحضوره ليس بمعنى الحضور الشخصي الموجب للتحديد، بل بمعنى سعة علمه ونفوذه في كلّ شيء وحضور كلّ شيء عنده بكامل وجوده، سواء كان في السماوات أو في الأرض، ويمكن أن يكون المراد بالسماوات العوالم العلوية الخارجة عن هذا الكون المادي، وبالأرض عالم المادّة بكلّ ما فيه من نجوم وكواكب، فكلّ ذلك أرض بالنسبة لتلك العوالم، كما يمكن أن يكون هذا تعبيراً عن ما سوى الله تعالى؛ لأنّ

الإنسان إذا فتح عينه ولاحظ ما حوله أو دار بفكره وجال بخياله لا يتجاوز السماوات، أي ما يعلوه من أجسام والأرض، أي ما حوله من أجزاء الكون، فكان هذا هو أنسب تعبير عن كلّ ما في الكون، سواء كان مادّياً أو خارجاً عن نطاق المادّة.

﴿ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلا هُوَ رابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلا هُوَ سادِسُهُمْ﴾. لم يأت هنا بواو العطف ليدلّ على أنّ هذا المضمون تفسير لسعة علمه تعالى. والنجوى اسم مصدر بمعنى المسارّة. وقوله: ﴿يَكُونُ﴾ تامّة ليس لها خبر، أي لا يوجد نجوى... وتأنيث كلمة «نجوى» مجازي، ولذلك أتى بفعل «يكون» للمذكر. و«من» زائدة للتأكيد على عموم النفي، و«نجوى» مضاف إلى «ثلاثة»، أي ثلاثة أشخاص، وربما يحمل النجوى على المتناجين، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾،[1] فقيل: إنّه بتقدير المضاف، أي ذوو نجوى، ولكنّ في كتاب العين: «**والقوم نجوى وانجية**».[2] ويمكن أن يكون من باب حمل المصدر مبالغة.

والظاهر أنّه لا خصوصية لهذه الأعداد إلا من جهة اللفظ، فلو كان يذكر الاثنين لم تتناسق الضمائر ولو كان يذكر الأربعة لتكرّر ذكر العدد ولم يقصد بذكر هذا التفصيل إلا التأثير النفسي بتجسيم هذا الواقع الغيبي ليشعر به الإنسان في حياته المادّية، وكأنّه أمر مادّي ملموس. ولكن جمعاً من المفسّرين ذكروا وجوهاً لا أساس لها لذكر هذه الأعداد بالخصوص. وكثيراً ما يشعر الإنسان بالراحة في ما يظنّه خفاءاً وخلوة، ويغفل عن الرقيب الذي معه، والذي لا يغفل

---

١. الإسراء (١٧): ٤٧.

٢. كتاب العين ٦: ١٨٧.

عن أدنى شيء ممّا يختلج في ضميره فكيف بما يعمله في اختلائه بنفسه أو ما يبوح به لغيره.

ثمّ إنّ التعرّض لهذه الحقيقة وإن كان مقدمة للآية التالية التي تتعرّض لنجوى المنافقين ومؤامرتهم ضدّ الرسول ﷺ والمؤمنين إلا أنّه في نفس الوقت استمرار للسياق السابق وتأكيد على ما مرّ في أول السورة من أنّه تعالى سمع محاورة المرأة مع الرسول ﷺ وعلى ما حذّر ضمن بيان حكم الظهار من تعدّي حدود الله تعالى في عقر البيوت بتوهّم الخلوة وغياب الرقابة القانونية.

﴿**وَلا أَدْنى مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا**﴾. الدنوّ بمعنى القرب ويكنى به عن القلّة. ويشمل ذلك ما هو أقلّ من ثلاثة، أي النجوى بين شخصين يشمل أيضاً الأربعة؛ لأنّها أقلّ من الخمسة. وأمّا الأكثر فلا تحديد له والعناية هنا بكونه تعالى مع كلّ مجموعة، كما قال تعالى: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ**﴾[1] وقلنا في تفسيره: إنّه كناية عن الإحاطة العلمية والوجودية. ومعنى قوله: ﴿**أَيْنَ ما كانُوا**﴾ أنّه لا يخلو عنه مكان من دون أن يحيط به المكان.

﴿**ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ إعلام البشر في ذلك اليوم بحقائق الأمور ممّا تكرّر ذكره في القرآن. وهذا الأمر ربما يتمّ من دون قول وإخبار، بل بلحاظ أنّ حقائق الأشياء تتبيّن في تلك النشأة حيث ترتفع الحجب وينكشف الغطاء وتحدّ الأبصار.

والإعلام بما عملوا ربما يكون من جهتين: من جهة الإحصاء لما مرّ من قوله تعالى: ﴿**أَحْصاهُ اللهُ وَنَسُوهُ**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَيَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا مالِ هذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ**

---

١. الحديد (٥٧): ٤.

**صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إلا أحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً﴾**[1] ومن جهة بروز حقائق الأعمال، فإنّ الإنسان لا يعلم في هذه النشأة حقيقة عمله ولا يعلم سعة تأثيره في المجتمع البشري، ويوم يجد عمله حاضراً بكلّ سعته وعمقه وحقيقته المزعجة يستنكر ما يرى ولا يصدّق أنّه عمل مثل ذلك.

وربما يقول الإنسان في حادث جملة واحدة يعتبرها جملة عابرة ولا يعلم مدى تأثيرها وأنّها قد تتسبّب في حروب طاحنة تبتلع ضحايا كثيرة طيلة قرون. وهل كان يعلم من قال: «إنّ الرجل ليهجر، حسبنا كتاب الله» أنّ كلمته هذه ستمزق المجتمع الإسلامي إلى يوم القيامة وتتسبّب في سقوط ملايين الضحايا؟! نعم ربما كان يعلم أنّها ستمنع الرسول ﷺ من أن يكتب وصيته وهو ما أراد؛ لأنّها ما كانت تنفع بعد ذلك القول وتلك المشادّة والمشاحنة المدروسة مسبقاً.

---

١. الكهف (١٨): ٤٩.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ
وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ
أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ
وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ
ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ
فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ
وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِما نُهُوا عَنْهُ وَيَتَناجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾. الاستفهام للتعجيب أو ـ بالأصحّ ـ لإنشاء التعجّب. والرؤية بمعنى النظر ولذلك تعدّى بـ «إلى». والنجوى المسارّة بين شخصين أو أكثر سواء كانت أمام غيرهما أم لا. والآية تدلّ على أنّهم نهوا عن النجوى قبل هذه الآية ولكنّهم لم ينتهوا عنها. والإتيان بالفعل المضارع يدلّ على استمرارهم وإصرارهم على ذلك وأنّه لم يكن أمراً عابراً.

والنهي عن النجوى إنّما يكون في حالتين: الأُولى أن يكون التناجي بأمر مستنكر كما ورد في هذه الآية. والثانية أن يكون موجباً لتوهّم حاضر في المجلس أنّ التناجي بشأنه ممّا يوجب حزنه كما ورد في الآية بعد التالية، وإلا فالنجوى بذاتها ليست منهياً عنها، فلكلّ إنسان أسراره وخصوصياته. وبين كلّ

اثنين يجمعهما شأن كالزوجين والشريكين أسرار أيضاً تخصّهما.

والحاصل أنّ النهي هنا لأمر خارج عن حقيقة النجوى. ولكن بعض المفسّرين حيث رأى أنّ صدر الآية يشتمل على نهي عن مطلق النجوى: ﴿نُهُوا عَنِ النَّجْوى﴾ ذهب إلى أنّها بذاتها أمر منهي عنه، ولكنّ المنافقين هنا تناجوا بالإثم والعدوان فازدادوا إثماً. والصحيح أنّ المراد بالنجوى في صدر الآية نوع خاصّ منه وهو ما فسّره في الجملة التالية، أي التناجي بالإثم و...

والظاهر من الآية أنّ موردها تناجي جماعة من المنافقين ومؤامرتهم ضدّ الرسولﷺ وضدّ المؤمنين، فالتناجي بمعنى المؤامرة خُفيةً والله تعالى قد فضحهم في المرّة السابقة وأظهر أسرارهم، فنهاهم الرسولﷺ عن تكرار ذلك ولكنّهم لم ينتهوا واستمرّوا في تآمرهم فنزلت هذه الآية تهدّدهم، وليس المراد كما توهّم تناجيهم أمام المؤمنين بما يحزنهم، فإنّ ظاهر الآية أنّ موضوع النجوى كان معصية الرسولﷺ لا أنّهم عصوه بنفس التناجي وذلك لمكان الباء.

والإثم يشمل مطلق المعاصي. والعدوان يختصّ بما يشتمل على التعدي على حقوق الآخرين، والمراد بمعصية الرسولﷺ مخالفتهم لأوامره الحكومية أو الخاصّة. ولا يبعد أن يكون المراد بكلّ ذلك شيئاً واحداً وهو التآمر على الرسولﷺ فإنّه في نفس الوقت إثم ومعصية لله تعالى وعدوان أيضاً على حقوق الآخرين، أي الرسولﷺ والمؤمنين، فيكون العطف في: ﴿وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ عطف تفسير، مضافاً إلى أنّ تآمراً كهذا لا يخلو عادة من آثام وتعدّيات أُخرى.

ثمّ إنّ التآمر على معصية الرسول ﷺ أعظم من التآمر على الإثم بذاته وإن كان فيه معصية لله تعالى، وذلك لأنّ معصية الله قد تدعو إليها الدواعي النفسية والشهوات ولذلك كثيراً مّا تحدث من المؤمن ثمّ يتوب إلى الله تعالى، وأمّا معصية الرسول ﷺ والتآمر عليه فلا يتحقّقان إلا من المنافقين والذين في قلوبهم مرض والذين لم يترسخ الإيمان في قلوبهم؛ إذ لا يدعو إليه إلا العداء لأصل الدين والرسالة وليس ممّا يستهوي الإنسان بذاته.

وفي أكثر التفاسير أنّ المراد بهؤلاء اليهود أو هم مع المنافقين، وقال العلامة الطباطبائي ﷺ [1] إنّ في شمول الآية لليهود خفاءاً والوجه فيه أنّ اليهود لا يتوقّع منهم أن ينتهوا بنهي الرسول ﷺ، بل لا وجه لتوجيه النهي إليهم؛ إذ لا يعترفون برسالته وإمامته، فالأولى أن يقال: إنّهم غير مقصودين بالآية قطعاً فتختصّ الآية بجمع من المنافقين أو ضعيفي الإيمان. ويدلّ على ذلك أيضاً الآية التالية حيث خاطب المؤمنين بالانتهاء عن ذلك كما سيأتي.

﴿وَإِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ﴾. ورد في رواية في تفسير علي بن إبراهيم أنّ بعض الصحابة كانوا إذا أتوا الرسول ﷺ حيّوه بتحيّة الجاهلية «أنعم صباحاً» و«أنعم مساءاً».[2] وهذا أوفق بالآية ممّا ورد في روايات العامّة من أنّ المراد بهم اليهود وأنّ جمعاً منهم وردوا على الرسول ﷺ فقالوا: «السام عليك»،[3] وذلك أوّلاً لما مرّ من عدم تناسب الخطاب لليهود، وثانياً لأنّ ظاهر الآية أنّهم كانوا

---

١. راجع: الميزان في تفسير القران ١٩: ١٨٦.

٢. راجع: تفسير القمي ٢: ٣٥٥.

٣ راجع: الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل ٤: ٤٩١؛ روح المعاني ١٤: ٢٢٠.

يحيّون بذلك تحيّة حقيقية، ولكنّه غير ما حيّـا الله تعـالى بـه رسـوله ﷺ أي هـو مخالف للتحيّة الإسلامية، وأمّاَ الجملة المنسوبة إلى اليهود فليس فيها تحيّة، بـل هي دعاء بالموت أو السأم والضجر.

وبناءاً على هذه الرواية هناك تناسب في هذا الموضوع مع الموضوع الأصلي في السورة أي قصّة الظهار، وقد مرّ أنّ السورة تعالج أمراً أساسياً وهو عدم العود إلى العادات والتقاليد الجاهلية فتكون هذه الآية أيضاً في نفس السياق. ولا يبعد أن يكون ذلك هو موضوع النجوى والتـآمر أيـضاً بمعنـى أنّ هـذه الجملـة ربمـا تكون مبينة لنوعية ما كانوا يتداولونها في مؤامراتهم، أي محاولـة إحيـاء الـسنن الجاهلية.

ويبدو من سياق الآية وخصوص الجملة التالية أنّ هؤلاء كانوا يتعمدون ذلك ويقصدون به الطعن على ما أتى به الرسـول ﷺ مـن التحيـة الإسـلامية وإظهـار الولاء لسنن الجاهلية وعاداتها. وهذا شأن كلّ جماعة مخالفة للثـورة والإصـلاح أو مخالفـة لأيّ ثقافـة مـستحدثة ينـادي بهـا المـصلحون فـي أيّ مجتمـع مـن المجتمعات البشرية، فالمخالفون يحاولون بشتّى الطرق الحطّ من كرامـة الثـورة والثقافة الجديدة والاستخفاف بهما.

﴿**وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ**﴾، «لولا» للحثّ والتحريض كأنّهم يطلبون من الله أن يعذّبهم بمخالفتهم للرسول ﷺ ويقصدون بذلك التعريض بما أخبر به الرسول ﷺ. وهذا يدلّ على تعمّدهم للتحية المذكورة، ويمكن أن يراد به قولهم في النجوى أيضاً.

والحاصل أنّهـم كـانوا بـذلك يتحـدّون الرسـول ﷺ والرسـالة ومـا ورد فـي

الكتاب من نزول العذاب على الأُمم السالفة ويستدلّون على عدم صدق الرسول ﷺ في دعواه الرسالة الإلهية بعدم نزول العذاب عليهم، مع أنّهم يخالفون الرسول ﷺ ويتآمرون عليه ويطعنون في تحيّته التي أمر بها ويتنادون بالرجوع إلى السنن الجاهلية.

﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْـمَصيرُ﴾ هذا جواب لاستبطائهم نزول العذاب، أي تكفيهم جهنّم. وما أدراك ما جهنّم؟! نار تحرق الأرواح قبل الأجسام: ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأفْئِدَةِ﴾[1] وهم سيصلونها يوم القيامة، أي يحترقون بها وهي مصيرهم ونهاية مطافهم. و﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ جملة وصفية. والفاء في ﴿فَبِئْسَ﴾ تعني الاستدلال على كفايته، أي أنّها تكفيهم جزاءاً؛ لأنّها بئس المصير الأبدي المحتوم لهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا إِذا تَناجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾. قيل: إنّه عدول عن مخاطبة المنافقين إلى مخاطبة المؤمنين تعريضاً بهم، فيقول للمؤمنين: لا تكونوا كالمنافقين في فعلتهم هذا... وهو بعيد؛ لأنّ المؤمنين الذين ترسخ الإيمان في قلوبهم لا يمكن أن يتآمروا على الرسول ﷺ ويتناجوا بمعصيته، كما مرّ بيانه آنفاً. فالصحيح أنّه خطاب للمنافقين والذين في قلوبهم مرض، ولكنّه تعالى خاطبهم بهذا العنوان ليذكّرهم بأنّهم قد آمنوا وبايعوا الرسول ﷺ فلا ينبغي لهم أن يخالفوا عهدهم.

﴿وَتَناجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوى وَاتَّقُوا اللهَ الَّذي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾. الظاهر أنّ الباء في قوله: ﴿بِالْبِرِّ﴾ للمصاحبة، إذ ليس المراد حصر موارد جواز التناجي بما يكون من البرّ والتقوى، بل الغالب أنّ الناس يتناجون في شؤونهم الدنيوية الخاصّة بهم، ولكنّ

---

١. الهمزة (١٠٤): ٧.

اللازم أن يكون ذلك مصاحباً للبرّ والتقوى. ولعلّ المراد بالبرّ هنا أن لا يوجب ذلك إضراراً أو ايذاءاً للغير، فيكون إشارة إلى ما سيأتي في الآية التالية من التناجي الذي يحزن الناس. وقد ورد النهي عن النجوى بين اثنين بحضور غيره؛ لأنّه يتوهّم أنهما يتكلّمان بما يسيء إليه.

روى الكليني بسند صحيح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إذا كان القوم ثلاثة فلا يتناجى منهم اثنان دون صاحبهما فإنّ في ذلك ما يحزنه ويؤذيه**».[١] ولعلّ هذا هو الفرق بينه وبين التقوى فيجب أن يكون التناجي مصاحباً للتقوى أيضاً، أي لا يشتمل على أيّ محرّم، بل على أيّ مشتبه ممّا يجب فيه الاحتياط للدين. والجملة الأخيرة وعظ وتهديد وتحفيز للتقوى من الله تعالى بتذكّر يوم الحشر حيث يحاسب الإنسان على كلّ صغيرة وكبيرة.

وبما ذكرنا في الآيتين يتبيّن أنّ السياق ليس بصدد المنع عن أصل التناجي ولا التنديد به خلافاً لما فهمه المفسّرون، فإنّ التناجي بذاته ليس أمراً مستهجناً ولا مكروهاً ، وإنّما يمنع عنه إذا اشتمل على محرّم أو كان موجباً لإيذاء مؤمن. ومنه يتبيّن أيضاً أنّ قوله تعالى: ﴿**إذا تَناجَيْتُمْ**﴾ بيان لظرف الحكم، كقوله تعالى: ﴿**إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ**﴾[٢] وليس بمعنى أنّه لا ينبغي التناجي مطلقاً ولكن إن كنتم فاعلين لا محالة فليكن كذا...، كما ورد في بعض التفاسير، بل هذه الجملة تفيد جواز التناجي في حدّ ذاته.

﴿**إِنَّمَا النَّجْوى مِنَ الشَّيْطانِ لِيَحْزُنَ الَّذينَ آمَنُوا**﴾. المراد بالنجوى هنا نوع خاصّ منها

---

١. الكافي ٢: ٦٦٠، الحديث ١، باب في المناجاة.

٢. الطلاق (٦٥): ١.

وهو ما يقوم به بعض الناس مع حضور شخص ثالث، إمّا لغرض إيذائه أو لغرض آخر، ولكنّه يستلزم إيذاءه، وكثير من الناس لا ينتبه لذلك ولا يشعر أنّه بالنجوى يثير الشكّ في بعض من حضر ويوجب تأذيه من ذلك. ومن هنا يتبيّن أنّ الآية تتعرّض لموضوع آخر ليس في سياق التناجي الذي كان بين المنافقين، فإنّ ذلك كان مؤامرة على الرسولﷺ وعلى المجتمع الإسلامي، والنجوى هنا ممّا يحدث بين المؤمنين أنفسهم وإنّما ورد ذكره بمناسبة التعرّض لتناجي المتآمرين.

فالآية هنا تتعرّض لأدب من آداب المجالس يغفل عنها الناس كثيراً، فكان اللازم تنبيه المؤمنين بذلك ليهذّبوا محافلهم ومجالسهم ممّا لا يليق بشأنهم وممّا يثير حفائظهم ويحزنهم ويلقي الفتنة بينهم. وقد مرّ ذكر الحديث الوارد في ذلك عن طرقنا وهو مروي في كتب القوم أيضاً عن النبيﷺ. ومعنى كونه من الشيطان أنّه هو الباعث والمحرّض عليه لغرض إيذاء المؤمنين وإلقاء الفتنة بينهم وتحزينهم.

وقيل: إنّ شأن نزول الآية أنّ بعض المنافقين كان يتعمد النجوى في محضر المؤمنين ليوهمهم وقوع ما يخافونه ليحزنوا بذلك. وهذا أمر طبيعي في مجتمع مختلط من المؤمنين والمنافقين، ولكنّ الظاهر ـ كما ذكرنا ـ هو أنّ المراد ما يحدث بين المؤمنين الخالصين أيضاً من باب الجهل والغفلة، ولا مانع من شمول الآية للموردين.

**﴿وَلَيْسَ بِضارِّهِمْ شَيْئاً إِلا بِإِذْنِ اللهِ﴾**، أي ليس الشيطان بضارّهم من جهة الحزن بمعنى أنّ الحزن إنّما يحصل لهم إذا أراد الله ذلك أو من جهة ما يخافون منه ممّا يسبّب حزنهم، فإنّهم إذا رأوا التناجي بين شخصين يتوهّمون حدوث أمر خطير

يضرّهم أو إرادة شرّ بهم فيحزنون، فالله تعالى يبعث فيهم الطمأنينة بأن لا داعي للخوف، فإنّ الضرر لا يكون إلا بإذن الله تعالى والشيطان لا يتمكّن من الإضرار بهم بذاته، وإنّما يحزنهم ويخوّفهم ويريد لهم الاضطراب وليس قادراً على شيء.

والغرض الإشارة إلى أنّ الشيطان كغيره من المخلوقات لا يؤثّر شيئاً خارجاً عن إرادة الله تعالى، فلا يتوهّم أنّه مؤثّر في الشرّ والله تعالى لا يريده كما يظنّه المجوس وغيرهم، فالشيطان أيضاً محكوم بتأثير العوامل الطبيعية وهو أيضاً منها، فتأثيره وتأثّره يدخل في النظام الكوني الذي يدبّره الله تعالى ولا يتحقّق شيء منه إلا بإذنه.

﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْـمُؤْمِنُونَ﴾. تقديم الجارّ والمجرور للحصر، أي عليه لا على غيره. والتوكّل بمعنى إيكال الأمر إليه في كلّ شيء حتّى في ما يتوقّف على نشاط من طالب الحاجة. فالإنسان إذا طلب حاجة لا بدّ له من القيام بما يقتضي الوصول إليها وأن يبذل كلّ جهده، ومع ذلك فإنّه قد لا يصل إلى مبتغاه لأمر خارج عن اختياره، فلا بدّ من إيكال الأمر إلى الله تعالى فهو الموفّق والمسدّد إن كان في ذلك مصلحة.

وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أمرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾[1] وكم وجد المؤمنون من العناية الربانية في الأُمور التي أوكلوا أمرهم فيها إليه تعالى. وليس معنى ذلك أن لا يستخدم الإنسان الوسائل الطبيعية المتاحة له، كما تبيّن بما ذكرناه. فالمتوكّل على الله تعالى يختلف عن غيره في العقيدة

---

١. الطلاق (٦٥): ٣.

فحسب لا في العمل. وقوله تعالى: ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ الْـمُؤْمِنُونَ﴾ يفيد أنّ مقتضى الإيمان بالله تعالى هو التوكّل عليه، فمن لا يتوكّل عليه فإنّه لا يؤمن به حقّ الإيمان ولا يعرفه حق المعرفة.

وربما يتوهّم من هذا البيان أنّ المتوكّل على الله لا يستفيد من توكّله في الدنيا، وإنّما الفرق بينه وبين غيره في ثواب الآخرة، فإنّ العناية الربّانية ليس أمراً شاملاً لكلّ موارد التوكّل، فكم من متوكّل لم يصل إلى هدفه وكم من غير متوكّل، بل غير مؤمن بالله وصل إلى أعلى مراتب هدفه في الدنيا بالتوسّل بالوسائل الطبيعية.

والجواب أنّ المتوكّل على الله تعالى ينجح في شؤون الدنيا أيضاً ولكن ليس معناه أنّه يصل إلى ما يبتغيه، فإنّ الوصول إلى كلّ ما يبتغيه الإنسان غير ممكن، ولو أمكن فليس دائماً من مصلحته إمّا في الدنيا والآخرة أو في الآخرة فحسب وإن ربح في الدنيا، فكثير ممّن يصلون إلى ما يبتغون ربما يأكلون في بطونهم ناراً وهم لا يعلمون: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[1] ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[2] ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.[3] وهناك من المدّعين للإيمان والتوكّل من لا ينال خيراً في الدنيا ولا في الآخرة؛ لأنّه منافق كذّاب

---

١. آل عمران (٣): ١٧٨.

٢. التوبة (٩): ٥٥.

٣. البقرة (٢): ٢١٦.

فليس كلّ من يدعي التوكل متوكّلاً واقعاً.

﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا إِذا قيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ﴾ حيث كانت الآية السابقة تتعرّض لأدب من آداب المجالس وهو عدم التناجي، تعرّضت هذه الآية بالمناسبة لأدب آخر من آدابها وهو لزوم إفساح المجال لمن يحضر المجلس. وهذا أيضاً أمر مهمّ يغفل عنه أكثر الناس مع أنّه محل ابتلاء الغالب، كما أنّ الحزن الناشئ من تناجي الآخرين يحصل للغالب أيضاً ومن الغريب أنّ الإنسان لا يتورّع عن النجوى في حضور الثالث مع أنّه لا يتحمل ذلك من غيره وكذلك يتحرّج بشدّة إذا حضر مجلساً غاصاً بأهله، ومع ذلك لا يهتمّ بمن يحضر المجلس ويقف حائراً فتجد أكثر الناس يتغافل الحاضر الحائر ولو كان هو الداخل على المجلس توقّع أن يفسح له المجال.

والتفسّح من الفسحة أي السعة، والمراد به التوسعة، أي وسّعوا المكان ليسع الجليس الجديد فهو مع الأمر بالإفساح بمعنى واحد. قيل: وإنّما اختير هذه الصيغة لتدلّ على تكلّف الإفساح، أي أفسحوا وإن كان فيه كلفة عليكم.

ولم يعلّق الأمر بالإفساح بأمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فلا يصحّ ما قيل من أنّ ذلك خاصّ بمجلسه أو أنّه من باب لزوم إطاعته صلى الله عليه وآله وسلم فإنّ الحكم علّق على طلب التفسّح من أيّ أحد كان فقد يطلبه الحاضر، وربما يطلبه صاحب المجلس أو من بيده الأمر، بل ربما لا يطلبه أحد وإنّما يتطلّبه الوضع، فإنّه لا يبعد أن يكون المراد ما يشمل ذلك أيضاً حيث إنّ من شأن المجلس في هذا الحال أن يطلب التفسّح من الجلساء.

وقوله: ﴿يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ﴾ جزاء الأمر، أي إن أفسحتم يفسح الله لكم. قيل: أي

في الجنّة، وإطلاق اللفظ يقتضي الشمول للفسحة في الحياة الدنيا أيضاً ومعناه أنّه تعالى يوسّع عليكم من رحمته في الدنيا والآخرة، بل لا يبعد أن يكون المراد خصوص الفسحة والسعة في الدنيا؛ لأنّه هو المناسب لامتثال أمر متعلّق بالشؤون الدنيوية، فالظاهر أنّ الآية في مقام تصحيح المسار الاجتماعي وبثّ روح التعاون والاحترام المتبادل بين أفراد المجتمع، ولا ريب أنّ نتيجته تلاحم المجتمع ممّا يؤثّر في الرشد والنموّ الاقتصادي، وهو بدوره يهيّء للمواطنين العيشة الرغيدة والفسحة في مختلف شؤون الحياة. وإسناده إلى الله تعالى من جهة أنّه نتيجة طبيعية لحسن تعاملهم مع بعض وكلّ ما في الطبيعة من الله تعالى.

والمشهور في كتب العامّة أنّ الآية نزلت بشأن جماعة من البدريين حضروا مجلس رسول الله ﷺ ولم يجدوا مكاناً يجلسوا فيه، وحكي عن مجاهد أنّ الآية خاصّة بمجلس الرسول ﷺ ولا دليل عليه، والآية شاملة لجميع المجالس ولا وجه لتخصيصها حتّى لو صحّ الخبر.

﴿**وَإِذا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا**﴾. النشز هو الرفع والارتفاع، والمراد به هنا القيام. والظاهر أنّ مورده في المجالس إذا اقتضى الوضع قيام الجالسين وإفراغ المكان، كما حدث للحاضرين في بيت الرسول ﷺ للطعام حيث كانوا يجلسون بعد الانتهاء منه للمحادثة والرسول يستحيي منهم، فنزلت الآية: ﴿**فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ**﴾[1] وربما يقتضي ذلك حضور شخص خاصّ يريد الرسول ﷺ أو صاحب المجلس ـ أيّاً كان ـ أن يسارّه أو حضور جماعة بمقدار من في المجلس في ما إذا لم يكن موجب لبقائهم كمجالس الطعام، فإنّ من فرغ

---

١. الأحزاب (٣٣): ٥٣.

منه ينبغي أن يقوم ويخلي المكان لغيره ونحو ذلك من الموارد.

والحاصل أنّ إفساح المجال للغير قد يكفي فيه التوسّع وهو ما أمر به في الجملة الأُولى، وقد لا يكفي فلا بدّ من القيام أو أنّ المصلحة تقتضي الطلب من الحاضرين أن يقوموا عن مكانهم ويفسحوا المجال لغيرهم. وحمل بعضهم النشوز على القيام للاحترام أو لأيّ أمر آخر كالصلاة أو مقابلة العدوّ. وهو بعيد عن سياق الآية.

﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ﴾ وهذا جزاء امتثال الأمر بالنشوز، أي القيام إذا اقتضت المصلحة، فقوله: ﴿يَرْفَعْ﴾ مجزوم؛ لأنّه جزاء الأمر، والتقدير إن تنشزوا يرفع. وقرأ بعضهم «يَرفَعُ» بالرفع وعليه فتكون جملة مستقلّة تشتمل على دعاء. ولكنّه بعيد ومخالف للقراءة المشهورة.

وتخصيص الجزاء بـ«الذين آمنوا منهم» مع أنّ الخطاب من أصله موجّه إلى «الذين آمنوا» إمّا بلحاظ أنّ المراد بهم من رسخ الإيمان في قلبه، وإمّا بلحاظ أنّ الخطاب موجّه لكلّ من آمن ظاهراً فيشمل المنافقين، والمراد بهم هنا المؤمنون واقعاً.

والظاهر أنّ المراد بـ«الذين أُوتوا العلم» غيرهم وذلك لتكرار الموصول، فالمعنى أنّ الله تعالى يرفع الذين آمنوا إيماناً راسخاً مؤثّراً في شؤون حياتهم أو المؤمنين واقعاً في قبال المنافقين درجات، ويرفع الذين أُوتوا العلم منكم درجات أعلى. وذلك لتخصيصهم بالذكر. وفي الآية إشارة إلى أنّ امتثال الأمر بالقيام عن المجلس مقتضى الإيمان ومقتضى العلم، أي العلم بمقام الرسالة ووجوب إطاعة أمر الرسول ﷺ

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، أي أنّه تعالى خبير بحقيقة ما تعملون، وإنّما يحدّد درجات كلّ إنسان بمقتضى حقيقة عمله ولا أحد يعلم حقيقة أعمال الإنسان إلا الله تعالى، فإنّ الأعمال لا تقوّم بظواهرها، بل بالنوايا التي وراءها وبالآثار التي تترتّب عليها وهي كثيرة ومعقدة لا يعلمها إلا علام الغيوب، ولذلك فإنّ تحديد الدرجات التي يستحقّها كلّ إنسان بمقتضى أعماله بحقائقها الخفية لا يتمّ عادة في هذه الحياة، وإنّما يتمّ بأحسن وجه وأتمّه يوم القيامة.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ
لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ
نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ
وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٣﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً﴾. الآية تتضمّن حكماً آخر خاصّاً بأصحاب الرسول ﷺ ممّا يحكي عن الوضع القائم آنذاك، وموضوعه التناجي معه ﷺ ومن هنا ناسب ذكره في هذا الموضع حيث كان الحديث في الآيات السابقة عن بعض ما يتعلّق بالنجوى.

والآية تدلّ على أنّ النجوى في حدّ ذاتها ليست مرغوباً عنها كما توهّمه بعض المفسّرين، ومرّ الكلام حوله، ولكن إذا أراد أحد من الأغنياء خاصّة أن يناجي الرسول ﷺ فعليه أن يقدّم قبل نجواه صدقة ولم يحدّد المقدار، وبين اليدين كناية عن كونها قبل النجوى وقريباً منها، كما أنّ اليدين قريبتان من الإنسان، فلا يقال جلس بين يديه إلا إذا كان قريباً منه. وإنّما خصّصنا الخطاب بالأغنياء ـ مع أنّ الآية مطلقة والخطاب فيها لعامّة المؤمنين ـ من جهة ورود استثناء من لا يجد ذلك وهم الفقراء في ذيل الآية.

﴿ذلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾، أي دفع الصدقة قبل النجوى خير لكم. قيل: لما فيها من الثواب، وأطهر لأنّ الصدقة تزكّي النفس وتطهّرها ولذلك سمّيت زكاة، والمراد أنّها تطهّر النفس من رذيلة الشحّ، وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ

﴿نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.[١]

ويمكن أن يكون التعليل بلحاظ أنّ ذلك خير ومصلحة للمجتمع لا الفرد الذي يقدّم الصدقة، وذلك لأنّها تمنع من استغلال بعض الصحابة قربهم لدى الرسول ﷺ واستئثارهم لوقته الثمين، ولعلّ بعضهم كان يناجي الرسول ﷺ لغرض إظهار اختصاصه به، وبالطبع فإنّ الفقراء لتواضعهم ما كانوا يزاحمون الأغنياء في ذلك فيحصل في نفوسهم من الحقد والشحناء ما لا يحمد عقباه، فجاء هذا الحكم ليمنع الأغنياء عن ذلك وهم بالطبع يمتنعون من دفع الصدقة لعدم ضرورة تلجئهم إلى النجوى، وهذا خير للمجتمع حيث يفرغ الرسول ﷺ للجميع ويحظى الجميع بالتحدّث إليه على حدّ سواء، وأطهر لقلوبهم حيث تفرغ من الحقد والشحناء.

﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. هذه الجملة تستثني من وجوب التصدّق الفقراء الذين لا يجدون ما يتصدّقون به، فالله تعالى يغفر لهم ذلك ويستر عليهم، فلا يعتبر عدم التصدّق منهم إثماً كما يعتبره بالنسبة للأغنياء، ومعنى ذلك أنّهم يجوز لهم النجوى مع الرسول ﷺ من دون تقديم الصدقة.

والغفران كثيراً ما يستعمل في القرآن لنفي كون عمل إثماً مع صلاحيته لذلك، إذ كان من الممكن أن يمنع الله الجميع من النجوى بدون صدقة فيشمل الفقراء، فحيث رفع عنهم ذلك الحكم كان غفراناً وستراً عليهم من الوقوع في الإثم وهو رحيم بهم، فلا يكلّفهم ما لا يقدرون عليه أو يعوّضهم عن تزكية النفس بدفع المال، فيحصل لهم من التزكية بالقناعة والعفّة كما

---

١. الحشر (٥٩): ٩؛ التغابن (٦٤): ١٦.

يحصل للمزكّين، بل أكثر وأعمق.

وهذه الجملة تدلّ على وجوب الصدقة قبل النجوى، فلا وجه لما احتمله بعضهم من الندب بقرينة قوله تعالى: ﴿**ذلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ**﴾ ولا دلالة في ذلك، فهو من قبيل قوله تعالى: ﴿**فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ**﴾.[1]

﴿**أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجواكُمْ صَدَقاتٍ**﴾ الاستفهام للتوبيخ، والاشفاق هو الحذر وعبّر بعضهم عن مفاده بأنّه الرقّة، وفي «المفردات»: «عناية مختلطة بخوف».[2] والآية صريحة في معاتبة القوم بأنّهم امتنعوا عن النجوى لبخلهم عن دفع الصدقة، مع أنّها لم تقدّر بقدر فكان يجزي الشيء القليل وهذا غاية البخل، والتعبير بالإشفاق أيضاً يدلّ على شدّة البخل، كأنّهم خافوا على أموالهم من النفاد بهذه الصدقة اليسيرة، وهذا يدلّ على شدّة العلاقة بالمال. والظاهر أنّهم ما كانوا يجدون ضرورة للنجوى فامتنعوا عن دفع الصدقة. والإتيان بصيغة الجمع من جهة تعدّد النجوى المستتبع لتعدّد الصدقة.

ومن المتواتر إجمالاً أنّ الآية السابقة لم يعمل بها أحد إلا أمير المؤمنين عليه السلام وكان ممّا يفتخر به أمام الناس، كما ورد في عدّة روايات:

منها ما في «احتجاج الطبرسي» من خطابه عليه السلام لأبي بكر ضمن مجموعة من الاحتجاجات: «فأنشدك بالله أنت الذي قدّمت بين يدي نجوى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صدقة فناجيته إذ عاتب الله قوماً، فقال: ﴿**أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجواكُمْ صَدَقاتٍ**﴾ **أمْ أنَا؟ قال: بل أنت**».[3]

---

١. التوبة (٩): ٣.

٢. مفردات ألفاظ القرآن: ٤٥٨.

٣. الاحتجاج ١: ١٨١.

ومنها ما في «خصال الصدوق» في باب السبعين في حديث طويل أنّه عليه السلام ذكر سبعين منقبة لا يشاركه فيها أحد، قال عليه السلام «وأمّا الرابعة والعشرون فإنّ الله عزّ وجلّ أنزل على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ فكان لي دينار فبعته عشرة دراهم، فكنت إذا ناجيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أصّدّق قبل ذلك بدرهم ووالله ما فعل هذا أحد من أصحابه قبلي ولا بعدي، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ﴾. الآية، فهل تكون التوبة إلا من ذنب كان؟!».[1]

ومثل ذلك ورد في كتب العامّة بصور مختلفة ممّا لا يسع أحداً إنكاره، ومنها ما رواه الحاكم في «المستدرك» بسنده عن عبدالرحمن بن أبي ليلى قال: قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ فِي كِتَابِ اللهِ لَآيَةً مَا عَمِلَ بِهَا أَحَدٌ وَلَا يَعْمَلُ بِهَا أَحَدٌ بَعْدِي، آيَةُ النَّجْوَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ...﴾ الْآيَةَ». قَالَ: كَانَ عِنْدِي دِينَارٌ فَبِعْتُهُ بِعَشَرَةِ دَرَاهِمَ فَنَاجَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكُنْتُ كُلَّمَا نَاجَيْتُ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَدَّمْتُ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَايَ دِرْهَماً، ثُمَّ نُسِخَتْ فَلَمْ يَعْمَلْ بِهَا أَحَدٌ فَنَزَلَتْ: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ...﴾ الْآيَةَ». هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.[2]

ومن المعلوم أنّ الحكم لا ينسخ إلا بعد أن يعمل به في فترة، ولذلك كان له عليه السلام فضل كبير على القوم حيث فسح لهم المجال للنجوى من دون صدقة بأن عمل بالحكم ليمكن النسخ. ومن الغريب ما ذكره بعض ممّن في قلوبهم مرض

---

١. الخصال: ٥٥٢.

٢. المستدرك (للحاكم) ٢: ٥٢٤، باب تفسير سورة المجادلة (على ما في المكتبة الشاملة).

بأنّ اختصاصه عليه السلام بذلك لعلّه اتفاق وصدفة من جهة عدم تحقّق الحاجة لغيره بالنجوى. ولو كان كذلك لم يكن معنى لهذه الآية ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا...﴾. فالآية تصرّح بأنّ عدم إقدامهم على ذلك من جهة إشفاقهم وتخوّفهم على المال.

وأغرب منه أنّ بعضهم حاول التقليل من هذا الشأن بدعوى أنّ الحكم لم يدم طويلاً حتّى نسخ، فقال بعضهم: إنّه بقي عشرة ليال، وقال بعضهم: إنّه لم يبق إلا ساعة من النهار، وقال بعض آخر: إنّه نسخ قبل العمل به. كلّ هذه المحاولات لإنكار فضل الإمام عليه السلام الباهر فضله، مع أنّ هذه الآية صريحة في أنّ القوم أشفقوا وأخفقوا من العمل بالحكم، وأنّ النسخ جاء بعد العفو عنهم، وكما ورد في الحديث لم تكن التوبة إلا عن ذنب كان.

وهذه الآية من الموارد التي يعلم بوضوح من موقعها أنّها ليست في مكانها الطبيعي حسب تاريخ النزول، إذ لا بدّ من مرور زمان على الحكم وظهور الحاجة لجمع معتدّ به منهم للنجوى وإحجامهم عنها إشفاقاً على المال ليصحّ خطابهم خطاباً جمعياً بأنّهم أشفقوا وأنّهم لم يفعلوا.

﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلوةَ وَآتُوا الزَّكوةَ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾، أي حيث لم تفعلوا ذلك وحيث إنّ الله تعالى تاب عليكم وعفا عنكم ولم يضيّق عليكم بإبقاء الحكم مع استحقاقكم فلا تتوانوا في سائر الأحكام، ثم ذكر أهمّها من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإطاعة الله ورسوله، ولعلّ ذلك تنبيه لهم على أنّ التوبة والغفران عن ذلك مشروط بعدم التسامح في سائر الواجبات أو على أنّه ليس كلّ حكم ينسخ إذا لم يعملوا به.

والملفت في الواقعة أنّ الحكم بالتصدّق لم يكن منجّزاً، بل كان مشروطاً

بإرادة النجوى، فالمخالفة التي تستوجب إثماً وعقاباً وتطلب مغفرة وتوبة لا تتحقّق إلا إذا كان أحدهم يناجي من دون تصدّق ولم ينقل ذلك في الروايات، بل الظاهر أنّهم أحجموا عن النجوى، فالقاعدة تقتضي أن لا يعتبر ذلك إثماً منهم، فما هو الموجب لهذا الاستنكار الشديد وما هو توجيه التوبة؟ الظاهر أنّ الوجه في اعتبار ما كان منهم إثماً هو إحجامهم عن النجوى بعد أن كانوا مكبّين عليها ولم يكن ذلك إلا من جهة تقديمهم للمال على التقرّب إلى الرسول ﷺ.

وقيل: إنّ الإثم من جهة أنّ ذلك يكشف عن كون النجوى قبل ذلك لأغراض تافهة أو غير مشروعة فاستحقّوا اللوم لذلك. ولكنّه بعيد عن سياق الآية حيث إنّ ظاهر قوله: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ أنّ تركهم للتصدّق هو الإثم. كما أنّ هذا السياق ينفي أيضاً احتمال أن تكون التوبة بمعنى رفع التضييق لا العفو عن الذنب، فإنّ الظاهر أنّ التوبة تفرّعت عن تركهم للتصدّق.

﴿وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ تحذير من التفريط في أحكام الله تعالى ولو في الدواعي والأغراض، ومنها ترك التصدّق حبّاً للمال.

❁ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾. يعود السياق إلى التعرّض لحال المنافقين ومحاولاتهم للإساءة إلى الإسلام والمسلمين، ومنها توطيد العلاقات مع اليهود وهم من ألدّ أعداء الإسلام. والاستفهام لإنشاء التعجب والرؤية متضمّنة معنى النظر، ولذلك تعدّى بـ «إلى» ووجه العجب في موالاة ذلك القوم إمّا نفس كونهم مغضوباً عليهم أو ما تتضمنه الجملة التالية كما سيأتي.

والظاهر أنّ المراد بالقوم المغضوب عليهم اليهود لتكرّر التعبير عنهم بذلك في الكتاب العزيز، كقوله تعالى: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾.[٢] بل يحتمل أن يكون ما ورد في هذه الآية هو بالذات ما ورد في سورة الحشر: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ

١. البقرة (٢): ٩٠.
٢. المائدة (٥): ٦٠.

مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.[١]

﴿ما هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ﴾. ذهب جمع من المفسّرين إلى أنّه توصيف للمنافقين؛ لأنّهم مذبذبون لا ينتمون إلى المؤمنين واقعاً ولا إلى الكافرين، كما هو مقتضى مخالفة ظاهر حالهم لواقع أمرهم، ولكنّ الظاهر أنّه توصيف لذلك القوم وهم اليهود، والمراد أنّهم ليسوا منكم فيكون السبب في تولّيهم للقوم ظاهر حال المنافقين حيث إنّهم آمنوا في الظاهر، ولا هم منهم، أي من طائفة المنافقين أو من حزبهم وهو حزب النفاق ولذلك فليس لهذا الولاء وجه معقول. وبذلك تكون هذه الجملة مبيّنة لسبب إنشاء التعجّب من ولائهم لهم. وأمّا بناءاً على ما ذكروه فلا يظهر لتوصيف المنافقين في المقام علاقة بالموضوع خصوصاً بملاحظة أنّ الجملة لم ترد بالواو، بل وصفاً ثانياً. ولو صحّ ما ذكروه لكانت جملة استينافية تستدعي الواو.

﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ عطف على ما سبق، ولعلّ الإتيان بالفعل المضارع للدلالة على أنّ ذلك عادتهم وديدنهم وهو ميزة النفاق، وقد نسب الحلف الكاذب إليهم في مواضع عديدة من الكتاب العزيز. والمراد بالكذب هنا دعواهم الإيمان وإنكارهم للمؤامرة والدسيسة وتولّي الأعداء، فهم يكذبون ويحلفون عليه والحال أنّهم يعلمون أنّهم كاذبون، فيتعمّدون الحلف الكاذب واليمين الغموس وليس ذلك لسذاجتهم أو جهلهم، أو المراد أنّهم يعلمون قبح الحلف الكاذب وأنّه إثم كبير.

﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾. الجملة الثانية تعليل للأُولى،

---

١. الحشر (٥٩): ١١.

والمعنى أنّ العذاب يناسب العمل، فالله تعالى لا يعذّب على سوء السريرة، بل على الأعمال، وكلّما ازداد العمل سوءاً اشتد العذاب. وقوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا﴾ للدلالة على استمرارهم في الأعمال السيّئة ممّا يمنع من نزول الرحمة والتوبة.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ﴾. الظاهر أنّه بيان لعملهم السيّء المذكور في الآية السابقة وهو نفس ما ذكر في ما سبق من أنّهم يحلفون على الكذب. والجُنّة كلّ ما يتستّر به. ومن هنا يظهر أنّ هذه الآية تبيّن وجه القبح في حلفهم، فإنّ الإنسان ربما يحلف على الكذب ليدفع عن نفسه أو غيره الشرّ وهذا لا يذمّ عليه، بل ربما يكون واجباً، ولكنّ المنافقين كانوا يحلفون ليتستّروا بذلك ويستروا كفرهم الدفين ليتمكّنوا من الاندساس في صفوف المسلمين والتأثير على البسطاء منهم، ومنعهم من الإيمان بالله ورسوله. والصدّ هنا بمعنى المنع، فيكون متعدياً والمفعول مقدّر، أي صدّوا الناس عن سبيل الله، أي الدين الذي أنزله الله تعالى لهداية البشر. وقد يأتي الصدّ لازماً بمعنى الإعراض. ووجه الإهانة في العذاب هنا هو كون العمل ممّا لا يصدر إلا من الحقير المستحقّ للإهانة وهو التستّر بصورة الصديق الموافق حتّى إذا تمكّن من تحصيل الوثوق والاعتماد أساء إلى صديقه من حيث لا يشعر به، وهذا فعل الجواسيس وأصحاب الضمائر الدنيئة.

﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً﴾. الإغناء الكفاية ومنه الغني، أي الذي يملك ما يكفيه و﴿مِنَ اللهِ﴾ بتقدير مضاف يناسب الكلام، أي من عذاب الله، والمراد دفع توهّم يحصل لكثير من البشر ومنهم منافقو المدينة من أنّ الأشراف والأغنياء والكبراء لهم مكانة خاصّة ولا ينالهم السوء، وربما يتصوّر بعضهم أنّ له

عند الله تعالى كرامة ولولا ذلك لم يحصل على هذا المال والجاه، وكذلك يتصوّر بعض البسطاء من الناس فيهم وكم سمعنا من بعضهم أنّ آل فلان لهم قرب عند الله وإلا لما أعزّهم وملّكهم على الناس. وفي خطبة الصديقة زينب عليها السلام في محضر يزيد ـ لعنه الله ـ ما يدلّ على أنّه وأتباعه أيضاً كانوا يتوهّمون ذلك حيث قالت: «أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى أنّ بنا على الله هواناً وبك عليه كرامة، وأنّ ذلك لعظم خطرك عنده فشمخت بأنفك... مهلاً مهلاً أنسيت قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[١]»[٢].

ومنافقو المدينة أيضاً كانوا يتوهّمون ذلك ورأسهم عبد الله بن أُبيّ كان من الأثرياء وكان يتوقّع أن يكون ملكاً من ملوك العرب، وهذا هو السبب الأساس في نفاقه وبغضه للرسول صلى الله عليه وآله وسلم وللرسالة حيث تبدّدت أحلامه وأمانيه بوصول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة. ومن هنا كان يستكبر ويستعلي على المؤمنين ويتصوّر أنّ المجتمع بحاجة إلى ماله وأموال أصحابه ويدعي لنفسه العزّة ويستذلّ المؤمنين، كما وردت حكاية كلامه في قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَللهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَللهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣]

---

١. آل عمران (٣): ١٧٨.

٢. بحار الأنوار ٤٥: ١٣٣.

٣. المنافقون (٦٣): ٧ ـ ٨.

والحاصل أنّ الآية الكريمة تنبّه الإنسان على أنّ المال والجاه لا ينفعان شيئاً إذا أراد الله بأحد سوءاً. وذكر الأولاد باعتبار أنّ كثرة الأولاد في تلك المجتمعات كانت أساس القدرة والقوّة والجاه.

﴿أولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فيها خالِدُونَ﴾ وهذا هو الدليل على عدم إغناء المال والولد عن عذاب الله تعالى، فإنّ عذابه ينالهم في الآخرة حيث لا ينفع مال ولا ولد ولا بيع ولا خلّة ولا شفاعة. وأصحاب جمع صاحب، ويدلّ على اقترانهم بالنار لا يفارقونها، فالجملة التالية الدالّة على الخلود تؤكّد مضمون الأُولى. والخلود الثبات والبقاء.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَميعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾. الظرف يمكن أن يتعلّق بفعل محذوف، أي اذكر يوم...، ويمكن أن يتعلّق بما قبله، أي هم أصحاب النار في ذلك اليوم. وقد مرّ في نظيرها في أوائل السورة أنّ الجميع إمّا للتأكيد على عدم الاستثناء أو بمعنى كونهم مجتمعين. والغرض من الآية بيان أنّ النفاق والكذب متمكّن من نفوسهم بحيث لا يفارقهم حتّى في عالم الآخرة وأمام ربّهم، والغريب في ذلك أنّ الإنسان في الوضع الطبيعي لا يكذب إلا لدفع ضرر أو جلب منفعة، ولكن بعض الناس نجدهم يفضلون الكذب على الصدق من دون حاجة وإنّ بعضهم يصرّح بأنّه لا داعي للصدق مادام للكذب مجال، فإذا سألته عن اسمه أجابك بالكذب من دون احتمال ضرر أو خطر أو مع التمكّن من التهرّب وعدم الجواب، ولكنّه يفضل الكذب. فمثل هذا الإنسان تنقلب طبيعته وحيث إنّ يوم القيامة يوم بروز الحقائق فإنّه يظهر بطبيعته الثانوية التي تقتضي الكذب والنفاق، مع أنه يعلم آنذاك أنّ كذبه لا ينطلي على أحد ويعلم أنّه أمام

ربّه الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة، ولكنّه لا يتمكّن من التخلّي عن الكذب.

وقد ورد مثل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إلا أنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[1] ويلاحظ أنّ هذه الآية تصرّح بأنّهم ـ أي المشركين ـ يكذبون على أنفسهم لا على ربّهم، إذ يعلمون أنّ الله تعالى لا يكذب عليه ولكنّ التعبير في الآية التي نحن فيها بأنّهم يحلفون له ـ أي لله تعالى ـ كما يحلفون لكم يبيّن أنّ المنافقين شرّ حالاً من المشركين، فهم يحلفون لربّهم الحلف الكاذب يوم تتجلّى الحقائق، والسبب هو أنّ النفاق متمكّن منهم وهو يدعو إلى الحلف الكاذب والمشرك لا ينافق. ولعلّ تشبيه حلفهم هناك بحلفهم هنا من جهة أنّهم يتوقّعون في كليهما أن يصلوا بذلك إلى تمويه الحقائق على غيرهم، كما تدلّ عليه الجملة التالية وهم يصلون إلى ذلك بكذبهم وحلفهم في الدنيا بالطبع، ولكنّهم لا يحصلون على شيء ممّا يتوقّعون في الآخرة، كما هو واضح.

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾، أي يحسبون ويظنّون أنّهم مستقرّين على شيء، وهو كناية عن أنّهم سيحصلون على نتيجة مقصودة من حلفهم على الكذب، وهذه جملة حالية، أي يحلفون حال كونهم يظنّون ذلك، والظاهر أنّه حكاية لحالهم في الحلف في تلك النشأة، وأمّا هنا فليس ذلك حسباناً محضاً. ولعلّه يبيّن وجه التشبيه أيضاً كما مرّ.

والحاصل أنّهم كما يحلفون لكم مع توقّع الوصول إلى نتيجة في تمويه

---

١. الأنعام (٦): ٢٢ ـ ٢٤.

الحقائق، كذلك يحلفون أمام ربّهم بنفس التوقّع والحسبان. وهذا من غريب أمر الإنسان، فإنّه يعلم هناك أنّ الحقائق واضحة وأنّها لا تنطلي في تلك النشأة على عامّة أهل المحشر، فكيف بها على الله تعالى وهو العالم بخفيات الأُمور؟! والسبب هو تمكّن النفاق ومحاولة إخفاء الحقائق من نفوسهم بحيث لا تغيب هذه الصفة عنهم حتّى في تلك النشأة.

﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ﴾ «ألا» أداة تنبيه لإعلام المخاطب بأنّه يقصد أمراً مهمّاً في هذا البيان، فالإتيان بها هنا يدلّ على الاهتمام بهذا التنبيه. والإتيان بالألف واللام مع ضمير الفصل يدلّ على الحصر، أي أنّهم هم الكاذبون حقيقة لا غيرهم، مع أنّ صفة الكذب لا تختصّ بهم قطعاً، ولكن حيث إنّ طبيعة الإنسان ـ كما قلنا ـ تقتضي أن لا يلجأ إلى الكذب إلا لدفع ضرر أو جلب منفعة، فمن كان يكذب حتّى في غير هذا الحال فهو الكاذب حقيقة؛ لأنّه يختلف عن غيره في أنّه اتخذ الكذب طبيعة ثانوية وهذا هو شأن المنافقين.

﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ﴾. الاستحواذ: الاستيلاء والسوق بعنف، والشيطان ليس مستولياً على الإنسان في الوضع الطبيعي، وإنّما دوره الوسوسة والتزيين، وإنّما يتحقّق ذلك في ما إذا أصرّ الإنسان على متابعة ما يغويه الشيطان ويلقيه في روعه، فإنّه بتكرّر ذلك وتسليم القياد له يتسلّط عليه ويتمكّن منه، ولا يمكنه التخلّي عن غواياته. وإذا تمكّن منه الشيطان فإنّ أهمّ مرحلة يريد منه هو نسيان ربّه تماماً. والمراد به ما يلازم النسيان وهو عدم احتساب أيّ دور لله تعالى ولأوامره ونواهيه في حياته حتّى لو تذكّر ربّه بالخاطر أو ذكّره أحد به أو ذكره باللسان فكلّ ذلك لا ينافي النسيان. فإذا بلغ

الإنسان إلى هذه المرحلة من متابعة الشيطان فإنّه يعتبر من حزبه.

والحزب: الجماعة من الناس يجمعهم شأن خاصّ بهم، وهذا الحزب تجمعهم متابعة الشيطان بصورة كاملة فهذه ميزتهم بين الناس.

﴿ألا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾. الجملة مؤكّدة مضافاً إلى أداة التنبيه بـ «إنّ» وضمير الفصل الدالّ على الحصر أيضاً، فتدلّ على أنّ الخاسر الحقيقي الذي لا ينتفع بشيء من حياته، وممّا أنعم الله به عليه في هذه الدنيا هو من دخل في حزب الشيطان، وأمّا من لم يدخل حتّى لو اتبع الشيطان جزئياً فإنّه لا يخسر الخسارة الكاملة وينتفع بشيء من حياته حتّى لو لم يدخل الجنّة، فإنّ النار دركات.

ويمكن أن يكون المراد بالخسارة هنا خسارة الدنيا والآخرة، فإنّ سياق الكلام يعود إلى المنافقين وهم المراد بحزب الشيطان وأنّهم تشبّثوا باليهود وتولّوهم ليستنصروا بهم على المسلمين، فهم خسروا الآخرة لنفاقهم ويخسرون الدنيا أيضاً لما يأتي في الآية التالية أنّهم في الأذلّين على احتمال أو أنّهم يوادّون اليهود الذين هم في الأذلّين على احتمال آخر.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

﴿إِنَّ الَّذينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ فِي الأَذَلِّينَ﴾. مرّ الكلام في محادّة الله ورسوله واستلزامه المذلّة في أوائل السورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا﴾ والمعروف بين المفسّرين أنّ المراد بـ ﴿الَّذينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ هنا المنافقون الذين تولّوا اليهود زعماً منهم أنّهم ينصرونهم على الرسول ﷺ. وهم الذين وصفوا في الآية السابقة بأنّهم حزب الشيطان، ولكنّهم وصفوا هنا بالمحادّة للإشارة إلى سبب الإذلال، فإنّ من حادّ الله تعالى أذلّه وليس من الأذلاء فحسب، بل من الأذلّين، فلو قسّم الناس إلى طبقات من حيث الذلّة والعزّة كان هؤلاء في الطبقة السفلى، ولعلّ السرّ فيه، هو أنّ مقابلة من له غاية العزّة تستوجب غاية الذلّة كما قيل.

ولكنّ الظاهر أنّ المراد بالذين يحادّون اليهود. وذلك بقرينة الآية التالية حيث تدلّ على أنّهم سيُغلَبون في حربهم على المسلمين ولم يكن بين المنافقين والمؤمنين حرب علانية. وقرينة أُخرى وهي أنّ المراد بالذين يوادّون من حادّ الله ورسوله في الآية التالية المنافقون، كما مرّ التعبير عنهم بذلك فلا بدّ من الفرق.

والظاهر أنّ إذلالهم يتمّ في الدنيا والآخرة. ويدلّ على إذلالهم في الدنيا الآية التالية التي هي في موضع التبيين لهذه الآية كما يدلّ عليه في الآية السابقة قوله تعالى: ﴿كُبِتُوا كَما كُبِتَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، فإنّ الكبت أيضاً إذلال، وكَبْتُ الذين من قبلهم كان في الدنيا أيضاً بعذاب الخزي. والتشبيه لا يتمّ إلا بأن يكون المراد إذلالهم في الدنيا إذ أنّه هو المشهود للمخاطبين. فالمراد أنّ الله تعالى سيذلّ اليهود ويذلّ من ينتصر بهم أي المنافقين. وهو من الأخبار الغيبية في القرآن.

﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلي﴾. «كتب» أي قدّر وقضى، وأصل الكتابة الجمع ومن هنا يطلق على التسجيل والثبت، وبهذه المناسبة يطلق على كلّ ما هو محكوم من الله تعالى وثابت. والتعبير به هنا للتأكيد على الغلبة وإعلان أنّه أمر قطعي محتوم لا خلل فيه. وأكّده مرّة أُخرى بلام القسم ونون التأكيد.

ثمّ إنّه تعالى أتى بضمير المفرد المتكلّم الراجع إلى الذات المتعالية وهو من أعظم التأكيد، ولا يوازيه ضمير الجمع؛ لأنّه ربما يدلّ على مجموعة العلل والأسباب، وأمّا هذا فيدلّ على الذات الإلهية وغلبته تعالى على كلّ شيء من أوضح الواضحات، وعطف على ذلك الرسل ليبيّن أنّ غلبتهم من غلبته وأضافهم أيضاً إلى نفسه بالضمير المفرد تأكيداً على اختصاصهم به ممّا يزيدهم قوّة وعظمة.

والحاصل أنّ الآية من أكثر الآيات تأكيداً على هذا الموضوع وقد تكرّر الإعلام به في عدّة مواضع، منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُون﴾[1] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذينَ

---

١. الصافّات (٣٧): ١٧١ ـ ١٧٣.

آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهادُ﴾[١] ويلاحظ الفرق بين هذه الآيات وما نحن فيه بما مرّ ذكره. ولعلّ السرّ في شدّة التأكيد هنا صعوبة الموقف من جهة تكالب المشركين واليهود والمنافقين على الرسول ﷺ، فكان الأمر يستوجب تحقيراً لهم وتهديداً قبل الإيقاع بهم، كما يتبيّن ذلك من آيات سورة الحشر.

وربما يتوهّم أنّ الغلبة لم تكن دائماً للرسل عليهم السلام على أعدائهم، بل إنّ جنود الرسول الأكرم ﷺ أيضاً هزموا في غزوة أُحد وإنّ بعض الرسل قتلوا في الأُمم السالفة، كما صرّح به في الكتاب العزيز، فكيف يمكن الحكم بأنّ الغلبة دائماً للرسل؟!

ولا يمكن الجواب هنا بما ذكر في موارد أُخرى من أنّ المراد الغلبة في مقام الاحتجاج، فإنّ من الواضح بقرينة المقام أنّ المراد هنا خاصّة الغلبة في الحرب، ولكن يأتي هنا نظير ما ذكرناه في الجواب عن الإشكال في سورة الصافات، وذلك لأنّ الغلبة لم تذكر هنا للمؤمنين أو لجنود الرسول ﷺ، بل الغلبة للرسل ولم يذكر في التاريخ حرب بين الكفّار والرسل ينتهي بغلبة الكفّار، وأمّا غلبة بعض أجزاء من الجيش إذا خالفوا أمر الرسول فهو أمر طبيعي ولا ينافي الآية، ومع ذلك فإنّ النهاية كانت بغلبة الرسول والرسالة. ويمكن أن يكون المراد غلبة أهداف الرسل والرسالات في نهاية الأمر، فتكون الآية ممّا يدلّ على ظهور الإمام المهدي ـ عجّل الله فرجه ـ فهو الذي على يده تتمّ الغلبة التامّة في الدنيا لدين الله تعالى.

﴿إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ تعليل واضح للجملة السابقة، فلا توجد قوّة في الكون إلا

---

١. غافر (٤٠): ٥١.

من الله تعالى وكلّ من له قوّة فلا قوّة له إلا به وبمقدار ما يسمح له، فإذا أراد شيئاً فلا محالة كائن وهو العزيز، أي الغالب الذي لا يؤثّر فيه شيء.

﴿لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾. الخطاب للرسول ﷺ أو لكلّ من يسمع أو يتلو الآية. و﴿تَجِدُ﴾ متعدٍ إلى اثنين ومفعوله الثاني ﴿يُوادُّونَ﴾ وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ صفة للقوم. والموادّة إظهار المودّة، وليس بمعنى التوادّ ليستلزم الودّ من الجانب الآخر وإن كان الغالب في الموادّة حصول ذلك. ومن هنا فإنّ الممنوع هو إظهار الحبّ والودّ لا الأمر القلبي، إذ قد لا تمكن السيطرة عليه مع أنّه لا يضرّ في مرحلة عمل المؤمن، نعم ربما يدلّ على سوء سريرة الإنسان، ولكنّه أيضاً ليس دائماً. وصريح الآية أنّ الإيمان بالله واليوم الآخر ينافي هذه الموادّة فلا يجتمعان في إنسان واحد، ومعنى ذلك أنّ الذي يوادّ هؤلاء ويظهر الولاء لهم لا يؤمن بالله واليوم الآخر.

وذهب بعض المفسّرين إلى أنّه من باب المبالغة في النهي والتخييل؛ لأنّ التعبير يوهم امتناع اجتماع الإيمان مع هذه الموادّة مع أنّه لا يمتنع واقعاً، وإنّما هو تخييل لبيان غاية البعد بين مقتضى الإيمان وهذا الودّ. وقيل: يمكن أن يراد بالإيمان الكامل منه فيكون الامتناع حقيقياً، وهو أولى، إذ حمل الكلام على التخييل يقلّل من أهميّة الخطاب وتشنيع الأمر.

وبناءاً على التفسير المشهور فالمراد بمن حادّ الله ورسوله المنافقون. وعليه فلا يصغى لما قيل، وروي من أنّ الآية نزلت بشأن بعض الصحابة ممّن عادوا آباءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، بل ربما قتل بعضهم بعضاً منهم على ما قيل، كما لا وجه لما قيل من أنّها نزلت في الحاطب بن أبي بلتعة حيث راسل المشركين

ليخبرهم بمسير النبي صلى الله عليه وآله وسلم إليهم واعتذر عن ذلك بأنّ له في مكّة أهلاً فأراد أن يكون له يد عند المشركين حتّى لا ينالوهم بسوء. فكلّ ذلك مردود بسياق الآيات التي تتحدّث عن المنافقين ومحادّتهم لله ورسوله.

نعم ورد مثل ذلك أيضاً بشأن المشركين في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[1] وأمّا بناءاً على ما ذكرنا، فالمراد بمن يوادّون من حادّ الله ورسوله المنافقون، وبمن حادّ الله ورسوله اليهود. ولا ينطبق أيضاً على ما ذكروه من شأن النزول.

وعطف الإيمان باليوم الآخر على الإيمان بالله تعالى لعلّه للتنبيه على أنّ ترجيح هذه المودّة على ما يقتضيه الإيمان إنّما هو لترجيح المنافع الدنيوية الزائلة على مصلحة الآخرة، فهو لا يحصل من الذي يؤمن بالآخرة ويهتمّ بها. وفي الواقع الإيمان بذلك اليوم من أعظم الموانع عن ارتكاب الآثام، فإنّ الإيمان بالله تعالى ربما لا يمنع الإنسان نظراً إلى ما يجده من عدم ترتّب الآثار السيّئة على المعاصي في هذه الحياة ونحن نجد كثيراً من المؤمنين لا يتورّعون عن ارتكاب المعاصي إلا ما قيل لهم بأنّ ذلك يستتبع الفقر أو المرض ونحوهما، وليس ذلك إلا لضعف الإيمان باليوم الآخر. مضافاً إلى أنّ المنافقين كانوا في الباطن باقين على وثنيتهم وهم ينكرون اليوم الآخر.

---

١. التوبة (٩): ٢٣ ـ ٢٤.

﴿وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشيرَتَهُمْ﴾ التركيز على هؤلاء خاصّة من جهة شدّة قربهم للإنسان وحاجته إليهم وإلا فلا يختصّ الحكم بهم، ولعلّ بعض الناس يرجّح علاقته الزوجية على الإيمان بالله تعالى فهو أيضاً مشمول للآية الكريمة، وقد ورد ذكر الأزواج في الآية المذكورة حول المشركين.

و«العشيرة» مأخوذة من العشرة وهي اسم العدد الكامل في اللغة العربية، قال تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾،[1] فالتعبير بالعشيرة عن الأقارب الذين يتقوى بهم الإنسان حسب عادات ذلك المجتمع من جهة أنّهم من يكمل بهم العدد المطلوب في تقوية الجانب ومقابلة الأعداء.

﴿أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ الإشارة إلى القوم الذين آمنوا ولم يوادّوا من حادّ الله ورسوله. والكتابة ـ كما مرّ ـ التسجيل والتثبت، فالمعنى أنّ الله تعالى أثبت في قلوبهم الإيمان فلا يزيحه شيء ولا يؤثّر فيه حبّ ولا بغض، ولذلك فهم لا يوادّون أعداء الله وإن كانوا من أقرب الأقربين.

والتأييد: التقوية مأخوذ من اليد التي هي مظهر قوّة الإنسان. والروح ما به الحياة. والضمير في ﴿مِنْهُ﴾ لله تعالى أو للإيمان وعلى الأوّل زيادة تشريف له بإضافته إليه تعالى كإضافة الروح البشرية إليه، كما قال تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾،[2] فالمراد أنّه تعالى أيّدهم بروح خاصّة منه أو روح من الإيمان غير ما به

---

١. البقرة (٢): ١٩٦.

٢. الحجر (١٥): ٢٩.

الحياة لدى الحيوان والإنسان، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾،[١] فهذه حياة أُخرى يختصّ بها المؤمنون، ومثله قوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها﴾.[٢]

ثمّ إنّه أتى بالكتابة والتأييد بالفعل الماضي؛ لأنّهما سابقان على عدم المـوادّة وسببان له، وأتى بفعل إدخالهم الجنّة بالمضارع؛ لأنّه مسبّب ومتأخّر. وهناك روايات تدلّ على أنّ المراد بهذا الروح هو الإيمان.

منها ما رواه الكليني بسند معتبر عن جميل بن درّاج، قال: سالت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله عزّ وجلّ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْـمُؤْمِنِينَ﴾،[٣] قال: «هو الإيمان» قال: ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِروحٍ مِنْهُ﴾،[٤] قال: «هو الإيمان» وعن قوله: ﴿وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى﴾[٥] قال: «هو الإيمان».[٦]

﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾. الرضا أكبر ثواب منه تعالى، كما قال: ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[٧] والجملتان قد تكونان بياناً لحالهم يوم القيامة ويؤيّده عدم الإتيان بالواو، فالمعنى أنّهم في تلك الجنّات يحظون برضا

١. النحل (١٦): ٩٧.
٢. الأنعام (٦): ٢٢.
٣. الفتح (٤٨): ٤.
٤. المجادلة (٥٨): ٢٢.
٥. الفتح (٤٨): ٢٦.
٦. الكافي ٢: ١٥، الحديث ٥، باب في أنّ السكينة من الإيمان.
٧. التوبة (٩): ٧٢.

الله تعالى، ويشعرون بالرضا ممّا قسم لهم حتّى مع اختلاف حالاتهم ومنازلهم. وقد تكونان بياناً لحالهم في النشأتين، فهم يعيشون عيشة الجنّة في هذه الحياة المليئة بالمصائب والمصاعب خصوصاً بالنسبة لأولياء الله تعالى. والرضا بين الله تعالى وعبده رضا متبادل دائماً، وفي الحديث ما يدلّ على أنّ الإنسان إذا أراد أن يستخبر رضا الله تعالى عن نفسه فليراجع نفسه، فإن وجدها راضية منه تعالى فليفرح برضاه. والرضا من الله تعالى يستلزم الرضا من كلّ ما يصيب الإنسان من خير وشرّ، ويوجب الراحة والطمأنينة.

﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ﴾ وهذا تشريف آخر ووسام آخر يقابل به حزب الشيطان وهم المنافقون الذين يوادّون من حادّ الله ورسوله. وهذه قرينة اُخرى تؤيّد ما ذكرناه في تفسير الآيتين السابقتين. وحزب الله الجماعة من الناس يميّزهم عن غيرهم ميزة خاصّة وهي اختصاصهم بالله تعالى وتنمّرهم في ذاته، فلا يحبّون إلا من أحبّه ولا يبغضون إلا من عاداه أو عادى أولياءه وهما في الواقع متلازمان.

﴿أَلا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْـمُفْلِحُونَ﴾، أي هم الذين يظفرون بالسعادة الأبدية في الآخرة، بل هم في الدنيا أيضاً قد ظفروا بالحظّ الأوفى حتّى لو ضاقت بهم السبل، فالذي يحظى بحبّ الله تعالى وبكونه من حزبه لا يبتغي عنه بدلاً ولا يساويه شيء من نعم الدنيا والآخرة، فهنيئاً لهم هذه السعادة والفلاح.

وقد ورد ذكر حزب الله في مورد آخر وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ

**وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾**،[١] والمراد بـ«الذين آمنوا» في الآية الثانية حيث اعتبر تولّيهم مناطاً للدخول في حزب الله هو من ورد ذكره في الآية الأولى وهو أمير المؤمنين عليه السلام حسبما ورد في روايات الفريقين حيث تزكّى بخاتمه الشريف في الركوع فنزلت. فليهنأ من يتولاه عليه السلام ويتولّى أولاده المعصومين عليهم السلام بوسام حزب الله وبالغلبة والفلاح.

اللّهمّ اجعلنا منهم بحقّ من نتولاهم محمّد وآله الطاهرين صلواتك عليهم أجمعين والحمد لله ربّ العالمين.

---

١. المائدة (٥): ٥٥ ـ ٥٦.

# تفسير سورة الحشر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ
أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِى
قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلۡأَبۡصَٰرِ
﴿٢﴾ وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِى ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِى ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ
ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٤﴾

سورة مدنيّة، كما هو واضح من آياتها التي تتضمّن قصّة بني النضير من يهود المدينة وإجلائهم عنها، وتبيّن طريقة تقسيم أموالهم، ثمّ تتعرّض لبعض هفوات المنافقين في نفس المجال وتنتهي بتمجيد الله تعالى وذكر أسمائه الحسنى.

﴿سَبَّحَ للهِ ما فِي السَّمواتِ وَما فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. مرّ الكلام في نظيرة هذه الآية في تفسير سورة الحديد، وإنّما الاختلاف بتكرار الموصول هنا في قوله: ﴿وَما فِي الأَرْضِ﴾ وهذا ممّا يؤكّد على تعميم الحكم لجميع أجزاء الكون.

ولعلّ السرّ في الاختلاف هو أنّ التسبيح هناك ناظر إلى جهة كونية ومقدّمة لبيان صفات الله سبحانه، وهنا إلى جهة أرضيّة لكون الآية مقدّمة لبيان أنّه تعالى هو الذي أخرج اليهود من حصونهم وأنّه هو الذي يحاربهم ويردّ كيدهم، فناسب هنا التأكيد على أنّ كلّ ما في الأرض أيضاً قد سبّح لله تعالى.

وتقديم التسبيح لعلّه للتنبيه على أنّ ما حدث من إجلاء اليهود إنّما كان من الله تعالى وبعنايته الخاصة، كما يتبيّن من تفاصيل الآيات. وذكر الوصفين: «العزّة» و«الحكمة» للتنبيه على غلبته تعالى وتحقّق كلّ ما يريده لا محالة، وأنّ حكمته هي التي تقتضي التأخير والإمهال.

﴿هُوَ الَّذي أَخْرَجَ الَّذينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ دِيارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾، الآية الكريمة تؤكّد ـ كما هو واضح ـ أنّ ما حدث من إجلاء اليهود كان من الله تعالى وينسب الأمر إليه تعالى ابتداءاً وبالمباشرة، لا بتوسّط الوسائط ولا بالتوفيق والتأييد، بل يظهر من تقديم الضمير المنفصل الحصر، وأنّ الإخراج لا ينسب إلى غيره تعالى.

ولعلّ الغرض من ذلك تشديد النكير على اليهود ومن تولّوهم من المنافقين، وتهديد غيرهم من أعداء الرسول ﷺ بأنّهم يعادون العزيز الحكيم مباشرة إذا أرادوا الإساءة إليه ﷺ كما فعله اليهود. وظاهر التعبير حيث ابتدأ بالضمير بعد الآية السابقة مباشرة أنّه من قبيل ذكر الشاهد على ما تضمّنته الآية السابقة من التنزيه ومن العزّة والحكمة.

والآيات نزلت في قصة بني النضير، وهم المراد بالذّين كفروا من أهل الكتاب حيث كفروا بالرسول ﷺ، و«من» في قوله: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ﴾ بيانية

لئلا يشتبه بالذين كفروا من العرب.

وهناك اختلاف شديد في الروايات حول قصتهم والسبب في مناجزة النبي ﷺ لهم. وأقرب ما قيل فيه إلى القبول: أنّه ﷺ لما دخل المدينة صالحه بنو النضير على أن لا يكونوا له ولا عليه، فقبل ذلك منهم؛ فلمّا وقعت غزوة بدر وظهر رسول الله ﷺ على المشركين قالوا: والله إنّه للنبيّ الذي وجدنا نعته في التوراة لا تُردّ له راية، ولمّا هُزم المسلمون في اُحد ارتابوا ونقضوا العهد فركب كعب بن الأشرف في أربعين راكباً من اليهود إلى مكة، فأتوا قريشاً وحالفوهم وعاقدوهم على أن تكون كلمتهم واحدة على النبيّ ﷺ ونزل جبرئيل فأخبره بما تعاقد عليه هو وأبو سفيان، فكان ذلك سبباً في أمر النبي ﷺ بقتل كعب بن الأشرف وبعد مقتله توجّه إليهم لقتالهم أو إخراجهم.

وقيل: إنّ رسول الله ﷺ خرج إلى بني النضير يستعينهم في دية قتيلين من بني عامر، قتلهما أحد الصحابة وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف، فلمّا أتاهم النبي ﷺ يستعينهم في الدية، قالوا: نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت، ثمّ خلا بعضهم ببعض، فقال: إنّكم لن تجدوا الرجل على مثل حالته هذه ورسول الله ﷺ جالس إلى جانب جدار من بيوتهم، فقالوا: من رجل يعلو على هذا البيت يلقي عليه صخرة ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فأتاه الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام من مكانه ورجع إلى المدينة، ثمّ عاد إليهم لقتالهم.

وهناك استبعاد في صحّة هذه الرواية من جهة ذهاب النبيّ ﷺ بنفسه إلى اليهود للاستعانة في دية قتيلين وهناك محاولات لتوجيهه ولا أراها وجيهة، وما

كان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم محتاجاً في مثل ذلك.

وممّا يذكر في القصّة أنّهم أعلنوا استعدادهم للجلاء وسمح لهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بأن يحملوا معهم ما شاءوا، فبعث إليهم عبدالله بن أُبي يعدهم بمساعدتهم وينصحهم بعدم الخروج، كما سيأتي في الآيات فامتنعوا من الخروج، ثمّ غدر بهم ولم ينجدهم وضاق عليهم الحصار فعادوا وطلبوا الخروج، فضيّق عليهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ولم يسمح لهم إلا ببعير واحد لثلاث بيوت يحملون عليه ما لا يستغنى عنه. وقد مرّ بعض الكلام حول يهود المدينة وسبب نزولهم هناك وما آل إليه أمرهم في تفسير سورة الأحزاب.

واللام في قوله: ﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ بمعنى «في»، وعبّر عنها بعضهم بلام التوقيت، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[1] و«الحشر» هو الجمع مع سوق وبعث، وقيل: «الحشر» إخراج بإزعاج. والمعروف في التفاسير أنّ المراد بـ «أوّل الحشر» الحشر الأوّل، فهو من إضافة الصفة إلى الموصوف، وأنّ المراد بـ «الحشر» هنا الإجلاء، وأنّ هذا أوّل إجلاء لليهود.

ولكنّه غير صحيح؛ لأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أجلى بني قينقاع قبلهم. والظاهر أنّ المراد بالحشر خروج الناس من المدينة لقتالهم، وكلّ تجمّع للناس حشر، والغرض من هذا التعبير التأكيد على أنّ إخراجهم كان من الله تعالى مباشرة، إذ لم يحدث قتال بين الفريقين، بل أخرجهم الله تعالى في أوّل تجمّع للمسلمين حولهم.

﴿ما ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ﴾ هذه الجملة أيضاً تؤكّد كون الإخراج من فعله تعالى، وأنّه لا يستند إلى وسائط، ولذلك لم تعطف

---

١. الأنبياء (٢١): ٤٧.

الجملة على التي قبلها؛ لأنّها في مقام الاستشهاد لبيان أنّ إخراجهم كان منه تعالى، وذلك لأنّهم من شدّة بأسهم وتحصّنهم ما كان المسلمون يتوقّعون السيطرة عليهم وإرغامهم بالخروج وما كانوا هم بأنفسهم يظنّون أن تكون هناك قوّة قاهرة ترغمهم على ذلك. والظنّ هو الاعتقاد الذي لا يستند إلى دليل. ومن الغريب ظنّهم أنّ الله تعالى لا يقدر عليهم إذا تحصّنوا في حصونهم، وهذا ممّا لا يمكن أن يحصل للمؤمن وهم كانوا يدّعون الإيمان بالله تعالى.

﴿فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾، أي أتاهم عذابه وتدبيره ومكره. والاحتساب: الظنّ، أي أتاهم مكر الله من طريق لم يتوقّعوه وهو إلقاء الرعب. والقذف: الرمي. وقذف الرعب في قلوبهم يدلّ على أنّهم كانوا مرعوبين من غير سبب ظاهر.

وهكذا يفعل الله بالمغفلين الذين يظنّون أنّ لهم قدرة في مقابل قدرة الله تعالىُ فيتحصّنون بحصونهم وقلاعهم، ويظنّون أنّ قدرة الله تعالى كقدرة خلقه تنحصر في العوامل والأسباب المتعارفة، ولكنّ الله تعالى يأخذهم على غفلة منهم ومن جهة لم يتحصّنوا منها ولم يمكنهم التحصّن؛ لأنّه ليس من الطرق المتعارفة، وإنّما هو بتأثير غيبي في نفوسهم، أي إلقاء الرعب. مع أنّه تعالى لو أراد إتيانهم من جهة حصونهم أيضاً ما كانت تمتنع من إرادته، كما قال تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.[1]

وإلقاء الرعب من الله تعالى في قلوب أعداء الإسلام ممّا تكرّر في عدّة

---

١. النحل (١٦): ٢٦.

مواقف، منها ما حدث ليهود بني قريظة بعد نقضهم العهد وتحزّبهم مع الأحزاب، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً﴾.[١]

ومنها: ما حدث في غزوة أُحد بعد ما استأسد المشركون وأرادوا الهجوم على المسلمين لاستئصالهم بعد الهزيمة، فألقى الله تعالى في قلوبهم الرعب وامتنعوا من ذلك، قال تعالى: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً﴾.[٢]

ومنها: ما حدث في غزوة بدر، قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[٣] وقد ورد في الحديث: أنّ الرسول ﷺ قال:

«نُصرت بالرعب».[٤]

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يا أُولِى الأَبْصار﴾؛ أمّا تخريبهم بيوتهم فلعلّه كان للدهشة التي أُصيبوا بها، أو لئلا تقع في أيدي المؤمنين، أو لكي ينتفعوا ببعض موادّ البناء كما قيل، وعلى العموم فنحن نجد حتّى اليوم أنّ اليهود مولعون بتخريب البيوت حتّى إذا أرادوا الانسحاب من بلد ظافرين؛ وأمّا تخريبها بأيدي المؤمنين؛ فالظاهر أنّه كان قبل الجلاء تخويفاً لهم وحثّاً على الخروج. وإسناد التخريب إلى اليهود حتّى ما كان بأيدي المؤمنين حيث قال:

---

١. الأحزاب (٣٣): ٢٦.

٢. آل عمران (٣): ١٥١.

٣. الأنفال(٨): ١٢.

٤. من لا يحضره الفقيه ١: ٢٤٠.

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ﴾ من جهة أنّهم السبب.

والعبرة والعبور: التجاوز عن الشيء. والمراد بالاعتبار التجاوز عمّا يشاهد بالعين إلى ما لا يشاهد من المستقبل وهو ما يحصل لمن يشاهد عاقبة أليمة لقوم فينتقل من ذلك إلى إمكان حصول نفس العاقبة له إذا مشى مشيهم. والتعبير بـ ﴿أُولِى الْأَبْصار﴾ للتنبيه على أنّ الأمر تكفي فيه المشاهدة.

﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ الغرض من هذه الآية وتاليتها التنبيه على استحقاق هؤلاء عذاباً أكبر ممّا أصابهم، فلا يتوهّم أحد ممّن يلاحظ الوضع أنّهم مظلومون ولا يستحقّون هذه المعاملة؛ وربما كان لدى بعض المسلمين تعاطف نحوهم، فإنّ اليهود من عادتهم التظلّم والشكوى لكسب التعاطف، كما نجدهم اليوم حيث لا يتورّعون عن أيّ جريمة إذا غلبوا، ويظهرون أنفسهم مظلومين بأقلّ حديث يتحدّث أحد ضدّهم.

ويبدو من السياق أنّ بعض المسلمين أيضاً كانت لديه هذه الملاحظة في هذه الواقعة، فلزم تنبيههم وأنّهم يستحقّون أكثر من ذلك لمشاقتهم ومعاداتهم للرسول ﷺ وهي تعود في الواقع إلى معاداة الله تعالى خصوصاً مع علمهم بأنّ هذا هو النبيّ الموعود.

والجلاء في الأصل بمعنى الكشف والإظهار، ويراد به هنا خروجهم بأجمعهم من بيوتهم، فإنّه يستلزم انكشافهم وظهورهم للمشاهدين. والمراد بكتابة ذلك عليهم أنّ الله تعالى قدّر لهم ذلك لمصلحة اُخرى، فلولا هذا التقدير لأنزل عليهم عذاباً من السماء أو بأيدي المؤمنين من القتل والسبي، مضافاً إلى ما لهم من عذاب النار يوم القيامة، فما نزل عليهم من الجلاء والاستيلاء على أرضهم

وديارهم وأموالهم دون ما يستحقّونه.

﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ الله فَإِنَّ اللهَ شَديدُ الْعِقابِ﴾ المشاقّة مفاعلة من الشقّ وهي الخلاف والمعاداة. أي أنّ استحقاقهم لعذاب الاستئصال لا الجلاء إنّما هو من جهة عدائهم الشديد لله ولرسوله، فإنّ معاداة الرسول ﷺ معاداة لله تعالى وهم قد نقضوا العهد وتعاقدوا مع أعداء الرسول ﷺ، بل أرادوا الكيد به وقتله ـ على ما روي ـ لولا أنّ الله تعالى أنجاه منهم، فهذا إعلان منهم لمعاداة الله تعالى.

و﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿مَنْ يُشَاقِّ الله﴾ شرطية وقوله: ﴿فَإِنَّ اللهَ شَديدُ الْعِقابِ﴾ جملة تعليلية سدّت مسدّ الجزاء، أي من يشاقّ الله فإنّ الله تعالى يعاقبه عقاباً شديداً، لأنّه شديد العقاب. وسيأتي بعض الكلام حول كونه تعالى شديد العقاب في تفسير الآية ٧، إن شاء الله تعالى.

مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ
ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا
رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ
أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ
وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ
فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ
ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا
وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ
مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟
وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا
وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ
إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾

﴿ما قَطَعْتُمْ مِنْ لينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلى أُصُولِها فَبِإِذْنِ الله وَلِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ﴾، يبدو أنّ بعض المسلمين في محاصرتهم لبني النضير قطعوا بعض نخيلهم، وقيل: أحرقوا أيضاً بعضها، ولعلّه لمصلحة في الحرب، كفتح الطريق، أو نصب الخيم، أو لإزعاج العدوّ والتنكيل به، أو لغير ذلك، ولعلّه كان بأمر من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، كما ورد في بعض ما روي، أو بتقرير منه، ويقال: إنّ ذلك أثار حفيظة اليهود فاعترضوا على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بأنّك تدعي الصلاح، وهذا من الفساد. وقيل: إنّ

بعض المسلمين اعترضوا على بعض من قطع وأثاروا الشكوك.

ومهما كان فإنّ الله تعالى دافع عن هذه الواقعة بأنّ الأمرين، أي القطع وتركه كان بإذن الله تعالى، والمراد الإذن التشريعي وإلا لم يكن مبرّراً، ومعناه أنّ الحرب إذا استلزمت إفساد بعض المال ولو بالحرق والتخريب والهدم فإنّه مأذون شرعاً.

واللينة: النخلة أو خصوص النخلة الناعمة، كما في «المفردات».[1] وقال ابن دريد في «الجمهرة»: «اللينة: النخلة ـ ثمّ قال ـ وقال بعض أهل اللغة ليس كلّ نخلة لينة. اللين: الدقل بعينه»،[2] والدقل يقال:إنّه من أردأ النخل. وحكى الأزهري عن الفراء قوله: «كلّ شيء من النخل سوى العجوة فهو من اللين».[3] ومن الغريب أنّ في «الصحاح» في باب اللون فسّر اللينة بالعجوة خاصّة،[4] وهناك اختلاف في اللغة أنّ أصل الكلمة من اللون أو اللين. ومهما كان فالمراد هنا النخل أو قسم خاصّ منه.

و﴿ما قَطَعْتُمْ﴾ مبتدأ خبره ﴿فَبِإِذْنِ اللهِ﴾ وردت عليه الفاء لأنّ ﴿ما﴾ موصولة تفيد معنى الشرط.

وقوله: ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلى أُصُولِها﴾ أي وما تركتم من النخل باقية على حالها، حيث إنّها في الأصل قائمة، أي مستقرّة وثابتة على أُصولها. والأُصول: الجذور.

---

١. مفردات ألفاظ القرآن: ٧٥٢.

٢. جمهرة اللغة ٢: ٩٨٩.

٣. تهذيب اللغة ١٥: ٢٦٦.

٤. الصحاح ٦: ٢١٩٧.

والواو في قوله: ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ﴾ للإشارة إلى أنّ للقطع والترك مصلحة أُخرى غير الإخزاء أيضاً فالقطع لمصلحة الحرب أو للإرعاب، والإبقاء لانتفاع المسلمين بها، ويضاف إلى ذلك إخزاء الفاسقين. والإخزاء: الإذلال. والمراد بالفاسقين اليهود عبّر بذلك عنهم ليكون إشارة إلى الموجب والمبرر للإخزاء وهو الفسق والخروج عن طاعة الله تعالى وليكون فيه تعميم يشمل غيرهم من الفاسقين والخارجين عن طاعة ربّ العالمين.

﴿وَما أَفاءَ اللهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكابٍ﴾ الإفاءة من الفيء وهو الرجوع، والمراد بما أفاء الله على رسوله ما غنمه المسلمون من أموال بني النضير وأراضيهم ومزارعهم. والتعبير بـ «الإفاءة»، أي الإرجاع لعلّه من جهة أنّ هذه الأموال يستحقّها في الأصل الرسول ﷺ وإن كانت تحت سلطة غيره فإذا تمكّن منها فكأنّها عادت إليه.

و﴿ما﴾ الأُولى موصولة، والثانية نافية، أي أنّ ما أفاء الله تعالى على رسوله من أموالهم ليس ممّا اغتنمها المسلمون بالحرب وإن تجمعوا هناك واشتركوا في الحصار إلا أنّ السيطرة على العدوّ، وبالتبع على الأموال إنّما تحقّقت بإلقاء الرعب في قلوبهم، والجيش الإسلامي لم يدخل في حرب معهم.

والإيجاف: الإسراع في السير. والركاب: الإبل التي يسار عليها، وليس له مفرد من لفظه، ومفرده الراحلة. والمعروف في تفسير عدم الإيجاف بخيل أو ركاب أنّهم لم يسيروا إليهم بخيل أو إبل لقرب الطريق.

ولكنّ الظاهر أنّ هذا التعبير أي عدم إيجاف الخيل والركاب كناية عن عدم تحقّق حرب كاملة بأجهزتها، لا لقرب الطريق، وإلا لاختصّ الحكم بهذا

الوصف، بل لأنّهم استسلموا خوفاً ورعباً ولم يكن الرعب من الجيش بصورة طبيعية، بل كان بإمكانهم أن يحاربوا ويقتلوا جمعاً من المسلمين، وإنّما ألقى الله تعالى الرعب في قلوبهم إلقاءاً غيبياً فلم يحصل قتال أصلاً.

والآية تحدّد حكم هذه الغنائم حيث عبّر عنها بأنّها ممّا أفاءها الله على رسوله فهي له خاصّة، لا بمعنى الملكية الشخصية، بل بمعنى أنّ أمرها بيده يفعل فيها ما يشاء، وقد روي أنّه ﷺ قسّم تلك الغنائم بين المهاجرين لفقرهم، ولأنّهم تركوا أموالهم في مكّة ولم يعط للأنصار إلا لاثنين أو ثلاثة، ولا ريب أنّ ذلك كان يحزّ في قلوب بعض الأنصار، بل لعلّ بعضهم يجد أنّهم أولى بها؛ لأنّها في بلدهم، ولعلّ بعض المنافقين أيضاً كانوا يثيرون الشكوك والأحقاد، فكان من الطبيعي أن ينزل هذا الحكم ليرفع الشكّ وليحدّد المسار في المستقبل.

مضافاً إلى أنّ المتّبع قبل ذلك هو تقسيم الغنائم بين المحاربين الحاضرين في المعركة بعد إخراج الخمس منها، فكان الحاضرون يتوقّعون ذلك في هذا المقام أيضاً، بينما تمّ التوزيع على فقراء المهاجرين حتّى من لم يحضر ولم يخصّ الرسول ﷺ شيئاً منها لمن حضر للقتال وإن لم يقاتل.

**﴿وَلكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلى مَنْ يَشاءُ وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ﴾**، إشارة إلى أنّ النصر إنّما تحقّق بفعل غيبي من الله تعالى، وهو إلقاء الرعب فتسلّط الرسول ﷺ عليهم بذلك وأمر الغنائم في مثل ذلك بيده. والتعبير يوحي بأنّه شأن من شؤون الرسل عليهم السلام وأنّ الله تعالى ربّما يسلّطهم على بعض الأعداء بطريق الإعجاز كما حصل لموسى عليه السلام حيث تسلّط على ما تبقّى من جنود فرعون وعلى أموالهم بإغراق فرعون ومن كان معه ولم تكن بينهم حرب أساساً.

﴿ما أَفاءَ اللهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُول وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمُساكِينِ وَابْنِ السَّبيلِ﴾، في هذه الآية تفصيل ما أجمل في الآية السابقة وتعميم للحكم ليشمل غير ما أُخذ من بني النضير. والسرّ في هذا الإجمال والتفصيل الاهتمام ببيان حكم ما أُخذ من بني النضير أوّلاً لدفع توهّم الناس، ثمّ تفصيل الحكم وتعميمه على كلّ ما يؤخذ بهذه الطريقة من أهل القرى، أي من الجماعات التي تعادي الرسولﷺ وتحاربه. والقرية كلّ مجتمع من الناس.

وقد وقع البحث في كتب الفقه حول الآيتين؛ وقيل: إنّ هنا إشكالاً من جهة أنّ موضوع الآية الأُولى الفيء، أي ما لم يوجف عليه بخيل أو ركاب وهو بكامله ـ بصريح الآية ـ للرسولﷺ يفعل فيه ما يشاء، وموضوع الآية الثانية ما أُخذ بالقتال من أهل القرى، وذلك لأنّ ظاهر هذا التعبير أنّ أهلها باقون لم يجلوا عن قراهم، فلا بدّ من فرض القتال، وقد بيّنت الآية أنّ حكم هذا القسم من الغنائم هو التوزيع على الموارد الستّة، وهي بنفسها مذكورة في آية الخمس وهي صريحة في أنّ خمس هذه الغنائم يوزع بهذه الطريقة لا كلّها، قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾.[1]

وأجاب السيّد الخوئيﷺ على ما في «التقريرات» عن الإشكال بأنّ الآية الثانية ساكتة عن كون التقسيم في الخمس أو في الكلّ، وآية الخمس بيّنت ذلك، فلا منافاة بينهما؛ واستشهد برواية محمّد بن مسلم على أنّ موضوع الآية الثانية هو المغنم، وقال: «إنّها صحيحة وصريحة في ذلك».

---

١. الأنفال (٨): ٤١.

روى الشيخ الطوسي‌ﷺ بسنده عن علي بن الحسن «وهو ابن فضال» عن سندي بن محمّد «وهو أبان بن محمّد البجلي» عن علا «وهو علاء بن رزين» عن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر‌عليه السلام قال: سمعته يقول: **«الفيء والأنفال ما كان من أرض لم يكن فيها هراقة الدماء وقوم صولحوا وأعطوا بأيديهم، وما كان من أرض خربة أو بطون أودية فهو كلّه من الفيء، فهذا لله ولرسوله‌صلى الله عليه وآله فما كان لله فهو لرسوله‌صلى الله عليه وآله يضعه حيث شاء وهو للإمام‌عليه السلام بعد الرسول‌صلى الله عليه وآله، وقوله: ﴿ما أَفاءَ اللهُ عَلى رَسُولِهِ منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب﴾ قال: ألا ترى هو هذا، وأمّا قوله: ﴿ما أَفاءَ اللهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى﴾ فهذا بمنزلة المغنم كان أبي‌عليه السلام يقول ذلك، وليس لنا فيه غير سهمين: سهم الرسول وسهم القربى، ثمّ نحن شركاء الناس فيما بقي».**[1]

ولكنّ الإشكال لا يرتفع بذلك، إذ لا يمكن حمل هذه الآية على آية الخمس، ولا يصحّ القول بأنّها ساكتة عن أنّ التوزيع يتعلّق بالخمس أو بالكلّ، بل هو كالصريح في أنّ الفيء كلّه يقسّم، ولذلك فإنّه بنفسه‌ﷺ نقل في تفسيره عن قتادة القول بأنّ آية الخمس نسخت هذه الآية، ثمّ عقبه بقوله: «وقد رفض المحقّقون هذا القول، وقالوا: إنّ ما يغنمه المسلمون في الحرب يغاير موضوعاً ما أفاء الله على رسوله‌صلى الله عليه وآله بغير قتال، فلا تنافي بين الآيتين لتنسخ أحداهما الأُخرى» ثمّ قال: «أقول: إنّ ما ذكره المحقّقون بيّن لا ينبغي الجدال فيه...»[2] فالذي يرفع الإشكال هو أنّ مورد هذه الآية مغاير لآية الخمس وأنّ موضوع الآيتين هنا واحد كما ذكرنا.

---

١. تهذيب الأحكام ٤: ١٣٤، باب الأنفال.

٢. البيان: ٣٨٠.

والظاهر أنّ الذي ألجأه﴿ إلى هذا القول رواية محمّد بن مسلم، ولكنّ الظاهر أنّ الرواية غير صحيحة، فإنّ سند الشيخ ﴿ إلى علي بن الحسن فيه: «علي بن محمّد بن الزبير القرشي» ولم تثبت وثاقته،[١] مع أنّ ما ورد في ذيلها من: «أنّ الأئمّة ﴿ ليس لهم من الغنائم إلا سهمين: سهم الرسول وسهم ذي القربى»، لا يوافق سائر الروايات، فإنّ الخمس كلّه لهم.

والآية حدّدت للفيء ستّة موارد للصرف:

١ ـ **الله تعالى؛** وقيل: إنّ ذكره للتيمّن والتبرّك. ويحتمل أن يكون لتكريم سائر الموارد حيث إنّهم فقراء ومساكين فأراد الله تعالى أن يذكر اسمه معهم لئلا يشعروا بانتقاص. ولكنّ الظاهر كما ذكره العلامة الطباطبائي[٢]﴿ أنّ ذكره تعالى ضمن الموارد للإشارة إلى ما يصرف فيه المال طلباً لرضاه وتقرّباً إليه بوجه عامّ، وهو ما يعبّر عنه بأنّه في سبيل الله. وفي هذا السهم يكون الرسول ﷺ والإمام من بعده مبسوط اليد، فكلّ ما يرى باجتهاده أنّه من سبيل الله تعالى وأنّ في الصرف فيه رضا الله جاز له الصرف.

٢ ـ **الرسول ﷺ؛** والمراد ما يصرفه على نفسه وأهل بيته ومن يتبعه وعلى ما

---

١. حاول السيّد الخوئي﴿ على ما في «التقريرات» في كتاب الصوم في مسألة صحّة الصوم من المسافر بعد الزوال تصحيح هذا السند بلحاظ أنّ النجاشي له سند صحيح إلى ابن فضّال، ويروي كتبه عن أحمد بن عبدون كما أنّ الشيخ أيضاً يرويها عنه، فإذا كان لأحمد بن عبدون طريق صحيح غير ما ذكره الشيخ كفى لوحدة الكتاب ووحدة شيخهما. ولكنّ الوارد في «رجال النجاشي» عن ابن عبدون نفس الطريق، وإنّما يروي بسند آخر عن محمّد بن جعفر في آخرين عن أحمد بن محمّد بن سعيد بكتبه. وهذا غير طريق أحمد بن عبدون مع أنّ محمّد بن جعفر لم تثبت وثاقته إلا عن طريق كونه من مشايخ النجاشي وهو لا يثبت الوثاقة، ولكنّه﴿ يعتمد عليه.

٢. راجع: الميزان في تفسير القرآن ١٩: ٢٠٣.

يراه مصلحة للإسلام والمسلمين وإن لم يكن ضمن الموارد المعيّنة أو العامّة.

٣ ـ **ذي القربى**؛ والمراد قرابة الرسول ﷺ كما هو واضح وإن كان بعض من مرضى القلوب أوّلوا بعض آيات القربى كقوله تعالى: ﴿**قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**﴾[1] بقرابة المكلّف، ولا أدري كيف يكون ذلك أجراً للرسالة؟! ولكن هذه الآية لا تحتمل ذلك.

وإنّما خصّ الله تعالى قرابة الرسول ﷺ ببعض المال إكراماً لقرابتهم منه ولأنّه منعهم من الزكاة. ولكن في بعض الروايات ما يدلّ على أنّ المراد بهم الأئمّة المعصومون عليهم السلام خاصّة إلا أنّها ضعيفة السند، وبعضها مضطرب المتن. ولا أثر لهذا البحث بعد أن كان أمر الأنفال حسب الآية السابقة بيد الرسول ﷺ وبعده للإمام من بعده.

وظاهر لفظ الآية عموم ذي القربى حتّى لو لم يكن فقيراً، ولكن لا يبعد بقرينة السياق أن يختصّ الحكم بالفقراء منهم خصوصاً بملاحظة ما يأتي من أنّ الحكمة في ذلك عدم تداول المال بين الأغنياء، وأيضاً بملاحظة تكرّر اللام في ذكر الأصناف إلى ﴿**لِذِي الْقُرْبَى**﴾ وعدم تكرّره بعد ذلك ممّا يؤيد أنّ الأربعة الأخيرة مجموعة واحدة يجمعها ويميّزها الفقر.

وممّا يذكر هنا أنّ الرسول ﷺ طبّق هذه الآية في إعطاء فدك لفاطمة عليها السلام؛ بل ورد في الحديث: أنّ ذلك إنّما تمّ بأمر خاصّ من الله تعالى. وقد حدث ما حدث بعد وفاته ﷺ واهتمّت الحكومة بشأن هذه القرية وأخذها من بضعة رسول الله ﷺ وذلك لمزيد من التضييق على أهل بيت النبوّة.

---

١. الشورى (٤٢): ٢٣.

٤ ـ **اليتامى**؛ واليتيم من فقد أباه ولم يبلغ مبلغ الرجال. والمراد بهم أيضاً الفقراء منهم لعين ما ذكر آنفاً. وعنوان المساكين يشملهم وإنّما خصّهم بالذكر من بينهم لمزيد العناية بهم.

٥ ـ **المساكين**؛ والظاهر أنّ المراد بالمسكين في هذه الموارد الفقير مطلقاً، وهناك بحث في الفرق بينهما من حيث الاستعمال اللغوي مرّ بعض الكلام حوله في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعامُ سِتِّينَ مِسْكيناً﴾.[١]

٦ ـ **ابن السبيل**؛ وهو من كان غنياً في بلده، ولكنّه اغترب واحتاج إلى المال في الغربة فحيث كان متعلّقاً بالسبيل، أي الطريق نسب إليه كأنّه ابنه، ومثل هذا ربما يقع في حرج شديد إذا فقد ماله لكونه محترماً غنيّاً ذا وجاهة في بلده. ولكنّه في هذا العصر لا مورد له غالباً لسهولة الارتباط.

والظاهر أنّ العناوين الثلاثة عامّة، ولكن هناك من الروايات ما يستفاد منها اختصاص الحكم ببني هاشم، وأن المراد بذوي القربى الإمام المعصوم كما مرّ، ومن الروايات أيضاً ما يدلّ على خلافه. وتفصيل البحث عن ذلك في الفقه.

ويستفاد من توزيع الرسول ﷺ عدم وجوب توزيعها حسب السهام الستّة كما ربّما يتوهّم، بل الأمر بيد وليّ الأمر، فله أن يجعلها كلّها في قسم واحد أو أكثر، فإنّه ﷺ وزعها بأجمعها بين فقراء المهاجرين ولم يعط للأنصار إلا لثلاثة منهم على ما هو المشهور.

**﴿كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِياءِ مِنْكُمْ﴾**. الدولة ما يتداولها أشخاص فتنتقل من بعضهم إلى بعض آخر بتبادل أو توارث أو غيرهما. وهناك خلاف بين أهل اللغة

---

١. المجادلة (٥٨): ٤.

في أنّ الدُولة بالضمّ والدَولَة بالفتح هل هما لغتان في معنى واحد، أم بينهما اختلاف؟ فالمحكيّ عن الخليل أنّهما واحد،[١] وبه قال ابن فارس والراغب؛[٢] وقيل: إنّ الدولة بالضمّ في المال، وبالفتح في الملك والسلطة؛[٣] وقيل: إنّ الأوّل هو ما يتداول والثاني مصدر.[٤]

ومهما كان فالمراد هنا واضح، وهو أنّ تشريع هذا الحكم وتخصيص هذه الغنائم بالفقراء والمساكين من بني هاشم وغيرهم إنّما كان من أجل قاعدة أساسية يجب أن تعتمد في تشريع القوانين الاقتصادية، وهي أنّ المال يجب أن لا يبقى في متناول مجموعة من الناس، فيكونوا أغنياء يتداولون أكثر خيرات الأرض وتبقى طبقة فقيرة في المجتمع لا ينالون حاجاتهم الضرورية. ومن هنا تمّ تشريع الزكاة والخمس، وفي ذلك أيضاً يدخل تعيين الضرائب.

وليس معناه أنّ كلّ ما يشرّع في هذا المجال يجب أن يدخل تحت هذه القاعدة فيؤخذ كلّ أملاك الناس ويوزع بين الفقراء كما ينادي به دعاة الاشتراكية، فإنّ القانون الإسلامي يحترم الملكية الفردية ولا بدّ من ذلك لضمان تكامل المجتمع وتطوّر اقتصاده وحماية الدوافع الشخصية في الإنتاج والتطوير.

﴿وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾، وهذه من أهمّ القواعد الأساسية في الشريعة وهو التسليم التامّ والرضا بما يأمر به الرسول ﷺ أو يفعله وترك كلّ ما نهى عنه. و﴿آتى﴾ في الأصل بمعنى أعطى، ولكنّه هنا كناية عن أيّ حكم

---

١. كتاب العين ٨: ٥٨ و٧٠.

٢. معجم مقاييس اللغة ٢: ٣١٤؛ مفردات ألفاظ القرآن: ٣٢٢.

٣. صحاح اللغة ٤: ١٧٠٠؛ معجم البحرين ٥: ٣٧٤، مادّة دول.

٤. مفردات ألفاظ القرآن: ٣٢٢.

يحكم به، ويشمل المورد وهو إعطاء شيء من الغنائم أو منعه عن بعضهم، والقرينة عليه مقابلته بالنهي دون المنع. وفي ذلك تعريض بما كانت تنطوي عليه بعض النفوس من عدم الرضا بما صنعه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من توزيع غنائم بني النضير في فقراء المهاجرين.

والقانون الذي يستند إليه ذلك هو لزوم إطاعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إطاعة مطلقة في كلّ ما يأمر به وينهى عنه بل لزوم التسليم والرضا بما يحكم به كما قال تعالى: **﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾**[1] وهو سارٍ أيضاً في الولاة من بعده بشرط العصمة، ومن هنا نعتقد نحن الشيعة أنّ الولاية ليست لغير المعصوم؛ إذ لا يمكن الحكم بالإطاعة بقول مطلق لمن يمكن منه الخطأ حتّى لو كان ورعاً تقيّاً. وهذا هو المستفاد من قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأمر مِنْكُمْ﴾**.[2]

وقد ورد تفسير الآية بهذا المعنى في روايات كثيرة، ومنها الصحيحة سنداً.

منها: ما رواه الكليني بسند صحيح عن زرارة، قال: سمعت أباجعفر وأبا عبدالله عليهما السلام يقولان: **«إنّ الله عزّ وجلّ فوّض إلى نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم أمر خلقه لينظر كيف طاعتهم، ثمّ تلا هذه الآية: ﴿وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾»**.[3]

وبسند صحيح أيضاً عن فضيل بن يسار قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول لبعض أصحاب قيس الماصر: **«إنّ الله عزّ وجلّ أدّب نبيّه فأحسن أدبه، فلمّا أكمل له**

---

١. النساء (٤): ٦٥.

٢. النساء (٤): ٥٩.

٣. الكافي ١: ٢٦٦، الحديث ٣.

الأدب قال: ﴿إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾،[١] ثمّ فوّض إليه أمر الدين والأمّة ليسوس عباده، فقال عزّ وجلّ: ﴿وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ وإنّ رسول الله ﷺ كان مسدّداً موفّقاً مؤيّداً بروح القدس، لا يزلّ ولا يخطئ في شيء ممّا يسوس به الخلق، فتأدّب بآداب الله. ثمّ إنّ الله عزّ وجلّ فرض الصلاة ركعتين ركعتين، عشر ركعات فأضاف رسول الله ﷺ إلى الركعتين ركعتين وإلى المغرب ركعة فصارت عديل الفريضة لا يجوز تركهنّ إلا في سفر وأفرد الركعة في المغرب فتركها قائمة في السفر والحضر فأجاز الله عزّ وجلّ له ذلك فصارت الفريضة سبع عشرة ركعة، ثمّ سنّ رسول الله ﷺ النوافل أربعاً وثلاثين ركعة مثلي الفريضة، فأجاز الله عزّ وجلّ له ذلك والفريضة والنافلة إحدى وخمسون ركعة منها ركعتان بعد العتمة جالساً تعدّ بركعة مكان الوتر وفرض الله في السنة صوم شهر رمضان وسنّ رسول الله ﷺ صوم شعبان وثلاث أيام في كلّ شهر مثلي الفريضة فأجاز الله عزّ وجلّ له ذلك وحرّم الله عزّ وجلّ الخمر بعينها وحرّم رسول الله ﷺ المسكر من كلّ شراب فأجاز الله له ذلك كلّه، وعاف رسول الله ﷺ أشياء وكرهها ولم ينه عنها نهي حرام إنّما نهى عنها نهي إعافة وكراهة ثمّ رخّص فيها فصار الأخذ برخصه واجباً على العباد كوجوب ما يأخذون بنهيه وعزائمه ولم يرخّص لهم رسول الله ﷺ فيما نهاهم عنه نهي حرام ولا فيما أمر به أمر فرض لازم فكثير المسكر من الأشربة نهاهم عنه نهي حرام لم يرخّص فيه لأحدٍ ولم يرخّص رسول الله ﷺ لأحد تقصير الركعتين اللتين ضمّهما إلى ما فرض الله عزّ وجلّ بل ألزمهم ذلك إلزاماً واجباً لم يرخّص لأحد في شيء من ذلك إلا للمسافر، وليس لأحد أن يرخّص [شيئاً] ما لم يرخّصه رسول الله ﷺ فوافق أمر رسول الله ﷺ أمر الله عزّ وجلّ ونهيه نهي الله عزّ وجلّ

---

١. القلم (٦٨): ٤.

**ووجب على العباد التسليم له كالتسليم لله تبارك وتعالى».**[١] وهناك روايات كثيرة في هذا المعنى.

**﴿وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾** تهديد لمن لا يطيع الرسول ﷺ وتحذير من مخالفته، وفيه إشارة إلى أنّ مقتضى التقوى هو الإطاعة المطلقة.

وقوله: **﴿إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾** تعليل لوجوب التقوى؛ ومعناه أنّ وجوب التقوى والخوف من الله تعالى ومن عذابه حكم عقلي، وليس أمراً مولوياً منه تعالى. وهكذا تحقّق الآية الكريمة حافزاً ذاتياً لإطاعة الرسول ﷺ باعتبار أنّ مخالفته تنافي تقوى الله ووجوب التقوى من الله ومن عذابه ممّا يعود إلى أمر ذاتي، فإنّ الإنسان إنّما يطيع الله خوفاً على نفسه من عقابه الشديد، وأوامر وجوب إطاعته تعالى أوامر إرشادية.

وربما يتساءل الإنسان لماذا يصف الله تعالى نفسه في كتابه العزيز مكرّراً بأنّه شديد العقاب، مع أنّه أرحم الراحمين، أفلا يتنافى الوصفان؟! هكذا يبدو لكثير من الناس، ولهذا السبب نجد بعض المهرجين ينكرون العقاب الشديد في الآخرة ويسخرون من التحذير من جهنّم، ونرى لكلامهم الفارغ آذاناً صاغية بين الناس وخصوصاً الشباب المتعطّش إلى أيّ فكر إباحي.

ويمكن الجواب بأنّ الله تعالى لا يعاقب تشفّياً من أحد، كما هو الحال فينا والخطأ الخطير دائماً هو مقارنة ما يسند إلى الله تعالى بما يسند إلى غيره، فلا رحمته كرحمتنا، ولا غضبه كغضبنا، ولا عقابه كعقابنا، وهو لا يتشفّى من أحد؛ لأنّه لا يتضرّر من أحد ولا يفلت من قبضته أحد وإنّما عقابه نتيجة طبيعية لعمل

---

١. الكافي ١: ٢٦٦، الحديث ٤، باب التفويض إلى رسول الله ﷺ.

الإنسان وكلّ ما هو طبيعي فهو من الله تعالى كما أنّ عقابه الطبيعي في الدنيا أيضاً شديد بمعنى أنّ الإنسان يخطئ خطأ يسيراً في أيّ نشاط يبذله، وربما ينتهي الخطأ إلى هلاكه بأقسى صورة، وهذا أيضاً من الله تعالى؛ لأنّ الطبيعة تتبع إرادته ولا يتحقّق شيء إلا بإذنه عزّ وجلّ.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ بدل عن المذكورين في الآية السابقة أي ذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وتفصيل لذكرهم بأوصافهم التي تدلّ على استحقاقهم، وعلى الأولوية التي استوجبت تقديم المهاجرين في غنائم بني النضير، فمنها أنّهم أُخرجوا من ديارهم وأموالهم، وهناك فرق بين الفقير الذي لم يملك شيئاً طول حياته، بل ورث الفقر من أبيه وبين من كان غنيّاً وعزيزاً في قومه، ورضيت نفسه بترك المال والدار والوطن في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، ولولا ذلك لأمكنهم البقاء برفض متابعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي التعبير بـ «الإخراج» إشارة أيضاً إلى الضغط النفسي الذي تحمّلوه من جراء الظلم، حيث إنّ المشركين أخرجوهم من ديارهم وغصبوا أموالهم. والإخراج من الأموال بمعنى إخراجهم من البيئة التي كانت الأموال فيها.

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً﴾ حال من الضمير في ﴿أُخْرِجُوا﴾، أي كانوا حين الإخراج في هذا الحال، والمراد أنّهم رضوا بالاستسلام للإخراج ظلماً طلباً لفضل الله تعالى ورضوانه وآثروا رضا الله تعالى على كلّ ما يملكونه من الجاه والمال والعشيرة. ومن هنا يتبيّن أنّ المراد بالفضل ثواب الآخرة وبالرضوان رضا الله تعالى وهو أعظم من الثواب. ولا يصحّ ما قيل من أنّ المراد بالفضل الرزق في

الدنيا، إذ لم يقصدوا بهذا الخروج طلب الرزق، بل لم يخرجوا، وإنّما أُخرجوا فرضوا بذلك طلباً لثواب الله في الآخرة ولم يقبلوا الشقّ الآخر من التخيير وهو ترك الرسول ﷺ وترك نصرته.

﴿وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ حال آخر منهم حين الإخراج، ويدلّ على أنّ تقبّلهم للخروج ورفضهم للانصياع إلى دعوة المشركين بالرجوع إلى دين الآباء إنّما كان نصرة منهم لله أي لدينه ولرسوله ﷺ.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أي الصادقون في إيمانهم، فإنّ الصدق يتبيّن حين الامتحان والابتلاء، وهناك كثير من الناس يدّعون الإيمان، ولكن إذا محّصوا بالبلاء تزلزل إيمانهم واستسلموا لضغط الكفّار وأعداء الدين. والمهاجرون الأوّلون نجحوا في امتحانهم وابتلائهم ولم يستسلموا لدعوة المشركين.

والجملة: تدلّ على الحصر وهو حصر إضافي بالنسبة لغيرهم ممّن آمن، ولكنّه لم يتحمّل الأذى في سبيل الله. والظاهر أنّ ذكر هذه الخصائص كان من أجل بيان استحقاقهم للأولوية التي خصّهم بها الرسول ﷺ في غنائم بني النضير دفعاً لما كان يحزّ في قلوب بعض الناس.

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، الظاهر أنّ «الواو» للعطف، فهؤلاء هم الفريق الثاني من المستحقّين مع فرض الفقر والحاجة وهم فقراء الأنصار، ولا ينافي عدم توزيع غنائم بني النضير عليهم، فإنّ هذا الحكم عامّ لا يختصّ بتلك الغنائم. والمدح الذي جاء لهم ليس لبيان الوجه في الاستحقاق أو الأولوية، وأنّما هو تشييد لموقفهم من الدين وتطييب لخاطرهم حيث اختصّ غيرهم بالغنائم آنذاك.

وقيل: أنّ «الواو» للاستيناف. والغرض الثناء على الأنصار تطييباً لخاطرهم، حيث إنّ الرسول ﷺ لم يقسّم عليهم الغنائم ولم يدفع إلا لثلاثة منهم، ولذلك لم يذكر في أوصافهم ما يدلّ على استحقاقهم، كما ذكر في أوصاف المهاجرين.

ولكنّ الصحيح ما ذكرناه؛ إذ لا يظهر وجه لاستئناف هذا المدح والثناء للأنصار ولمن أتوا بعدهم وخصوصاً الفريق الثاني. فالظاهر أنّ الآيات الثلاث لبيان المستحقّين بوجه عامّ، والغرض أنّ الاستحقاق في الأصل لا يختصّ بالمهاجرين وأن اختصّ بهم التوزيع في غنائم بني النضير، وذلك لما مرّ من عدم لزوم التوزيع على جميع الأصناف. ولا ينافيه عدم ذكر وجوه الاستحقاق هنا؛ إذ ليس بصدد بيان الأولوية، كما كان في المهاجرين.

و«التبوّء» اتّخاذ المكان منزلاً، والمراد بـ«الدار» دار الهجرة أي مدينة الرسول ﷺ. و«تبوّء الإيمان» تعبير كنائي يدلّ على عمق ارتباطهم بالعقيدة، حيث اتّخذوا الإيمان مأوى لهم تستقرّ به نفوسهم ويرجعون إليه كلّما حدث لهم ما يوجب شكّاً وبُعداً كما يرجع الإنسان إلى داره كلّما تغرّب وبَعُد عن أهله. ويمكن أن يكون عطف الإيمان على الدار بتقدير لفظ آخر مناسب له نحو «اعتنقوا الإيمان». وقيل: التقدير اخلصوا الإيمان. والأوّل أولى.

وقوله: ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، أي من قبل أن يهاجر الأوّلون إليهم، بمعنى أنّهم آمنوا قبل الهجرة وتبوّءوا الدار أيضاً قبلهم لأنّهم أهلها قديماً. وليس بمعنى أنّهم آمنوا قبلهم ليحتاج إلى تأويل. ويمكن أن يكون الواو بمعنى «مع» ـ كما قيل ـ أي تبوّءوا الدار قبلهم مع الإيمان، أي مع كونهم مؤمنين والتقييد بهذه المعيّة، لأنّه لا

ينظر إلى كونهم هناك قبل إيمانهم.

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، ثلاث جمل من الثناء البليغ للأنصار وهي متدرّجة في الثناء، فالأوّل أنّهم يحبّون من هاجر إليهم. ومن المتعارف أنّ الإنسان يظهر السرور بنزول الضيف عنده، ولكنّه يضيق به نفساً إذا طالت المدّة. وربما يتقبّل الإنسان هجرة أخيه أو أقربائه ونزولهم عليه لمدّة، ولكنّه يقبله على مضض وإن كان لا يظهر ذلك. وهذا أمر طبيعي فالاستضافة طويلة الأمد تثقل على الإنسان حتّى لو كان في غاية السخاء، لأنّها تغيّر مجاري أُموره وتسبّب له مشاكل في برامجه الاعتيادية في الحياة. والقرآن يصرّح بأنّ الأنصار كانوا يحبّون من هاجر إليهم فلم يستضيفوهم على مضض واستثقال، مع أنّهم لم يكونوا لهم أقرباء ولا كانت بينهم معاهدة أو معاشرة مسبقة، ولكنّها أواصر الإيمان تتجلّى في أنصع وجوهه.

وهذا مدح بليغ جدّاً وأبلغ منه الثناء الثاني وهو أنّهم يزيدون على هذا الحبّ بأنّهم لا يجدون في صدورهم حاجة ممّا أُوتوا. والضمير في قوله: ﴿أُوتُوا﴾ يعود إلى المهاجرين، والمراد أنّهم لا يشعرون بحاجة إلى ما آتاهم الرسول ﷺ من الغنائم. وهذا أمر فوق عدم الاستياء من ذلك، فيمكن أن الإنسان لا يستاء من ترجيح صديقه في العطاء، ولكنّه يشعر بالحاجة إلى ما حصل عليه الصديق، ولكنّ هؤلاء لا يشعرون بحاجة إلى ذلك. ولعلّ الوجه فيه أنّهم يعتبرون وصول الصديق إلى ذلك بمنزلة وصولهم فلا تبقى الحاجة، ولكنّها لا تبقى في صدورهم وإن بقيت في الواقع الخارجي فهم محتاجون فعلاً، ولكن نفوسهم

راضية لوصول المهاجرين إلى تلك الحاجة.

وأبلغ منه في المدح والثناء أنّهم يؤثرونهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. والإيثار: التقديم. والخصاصة في الأصل الفرجة والثلمة في الحائط ونحوه، والمراد هنا الحاجة الشديدة، كأنّ هناك ثلمة في حياته أي يقدمون المهاجرين على أنفسهم في مختلف شؤون الحياة مع شدّة حاجتهم. وقد رويت في ذلك قصص وروايات طريفة.

﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، الشحّ: المنع والبخل. وإضافته إلى النفس تدلّ على أنّ بعض النفوس جُبلت وطُبعت على ذلك وليست حالة طارئة، وكذلك التعبير بالوقاية مبنيّاً للمجهول يدلّ على أنّ ذلك عناية ونعمة من الله تعالى على بعض عباده. والفلاح هو الفوز والنجاح كأنّ الإنسان الجواد يفوز بشيء أثمن ممّا يدفع بينما الشحيح البخيل يخسره، وهو يظنّ أنّه ربح شيئاً واحتفظ بماله، فالمعنى أنّ الذي يحفظه الله من شحّ النفس هو الفائز دون البخيل، فإنّه يخسر ولا يحظى بحبّ الناس وتعاطفهم معه، والأهمّ من ذلك أنّه لا ينال رضا ربّه وثوابه، وإنّما ينالهما الإنسان الكريم إذا قصد بذلك التقرّب إليه تعالى.

ويلاحظ أنّ ما ذكر هنا من الثناء على المهاجرين والأنصار هو الصفة الغالبة فيهم، ولا يدلّ على عدم وجود الاستثناء كما هو واضح، فلا ينافي ما ورد في الروايات من وجود حزازة في قلوب بعض الأنصار من التوزيع على فقراء المهاجرين. بل لا يبعد أن يكون المراد بذلك حثّهم على أن يكونوا كذلك، وإن كان هو في الواقع وصفاً لبعضهم، ولكنّ الغرض بيان أنّ المهاجر ينبغي أن يكون

بهذه الصفة، أي لا يبتغي بهجرته إلا فضل الله ورضوانه ونصرة رسوله ﷺ فلا يتوقّع أجراً دنيوياً ولا يحزن ويهتمّ إذا لم يشمله توزيع للمال، وكذلك الأنصار ينبغي أن يكونوا بالأوصاف المذكورة، فمن لم يكن كذلك أو كان ضعيفاً من هذه الجهة ينبغي أن يصلح نفسه. وهذا الأمر واضح بالنسبة للآية التالية التي تخبر عن حال المؤمنين في المستقبل، ولا يبعد بهذه القرينة أن يكون المراد بهاتين الآيتين أيضاً ذلك.

**﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾**، عطف على قوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ ...﴾**، والمراد بالمجيء دخولهم في الإسلام. والضمير في قوله: **﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾** يعود إلى المهاجرين والأنصار أي الذين هاجروا مع الرسول ﷺ والذين تلقّوهم واستضافوهم من أهل المدينة، فالمراد بالقسم الثالث كلّ من آمن بعد الهجرة، سواء في عصر النبي ﷺ أو بعده، وسواء من ولد منهم على الإيمان ومن آمن من غيرهم إلى يوم القيامة.

وقوله: **﴿يَقُولُونَ﴾** جملة وصفية يصفهم فيها بأنّهم على مرّ التاريخ يجمعهم الإيمان بالله ورسوله وهو كافٍ في بقاء التحابّ والتوادّ فهم يدعون بالغفران لمن آمن قبلهم، ولا يختصّ ذلك بمن ذكر في الآيتين السابقتين، بل كلّ من سبقهم من المؤمنين حتّى من آمن بسائر الرسل كما أنّ العنوان المذكور في هذه الآية لا يختصّ بمن أطلق عليهم عنوان التابعين. فالمناط في التواصل المستمرّ في الأعصار والذي لا يقطعه فاصل الزمان وإن بَعُد هو الإيمان بالله ورسوله. وتوصيفهم بسبق الإيمان أيضاً للدلالة على أنّ ما يميز السابقين ليس هو السبق بالزمان أو أنّهم من آبائنا وأجدادنا، بل ميّزتهم السبق بالإيمان فإنّه يؤثر في

توارث الأجيال اللاحقة منهم.

﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾، الغلّ هو الضغينة والعداء، لأنّه يتغلغل في الصدر، والتغلغل التخلّل في الشيء مع الثبات، ولا يطلق على ما يتسبّب فيه ثوران الغضب، بل على الحقد الدفين الثابت. والغرض من الآية ـ كما أشرنا إليه ـ تعليم الأجيال الآتية من المؤمنين بأن يدعوا بهذا الدعاء وهو في الواقع حثّ لهم على ترك الضغائن والأحقاد في ما بينهم.

والمراد بـ «الحقد» ما تستوجبه المصالح المادّية، فإنّ المؤمن لا يحبّ ولا يبغض إلا في ما يرضى الله تعالى، فإذا كان هناك ما يستوجب المعاداة في الله تعالى فلا يشمله هذا الدعاء، بل الأمر بالعكس حتّى لو كان الشخص مؤمناً في الظاهر، فلا تدلّ الآية على وجوب موالاة المنافقين أو الطغاة المتسلّطين الذين غصبوا حقّ العترة الطاهرة وأسّسوا أساس الظلم عليهم والذين قتلوا أئمّة المسلمين وهدموا الكعبة المعظمة واستباحوا مدينة الرسول ﷺ وعاثوا في الأرض فساداً وتجاهروا بالفسق والفجور. هذا لو شملهم التعبير بالذين آمنوا، وأمّا إذا كانوا من المنافقين وممّن يبطنون الشرك كما ظهر ذلك على ألسنتهم في موارد كثيرة من حيث لا يشعرون، فالأمر أوضح.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، التعليل بالرأفة والرحمة إن كان لطلب المغفرة فالسبب واضح، إذ هي مقتضى رأفته تعالى بالعباد ورحمته الواسعة وإن كان لطلب نفي الأغلال والأحقاد، فالسبب أنّ ذلك ربما يصعب على كثير من الناس بصورة طبيعية؛ لأنّ الإنسان بطبعه يحمل الحقد على من يعاديه، وإن كان ذلك في شأن مادّي مع اتّصافهما بالإيمان، وربّما نجد الأحقاد والضغائن بين الإخوان

والآباء والأبناء من أجل المال وغيره من شؤون الدنيا.

وبما ذكرناه يتبيّن بطلان ما طفحت به كتب القوم في تفسير هذه الآيات من لزوم الاستغفار وعدم تناول الصحابة بالإساءة مهما كانوا ومهما أحدثوا، وقد بالغوا في ذلك، فمنهم من قال: «إنّ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ يشمل الجميع مهما كانت أفعالهم» وروى السيوطي في «الدر المنثور» عن الضحاك أنّه قال: «أمر الله بالاستغفار لهم مع علمه بما أحدثوا» وعن عائشة أنّها قالت: «أمرهم الله بالاستغفار للصحابة فسبّوهم».

قال: «وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر أنّه سمع رجلاً وهو يتناول بعض المهاجرين فقرأ عليه: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ ثمَّ قال: هؤلاء المهاجرون فمنهم أنت؟ قال: لا، ثمّ قرأ عليه: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ...﴾ ثمّ قال: هؤلاء الأنصار أفأنت منهم؟ قال: لا، ثمّ قرأ عليه: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ...﴾ ثمّ قال: أفمن هؤلاء أنت؟ قال: أرجو، قال: لا، ليس من هؤلاء من يسبّ هؤلاء» وغير ذلك ممّا يطول ذكره.[1]

وأوضح ما يلاحظ على هذه الأقاويل أنّ الآية الثالثة لا تنظر إلى خصوص من ذكر في الآيتين السابقتين كما مرّ، بل كلّ من سبقوهم بالإيمان كما أنّ المراد بمن جاء بعدهم ليس خصوص الجيل الأوّل كما اصطلحوا عليه وسمّوهم التابعين، بل كلّ من كان قبلهم أو جاء بعدهم من المؤمنين.

والتسمية بالتابعين أُخذت من قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ

---

١. الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور ٦: ١٩٨.

وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[١]، وهذا العنوان أيضاً لا يختصّ بالجيل الأوّل، بل يشمل كلّ من يتّبعهم بإحسان وإن تأخّر، بل يشمل أيضاً كلّ من أسلم في عهد الرسولﷺ ولم يكن من السابقين الأوّلين، كما أنّ الدعاء برفع الغلّ عن القلوب الذي هو في الواقع دعوة إلى تجنّب حمل الأحقاد لا يختصّ بالصحابة، بل عامّ للذين آمنوا في جميع الأعصار، بل هو ألصق بالمتعاصرين، لأنّهم أكثر مظنّة للأحقاد الدنيوية وهي المقصودة كما أسلفنا.

وأمّا قول من قال: إنّ عنوان ﴿الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ يشمل كلّ الصحابة، أي الذين رأوا النبيّﷺ وآمنوا به مهما كانت أعمالهم فهو كلام باطل يرفضه العقل السليم والإيمان الصحيح، فإنّ من الأعمال ما يرفع الإيمان ويناقضه، ومن الأعمال ما يستوجب حبط كلّ الأعمال الصالحة مهما كانت جليلة ومقرّبة إلى الله تعالى، ومن الأعمال ما يستوجب استحقاق الإنسان اللعن في الدنيا والآخرة والخلود في النار قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً﴾[٢] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾[٣] فهل يعقل أنّ الآية تأمرنا بالاستغفار والتوادّ لمن لعنه الله في الدنيا والآخرة ومن هو مخلّد في النار؟!

والذي يدلّ على ذلك بوضوح أنّ هذه العناوين تشمل المنافقين وهم لم

---

١. التوبة (٩): ١٠٠.

٢. الأحزاب (٣٣): ٥٧.

٣. النساء (٤): ٩٣.

يكونوا معروفين جميعاً بأعيانهم كما هو واضح، بل الخطر الأكبر على الدين كان ممّن لا يعرف منهم ويتستّر على المؤمنين، فإنّهم في الظاهر آمنوا بالله ورسوله وكانوا يشاركون سائر المسلمين في نشاطهم الديني ويحضرون جماعة الصلاة وميادين الجهاد، بل منهم من قتل في الميدان ويشملهم أيضاً عنوان الصحابة، بل عبّر عنهم الرسول ﷺ بذلك.

روى البخاري عن جابر بن عبد اللهَ رضي الله عنهما قال: كنّا في غزاةٍ فكسع رجلٌ من المهاجِرين رجلاً من الأنصار فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**ما بال دعوى الجاهليّة؟**» قالوا: يا رسول الله! كسع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال: «**دعوها فإنّها منتنةٌ**» فسمع بذلك عبد الله بن أُبيّ فقال: فعلوها، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ، فبلغ النّبيّ ﷺ فقام عمر فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبيّ ﷺ: «**دعه لا يتحدّث النّاس أنّ محمّداً يقتل أصحابه...**».[1]

وأما من قال بـ«أنّ الله تعالى أمرهم بالاستغفار فسبّوهم» ونحو ذلك، فالجواب: أنّ الصحابة بأنفسهم أيضاً كانوا يتسابّون بل يتقاتلون، ومنهم من قتل بعض الصحابة ومن أمر بسبّ سيّد الصحابة وسيّد أهل البيت عليه السلام وامتثلت الأُمّة الفاسقة أمره سنين، فهل كلّ هؤلاء معنيّون بهذه الآية؟!

وعائشة بنفسها أمرت بقتل عثمان وسمّته نعثلاً وهو يهودي، بل صرحت

---

١. صحيح البخاري ٤: ١٩، باب دعاء النبيّ ﷺ إلى الإسلام.

بكفره[1]، وقاتلت أمير المؤمنين عليه السلام وهو إمام يعترف بإمامته المهاجرون والأنصار. وخالد بن الوليد بعثه أبوبكر لقتال مالك بن نويرة وهو صحابي فقتله بعد أن اقتدى به هو وأصحابه في الصلاة وبنى بزوجته في نفس الليلة، لأنّها أعجبته ولما رجع وتهجم عليه عمر لفعلته الشنيعة نهره أبوبكر وسمّاه سيف الله المسلول!![2]،

---

١. ورد ذلك في مصادر كثيرة، منها تاريخ الطبري ٣: ٤٧٧. وفيه: «إنَّ عَائِشَةَ رَضيَ اللهُ عَنْهَا لَمَّا انْتَهَتْ إلى سَرِفَ رَاجِعَةً في طَرِيقِهَا إلى مكة لقيها عبد بن أُمِّ كلاب ـ وَهُوَ عَبْدُ بْنُ أَبي سَلَمَةَ يُنْسَبُ إلى أُمِّه ـ فَقَالَتْ لَهُ: مَهْيَم؟ قَالَ: قَتَلُوا عُثْمَانَ رَضيَ اللهُ عَنْهُ، فَمَكَثُوا ثَمَانياً قَالَتْ: ثُمَّ صَنَعُوا مَاذَا؟ قَالَ: أَخَذَهَا أَهْلُ الْمَدينَة بالاجْتِمَاع فَجَازَتْ بهمُ الأُمُورُ إلى خَيْر مُجَاز اجْتَمَعُوا عَلَى عَليٍّ بْن أبي طَالب فَقَالَتْ: وَاللهِ لَيْتَ أَنَّ هَذه انْطَبَقَتْ عَلَى هَذه إنْ تَمَّ الأَمْرُ لصَاحبكَ! رُدُّوني رُدُّوني، فَانْصَرَفَتْ إلى مَكَّةَ وَهيَ تَقُولُ: قُتلَ وَاللَه عُثْمَانُ مَظْلُوماً، وَاللهِ لأَطْلُبَنَّ بدَمه، فَقَالَ لَهَا ابْنُ أُمِّ كلاب: ولم؟ فو الله إنَّ أوّل مَنْ أَمَالَ حَرْفَهُ لأَنْت! وَلَقَدْ كُنْت تَقُولينَ: اقْتُلُوا نَعْثَلاً فَقَدْ كَفَرَ، قَالَتْ: إنَّهُمْ اسْتَتَابُوهُ ثُمَّ قَتَلُوهُ، وَقَدْ قُلْتُ وَقَالُوا، وَقَوْلي الأَخيرُ خَيْرٌ منْ قَوْلي الأَوّل».

٢. القصّة منقولة في كثير من كتب التاريخ والتراجم. قال ابن ابي الحديد: «لما قتل خالد مالك بن نويرة ونكح امرأته كان في عسكره أبو قتادة الأنصاري فركب فرسه والتحق بأبي بكر وحلف ألا يسير في جيش تحت لواء خالد أبداً فقصّ على أبى بكر القصّة، فقال أبو بكر: لقد فتنت الغنائم العرب وترك خالد ما أمرته فقال عمر: إن عليك أن تقيده بمالك، فسكت أبو بكر وقدم خالد فدخل المسجد وعليه ثياب قد صدئت من الحديد وفي عمامته ثلاثة أسهم فلمّا رآه عمر قال: أرياءاً يا عدوّ الله! عدوت على رجل من المسلمين فقتلته ونكحت امرأته، أما والله إن أمكنني الله منك لأرجمنك ثم تناول الأسهم من عمامته فكسرها وخالد ساكت لا يردّ عليه ظنّاً أن ذلك عن أمر أبي بكر ورأيه فلمّا دخل إلى أبي بكر وحدثه صدقه فيما حكاه وقبل عذره فكان عمر يحرض أبا بكر على خالد ويشير عليه أن يقتص منه بدم مالك، فقال أبو بكر: إيها يا عمر! ما هو بأوّل من أخطأ فارفع لسانك عنه ثم ودى مالكاً من بيت مال المسلمين». شرح نهج البلاغة ١ : ١٧٣ طرف من أخبار عمر بن الخطاب.

وقال ابن حبان في الثقات ٢ : ١٧٠ في حكاية كلام عمر لخالد: «أقتلت امرأ مسلما مالك بن نويرة ثمّ تزوّجت امرأته، والله لنرجمنك بأحجارك» راجع أيضاً تاريخ ابن عساكر ١٦ : ٢٥٦ وأسد الغابة ٤ : ٢٩٥ والإصابة، لابن حجر ٢ : ٢١٨ و٥ : ٥٦٠ وغيرها.

أهكذا يربّي الإسلام ويريد أن تتربّى عليه الأجيال؟! وهل يأمر الله تعالى بالاستغفار للقتلة والزناة؟!

وروى البخاري عن ابن عباس أنّ رسول الله ﷺ قال في حديث: «ألا وإنّه يجاء برجالٍ من أُمّتي فيؤخذ بهم ذات الشّمال، فأقول: يا ربّ أُصيحابي، فيقال: إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصّالح ﴿وَكُنتُ عَلَيهِم شَهِيداً مَا دُمتُ فِيهم فَلَمّا تَوَفَّيتَني كُنْتَ أَنْتَ الرَّقيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فيقال: إنّ هؤلاء لم يزالوا مرتدّين على أعقابهم منذ فارقتهم».[١]

والأُصيحاب تصغير الأصحاب، ولا يقال ذلك إلا لخاصّتهم والأقربين منهم، نظير ما تقوله العرب، إذا خاطب أحدهم ابنه أو أخاه العزيز عليه، فيقول: بُنَيّ وأُخيّ بالتصغير.

وروي عن أبي هريرة أنّه ﷺ قال: «بينا أنا قائمٌ إذا زمرةٌ حتّى إذا عرفتهم خرج رجلٌ من بيني وبينهم فقال: هلمَّ، فقلت: أين؟ قَال: إلى النّار والله، قلت: وما شأنهم؟ قال: إنّهم ارتدّوا بعدك على أدبارهم القهقرى، ثمّ إذا زمرةٌ حتّى إذا عرفتهم خرج رجلٌ من بيني وبينهم، فقال: هلمّ؟ قلت: أين؟ قال: إلى النّار والله قلت ما شأنهم؟ قال: إنّهم ارتدّوا بعدك على أدبارهم القهقرى، فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النّعم».[٢]

والظاهر أنّ همل النعم ما يهمله الراعي حينما يجمع إبله للرجوع، فإنّه لا يتمكّن عادة من جمعهم بأجمعهم فيترك أعداداً يسيرة أربعة أو خمسة ليواصلوا السير بعده، فيا ترى هل هذا هو المقصود بالحديث فيوافق ما روي في كتبنا من

---

١. صحيح البخاري ٤: ١١٠، باب بدء الخلق.

٢. صحيح البخاري ٧: ٢٠٨، كتاب الرقاق.

أنّهم ارتدوا فلم يبق إلا قليل؟! ولا يقصد به الارتداد إلى الكفر، كما هو واضح، بل ترك ما تعهّدوا به من نصرة الحقّ. وقال العيني في «عمدة القاري»: «هو ما يترك مهملاً لا يتعهّد ولا يرعى حتّى يضيع ويهلك أي: لا يخلص منهم من النار إلا قليل، وهذا يشعر بأنّهم صنفان: كفّار وعصاة».[1] وقال ابن الأثير في «النهاية»: «الهمل: ضوال الإبل، واحدها هامل، أي إنّ الناجي منهم قليل في قلّة النعم الضالّة».[2]

وروى مسلم عن أنس بن مالك أنّه ﷺ قال: **«ليرِدنّ عليّ الحَوض رجالٌ ممَّن صاحبني حتَّى إذا رأيتهم ورفعوا إليّ اختلجوا دوني فلأقولنَّ، أي ربِّ أُصيحابِي أُصيحابي، فليقالنَّ لي: إنَّك لا تدري ما أَحدثُوا بعدك»**.[3]

وفي التعبير عنهم بـ«من صاحبني» مزيد عناية، فيدلّ على أنّهم ليسوا ممن رأوه ﷺ وآمنوا به فحسب بل صاحبوه. والأحاديث في هذا الموضوع والشواهد عليه عن طرق القوم وفي صحاحهم كثيرة جدّاً.

---

١. عمدة القاري ٢٣: ١٤٢.
٢. النهاية في غريب الأثر ٥: ٢٧٣.
٣. صحيح مسلم ٧: ٧١.

۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ
أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ
وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا
يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً
فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا
فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ
شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ
أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَـٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ
إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَـٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ
خَـٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٧﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ﴾ إشارة إلى ما ورد في قصة بني النضير من أنّ رأس المنافقين عبدالله بن أُبيّ ومجموعة أُخرى معه أرسلوا إليهم وهم في الحصار يحرضونهم على المقاومة ويعدونهم النصر. والاستفهام لإنشاء التعجّب. وعبّر عنهم بإخوانهم الذين كفروا للإشارة إلى أنّهم إخوة في الكفر، وإن اختلفت طريقتهم فإنّ الجامع بينهم الكفر برسالة الإسلام وإن كان المنافقون يختلفون عنهم بأنّهم في الواقع مشركون وهؤلاء كانوا من اليهود.

والإتيان بفعل المضارع، أي «يقولون» لبيان الحالة. كأنّه قال: ألم تر إليهم حال كونهم يقولون...، لأنّ الآيات كما يظهر من السياق نزلت بعد عملية

الإجلاء. ويمكن أن يكون للإشارة إلى أنّهم مصرّون على هذا الوصف لم يتوبوا ولم يظهروا رجوعاً عنه؛ لأنّ المضارع يدلّ على الاستمرار. والرؤية لا تتعدّى بـ «إلى» إلا أنّه ضُمّن معنى النظر، أي: ألم تنظر... وعبّر عن المنافقين بـ«الذين نافقوا» ليناسب التعبير بـ«الذين كفروا». و«من» بيانية، فإنّ أهل الكتاب كلّهم كانوا كافرين، وإنّما أراد بالقيد إخراج المشركين فإنّ التعبير بـ«الذين كفروا» ينصرف إليهم.

**﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾** أكّدوا تحريضهم بلام القسم ونون التأكيد. ووعدوهم بالخروج معهم من المدينة، وهو وعد كاذب قطعاً إلا أنّهم أرادوا بذلك التأكيد على تعاونهم معهم، وهو في الواقع تأكيد على كفرهم ونفاقهم. ووعدوهم أيضاً بأنّهم لا يطيعون الرسول ﷺ إذا منعهم من نصرتهم والتعاون معهم، وهو واضح لا حاجة إليه، ولكنّهم أرادوا التأكيد على عزمهم والتنديد بالرسول ﷺ كفراً منهم وفسقاً. وقولهم: **﴿لَا نُطِيعُ فِيكُمْ﴾** أي في شأنكم؛ والمراد به هنا الخذلان، لأنّه هو المتوقّع من أن يأمر به الرسول ﷺ. وأكّدوا تعاونهم معهم بنصرتهم لو وقع قتال بينهم وبين المؤمنين.

**﴿وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾** تبيّن أنّ السياق يدلّ على أنّ الآيات نزلت بعد عملية الإجلاء، فكذب المنافقين في وعدهم كان معلوماً، بل مشهوداً للجميع فليس هذا إخباراً عن الغيب كما في «الكشاف» وغيره. فالمراد من هذه الآية وهذه الشهادة أنّهم كاذبون حين الوعد، لا أنّهم لا يوفون بوعدهم ليكون خبراً عن المستقبل؛ لأنّ المفروض أنّ الآية نزلت بعد انتهاء الحادث.

**﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ﴾** تفصيل لما أجمله من

كونهم كاذبين. ومن الغريب أنّ جمهور المفسّرين لم ينتبهوا إلى ما أشرنا إليه من أنّ سياق الآيات يقتضي نزولها بعد انتهاء الحادث، ففسّروا هاتين الآيتين كأنّهما تحدثان عن قصة بني النضير قبل الإجلاء كما يبدو من لفظ الآيتين، وهناك من المتاخّرين من انتبه للموضوع، ولكنّه لم يهتد إلى تأويل مناسب. والظاهر أنّ هذا التعبير لشرح حالتهم النفسيّة حينما كانوا يظهرون هذه الوعود نفاقاً وكذباً، والقرآن يريد أن يثبت أنّ هؤلاء طبيعتهم النفاق والكذب حتّى مع من تعاهدوا معهم، فيمكن أن يكون المراد أنّهم كانوا آنذاك بحيث لو أُخرجوا لا يخرجون معهم، فكانت الوعود مجرّد تدليس وإغراء ولم يقصدوا الخروج والنصرة أبداً. وقيل: إنّ هذا التعبير لتطمين الرسولﷺ بالنسبة للمستقبل مع غير هؤلاء الجماعة من اليهود. وهو بعيد.

﴿وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ أي على افتراض نصرتهم وهو فرض غير واقعي، فإنّ نصرتهم لا تنفعهم، فليولّون الأدبار، أي يفرّون في مواجهة المسلمين. والضمير في قوله: ﴿لَيُوَلُّنَّ﴾ يعود إلى الناصر والمنصور الفرضيين وهم اليهود والمنافقون معاً، ثمّ لا ينصرهم أحد، والغرض تهديد سائر اليهود بأن لا تغريهم هذه الوعود فليست هناك نصرة تنفعهم.

﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللهِ﴾ خطاب للمسلمين، وفيه تأكيد أيضاً بلام القسم. والآية تأتي في سياق تقوية عزائم المسلمين وتطمين أنفسهم بأنّ أعداءهم وإن تجمعوا وتعاهدوا فلن يفلحوا في مواجهتهم وللتأكيد على ذلك يذكر السبب، لأنّ الإنسان إذا علم السبب اطمأنّ بالحقيقة التي يراد إعلامه بها، والسبب هو أنّهم، أي اليهود والمنافقين يخافون المؤمنين أكثر ممّا يخافون الله تعالى.

والرهبة: الخوف. والمراد بها هنا المرهوبية، أي أنتم أشدّ تأثيراً للرهبة في صدورهم من الله تعالى فهم يخشون المسلمين أكثر ممّا يخشون الله تعالى. قيل: لا بدّ من تأويل آخر، لأنّهم لا يخشون الله أبداً. ولكنّه غير صحيح، فهم يعترفون بوجوده تعالى وقدرته، ولكنّ إيمانهم ضعيف جدّاً، بل حتّى المنكرون لله تعالى يخافونه.

﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ**﴾ الفقه هو الفهم، وليس معناه العلم، ولذلك لا يوصف به الله تعالى، فالمراد بلادتهم وضعف إدراكهم لما وراء المادّة وإن لم يكونوا ضعفاء في إدراك شؤون الدنيا. والسرّ فيه توغّلهم في الأُمور المادّية. والتعبير بأنّهم ﴿**قوم**﴾ كذا للإشارة إلى أنّه أصبح من خواصّ القوم وطبيعتهم الثانوية كأنّهم جُبلوا عليه. وهذه الطبيعة المكتسبة مشهودة في اليهود إلى يومنا هذا، فهم مهما توسّعوا في العلوم المادّية إلا أنّهم ضعفاء في إدراك الأُمور المعنوية، لشدّة حبّهم للمال ولشؤون الدنيا. ونتيجة هذا الضعف أنّهم لا يدركون أنّ القوة لله جميعاً، وأنّه لا أحد يغنيهم عنه إن أراد بهم سوءاً ولا أحد يضرّهم إن أراد بهم خيراً، مع أنّهم يدّعون الإيمان بالله تعالى بل الاختصاص به.

﴿**لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ**﴾، «جميعاً» حال من الضمير المنصوب، أي إذا اجتمعتم لقتالهم، فإنّهم لا يواجهونكم إلا في قرى محصنة وقلاع، أو يختبئون وراء الجدران ويخشون مقابلتكم وجهاً لوجه. وفي ذلك إشارة إلى أنّ السرّ في غلبتكم هو اجتماعكم واتّحادكم تحت قيادة الرسول الأكرم ﷺ وأنّ التفرّق يوجب ضعفكم ووهن قواكم. والمحصّنة بمعنى المحفوظة بالأسوار والقلاع بحيث لا يمكن الوصول إلى داخلها.

﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي إذا وقع القتال بينهم تجد فيهم شجعان أقوياء، وهذا هو المعروف من بعضهم، ولكنّهم يتفادون مواجهة غيرهم.

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ «جميعاً» أي مجتمعين. و«شتّى» من الشتيت، أي التفرّق، وقوم شتّى أي: متفرّقون، فالمعنى أنّ من يلاحظ ظاهر حالهم يظنّ أنّهم متّفقون مجتمعون على كلمة واحدة، ولكنّهم في الواقع متفرّقون، وهذا شأن اليهود والمنافقين معاً، وهكذا شأن أبناء الدنيا، فإنّهم لا تجمعهم عقيدة وإيمان، وإنّما تجمعهم المصالح فإذا تضاربت المصالح اختلفوا، واليهود هكذا كانوا وهم اليوم كذلك، والمسلمون اليوم أيضاً كذلك فقد تركوا العقيدة، وإنّما تجمعهم القومية ومصالحها، وحيث إنّها قد تناقض المصالح الوطنية أو القبلية أو الشخصية فإنّها لا تقاوم المخاوف ولا تبعث على المقاومة.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾، العقل في الأصل هو الحبس والمنع، ومنه عقال البعير الذي تربط به إحدى قوائمه لئلا يشرد. ويطلق بمعنى الحكمة في مقابل السفاهة فالعاقل من يحبس نفسه من إتيان ما لا ينبغي. والسفيه يفعل ما تتوق إليه نفسه، وهو المراد هنا، فإنّ من الحكمة أن يقدّم الإنسان مصلحة المجتمع على مصالحه الشخصية فإنّ الضرر الاجتماعي يعود عليه بضرر أكبر من حيث لا يشعر.

﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، هذا شاهد على عدم تعقّلهم وعدم انتفاعهم بالتجارب كما لم ينتفع بها من كان قبلهم قريباً منهم. وقوله: ﴿كَمَثَلِ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي مثلهم كمثل الذين... والمثل ما ينصب ويمثّل شيئاً، وكذلك القول الذي يصوّرهم ويحكي حالهم، فما يذكر

في هؤلاء يشبه ما يقال عن القوم السابقين. و«الوبال» في الأصل بمعنى الثقل والشدّة ومنه المطر الوابل، والمراد عاقبة السوء أي ذاقوا العاقبة الوخيمة لأمرهم وهي نقض العهد.

والظاهر أنّ المراد بـ﴿من قبلهم﴾ قوم آخر من اليهود وهم بنو قينقاع، وكان من قصّتهم ـ على ما قيل ـ أنّهم نقضوا العهد بعد غزوة بدر وكانوا قد عاهدوا الرسول ﷺ أن لا يحاربوه، ولا يظاهروا عليه عدوّاً فنبذوا العهد بعد الغزوة. ولعلّهم تخوّفوا من نصرة الرسول ﷺ على المشركين من أن تؤثّر في عزائم قومهم وتحبّب الإسلام إليهم كما انتشرت بينهم مقولة علمائهم من أنّه هو النبي الذي لا تردّ له راية، فأرادوا أن يبرزوا تشجّعهم في قبال الرسول ﷺ إرضاءاً لقومهم وتشجيعاً لهم.

ويقول المؤرّخون: كان بنو قينقاع أشجع قوم من اليهود وأكثر أموالاً وأنّ الرسول ﷺ أتاهم بعد غزوة بدر ونادى في جمعهم قائلاً: «**يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا فإنّكم قد عرفتم أنّي نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم**» فقالوا: يا محمّد إنّك ترى أنّا قومك؟! ولا يغرنّك أنّك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت لهم فرصة، إنّا والله لو حاربناك لتعلمنّ أنا نحن الناس».

قالوا: وكان السبب في نشوب الحرب بينهم وبين المسلمين أنّ امرأة مسلمة جاءت إلى سوقهم لأجل حليّ لها وكان أكثرهم صاغة فطلبوا منها أن تكشف وجهها فأبت، فجاء أحدهم وعقد طرف ثوبها إلى ظهرها وهي لا تعلم، فلمّا قامت انكشف جسمها فضحكوا منها فصاحت فوثب مسلم على الرجل وقتله

وشدّت اليهود على المسلم فقتلوه فنشب الشرّ بينهم وبلغ النبيﷺ، فقال: «**ما على هذا قررناهم**»، ثمّ أتاهم وحاصرهم خمس عشرة ليلة فأرسل إليهم عبدُالله بن اُبيّ يعدهم بالنصر ولم يف بوعده، ولكنّه أصرّ على النبيﷺ أن لا يقتلهم فقبل منه وصالحهم على أن يخرجوا من المدينة ويأخذوا أموالهم إلا السلاح.

ومحصل الكلام: أنّ هذه الآية تُشبّه يهود بني النضير بمن قبلهم قريباً من اليهود وأنّ قصّتهم تشابه ما حدث لأولئك من حيث اغترارهم بوعد المنافقين، ثمّ غدرهم بهم ونزول العذاب عليهم على أيدي المؤمنين حيث اُجْلُوا عن المدينة، ولهم يوم القيامة عذاب أليم لكفرهم وعنادهم وغدرهم ونقضهم للعهد. ويلاحظ أنّ القرآن الكريم ما يذكر عذاباً من الدنيا إلا ويذكّر بعذاب الآخرة لينبّه الإنسان على أنّ العذاب في الواقع هو ما يحدث في الآخرة وهو الأليم، وأمّا ما يحصل في هذه الدنيا فهو مجرّد أذيّة قابلة للتحمّل، أو أنّه مهما كان فإنّه زائل. وقيل: إنّ المراد بمن قبلهم المشركون وهو بعيد عن السياق.

**﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾**، تمثيل آخر للقصّة. وفي هذا التمثيل يشبّه المنافقون، حيث غرّوا اليهود بالنصرة، ثمّ تركوهم بالشيطان. والمراد بالإنسان الجنس منه، وليس إشارة إلى قصّة خاصّة كما يتوهّم، فالشيطان خُلق للإغراء، وهو يعمل حسب ما تلقّاه من الله تعالى من أمر تكويني وحسب ما جبل عليه بطبعه وإن كان محرّماً عليه تشريعاً، ويبدو من الآية أنّه كلّما غرّ الإنسان وخدعه يتوب إلى الله تعالى ولا تفيده التوبة، لأنّه لا يعزم على الترك إلا أنّه عارف بربّه وعارف بمقامه، فيظهر الندم، وإنّما يجرّه إلى ما يفعل حقده على الإنسان وحسده. ومثله في ذلك كثير من البشر حتّى

المؤمنين منهم.

ووجه الشبه في هذا التمثيل هو أنّ الشيطان يترك الإنسان بعد التمكّن من إغوائه ويتبرّأ منه، والسبب في تبريه منه توبته المستمرّة وهو يخاف الله حقّاً إلا أنّه يستمر في إثمه العظيم حسداً وبغياً، ولعلّ السبب يأسه من رحمة الله تعالى. ومهما كان فيظهر من الجمع بين علمه وعمله أنّه آيس ويعلم ما سيلقاه من العذاب، ولكنّه يعرف مقام ربّه فيقول هذه المقالة.

وأمّا ما يقال من أنّه يقول ذلك يوم القيامة، فهو يخالف ظاهر الآية، حيث يقول: ﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ ...﴾ فإنّ ظاهره أنّ هذا الكلام يصدر منه فور استجابة الإنسان لدعوته إلى الكفر. نعم، هناك آية أُخرى تبيّن حال الشيطان يوم القيامة وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأمر إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.[1]

والحاصل أنّ الشيطان يحاول دائماً إغراء الإنسان بالكفر بالله تعالى، وليس ذلك بغضاً منه لله، بل للإنسان فهو يريد الإضرار به وإبعاده من رحمة ربّه، حيث أبعده الله تعالى من أجل الإنسان. وهو لا يأمر بصراحة، وإنّما يغري الإنسان ويسوّل له ويزيّن له الكفر ويلقي في روعه أنّه إذا آمن بربّه، فإنّه يشقى في الدنيا وأنّه إذا كفر فسيكون في راحة من تكاليف الدين وسيتمكّن من إعمار حياته، بل إعمار بلاده ويأتي على ذلك بالشواهد وهي كثيرة كما نعلم.

---

١. إبراهيم (١٤): ٢٢.

وقيل: إنّ المراد بالإنسان أبوجهل وأنّ الآية تشير إلى ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ وَقالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ وَقالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقابِ﴾[1] والآية نزلت في غزوة بدر، والظاهر أنّ الشيطان تمثّل للقوم بصورة إنسان وغرّهم ولما رأى الملائكة يضربون الذين كفروا كما ورد في قوله تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[2] خافهم وتيقّن الهلاك، فقال ما قال، والقوم لا يرون فلا يخافون. ولكنّ الظاهر في تفسير هذه الآية ما مرّ ذكره فإنّ مقولة الشيطان في تلك القصة ليست هي الحثّ على الكفر كما تنصّ عليه الآية.

﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾، «عاقبتهما» خبر مقدّم، والمصدر المأوّل من «أنّهما في النار» اسم كان. وهذه نتيجة الاغترار بشياطين الجنّ والإنس وكما هلك الشيطان وهلك عباده كذلك هلك المنافقون ومن اغترّ بهم من اليهود؛ لأنّ كلا من الفريقين ظلمة. والظلم كما قلنا مراراً لا يتوقّف صدقه على وجود مظلوم، بل الظلم ربما يكون لازماً، وأصله من الظلمة. فكلّ عمل في ظلام أي من دون هداية وتبصّر ظلم. وحيث إنّ كلا الفريقين ـ أي الشيطان والإنسان ـ تركا هدايات الله تعالى واتّبعا الهوى فهما ظالمان. وذيل الآية تعلن أنّ هذا جزاء عامّ لكلّ الظلمة.

---

١. الأنفال (٨): ٤٨.

٢. الأنفال (٨): ١٢.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ
خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ
ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ
ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ
ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ
يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ﴾، بعد بيان حال اليهود وهم من ألدّ أعداء الإسلام وبيان ما منّ به على المسلمين من نصرهم وتقوية شوكتهم وخذلان أعدائهم من المشركين واليهود وهم كانوا بين أظهرهم ويرون قوّتهم وشوكتهم وبأسهم وأموالهم وعلمهم فأذلّهم الله تعالى وأخزاهم، وكذلك بعد بيان ما آل إليه أمر المنافقين من الخزي والذلّ والهوان يعود السياق إلى المؤمنين ليذكّرهم بلزوم التقوى وتزكية النفس ومراجعة الأعمال حتّى لا يستخفّ عقولهم الشعور بالغلبة والانتصار ولا يغرّنهم الشيطان والنفس بالركون إلى أنفسهم والنظر في أعطافهم. والتقوى من الوقاية والحفظ، والمراد بـ«تقوى الله» حفظ النفس من غضبه وسخطه ومخالفة أوامره ونواهيه.

﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾، تذكير بالآخرة وبأنّ للإنسان يوماً يحاسب فيه،

وليس له إلا ما عمل في هذه الحياة، فعليه أن يقدّم لنفسه من صالح الأعمال ما ينفعه هناك ويجتنب ما يضرّه في تلك الظروف العصيبة. والأمر بالنظر بمعنى التأمّل والدقّة فيما عمله الإنسان. وعبّر عن العمل بما قدّمه، لأنّه يسجّل عليه قبل وفاته فكأنّه بعثه إلى محلّ استقراره قبل ذهابه. والمراد بهذه الجملة التأكيد على لزوم مراقبة النفس ومحاسبة الأعمال، فإنّ الإنسان مهما صلحت سريرته وتفاني في تقواه فإنّه لا يخلو عمله من هفوات وقصور في الأداء، فلابدّ من محاسبة النفس وإصلاح العمل ومراجعة الماضي وخصوصاً في ما يخصّ حقوق الآخرين.

والتعبير عن يوم القيامة بـ«الغد» إشارة إلى قربه، فلا يتصوّر أنّه بعيد، ولا يجب الاستعداد له من الآن. وهذا هو المشهود من حال البشر، فإنّ الغالب حتّى من المؤمنين الاهتمام بما يضرّ أو ينفع عن قريب، ولذلك لا يمتنع أكثر الناس من التدخين مثلاً؛ لأنّ ضرره في المستقبل ويمتنعون ممّا يضرّ فوراً وإن كان ضرره أقلّ من التدخين، وهكذا في سائر شؤونه فحيث إنّه خلق من عجل لا ينظر إلى البعيد. والإنسان يجب أن يستعدّ لآخرته؛ لأنّ الموت قريب حتّى لو كانت القيامة بعيدة ومن مات فقد قامت قيامته وانقطع عمله. والإنسان لا يمكن أن يضمن حياته ﴿وَمَا تَدرِي نَفسٌ مَاذَا تَكسِبُ غَداً وَمَا تَدرِي نَفسٌ بِأَيِّ أَرضٍ تَمُوت﴾.

ويمكن أن يكون التعبير بـ«الغد» باعتبار أنّه مستقبل محتوم، كما أنّ الغد آت لا محالة فلا يظنّنّ أحد أنّ الحديث عن القيامة حديث عن المجهول فإنّ الله تعالى قد أخبر بها وهو العالم بكلّ شيء.

وقد وقع الكلام في وجه تنكير النفس مع أنّ المراد العموم، فقيل: إنّ النكرة

في سياق الأمر تدلّ على العموم، كما هو الحال فيما إذا كان في سياق النفي والنهي. وهذا غير صحيح فلو قال المولى: ليقم رجل منكم، فإنّما يدلّ على الإطلاق، وعدم وجود شرط في المطلوب، ولا يدلّ على العموم أي وجوب قيام الجميع، بل على وجوب قيام رجل واحد.

ويمكن أن يكون الإتيان بالنكرة إشارة إلى قلّة من يراجع عمله وينظر في ما قدمت يداه، فالمعنى: «لتكن بينكم نفس واحدة ـ على الأقلّ ـ تنظر ما قدمت لغد» وهو مبالغة في القلّة.

والذي يخطر في البال أنّ الوجه في ذلك وفي نظائره كقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾[١] أنّ الآية توجّه الخطاب إلى كلّ مؤمن بشخصه، وحينئذ تصحّ الكناية عنه بالإتيان بالنكرة، كما يقال للشخص: رجل يفعل كذا»، أو «رجل يجب أن يكون كذا»، ويقصد به المخاطب من باب التعريض، وهو يعرف عن نفسه أنّه يفعل أو أنّه يجب عليه أن يكون كذا وهو متهاون في ذلك، كما أنّ النكرة يؤتى بها كناية عن المتكلّم بالذّات كما يقول الخاطب للمراة: «رجل يطلبك» ويقصد به نفسه، وهذا إنّما يصحّ بالطبع مع وجود القرينة.

والحاصل: أنّ الآية إذا فرضت خطاباً لكلّ إنسان فهي تفيد بالتنكير، والكناية الشمول التامّ الذي لا يمكن تخصيصه وهو المقصود، وهذا أبلغ من التعبير بكلّ نفس لإمكان التخصيص هناك.

﴿وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، يقال: إنّه كرّر الأمر بالتقوى للتأكيد وليعقّبه بالتعليل بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ خَبِير﴾، وذلك للفصل بين الأمر الأوّل والتعليل بقوله:

---

١. التكوير (٨١): ١٤.

﴿وَلْتَنْظُرْ...﴾، وفي «الميزان»: «أنّ الأمر الأوّل للتقوى في مقام العمل والأمر الثاني للتقوى في مقام المحاسبة».[١]

وما ذكره العلامةﷺ لطيف جدّاً، فإنّ الإنسان حتّى لو حاسب نفسه فإنّه يحاول في الغالب تبرير ما صدر منه ويختلق الأعذار لنفسه. ولذلك فإنّ المحاسبة الأمينة والواقعية لا تكون إلا بتقوى الله تعالى وهي عزيزة جدّاً، فإنّ أكثر الناس لا يراجعون أعمالهم، والذي يراجع أيضاً إنّما يراجع ليؤكّد على صحّة عمله ويزكّي نفسه ولا ينظر إلى أعماله نظرة المحاسب الدقيق والقاضي العادل وخصوصاً في ما يعود إلى النيّة، مع أنّ الإنسان على نفسه بصيرة إلا أنّه يخدع نفسه.

مضافاً إلى أنّه يناسب التعليل، فالأمر بالتقوى في مقام المحاسبة أقرب إلى أن يعلّل بأنّ الله تعالى خبير بالأعمال وبالنيّات والتنبيه على أنّه هو الذي سيحاسبكم يوم القيامة، وهو أعلم بكم وبأعمالكم فاحذروه. والتقوى في مقام المحاسبة أهمّ من التقوى في مقام العمل وأخطر وأصعب. وما أقلّ المتّقين في هذا المقام؟!

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾، الكلام هنا في أربع جهات:

الأوّل: ما هو المراد بنسيان الله تعالى؟

الثاني: كيف يتحقّق للمؤمن وهو المخاطب هنا نسيان الله تعالى؟

الثالث: ما هو المراد بنسيان الذات؟

الرابع: ما هي العلاقة بين نسيان الله تعالى ونسيان الذات؟

أمّا في الجواب عن السؤال الأوّل، فنقول: المراد بالنسيان أثره فإنّ الناسي

---

١. راجع: الميزان في تفسير القرآن ١٩: ٢١٩.

للشيء لا يرتّب أثراً على وجوده لغفلته عنه، مع أنّه موجود حاضر فإذا كان الإنسان لا يهتمّ بحضور ربّه فكأنّه نسيه. وكما أنّ الملحد المنكر لوجود الله تعالى لا يرتّب أثراً على وجوده لعدم الاعتقاد كذلك من يعتقد به، ولكنّه نسي وجوده أو نسي حضوره أو تناساه. والمؤمن المعتقد يجب أن يكون مستحضراً لوجود ربّه وحضوره في كلّ مقام وإحاطته بكلّ شيء، وهذا الاستحضار هو الذي يبعث على التقوى ويمنع من الآثام وارتكاب الكبائر، بل الصغائر أيضاً.

والجواب عن السؤال الثاني: أنّ الإنسان إذا ارتكب إثماً مع كونه مستحضراً لوجوده تعالى فإن كان مع خوف وخجل من ربّه فإنّه يؤثر في نفسه تأثيراً طفيفاً، فإن لم يتب وكرّر ذلك عدّة مرّات فإنّه يذهب عنه الخوف والحياء ويعتاد على ذلك وينسى ربّه. اما إذا لم يكن من أوّل إثمه خائفاً وجلاً فإنّه ناس لربّه من البدو وهو يناقض الإيمان. ولذلك لم يقل: «لا تنسوا» بل قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ﴾ فالذي يمكن أن يصدر من المؤمن هو الغفلة والتناسي.

ويحتمل أن يكون اختيار هذا التعبير للإشارة إلى المصاديق الخارجية للذين نسوا ربّهم لتكون شواهد على الموضوع، فيكون المعنى: إذا نسيتم الله أو تناسيتموه فستكونون كهؤلاء الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، وكأنّه يشير إلى جمع من الناس نراهم بأعيانهم ينطبق عليهم ذلك.

والجواب عن السؤال الثالث: أنّ معنى نسيان النفس أنّ الإنسان لا يعرف قدر نفسه وينسى إنسانيته، فلا يفكر في شيء إلا في ما تقتضيه غرائزه الحيوانية وهي أُمور تحرّكه بصورة طبيعية كما يتحرّك لها الحيوان من دون تفكير ومحاسبة، والإنسان بطبيعته ليس كالحيوان، بل له دوافع وموانع في ذاته تدعوه إلى أعمال

خاصّة وتمنعه من أعمال أُخرى، فإذا نسي جانبه الإنساني بمعنى أنّه أهمله أو نسيه واقعاً، فإنّه يرتكب ما لا توافق عليه الطبيعة البشرية. وبذلك يصبح أحسن حالات هذا الإنسان أن يكون كالبهيمة المربوطة همّها علفها، وفي حالات أُخرى يكون كالحيوان المفترس والسبع الضاري.

والجواب عن السؤال الرابع أنّ العلاقة بين نسيان الله تعالى ونسيان الذات علاقة طبيعية وكلّ أمر طبيعي من الله تعالى، ولذلك أسنده إلى نفسه وقال: ﴿فَأَنسَاهُم أنفُسَهُم﴾ وذلك لسببين:

الأوّل: أنّ كرامة الإنسان بعبوديته لله تعالى، فإذا تخلّى عن العبودية فقد تخلّى عن كرامته، ومعنى ذلك: أنّه لا يرى لنفسه ميّزة عن الحيوان، بل ربما يتنزّل عن منزلة الحيوان أيضاً؛ لأنّ الحيوان له توجّه إلى ربّه: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾[١] فهذا الإنسان أصبح كالأنعام، بل أضلّ سبيلاً.

والثاني: أنّ أقوى وازع للإنسان عن ارتكاب الجرائم وأقوى دافع لأعمال الخير هو الخوف من الله تعالى وطلب مرضاته، وكذلك هو أشمل وازع ودافع، فإنّ المؤمن بالله يشعر بحضوره الدائم وإحاطته بكلّ شيء، وليس كذلك خوف الإنسان من القانون أو الفضيحة الاجتماعية مثلاً فإذا بلغ الإنسان مرحلة نسيان الله تعالى فأنّه يفقد ما يدفعه إلى الخير ويجنّبه المخازي والرذائل في كثير من المواقف. ومعنى ذلك أنّه يفقد ما تقتضيه إنسانيته ويكون كمن نسي نفسه ولذلك نشاهد المجتمع البشري في زماننا أقرب ما يكون إلى حيوان الغاب في شهواته ونزواته وأولوياته ومخاصماته وغير ذلك.

---

١. النور (٢٤): ٤١.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، العبارة تدلّ على الحصر، وأنّ الفاسق الواقعي هو الذي ينسى الله تعالى بمعنى أنّه لا يراعي جانبه ولا يلاحظ حضوره أبداً، ومن الواضح أنّ مثل هذا الإنسان لا يتقيّد بأيّ حكم من أحكامه تعالى، فيكون هو المصداق الواضح للفاسق.

﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الجنّة أَصْحَابُ الجنّة هُمُ الْفَائِزُونَ﴾، الآية الكريمة ربما تبدو غريبة من جهة أنّ الأمر الذي ينبّه عليه من أوضح الواضحات، إذ لا شكّ في عدم تساوي من حكم عليه بالنار ومن دخل الجنّة حتّى لو لم يعتقد الإنسان بالآخرة، فإنّ أصل التفاوت بين الفريقين المفروضين أمر واضح جدّاً. والذي يمكن أن يقال في توجيه ذلك: إنّ الصحبة لا تختصّ بالملازمة بل تصدق بالملاءمة، قال: الخليل «كلّ شيء لاءم شيئاً فقد استصحبه». ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الجنّة أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾[1] فأطلق عليهم عنوان أصحاب الجنّة لاستحقاقهم، مع أنّهم لم يدخلوها وإنّما يطمعون ورودها. والظاهر أنّ المراد بالأصحاب هنا أيضاً هذا المعنى لا الذين سكنوها، إذ من الواضح أنّ ساكن النار ليس كساكن الجنّة خصوصاً إذا اعتبرنا في الصحبة معنى الملازمة.

وعليه فالمراد بالفريقين هنا الذين يستحقّون النار والذين يستحقّون الجنّة. وقرينة السياق تقتضي أن يكون المراد بـ﴿أصحاب النار﴾ الذين نسوا الله تعالى ولم يلاحظوا جانبه في أعمالهم ولم يتّقوه، وبـ﴿أصحاب الجنّة﴾ المتّقون الذاكرون لله تعالى دائماً وفي كلّ حال أو كثيراً كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ

---

١. الأعراف (٧): ٤٦.

ذِكْراً كَثِيراً﴾.[١] وفي الآية تعريض بأنّ الذين نسوا الله أو كانوا كالذين نسوا الله من أصحاب النار حسب استحقاقهم. والمراد بعدم الاستواء عدمه يوم الجزاء وإن كان ربما تستوي حياتهم في الدنيا، بل ربما يكون أصحاب النار أقرب إلى السعادة فيها. وأمّا ما يقال من أنهما يختلفان حتّى في هذه الحياة وإن كان صحيحاً إلا أنّه ليس مقصوداً في هذه الآية.

و«الفوز» هو الظفر بما هو المطلوب في أيّ نشاط يمارسه الإنسان، فالفائز في اللعب هو الذي يحصل على الجائزة، والفائز في الحرب هو الغالب، والفائز في المسابقة الثقافية من أصاب في الجواب، والفائز في نهاية المطاف وانتهاء الحياة الدنيا هو الفائز بالجنّة فحسب، ولذلك أتى بالضمير والألف واللام في الخبر ليدلّ على الحصر وأن غير أصحاب الجنّة هم الخاسرون كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.[٢]

وهذا الأمر أي عدم استواء الفريقين أمر واضح لا شكّ فيه، خصوصاً أنّ الخطاب للمؤمنين، فالغرض من ذكره التنبيه على أنّ هذا الأمر مع وضوحه يغفل عنه المؤمنون أو هكذا يبدو من عملهم فلزم تنبيههم على ما غفلوا عنه أو تغافلوا، وإنّما يغفلون أو يتغافلون لمتابعة الأهواء أو لتسويف التوبة وتوقّع طول العمر أو للاعتماد على رحمة الله تعالى وعفوه أو لغير ذلك ممّا يغترّ به الإنسان ويغرّه بذلك شياطين الجنّ والإنس.

وهذه المجموعة من الآيات كلّها مواعظ للمؤمنين، فأمرهم أوّلاً بالتقوى

---

١. الأحزاب (٣٣): ٤١.

٢. الزمر (٣٩): ١٥.

ومحاسبة النفس ثمّ التقوى أيضاً في مقام المحاسبة ثمّ حذّرهم من أن يكونوا كالناسين لله تعالى فيدخلوا في صف الفاسقين، وفي هذه الآية ينبّههم على أنّ عدم التقوى وعدم رعاية حضوره تعالى أي النسيان يوجب استحقاقهم للنار ولا بدّ من هذا التنبيه حتّى لا يغترّ المؤمن بإيمانه ويتوهّم أنّه مصون من دخول النار.

ومن الغريب أنّ هذا الاغترار باق عندهم حتّى مع هذه المواعظ، وبعض المفسّرين والدعاة يزيدون الناس اغتراراً حيث يقولون بأنّ المؤمن لا يدخل النار أو لا يبقى فيها مع أنّ الله تعالى حكم على بعضهم بالخلود كمن قتل مؤمناً متعمداً وما أكثرهم في التاريخ؟! والذي يراجع بعض التفاسير يجد بوضوح أنّ الموعظة البليغة الإلهيّة لم تؤثّر في قلوب بعضهم فحاولوا بالكذب والافتراء وتحريف معاني كتاب الله تعالى الدفاع عن عقائدهم الفاسدة.

ففي عدّة من التفاسير حول الآيات السابقة كلام طويل وأحاديث موضوعة حول عدالة الصحابة وفسق من يجرح أحداً منهم مع علمهم بأنّ منهم المنافقين ومنهم من ارتكب العظائم وتسبّب في قتل الآلاف من المسلمين، ومنهم من تجاوز على بيت مال المسلمين وسرق منه أو وزّع الأموال بين قومه، ومنهم من اعتدى على العترة الطاهرة عليهم السلام، ومنهم من سبّ أمير المؤمنين عليه السلام وبغى عليه وحاربه وجعل سبّه سنّة بعده إلى غير ذلك من الكبائر.

وهناك محاولات كثيرة من المفسّرين لتوجيه هذه الآية بسبب الإشكال الذي ذكرناه، فمنهم من قال: إنّ المراد التنويه على البون الشاسع بين الفريقين. وهذا غير صحيح، لأنّ الآية لا تدلّ إلا على عدم المساواة. ومنهم من قال: إنّ الغرض بيان أن الذين نسوا الله من أصحاب النار. ومن الواضح أنّ هذا ليس هو المستفاد

من الآية. ومنهم من قال: إنّ المراد اختلاف درجات أهل الجنّة وأهل النار فعدم الاستواء ملاحظ في كلّ فريق لا بين الفريقين، وهذا أيضاً غير صحيح، لأنّه تعالى ذكر ما يحصل من عدم الاستواء وهو أنّ الفائز من الفريقين هم أصحاب الجنّة فيتبين من ذلك بوضوح أنّ الملحوظ عدم تساوي الفريقين.

وما ذكرناه أيضاً وارد في عدّة من التفاسير، قال العلامة ﷺ في «الميزان»: «والسياق يشهد بأنّ المراد بأصحاب النار هم الناسون لله وبأصحاب الجنّة هم الذاكرون لله المراقبون»[1] إلا أنّهم لم يفسّروا الصحبة بما ذكرناه من الاستحقاق والملاءمة، وإذا فسّرنا الصحبة بالملازمة لم يصحّ هذا التوجيه؛ لأنّ عدم استواء ساكن النار وساكن الجنّة من أوضح الواضحات حتّى عند من ينكرهما، فلا يمكن أن يكون هو المقصود.

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾، «الخشوع»: الخضوع والتذلّل. و«التصدع»: الانشقاق والانفطار. و«الخشية»: الخوف. و«لو» للامتناع أي إنّا لم ننزّل القرآن على جبل، ولا يمكن ذلك لعدم تمكّنه من إتيان التكاليف وعدم تفهّمه للمعارف، ولكن لو كنّا ننزّله عليه ونخاطبه لكان خاشعاً له متذلّلاً ولكان يتصدّع ويتشقّق تهيباً لكلامه تعالى ولم يكن كالإنسان. والإشارة إلى القرآن بـ«هذا» للتنبيه على قربه من فهم الإنسان وإدراكه. وهذا تمثيل لعظمة القرآن وتأثيره العجيب في الكون وتنديد بالإنسان الذي نسي ربّه فلا يتأثّر من كلامه تعالى فقلبه أقسى من الحجر.

وقيل: إنّه ليس تمثيلاً، بل هو بيان لأمر واقع لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ

---

١. الميزان في تفسير القرآن ١٩: ٢٢٠.

خَشْيَةِ اللهِ﴾[١] وعليه فالمعنى أنّ القرآن نزّل لمخاطبة البشر، ولو كان نازلاً لمخاطبة الجبل لكان يخشع له واقعاً مع كونه حجراً صلداً، ومع ما فيه من عظمة وقوّة، بل كان يتصدّع ويتشقّق من تأثّره بكلام ربّه، فما بال الإنسان لا يتأثّر به؟ وقد مرّ بعض الكلام حول سجود الأشياء والظلال وخشوع الحجر لله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجدانِ﴾.[٢] وهذا الكلام له وجه في حدّ ذاته إلا أنّ تذييل هذه الجملة بقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ﴾ يدلّ على أنّ المراد بها التمثيل.

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ مرّ الكلام في معنى المثل في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الّذينَ﴾ وهنا ينطبق المثل على القول الذي يصوّر حقيقة أُخرى عن طريق التشبيه، فالجملة السابقة تشبيه يبين قساوة قلب الإنسان الناسي لربه. والله تعالى يضرب الأمثال ليقرّب الحقائق إلى فهم الناس وليكون أبلغ تأثيراً من التصريح فيبعثهم إلى التفكّر و التدبّر في القرآن لمعرفة حقائقه.

﴿هُوَ اللهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ الظاهر أنّ ذكر الأسماء الحسنى في هذا المقام بمناسبة حثّ المؤمن على ذكره تعالى ونهيه عن النسيان، فأراد أن يذكّره بأسمائه تعالى وصفاته الحميدة ليكون حافزاً له على الذكر.

وقوله: ﴿هُوَ﴾ يحتمل أن يكون مبتدأ والاسم الجليل خبره، على أساس أنّ المراد بالاسم الجليل الذات الجامعة لصفات الكمال كما قيل أو على أساس أنّ الضمير يعود إلى من أنزل القرآن المذكور في الآية السابقة. ويحتمل أن يكون الضمير ضمير الشأن وما بعده مبتدأ وخبر. ولكنّ الذي يناسب الفهم العرفي من

---

١. البقرة (٢): ٧٤.

٢. الرحمن (٥٥): ٦.

هذا التعبير وأمثاله هو ما قيل من أنّ قوله: ﴿هُوَ﴾ إشارة إلى الذات المتعالية و﴿اللهُ﴾ بدل منه وما بعده خبر، ومثله ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَد﴾ ونحو ذلك.

و«الإله» بمعنى المعبود، فمعنى كلمة التوحيد أن لا معبود بحقّ إلا هو، فكلّ ما يعبد من دونه باطل. والعبادة ليست هي الطقوس الخاصّة التي تختلف فيه المذاهب، بل العبادة تدخل في جميع شؤون الحياة. ومغزاها أن لا يطيع الإنسان إلا الله تعالى، بل لا يطلب الإنسان حاجة إلا من الله تعالى، ولا يتوجّه إلا إليه حتّى لو كان يطلبها عن طريق الوسائل الطبيعية، لكنّه مع الإيمان بأنّ الفاعل والقاضي للحاجة هو الله تعالى وحده لا يشركه شيء، وهذا معنى «الصمد» أي الذي يصمد إليه الخلق في حاجاتهم. بل التوحيد الحقّ أن ينقطع إليه تعالى عن الخلق ولا يطلب في كلّ أعماله إلا رضاه. بل الكمال الإنساني أن لا يطلب في سيره وتكامله إلا الله تعالى فيكون هو منتهى أمله وغاية مناه.

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ الغيب ما هو غائب عن الأبصار وخلافه الشهادة، وهما أمران نسبيان كما هو واضح، فما يكون غيباً لأحد قد يكون مشهوداً لغيره، ومعنى كونه تعالى عالماً بهما أنّه لا غيب بالنسبة إليه، فكلّ الكون بكلّ جزئياته وذراته، وكلّ ما يقع في طول الزمان مشهود له حاضر عنده، محاط بقدرته وعلمه، وهو على كلّ شيء شهيد، لا تختلف عنده الأزمنة والدهور والماضي والحاضر والمستقبل؛ ولا تخفى عليه ذرّة في السماوات ولا في الأرض.

﴿هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ مرّ بعض الكلام حول الوصفين قريباً في تفسير سورة الرحمن.

﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ مرّ الكلام في هذه الجملة. والتكرار للتأكيد على

التوحيد، فإنّه الأصل في الدين. وكلّ ما يراد تثبيته في الأفكار، ويراد الحثّ على أنّ تكون أعمال الناس أيضاً متأثّرة به لا بدّ فيه من التكرار ليتعمّق في النفوس.

﴿الْـمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْـمُؤْمِنُ الْـمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْـمُتَكَبِّرُ﴾، «الملك» صفة مشبهة من الملك ـ بضمّ الميم ـ وهو السلطة. وهي قد تكون اعتبارية متقوّمة بالقانون الوضعي أو بإرادة الشعب، أو بالقوّة العسكرية أو غير ذلك، وليس أمراً واقعياً، فالملك أو الأمير أو رئيس الجمهورية أو نحو ذلك لا يتغيّر في واقع الأمر بعد اعتباره ملكاً أو حاكماً، وإنّما يتغيّر الشأن الاعتباري. وقد تكون حقيقية لا تتقوّم باعتبار معتبر، بمعنى أنّه بإرادته يتحكّم في الأشياء، وهذه السلطة موجودة في البشر أيضاً بصورة محدودة، فالإنسان يتحكّم في الطبيعة بما يسمح له قانون الطبيعة. وربما يتحكّم في بعض الأمور بصورة غير طبيعية أيضاً، كإعجاز الأنبياء وكرامات الأولياء، بل ربما يحصل بعض القوى لبعض الناس بطريقة ملتوية في الطبيعة كتصرّفات المرتاضين.

والسلطة المطلقة على الكون لله تعالى فهو الملك على الإطلاق فحسب، والكون أعظم بكثير من الكون المادّي الذي نراه إمّا بالعين أو بالأجهزة أو نعلم به بالمحاسبة وإن لم نعلم حدوده. وله السلطة على كلّ شيء فلا يمكن لشيء أن يتخلّف عن إرادته، وليس ذلك خوفاً من عقابه، بل لا يمكنه التخلّف، ولذلك قال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.[١]

ويلاحظ أنّ قوله تعالى: ﴿طَائِعِينَ﴾ جمع وليس مثنى، مع أنّ مرجع الضمير

---

١. فصّلت (٤١): ١١.

السماء والأرض، ولذلك قال: ﴿قَالَتَا﴾ ولعلّ ذلك لأنّ السماء والأرض تعبير عن كلّ الكون، فالأرض بمعنى عالم الطبيعة والسماء بمعنى ماوراءها، أو المراد الكون المادّي فالأرض أرضنا والسماء كلّ ما نراه فوقنا وحولنا، فكلّ أجزاء الطبيعة تستجيب له طواعية. بل الأشياء كلّها متعلّقة في وجودها وكيانها بإرادته تعالى، وليس معنى ذلك أنّه إذا أراد فناءها فسوف تفنى وتنعدم، بل إذا لم يرد وجودها ولم يبعث لها الكيان والوجود فلا يبقى شيء ولا يبقى منها أثر، فالوجود متقوّم بإرادته تعالى.

وهو الملك بقول مطلق في التكوين والتشريع فيتصرّف في الكون كيف يشاء وتجب إطاعته إطاعة مطلقة دون غيره إلا من أمر بإطاعته. وسلطته التشريعية أيضاً سلطة حقيقية ليست بجعل جاعل أو اعتبار معتبر، فإنّ السرّ في وجوب إطاعته تعالى أنّه هو المنعم، فيجب شكره، أو أنّه هو القاهر فيخاف ويحذر من مخالفته والعقل يحكم بوجوب دفع الضرر.

و﴿الْقُدُّوسُ﴾ صيغة المبالغة من القداسة، أي النزاهة فهو تعالى منزّه عن كلّ نقص وحاجة. ولعلّ مناسبة ذكره بعد ﴿الْمَلِكُ﴾ الدلالة على أنّ عموم سلطته وقدرته لا يستلزم أن يصدر منه تعالى ما ينافي العدل والحكمة، فهو منزّه عن كلّ نقص، والظلم لا يكون إلا عن نقص.

و﴿السَّلَامُ﴾، مصدر بمعنى السلامة، أي البراءة من الآفات والعاهات، وإطلاقه على الذات من باب المبالغة وتوصيفه تعالى به إمّا لكونه منزّهاً من أيّ نقص، وإمّا لأنّ منه السلام والأمان في الدنيا والآخرة. وفي «الميزان»: «السلام من

يلاقيك بالسلام والعافية من غير شرّ وضرّ».[١] وفي «المجمع»: «الذي سلم عباده من ظلمه».[٢] وهذا الوصف أيضاً يناسب التوصيف بالسلطة المطلقة ليشعر الإنسان بأنّ هذه السلطة منها الأمان والسلام التامّ الشامل، وليست كالسلطات الجائرة التي يخاف الناس من جورها وعدوانها.

و﴿الْمُؤْمِنُ﴾ اسم فاعل من الأمن وهو في الأصل بمعنى الطمأنينة، والمؤمن هو الذي يحقّقها، فإن حقّقها بالنسبة لنفسه تجاه أي معتقد فهو مؤمن به، وبهذا المعنى يطلق على المؤمنين، وإذا حقّقها لغيره فهو المؤمّن له، والإيمان هنا يكون متعدّياً إلى الغير، وبهذا المعنى يوصف الله تعالى بالمؤمن أي الواهب للأمن. والإنسان يشعر بالأمن الكامل والطمأنينة والاستقرار إذا رأى نفسه مستظلاً بظلّه تعالى ولاجئاً إلى كنفه. ومن هذا الباب توصيف الإنسان بالمؤمن إذا أعطى الأمان لعدوّه أو كلّ من يخافه. وهذا الوصف أيضاً يتبع التوصيف بالسلطان المطلق. وفي «المجمع»: «الذي أمن خلقه من ظلمه». وقيل: «الواهب للإيمان»، وقيل غير ذلك.

و﴿الْمُهَيْمِنُ﴾ اختلفوا في أصله ومعناه. فقيل: «إنّ أصله من أمن، أُبدلت الهمزة هاءاً» كما في هراق، وقيل: «إنّه هاء في الأصل»، وحكي له معان مختلفة من كبار أهل اللغة وقدماء المفسّرين ونحن نعتمد على ما حكي عن الخليل وأنّه بمعنى «الرقيب»، فالمهيمن هو المراقب للشيء أي الحافظ له عن سلطة عليه. وربما أُتي بمعنى «الرقابة» فقط كقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ

---

١. الميزان في تفسير القرآن ١٩: ٢٢٢.
٢. مجمع البيان في تفسير القرآن ١٠ ـ ٩: ٤٠٠.

**مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾**[١] فإنّ المراد به هنا مراقبة النسخ الباقية من الكتب السابقة وتصحيح ما ورد فيها من تحريف.

ومثله توصيفه تعالى بـ«المقيت» قال تعالى: **﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً﴾**[٢] أي رقيباً وحافظاً وشهيداً. وهذا الوصف يحكي عن سلطته تعالى، وكذلك ما بعده هنا من الأوصاف، فكلّها تحكي عن السلطة والقوّة، بخلاف ما قبلها حيث تحكي عن رحمته تعالى وسلامه وأمانه. ولعلّ تعقيب السلامة والأمان بهذه الأوصاف لدفع توهّم أنّه تعالى يغفل أو يتغافل عن تصرّفات عباده، فأُريد بذلك تنبيه الإنسان على أنّه تعالى بالرغم من سعة رحمته ولطفه وعنايته وأنّه يهب السلامة والأمان إلا أنّه المهيمن على أعمالهم صغيرها وكبيرها وأنّه هو العزيز والجبّار والمتكبّر.

و**﴿الْعَزِيزُ﴾** مرّ مراراً أنّه مأخوذ من العزّة بمعنى الشدّة والصلابة وأنّ منه الأرض العزاز أي الصلب، فالمراد به من لا يؤثّر فيه شيء ولا يغلبه شيء ولا يمنع من تحقّق إرادته شيء.

و**﴿الْجَبَّارُ﴾** قال ابن فارس: إنّ معناه العظمة والعلوّ، ومنه نخلة جبّارة وفرس جبّار.[٣] وفي «المفردات»: إنّ أصله إصلاح بقهر،[٤] فكأنّه أراد الجمع بين جبر الكسير، وقهر الشيء على ما يريد. ومهما كان أصله فتوصيفه تعالى به إمّا لأنّه

---

١. المائدة (٥): ٤٨.

٢. النساء (٤): ٨٥.

٣. معجم مقاييس اللغة ١: ٥٠١.

٤. راجع: مفردات ألفاظ القرآن: ١٨٣ ـ ١٨٤.

متعال بعيد المنال، أو لأنّه يقهر الأشياء بإرادته فلا يقاوم إرادته شيء ويخضع كلّ شيء لإرادته وهو المعنى المناسب للسياق كما بيّناه. وهذه الصفة فيه تعالى مدح وفي غيره ذمّ، إذ لا يجوز لأحد من الخلق أن يقهر غيره على ما يريد. وقيل: «معناه أنّه يصلح الأشياء ويجبرها» وهو بعيد.

و﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾ قال في «الكشّاف»: «البليغ الكبرياء والعظمة. وقيل: المتكبّر عن ظلم عباده»،[1] والوجه في التفسير الأوّل أنّ باب التفعل كما قالوا للتكلّف بالشيء، وحيث لا يمكن هنا أن يراد التكلّف فيحمل على لازمه وهو المبالغة فيه. والتفسير الثاني أيضاً مبنيّ على الأخذ بلازم المعنى باعتبار أنّ التكبّر يستلزم الاستعلاء والأنفة والله تعالى منزّه عن الظلم. وكلاهما لا يخلوان عن تكلّف. وقال ابن الأثير: «أي الذي تفرّد بالكبرياء وتخصّص به». وهو أيضاً مبنيّ على الأخذ بلازم التكلّف وهو الاختصاص. وفيه خفاء.

والظاهر أنّ باب التفعّل والتفاعل لاتّخاذ صفة مّا كالتعالي والتداني والتهوّر والتبختر ونحو ذلك، والتكبّر أيضاً بمعنى اتّخاذ الكبرياء صفة، إلا أنّه إذا نسب إلى غيره تعالى كان ذمّاً، لأنّه ممّا لا يستحقّه غيره، فالمتكبّر الحقيقي الذي يحقّ له أن يتّخذ الكبرياء صفة هو الله تعالى، لأنّه الكبير واقعاً وغيره يتّخذ الكبر له صفة، وليس فيه كبرياء حقيقة، وإنّما يؤتى بهذه الصفة وأمثالها كالتقدّس والتعالي والتبارك من باب التفعل والتفاعل؛ لأنّ كبره تعالى وعلوه وقداسته وبركته منه وليس منحة من غيره ولو وجد هناك كبير غيره، فإنّما يمنح الكبر من الله تعالى.

---

١. الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل ٤: ٥٠٩.

﴿سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، تنزيه له سبحانه عمّا يصفه به الواصفون حيث يشركونه مع غيره في الصفات فيصفونه بصفات خلقه. أو تنزيه له عن إشراكهم غيره في صفاته تعالى، فيدعون لغيره التأثير والقهر والغلبة. وهذا الإشراك ربما لا يظهر في الأقوال، ولكنّه كامن في الأفكار والعقائد. وكلّ ذلك يعود إلى الجهل بصفاته تعالى، وتصوّر أنّ ما في غيره يشبه ما فيه فلزم تنزيهه تعالى عن التصوّرات الساذجة في أوصافه.

و﴿سُبْحَانَ﴾ اسم مصدر يقوم مقام المصدر، ويكون مفعولاً مطلقاً يغني عن الفعل فكأنّه قال: أسبح سبحان الله.

﴿هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾، قيل: الخلق في الأصل التقدير، ويمكن أن يكون المراد الإيجاد عن تقدير. وقيل: إنّه الإيجاد بلا احتذاء مثال. ولكنّه بعيد لقوله تعالى في حكاية كلام عيسى عليه السلام: ﴿أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ...﴾[1]، ولكن مع أنّه لا يختصّ في الأصل بذلك، إلا أنّه لا يبعد بمقتضى السياق أن يكون المراد به هنا خصوص إيجاد السماوات والأرض، أي الكون بكامله وهو بالطبع خلق من العدم ليصحّ تخصيص ما بعده بنوع آخر من الخلق يناسب اللفظ.

و﴿الْبَارِئُ﴾ فسّر في كتب اللغة بالخلق أيضاً، وفي «الكشّاف»: «المميّز لما يوجده بعضه من بعض بالأشكال المختلفة». والظاهر أنّه أخذ هذا المعنى من البري بمعنى القطع باعتبار أنّهما من واد واحد، وعليه فالمراد به خلق كلّ موجود بعينه مميّزاً عن غيره بخلاف الخلق، فإنّه إيجاد كلّ الكون. ولعلّ ذكر هذا الوصف لدفع توهّم أنّ الله تعالى خالق أصل الكون بصورة إجمالية، وأمّا

---

١. آل عمران (٣): ٤٩.

التفاصيل والجزئيات فليست من صنعه فهناك من يسند صنعها إلى أرباب اُخرى وهناك من يسنده إلى القوانين الطبيعية التي تحكم الكون بإذنه تعالى.

و﴿الْمُصَوِّرُ﴾ بمعنى موجد الصور، فإنّ الأجسام مركّبة من مادّة وصورة. فمادّة الخشب مثلاً يمكن أن يصنع منها سرير أو طاولة أو غيرهما. ولعلّ ذكر هذا الوصف لدفع توهّم أنّ موادّ الكون والطبيعة من الله تعالى دون الصور التي قد يصنعها الإنسان أيضاً. فالآية الكريمة ترد على هذا التوهّم بأنّ كلّ ذلك من الله تعالى، ولا شكّ أنّ الصور الطبيعية من خلقه، ولكن حيث إنّ كلّ ما هو موجود يستمدّ وجوده منه تعالى حتّى لو صنعه في الظاهر صانع آخر، فالصور التي يصنعها الإنسان أيضاً من خلقه تعالى.

﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ «الحسنى» مؤنّث «الأحسن»، والأسماء تفيد العموم، فمعناه أنّ أحسن الأسماء كلّها لله تعالى فحسب لا يشاركه فيها أحد، والحصر يستفاد من تقديم الجارّ والمجرور. فما معنى ذلك؟ مع أنّ هناك أسماء حسنة تطلق على غيره فقط أو تطلق عليه وعلى غيره. وما هو معنى الحسن؟

حاول المفسّرون دفع الإشكال بأنّ اللام في الأسماء للعهد الذهني، فيراد بها خصوص الأسماء التسعة والتسعين التي وردت في بعض الروايات وحصرت أسماء الله تعالى فيها. ولكن لا دليل على كون اللام للعهد ولم ترد في القرآن آية تدلّ على انحصار الأسماء في تلك الأسماء، والروايات ضعيفة مع أنّها أيضاً لا تدلّ على الحصر. مضافاً إلى أنّ الأسماء الواردة في القرآن الكريم أكثر منها حتّى عدّها العلامة رحمه الله فتجاوز المائة والعشرين.

الصحيح أنّ الاسماء يقصد بها ما تنبئ عن الصفات وحسنها من حسن

الصفات، وحيث إنّ الله تعالى جامع لجميع صفات الكمال والجمال فكلّ تلك الصفات بالنحو الكامل منحصرة فيه تعالى لا يشاركه فيها أحد، بل ليس لأحد من نفسه أيّ كمال إلا ما وهبه الله له، والهبة هنا ليست تمليكاً، فإنّ وجود الأشياء متقوّم به تعالى وبإرادته، فكيف بالتحلّي بالصفات فالقوّة لله جميعاً والعزة لله جميعاً والعلم لا يناله أحد إلا بما شاء الله تعالى، وهكذا، فكلّ صفة حسنة تدلّ على كمال أو جمال خاصّة به تعالى حقيقة ويحملها غيره بإذن منه بالمقدار الذي يودع فيه وهو الذي يملكه ويملك حسنه وكماله وجماله.

﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تكرار لما جاء في أوّل السورة ليعيد إلى الأذهان التسبيح المستمرّ في الكون تكويناً وإنشاءاً.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تأكيد مرّة أُخرى على عزّته تعالى فلا يؤثّر فيه شيء ولا يحتاج إلى تسبيح المسبّحين ولا تؤثّر فيه دعوة الداعين ولا ذكر الذاكرين ولا تنفعه عبادة العابدين. إلا أنّه لحكمته غير المتناهية لا يترك شيئاً من ذلك إلا ويرتّب عليه الأثر، فيجيب دعوة الداعين ويسمع ذكر الذاكرين وحمد الحامدين ويثيب على عبادة العابدين.

والحمد لله ربّ العالمين حمداً كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد المصطفى وآله الطاهرين.

# تفسير سورة الممتحنة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ
كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ
خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ
أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١ إِن يَثۡقَفُوكُمۡ
يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ٢
لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ
بَصِيرٞ ٣

السورة مدنيّة كما هو واضح، ونزلت في قصة حاطب بن أبي بلتعة، ومجمل القول فيه ـ على ما في الروايات ـ أنّه كان من أهل اليمن فأسلم وهاجر، ولكن بقي بعض أولاده في مكّة، ولما أراد الرسول ﷺ أن يغزوهم كتب حاطب كتاباً إلى المشركين يخبرهم به ليكون له يد عندهم يقصد بذلك حسن معاشرتهم لأولاده ودفعه إلى إمراة لتوصله إليهم، فنزل الوحي بذلك وأرسل

الرسول ﷺ بعض أصحابه وعلى رأسهم أمير المؤمنين عليه السلام في طلبها فأخذوه منها واعتذر حاطب بأنّه لم يرتدّ عن دينه، ولكنّه أراد الحفاظ على أهله وأولاده هناك فعفا عنه الرسول ﷺ ونزلت الآيات، والله العالم.

ولكنّ السورة لم تتعرّض للقصّة ولا خاطبت الشخص، بل خاطبت المؤمنين بأجمعهم ولم يرد الخطاب بصورة النهي فحسب، بل بصورة العتاب على وجود هذه الحالة فيهم، أي التواصل مع المشركين ولم يرد فيها أنّه لعذر، سواء كان مقبولاً أو غير مقبول، فالسورة تحكي عن وجود نوع من التوادّ بين بعض المؤمنين والمشركين، ويبدو أنّ ذلك لم يكن أمراً نادراً فيخاطب بعضهم أو يخاطب الجميع بلزوم تطهير المجتمع من ذلك، بل عاتبهم جميعاً بذلك. والواقع أنّ وجود هذه العلاقة أمر طبيعي ومتوقّع، ولكنّ الدين لا بدّ له من أن يعالج هذه الظاهرة ويمنعها لما يترتّب عليها من أخطار، ولأنّ موالاة أعداء الله تنافي الإيمان به، فلا بدّ من تطهير القلوب من بقايا أواصر الشرك وموالاة المشركين وكانت قصّة حاطب سبباً لإثارة الموضوع والتنبيه عليه. هذا ومن الروايات ما لم يذكر فيها نزول السورة بهذا الشأن.

وفي روايات القصّة اختلاف يسير لم نتعرّض له لعدم الأهمّية، إلا أنّ في روايات القوم ذيل خطير جدّاً، ففي «الدرّ المنثور»[1] رواية عن مجموعة من كتب الحديث منها البخاري ومسلم أنّ عمر قال بعد اعتذار حاطب وتصديق الرسول ﷺ: دعني يا رسول الله فأضرب عنقه، فقال: «**إنّه شهد بدراً وما يدريك لعلّ الله اطّلع على أهل بدر**»، فقال: «**اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**».

---

١. الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور ٦: ٢٠٣.

ونسمع ونرى من علمائهم في مواضع شتّى التمسّك بهذا الذيل لتبرير مواقف أهل بدر طيلة حياتهم، ولكن هل من المعقول أنّ الله تعالى يرفع التكليف عن مجموعة من المكلّفين في مقابل عمل جليل منهم مهما كانت صفتهم، ومهما كان عملهم والله تعالى يخاطب رسوله الحبيب: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[١] والتحذير موجّه للرسل أجمعين. ولا شكّ أنّ الشرك الممكن في حقّ الرسل ليس هو الشرك بالمعنى المتبادر، بل أيّ شرك في مقام العمل، فإذا كان الشرك في العبادة يحبط عمل الرسل فكيف بغيرهم؟! وهل كان أصحاب بدر أعظم من رسل الله تعالى؟!

ويتنافى هذا الحديث مع كلّ ما ورد من تحذير في القرآن بعد غزوة بدر بخطاب عامّ يشمل البدريين، بل لا يلائم كلّ أمر ونهي متوجّه إليهم، لأنّهم رفع عنهم التكليف. وقد ورد في رواياتهم حول قصّة الإفك أنّ الرسول ﷺ حدّ مسطح بن أثاثة حدّ القذف مع أنّه بدري كما قالوا، بل يناقضه صريح هذه الآيات لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفعَله مِنكُم فَقَد ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾. وأوّل من يشمله هذا العنوان هو حاطب نفسه إلا أن يتوب، فلو كان مغفوراً له فكيف يكون قد ضلّ السبيل، وكذا غيره من البدريين الذين يشملهم الخطاب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾. العدوّ صفة مشبهة من العداء والعداوة وهو ضدّ الولاء والولاية. والأصل فيه العدو ـ بسكون الدال ـ أي التجاوز، ولعله باعتبار غاية المنافرة وإن لم يحصل تجاوز من أحدهما على الآخر. ويستوي فيه المذكّر والمؤنّث والمفرد والجمع، والمراد هنا الجمع وهم

---

١. الزمر (٣٩): ٦٥.

مشركو مكّة، ولذلك أُتي بالمفعول الثاني جمعاً.

واعتبرهم الله تعالى أعداءاً له؛ لأنّهم عادوا رسولهﷺ. وقد مرّ مراراً أنّ الله تعالى يعتبر معاداة الرسول معاداته وموالاته موالاته وإيذاءه إيذاءه وبيعته بيعته وهكذا. مضافاً إلى أنّ معاداتهم للمؤمنين حيث لم تكن لأحقاد شخصية أو قبلية، بل لأنّهم آمنوا بالله ورسوله، فكان عداؤهم لهم أيضاً معاداة لله تعالى. ومضافاً إلى أنّ شركهم كاف في المعاداة، وكان يكفي كونهم أعداءاً له تعالى في منع الموالاة، ولكنّ الله تعالى أضاف إليه معاداتهم ليكون حافزاً اجتماعياً وذاتياً.

والاتّخاذ فيه معنى الاعتبار، أي لا تعتبروهم أولياء وهو جمع وليّ. والأصل في الولاية تتابع شيئين، ويطلق الوليّ على التابع والمتبوع والناصر والمنصور وغير ذلك من أنحاء الموالاة. والمراد بالولاية هنا كلّ نوع من أنواعه فلا تتّخذوا منهم أنصاراً ولا أصدقاء، فالمطلوب نفي كلّ علاقة بهم ممّا يستوجب العداء التامّ والمنافرة الكاملة.

﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ الباء زائدة، والإلقاء: الطرح، وهو تعبير كنائي يفيد أنّ ذلك أمر غير مدروس، فكأنّه إلقاء شيء في الظلام. وتدلّ الجملة على وجود موادّة بينهم ولم يكن الأمر كما ادّعى حاطب مجرّد محاولة لإرضائهم حتّى يتمكّن أولاده من العيش بينهم بأمان. والجملة حالية، أي لا تتّخذوهم أولياء حال كونكم تلقون إليهم بالمودّة. وربما تدلّ على أنّ المودّة كانت من جانب واحد.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ حالية أيضاً، أي لا تفعلوا ذلك والحال أنّهم قد كفروا بما جاءكم. وفي ذلك مع القيد الآتي تحديد للمناط في عدم جواز

المودّة. والمراد بما جاءكم من الحقّ الدين أو القرآن، وإنّما عبّر بذلك ليثير فيهم أنّ العداء لهم ولما يخصّهم، ولو قال: لما أنزل الله تعالى أو ما جاء به الرسول ﷺ لم يفد هذا المعنى، كما أنّه يفيد أيضاً الاهتمام بشأنهم وأنّ الكتاب والدين نزّل إليهم مع أنّه لا يخصّهم، إلا أنّهم حيث كانوا أوّل من آمن به فكأنّهم هم المعنيون به فحسب. والتعبير يشمل كلّ ما جاء به الرسول من المعارف و الأحكام، سواء كان من القرآن أم لم يكن. وتوصيفه بالحقّ تشنيع عليهم حيث يكفرون بما لا ينبغي لأحد أن ينكره.

﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ﴾ حال من كفرهم، أي أنّهم لم يقتصروا على الكفر، بل أخرجوا الرسول ﷺ ومن حوله من المؤمنين. والفعل المضارع لبيان استمرار الحالة، فإنّ الإخراج وإن كان في زمان سابق إلا أنّ الوضع مستمرّ بحيث لو كانوا باقين لأخرجوهم. و﴿إِيَّاكُمْ﴾ ضمير منفصل منصوب، أي يخرجون الرسول ويخرجونكم، وإنّما لم يكتف بذكر الرسول ﷺ مع كفايته ليثير فيهم أيضاً اختصاص العداء بهم. و﴿أَنْ تُؤْمِنُوا﴾ تعليل للإخراج بتقدير كراهة، أي يخرجونكم لكراهتهم إيمانكم بالله ربّكم. والمضارع يدلّ على استمرار الإيمان. وذكر الله تعالى والتوصيف بالربّ لمزيد التشنيع عليهم وإضافة الربّ إلى المؤمنين ممّا يثير أيضاً الاختصاص كما يفيد الاهتمام بهم.

﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾، جملة شرطية تفيد تعليل النهي السابق، ومعناه أنّ خروجكم من مكّة إن كان لهذا السبب وبهذا الداعي، فلا ينبغي لكم أن توالوهم. وليس معناه كما قيل: إنّه شرط مفروض التحقّق عند

المتكلّم، فيكون معناه أنّ الله تعالى يخبر أنّهم جميعاً خرجوا لذلك فلا يفيد الشرطية الواقعية، وذلك لإمكان أن يكون خروج بعضهم لأسباب أُخرى. نعم يظهر من التعبير أنّه خلاف المتوقّع منهم، فإنّ المفروض أن يكون خروجهم بهذا القصد. كما أنّ الشرطية ليست بمعنى تقييد الحكم، فالموالاة محرّمة مطلقاً، ولكنّ الغرض بيان التنافي بين هذا الخروج والموالاة.

والتعبير بالخروج مع أنّهم أُخرجوا ولم يخرجوا للإشارة إلى أنّهم كان بإمكانهم أن يختاروا البقاء ويعودوا إلى دين الآباء، فرفضهم للعود هو السبب في إخراجهم، فيعتبر ذلك خروجاً اختيارياً من هذه الجهة. ثمّ إنّ إضافة السبيل والمرضاة إلى ضمير المفرد المتكلّم لمزيد اختصاصهم بالله تعالى حيث لم يأت بالاسم الجليل ولا بضمير الجمع، وحقّاً أنّ ذلك لممّا يقشعرّ له الجلد أن يشعر هذا البشر الضئيل في ضمن مجموعة صغيرة جدّاً من البشر أنّ الله تعالى خالق الكون بكلّ عظمته وجلاله يخاطبه خطاباً خاصّاً وكأنّه يتكلّم معه مباشرة. والجملة تدلّ بوضوح أنّ موالاة المشركين لا تجتمع مع طلب مرضاة الله تعالى.

﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ استيناف يحمل معنى الاستفهام التعجيبي، أي كيف تسرّون إليهم ذلك وتحاولون إخفاءه عنّي وأنا أعلم منكم ومنهم بما أخفيتم وما أعلنتم، فقوله: ﴿أعلم﴾ أفعل التفضيل. والإسرار بالمودّة هو إعلامهم بها سرّاً مع إعلان خلافها بين الناس. وإضافة ﴿مَا أَعْلَنْتُمْ﴾ لبيان أنّه لا يختلف لديه الإعلان والإسرار، فليس علمه بالإعلان أكثر من الإسرار. فلا يقال: إنّه لا وجه لعطف ﴿مَا أَعْلَنْتُمْ﴾ إذ العلم به ثابت بطريق أولى.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾، أي من يتّخذهم أولياء فقد ضلّ السبيل

السواء. فهو من إضافة الصفة إلى الموصوف، و«السواء» مصدر، فتوصيف السبيل به من باب المبالغة. والسبيل السويّ هو الصراط المستقيم، أي الذي لا إعوجاج فيه وهو كناية عن الطريق الصحيح الذي يوصل إلى المطلوب.

﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ﴾، في «الصحاح»: «ثقفته ثقفاً أي صادفته»،[١] والغرض من هذه الآية تنبيه المسلمين على أنّ محاولة كسب مودّتهم خطأ كبير، فهم لا يبادلونكم المودّة، بل إذا لقوكم صدفة يكونون لكم أعداءاً.

و«البسط» في مقابل القبض بمعنى التوسّع، وبسط اليد قد يطلق في الأخذ وفي الطلب وفي الصولة والضرب كما هنا، وقوله: ﴿بِالسُّوءِ﴾ متعلّق ببسط اليد واللسان. فالمراد ببسط اليد بالسوء الصولة والشدّة في الضرب والقتل والسلب وببسط اللسان بالسوء التمادي في الشتم والقذف.

﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ وهذه محاولة قديمة منهم، وهي الغاية في كلّ محاولاتهم وهي بالنسبة للمؤمنين أيضاً غاية السوء الذي يراد بهم، وهذه المعاداة مذكورة في ما كان بين الأمم السالفة أيضاً. قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾[٢] وهذه طبيعة الإنسان، فإنّه يحاول دائماً أن يجمع حوله أكبر عدد ممكن ممّن يقول بقوله، ويرى رأيه خصوصاً إذا كان رأيه باطلاً يرفضه العقل السليم.

والمعروف في التفاسير أنّ هذه الجملة عطف على ما سبق من الجزاء للشرط،

---

١. الصحاح ٤: ١٣٣٤.

٢. إبراهيم (١٤): ١٣.

وإنّما أُتي بفعل الماضي عطفاً على المضارع، مع أنّه يفيد نفس المعنى في سياق جواب الشرط للإشارة إلى أنّ هذا أهمّ شيء لديهم فهم يطلبونه قبل كلّ شيء، بل إنّ ممارستهم للضرب والسبّ أيضاً إنّما يحاولون الوصول بهما إلى ضعف عزائم المؤمنين لإعادتهم إلى ملّتهم الفاسدة.

ولكن يبعد كونه عطفاً على الجزاء لأنّهم كانوا يودّون رجوع المؤمنين عن دينهم دائماً، ولم يتوقّف ذلك على أن يلاقوهم، فالذي يترتّب على اللقاء هو المعاداة وبسط اليد واللسان فحسب. فالأولى أن تكون هذه جملة مستأنفة والإتيان بالفعل الماضي للإشارة إلى أنّ هذه صفة قديمة، وللفرق بين هذا الأمر وما مرّ من الجزاء.

﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾، يحتمل أن يكون قوله: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ظرفاً للجملة الأولى، وقوله: ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ استينافاً يفيد التعليل. ويحتمل أن يكون ظرفاً للجملة التي بعده، فالجملة الأُولى تنتهي بقوله: ﴿وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾، والمعنى حينئذ أنّ الأرحام والأولاد لا ينفعون منفعة كاملة أو مطلقة؛ لأنّ الله تعالى يفصل بينكم يوم القيامة. والأرحام كلّ من يشترك معك في رحم مع كونه قريباً. والظاهر أنّ الآية إشارة إلى ما فعله حاطب بن أبي بلتعة حيث كان هدفه مساعدة أرحامه وأولاده الباقين في مكّة، فأراد الله أن يمنع هذا الاعتذار الخاطئ مع أنّه خطأ حتّى لو كانوا ينفعون، إلا أنّه تعالى أراد أن يكون الامتناع عن تكرار ذلك ناشئاً عن وازع ذاتي فبيّن لهم أنّ هؤلاء لا ينفعونكم يوم القيامة.

والمراد بالأرحام والأولاد أهل النار منهم، وأما أهل الجنّة فلا يفصل بينهم،

بل يلحق بعضهم ببعض كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[١]، بل ينتفع بعضهم ببعض كما تدلّ عليه هذه الآية، فإنّ المراد بالإلحاق أنّهم لا يدخلون الجنّة إلا بذلك، ولكن يجب أن يكونوا ممّن اتّبعهم بإيمان. وقال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ و الآية تدلّ على أنّه لا بدّ من الصلاح حتّى يتّبعوهم، ولولا ذلك لكان لهم شأن آخر وهذا باب من أبواب الشفاعة.

والفصل بين الكفّار وبين المؤمنين والكفّار ورد في مواضع أُخرى من القرآن الكريم أيضاً قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[٢]، بل الفصل يشمل الأصدقاء جميعاً، كما قال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾،[٣] وهذه الآية تدلّ أيضاً على أنّ المتّقين لا يفصل بينهم حتّى بين الأخلاء منهم فكيف بالأقربين.

وقال العلامة الطباطبائي ﷺ: «المراد تقطّع الأسباب الدنيوية كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾[٤] وذلك أنّ القرابة وهي انتهاء إنسانين أو أكثر إلى رحم واحدة إنّما تؤثر آثارها من الرحمة والمودّة والأُلفة والمعاونة والمعاضدة والعصبية والخدمة وغير ذلك من الآثار في ظرف الحياة الاجتماعية التي تسوق الإنسان إليه حاجته إليها بالطبع بحسب الآراء والعقائد الاعتبارية التي أوجدها فيه فهمه الاجتماعي، وإذا برزت الحقائق وارتفع الحجاب وانكشف

---

١. الطور (٥٢): ٢١.

٢. عبس (٨٠): ٣٤ ـ ٣٧.

٣. الزخرف (٤٣): ٦٧.

٤. المؤمنون (٢٣): ١٠١.

الغطاء يوم القيامة ضلّت عن الإنسان هذه الآراء والمزاعم وانقطعت روابط الاستقلال بين الأسباب ومسبّباتها، فيومئذٍ تتقطّع رابطة الأنساب ولا ينتفع ذو قرابة من قرابته شيئاً، فلا ينبغي للإنسان أن يخون الله ورسوله بموالاة أعداء الدين لأجل أرحامه وأولاده، فليسوا يغنونه عن الله يومئذٍ».[1]

وتبيّن بما ذكرنا أنّ ما ذكرهﷺ وإن صحّ في نفسه إلا أنّه لا يشمل المتّقين الصالحين يوم القيامة.

﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تحذير لهم ولنا بأن نستحضر هذه الرقابة دائماً ولا نعمل ما يسخطه تعالى، فهو بصير بالأعمال وبحقائقها. وفي ذلك توبيخ لحاطب وأمثاله.

---

١. راجع: الميزان في تفسير القرآن ١٩: ٢٢٩.

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ
وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا
حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ
ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً
لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ
حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾، «الأسوة» مصدر بمعنى الاقتداء. وتوصيفها بالحسن، لأنّها اقتداء بخليل الله عليه السلام، وقد ورد في الكتاب أجمل الثناء عليه، مضافاً إلى أنه اقتداء في صفة حسنة وهي مكافحة أعداء الله تعالى. وفي الآية تنديد وتوبيخ لترك هذا التأسّي، وهذا يستفاد من قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ﴾ أي أنّكم تعلمون ذلك فكان ينبغي أن تتأسّوا به عليه السلام.

والآية تدلّ على شدّة الاهتمام بلزوم التبرّي عن أعداء الله تعالى في تربية المجتمع الإسلامي حيث لم يكتف بما مرّ من التأكيد على نفس المقاطعة وبالتوسّل بطرق مختلفة من التأثير في البيان كما مرّ، بل أتى لهم بالأُسوة والقدوة مع أنّهم يكفيهم الاقتداء بالرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وهو أفضل الرسل، بل أتاهم بأُسوة من أبيهم إبراهيم عليه السلام حيث كانوا يعتزّون بالانتساب إليه حتّى أنّ المشركين أيضاً كانوا يتباهون بذلك، بل هو عليه السلام محل احترام وتوقير في جميع الأديان السماوية، حتّى قيل: إنّ أقواماً كالهندوس أيضاً يحترمونه، بل قيل: إنّ برهما محرّف عن إبراهيم. والمعروف عنه أيضاً هو الشدّة والتعصّب للتوحيد.

والظاهر أن المراد بمن معه ليس زوجته وأولاده، بل الذين آمنوا معه كلوط عليه السلام، ويظهر من الآية أنّهم جماعة وإن لم يرد ذكرهم في غير هذا الموضع. وقيل: إنّ المراد بهم الأنبياء الذين أتوا بعده وهو غير صحيح؛ إذ لا ينطبق عليهم كونهم معه. وقيل: إنّ المراد بهم سارة ولوط عليهما السلام، لأنّه لم يكن له ولد آنذاك وهو بعيد عن اللفظ.

﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾، «إذ» ظرف للأُسوة. و«برآء» جمع بريء والبراءة، كما في «معجم مقاييس اللغة» التباعد عن الشيء ومزايلته، والظاهر أنّ الأصل فيه هو البري بمعنى القطع. فأوّل شيء يعلنون لقومهم هو المقاطعة والابتعاد عنهم وعن ما يعبدونه من الأصنام والكواكب وغيرها. والمراد بقومهم الأُمّة التي كانوا ينتمون إليها قبل إيمانهم وفيهم الآباء والأبناء والأرحام.

والتنبيه على مقاطعة ما يعبدون للإعلان عن رفض الثقافة المشركة رفضاً كاملاً ولم تأخذهم في ذلك أي تحرج عن التصريح بما يسيء إليهم ويجرح شعورهم، فإنّ الإنسان يحترم معبوده أكثر من كلّ شيء، ولكنّ المؤمن بالله لا يتأبى من البراءة من أيّ معبود غيره تعالى. ولكنّ ذلك لم يصل إلى حدّ السبّ، فلا ينافي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[1] والمؤمن متعفّف بصورة عامّة، فلا يسبّ أحداً مهما كان وإنّما يتبرّأ ممّا يرفض عبادته.

﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ﴾ بيان

---

١. الأنعام (٦): ١٠٨.

تفصيلي للبراءة، ولذا لم يعطف على ما قبله. والكفر بهم بمعنى الكفر بعقيدتهم وطريقتهم في الحياة، والمراد الابتعاد عنه في مقام العمل. وقيل: إنّ الخطاب لهم ولما يعبدون من باب التغليب.

وقولهم: ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ﴾ للإعلان عن أنّ العداء لم يعد كامناً في القلب، فارتفع كلّ ما يقتضيه التسالم والتعايش الاجتماعي وظهرت العداوة كاشرة عن أنيابها. والعداوة تحيّز كلّ جانب في حوزته متقابلاً للجانب الآخر لا يقبل بأيّ نوع من الاشتراك والاختلاط. و«البغضاء» شدّة البغض وهو التنفّر والكراهية.

ثمّ أكّدوا أنّ ذلك ليس مؤقّتاً ولا طارئاً، بل هذه الحالة مستمرّة إلى الأبد لا نهاية له إلا أن تتركوا عبادة الأصنام وغيرها وتؤمنوا بالله وحده. وبهذا تمّ إعلان المقاطعة الكاملة ولم يعد بينهم، أي طريق للرجوع عن موقفهم الحاسم؛ لأنّه يبتني على الإيمان بالله تعالى وهو ينافي موادّة أعدائه ويباينه مباينة تامّة لا يجوز فيها التسامح والمهادنة.

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ﴾، في «التبيان» و«المجمع»[1] وغيرهما أنّ الاستثناء متّصل وحقيقي، وهو استثناء من قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ﴾، أي أنّ في إبراهيم ومن معه أُسوة حسنة لكم في كلّ أعمالهم إلا هذا القول فليس لكم أن تتأسّوا به لكونه في قضية خاصّة وظرف خاصّ. ويقال: إنّ قصّة استغفاره عليه السلام كانت معروفة لدى العرب، فلزم استثناؤه لئلا يتوهّم جواز التأسّي به في ذلك، فيكون مستمسكاً لأمثال حاطب.

---

١. راجع: التبيان في تفسير القرآن ٩: ٥٨٠؛ مجمع البيان في تفسير القرآن ١٠ ـ ٩: ٤٠٦ ـ ٤٠٧.

ولكنّه بعيد أوّلاً: من جهة أنّ العموم ليس مقصوداً، إذ ليس كلّ ما عمله من معه أُسوة لنا، فهم ليسوا معصومين، فلا حاجة إلى الاستثناء منه. وثانياً: أنّ هذا التعميم ليس مقصوداً قطعاً ولا أثر له لعدم الطريق إلى معرفة سيرتهم. وثالثاً: أنّه لا يلائم اللفظ أيضاً لتقييد الأُسوة في الجملة السابقة بقوله تعالى: ﴿**إذ قَالُوا لِقُومِهِم**﴾، فهذا القول هو موضع التأسّي فحسب، وهو المقصود وهو المعلوم أيضاً، فلو كان الاستثناء من التأسّي، فهو منقطع؛ لأنّ هذا القول ليس من جنس التبرّي. ورابعاً: أنّ الاستثناء ليس من الحثّ على التأسّي، بل من كون خطابهم لقومهم من التبرّي، فيكون المعنى أنّ خطابهم كان كلّه تبرّياً منهم إلا هذا القول من إبراهيم؈، فإنّه لم يشتمل على التبرّي، ولكنّه كان في ظروف خاصّة وعلى ذلك، فيكون الاستثناء متّصلاً أيضاً.

ويلاحظ أيضاً أنّ المستثنى ليس هو نفس الاستغفار، بل وعده إيّاه، ولا وجه لاستثنائه من التأسّي إذا حصل نفس الظروف، فإنّه؈ أنّما وعده بذلك ليلين قلبه. ولعلّه طمع بذلك أن يؤمن، بل قيل: إنّه كان يظهر له؈ أنّه يريد أن يؤمن، ولكنّه يخاف من ماضيه الذي كان كافراً فيه، فوعده بالاستغفار وقد استغفر له فعلاً، كما ورد في قوله تعالى: ﴿**وَاغْفِرْ لِأَبِى إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ**﴾[1] وإنّما استغفر له ليفي بوعده، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لله تَبَرَّأَ مِنْهُ**﴾.[2]

وملاحظة أُخرى وهي: أنّ هذا الوعد لم يكن يشتمل على تولّي الأب وإن لم

---

١. الشعراء (٢٦): ٨٦.

٢. التوبة (٩): ١١٤.

يشتمل على التبرّي منه، فإنّه أضاف إلى وعده بالاستغفار بأنّ ذلك لا ينفعه إذا أراد الله به سوءاً وأنّه لا يغني عنه شيئاً، كما قال: ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ﴾، أي لا أقدر على شيء لئلا يتوهّم المخاطب أنّ إبراهيم﴿ع﴾ لقربه لديه تعالى لا تردّ له دعوة، فإذا طلب شيئاً، فكأنّه طلب ما يملك وأنّه حاصل لا محالة.

ومن هنا يتبيّن أنّ الرسل أيضاً قد لا تجاب دعاؤهم فضلاً عن غيرهم، فليس كلّ دعوة مستجابة كما يلاحظ في قصّة ابن نوح﴿ع﴾،[1] وما نزل من عدم استجابة استغفار الرسول﴿ص﴾ للمنافقين حتّى لو استغفر لهم سبعين مرّة.[2] وليعلم أنّ الرجل ليس والد إبراهيم﴿ع﴾ لما مرّ في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾[3] نقلاً عن العلامة الطباطبائي﴿ره﴾.

﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾، الظاهر أنّه من تتمّة كلام إبراهيم﴿ع﴾ وقومه، فالاستثناء بقوله: «إلا قول إبراهيم...» اعتراض، وهذه الجمل الثلاث ابتهال ومقدّمة للدعاء الآتي، حيث يدعون الله تعالى أن يحفظهم من كيد الكافرين. وقدّموا فيها الجارّ والمجرور لإفادة الحصر، فهم لا يتوكّلون في أُمورهم إلا على الله تعالى ولا ينيبون إلا إليه، ويذعنون أنّ المصير لا يكون إلا إليه لا محالة. وقيل: إنّ هذا الدعاء تعليم من الله تعالى للمؤمنين. وهو بعيد عن السياق.

ومعنى التوكّل هو الاعتماد عليه تعالى في جميع الأُمور والتسليم له، والإنسان المتوكّل يعيش في راحة وطمأنينة، فهو جازم بأنّ وكيله هو الله تعالى وهو القادر

---

١. كما في سورة هود (١١) : ٤٥ ـ ٤٧.

٢. التوبة (٩): ٨٠.

٣. الصافّات (٣٧): ٨٥.

على كلّ شيء والرؤوف بعباده، فلا يعمل إلا ما يكون الأصلح لحاله ولا يهتمّ بما يكون مخالفاً لهواه. وليس معناه بالطبع أن يترك الأُمور تجري بطبيعتها ولا يحاول إصلاح شأنه، فليس هذا معنى التوكّل، بل يعمل كلّ ما في وسعه، ولكنّ الأُمور لا تجري دائماً وفقاً لما ينظمه الإنسان من عوامل للوصول إلى أهدافه لجهله بكثير منها وجهله أيضاً بالموانع، ولذلك فإنّه قد لا يصل إلى مراده إلا بتوفيق وعناية خاصّة من الله تعالى.

والمشهود أنّ الله تعالى يوفّق المتوكّلين للوصول إلى مقاصدهم المشروعة ويهيّء كلّ العوامل بلطف وعناية خاصّة. وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾.[1] والظاهر أنّ غرضهم من التوكّل في خصوص المقام التوكّل في مواجهة الأعداء، فإنّه كان موقفاً صعباً يستدعي استعداداً مادّياً ومعنوياً وهم لا يملكون شيئاً من ذلك، ولكنّهم يكفيهم التوكّل على الله في تلك المواجهة الصعبة.

و«الإنابة»: الرجوع، والمراد الرجوع إليه تعالى بعد ترك كلّ الأواصر والعلائق القبلية والقومية والأسرية، فأصبحوا لا وجهة لهم إلا إليه تعالى، وما أحلى هذه الحالة وما ألذّها حيث ينقطع عن الخلق كلّهم، ويتفرّغ للتذلّل لدى ربّه والتحبّب إليه والتلذّذ بمناجاته وتلقّي عناياته الخاصّة.

وغرضهم من الجملة الأخيرة نفي كلّ علاقة دنيوية وإعلان عدم الاهتمام بما يؤول إليه أمرهم في الدنيا، سواء كان خيراً أم شرّاً، فإنّ العاقبة هي مطمح أنظار المؤمنين والعاقبة للمتّقين، وحسبهم في العاقبة أنّ مصيرهم إليه تعالى، فيعيشون في كنف رحمته وظلّ عنايته لا يهمّهم شيء حتّى الجنّة ونعيمها.

---

١. الطلاق (٦٥): ٣.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، «الفتنة» في الأصل بمعنى الحرق، وقد مرّ بعض الكلام حول معناها في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾[1] وهي مصدر، فقد يكون بمعنى المفعول أي لا تجعلنا مفتونين لهم، ويراد بها الخداع والتضليل بأن يتمكّنوا من التأثير عليهم وإضلالهم عن دينهم، ويمكن أن يكون بتقدير مضاف، أي لا تجعلنا موضع فتنة لهم، ويراد بها الامتحان بأن يبتلي الله الكافرين ويمتحنهم بالتمكّن من إيذاء المؤمنين والاعتداء عليهم.

وكان هذا الدعاء من مقتضيات التبرّي السابق، فإنّه يثير في قومهم الأحقاد ويسوّل لهم الاعتداء. و«الغفران» هو الستر، ولا يختصّ بالآثام، فإذا عمل الإنسان عملاً يستلزم تبعة غير مطلوبة في الدنيا صحّ أن يستغفر ربّه ليقيه شرّ تلك التبعة كما في قصّة موسى عليه السلام بعد قتل القبطي، وكما ورد في مخاطبة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[2] على ما مرّ توضيحه. فالغفران المطلوب هنا أعمّ من غفران الذنوب، ويشمل الوقاية من تبعات هذا التبرّي في الحياة الدنيا. والتعليل بالاسمين الكريمين من جهة أنّ عزّته تعالى تقتضي غلبته على كلّ شيء، وأنّه لا يقاوم إرادته شيء، فيمنعهم من عدوان الكفّار بعزّته. وحكمته أيضاً تقتضي أن يجعل كلّ شيء في موضعه، فينصر الذين آمنوا.

وقيل: إنّ الدعاء والابتهال المذكورين من كلام الله سبحانه لتعليم المؤمنين أن يقولوا ذلك في مواجهتهم للكفّار. وهو بعيد لفظاً ومعنىً، أمّا من جهة اللفظ،

---

١. الحديد (٥٧): ١٤.

٢. الفتح (٤٨): ٢.

فلعدم ذكر ما يدلّ على هذا الاستيناف، وظاهر السياق أنّه تتمّة كلام إبراهيم عليه السلام ومن معه. وأمّا من جهة المعنى، فلأنّ السياق سياق تنديد بالمؤمنين لموالاتهم للكفّار لا سياق تعليم لهم في كيفية المواجهة.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾، قوله: ﴿لِمَنْ كَانَ﴾، بدل عن ﴿لَكُمْ﴾. والظاهر أنّ تكرار التنبيه على التأسّي ليترتّب عليه اختصاصه بالذي يرجو الله واليوم الآخر. و«الرجاء» هو الأمل، فالمراد بمن يرجو الله أن يأمل حصوله على ثواب منه تعالى في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما، والمراد برجاء اليوم الآخر الإيمان بالبعث والنشور والوصول إلى ما وعد الله به هناك من الثواب.

والغرض من الآية أحد أمرين:

الأوّل: تقييد التأسّي باعتبار أنّ الخطاب وإن كان للمؤمنين إلا أنّ فيهم منافقين ومن في قلوبهم مرض، فأراد أن ينبّه أنّ الذي يتأسّى بهم منكم هم الذين يرجون ثواب الله والآخرون لا يتأسّون أو لا ينفعهم التأسّي، وهذا المعنى هو الذي ذكره جمع من المفسّرين في تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾.[1]

الثاني: ما ذكرناه هناك ـ وإن كانت العبارة قاصرة عن أداء المراد ـ وهو أنّ التأسّي لا يختصّ بالمخاطبين، بل هو عامّ لكلّ من كان يرجو الله واليوم الآخر، والغرض هو التنبيه على أنّ الإيمان حيث يقتضي حتّى بأقلّ درجاته رجاء ثوابه تعالى في الدنيا والآخرة، فمن كان يرجو ذلك، فليعلم أنّ من طرق تحصيله هو

---

١. الأحزاب (٣٣): ٢١.

التاسّي بإبراهيمعليه السلام ومن معه. وبذلك يتبيّن أهمّية هذا الحكم وهو مقاطعة أعداء الله تعالى خصوصاً في تلك الظروف العصيبة بالرغم من أواصر القرابة بين الفريقين.

ويتبيّن بما ذكرناه آنفاً أنّ السرّ في التعبير بالرجاء دون الإيمان واليقين هو أنّ هذا الرجاء ممّا يقتضيه أقلّ مراتب الإيمان، والذي يحظى به أكثر المنتمين إلى الأديان الإلهيّة، فإنّ جميعهم يتوقّعون خيراً من الله تعالى في الدنيا، بل يتوقّعون الخير في الآخرة، بل لعلّ درجة من الرجاء نجدها في كثير ممّن لا يؤمن بالله تعالى بلسانه، ولذلك اعتبرت الآية في ذيلها من ليس فيه هذا الرجاء ممّن تولّى عن إطاعة ربّه.

ومن هنا يتبيّن أنّ في الآية الكريمة تنديداً بليغاً بمن لم يتأسّ بإبراهيمعليه السلام وتولّى الكافرين لأهداف دنيوية بأنّ ذلك ينافي الإيمان، بل ينافي رجاء رحمة الله في الدنيا والآخرة، فكأنّ هذا المؤمن حسب الظاهر لا يرجو رحمة الله فضلاً عن الإيمان به ولا يرجو رحمته حتّى في الدنيا؛ لأنّ عطف اليوم الآخر يقتضي الفرق.

﴿**وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ المراد بـ«التولّي» هنا الإعراض بتقدير «عن» أي الإعراض عن طاعة الله تعالى في هذا الأمر. و«من» شرطية وجزاؤها محذوف، أي لن يضرّ الله شيئاً، والجملة المذكورة في الآية تدلّ على الجواب المحذوف واكتفى بها لأنّها السبب، فإنّ العلّة في عدم الإضرار هو غنى الله تعالى.

والتعبير يدلّ على الحصر، فليس في الكون غنيٌّ حميد غيره تعالى، فكلّ غني

فقير إليه، بل فقير إلى كلّ ما يؤثّر بإرادته تعالى في الكون. وكلّ حميد لا يحمد إلا لما وهبه الله تعالى والله لا يهب كما يهب غيره، فهو المالك للموهوب والموهوب له، ولا يمكن أن يستقلّ الموهوب بما ملّكه الله تعالى، فلا استقلال في الوجود إلا له. وتوصيفه تعالى بالحميد للإشارة إلى سبب تشريعه للأحكام، فإنّه بمقتضى الغنى لا ينتفع بطاعة عبيده ولا يتضرّر بمعصيتهم، ولكنّه لكونه الحميد المطلق يراعي مصالحهم ومفاسدهم ويأمرهم بما ينتفعون به وينهاهم عمّا يضرّهم.

۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ
أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ
قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ
وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩﴾

﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً﴾، لا شكّ في أنّ معاداة أهل مكّة كانت شديدة على قلوب المؤمنين للقرابة والأُلفة القديمة، مضافاً إلى مصالح اجتماعية واقتصادية تترتّب على الأُلفة بينهم. ومضافاً إلى أنّ أجواء الحرب كانت تهيمن على المنطقة وتثير المخاوف والقلاقل وتمنع من أمن الطرق. والحاصل: أنّ حاجتهم وميلهم إلى تبديد العداء بينهم وبين مشركي مكّة كانا واضحين، فأراد الله تعالى بعد نهيهم عن موالاتهم وتشديد النكير عليهم في ذلك أن يفتح باباً للأمل في إمكان المواصلة والتقارب.

ولكن من الواضح أنّ ذلك لا يتمّ برفع اليد عن هذا الحكم المتأصّل في الشريعة حيث لا تجوز المهادنة فيه، بل المراد ارتفاع المعاداة وثبوت الموالاة والمودّة بدخولهم في الإسلام وتركهم خرافات الجاهلية ولو في الظاهر، وهذا هو ما حصل في فتح مكّة. وكلمة «عسى» لا تعني الترجي حتّى لا يصحّ إسناده إلى الله تعالى، بل تدلّ على أنّ ما يأتي بعده أمر ممكن ومتوقّع.

﴿وَاللهُ قَدِيرٌ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. لا يبعد أنّ الجوّ السائد في أوساط المؤمنين في عصر نزول هذه الآيات كان مشحوناً بما يؤيسهم من احتمال إيمان أهل الشرك

من كبراء مكّة، والآية الكريمة بصدد بعث الأمل في قلوبهم، فإنّ اليأس أنّما حصل بملاحظة الوضع السائد والقلوب المليئة بالضغائن غفلة عن أنّ القلوب بيد الله تعالى، فبقدرته تلين القلوب وتتقارب كما أنّه تعالى يلقي الرعب في بعضها فتؤمن خوفاً وذلاً. وبمغفرته ورحمته يغفر ما سبق منهم من العدوان، فلا يكون ذلك مانعاً من التولّي.

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾، هذا توضيح للحكم الأوّل، مع أنّه كان خاصّاً بمشركي مكّة؛ لأنّهم هم الذين أُخرجوهم من ديارهم، ولكن صرح في هذه الآية بعدم شمول الحكم لغيرهم من كفّار المنطقة ممّن لم يقاتلوا المسلمين في الدين. وقوله: ﴿فِي الدِّينِ﴾ قيد يخرج ما كان بين القبائل من الأحقاد لأسباب أُخرى غير الدين. وقوله: ﴿أَنْ تَبَرُّوهُمْ﴾ بدل عن قوله: ﴿الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾، فالمعنى لا ينهاكم الله عن أن تبرّوا وتقسطوا إلى الذين لم يقاتلوكم.

وصرّح أيضاً بعدم الإخراج من ديارهم ليبقى الحكم منحصراً في أهل مكّة ومن أعانهم على ظلمهم. فالنتيجة أنّه لا معاداة مع الكفّار إذا لم يحاربوا المسلمين ولم يظاهروا أعداءهم من أجل الدين حتّى لو كانت بين الفريقين أحقاد أُخرى.

و﴿تَبَرُّوهُمْ﴾ من البرّ وقد اختلفت كتب اللغة في تفسيرها وذكروا لها عدّة معان. والمناسب منها لما هنا الإحسان، يقال: برّ والديه أو برّ بهما أي أحسن إليهما. والقسط في الأصل السهم والنصيب ويعبّر عن التعدّي إلى نصيب الآخرين بالقسط وعن إعطاء كلّ نصيب لصاحبه أيضاً بالقسط، ولذلك قيل: إنّه

من الأضداد، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾[١] وأمّا باب الإفعال منه أي الإقساط، فيختصّ بالعدل. والهمزة فيه تفيد السلب، كما يقال: شكا إليه، فأشكاه أي رفع شكواه، فالقسط هنا يراد به الجور والإقساط رفع الجور عنه. قال تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[٢]، فالمعنى في الآية أنّه يجوز دفع قسطهم أي نصيبهم من أيّ شيء إليهم، ولكنّها لم تسمح بكلّ علاقة معهم، فالذي فعله حاطب لا يسمح به مطلقاً.

﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ تعليل للحكم بجواز ذلك، والله تعالى لا يحبّ قوماً إلا لمكانتهم، فالمقسط أي الذي يراعي الإنصاف له مكانة عند الله تعالى، وحبّه لقوم متّصفين بصفة معناه حبّه تعالى لتلك الصفة.

﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ﴾. المراد بهم مشركو مكّة، فهم الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم في مكّة المكرّمة.

و«المظاهرة»: المساعدة والمعاونة، مأخوذ من الظهر باعتبار أنّ المساعد في الحرب يحفظ ظهر الآخر، ثمّ أُطلق على كلّ معاونة. ويمكن أن يكون المراد بالذين ظاهروهم على إخراج المسلمين الاتباع في مكّة وهم السواد الأعظم من أهلها، ويمكن أن يراد بهم سائر المشركين ممّن تحالفوا مع مشركي قريش ضدّ المسلمين، فكان ذلك سبباً في تقوّيهم وتمكّنهم من الضغط عليهم وإخراجهم. وقوله: ﴿أَنْ تَوَلَّوْهُمْ﴾ بدل عن قوله: ﴿الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ﴾، أي ينهى عن تولّيهم. والتولّي

---

١. الجنّ (٧٢): ١٥.

٢. الحجرات (٤٩): ٩.

اعتبار أحد وليّاً . والوليّ الناصر والتابع ونحوهما، فالمراد نهي أيّ تعاون مع هؤلاء.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. قيل: إنّ حصر الظالمين فيهم حصر إضافي، أي بالنسبة إلى من يتولّى غيرهم من الكفّار وهم القسم الأوّل، ولكنّ الظاهر أنّه حقيقي من باب المبالغة، لورود نفس التعبير في آية أُخرى ليس فيها مقارنة بينه وبين من يتولّي غيرهم، وهو قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.[١] ومن هنا يظهر أن تولّي الكفّار المحاربين والمعادين للإسلام والمسلمين حتّى لو كانوا من أقرب الأقربين يعتبر ظلماً عند الله تعالى.

---

١. التوبة (٩): ٢٣.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ
بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا
هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ
أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ
حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ (١٠) وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى
ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ
أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ (١١) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ
بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ
أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ
غَفُورٞ رَّحِيمٞ (١٢) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ
ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ (١٣)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾، الآية على ما يبدو نزلت بعد صلح الحديبية، حيث كان من الشروط بين الرسول ﷺ وقريش أن يعيد إليهم من جاء من مكّة إلى المدينة مهاجراً، ومن ذهب إليهم من المسلمين لا يعيدوه إلى المدينة. ثمّ إنّ بعض النساء آمنّ وهاجرن إلى المدينة، فجاء أزواجهنّ إلى الرسول ﷺ يطلبون إعادتهنّ وفقاً للشرط، فنزلت الآية ومنعت من إرجاع النساء المؤمنات إلى أزواجهنّ الكفّار، ولكن بعد الامتحان والتأكّد من إيمانهنّ.

وقيل: أبى الرسول ﷺ ذلك على أساس أنّ المذكور في العهد الرجال. ولعلّ

الوجه فيه أنّ العهود تمضى حسب الصراحة لا الظهور، فلا تقبل دعوى أنّ ذكر الرجال من باب التغليب. وعليه فالآية نزلت مؤيّدة لفعله ﷺ.

والتعبير عنهنّ بـ «المؤمنات» ثمّ الأمر بامتحانهنّ لمعرفة الإيمان لعلّه من جهة كفاية صدق الإيمان بمجرّد الإظهار والنطق بالشهادتين، ولكنّ ترتيب الأحكام الآتية يتوقّف على التأكّد من صدقهنّ في الإيمان، مع أنّ الامتحان لا يوجب علماً، خصوصاً على ما روي أنّهم كانوا يحلّفونهنّ أنّهنّ ما خرجن فراراً من رجالهنّ أو طلباً للدنيا أو حبّاً لرجل آخر ونحو ذلك، فإنّ الحلف لا يدلّ على الصدق، خصوصاً إن كانت مشركة في الباطن، ولكنّ ذلك كان يثير فيهنّ الالتزام بتعهّدهنّ وأيمانهنّ. وقيل: إنّ المراد بامتحانهنّ أخذ البيعة منهنّ حسبما ورد في الآية الأخيرة.

ثمّ إنّ الخطاب في هذه الآية للذين آمنوا، مع أنّ الامتحان وما يتبعه من إرجاع النساء أو عدم إرجاعهنّ إنّما هو وظيفة وليّ الأمر وهو الرسول ﷺ، ولعلّ السبب في ذلك أنّ هذه الأحكام لا تختصّ بعهد الرسالة، بل هي وظيفة وليّ أمر المسلمين في كلّ عصر حسب تعيينه تعالى لا وفقاً للأهواء. ومثل ذلك الآيات الواردة في بيان الحدود والقصاص، كقوله تعالى: ﴿**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ**﴾،[1] إذ لا شكّ أنّ إجراء الحدود ليس من وظائف عامّة الناس.

مضافاً إلى أنّ بعض الأحكام الواردة في هذه الآية أحكام وضعية لا تختصّ بوليّ الأمر كبطلان زواج الكافر بالمرأة التي أسلمت، كما هو المستفاد من قوله

---

١. النور (٢٤): ٢.

تعالى: ﴿لاهنّ حِلٌّ لَهُم وَلا هُم يَحِلُّونَ لَهُنّ﴾ ومن قوله: ﴿وَلا جُنَاحَ عَلَيكُم أن تَنكِحُوهُنّ﴾ وكذلك بطلان زواج المسلم بالمرأة التي بقيت على شركها أو ارتدّت بعد إسلامها وهو المستفاد من قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾.

﴿اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾، الغرض من هذه الجملة التنبيه على عدم إمكان التحقّق عن صدقهنّ في إظهار الإيمان، وأنّ ما يظهرن من الالتزام أو يحلفن عليه لا يدلّ على كونهنّ مؤمنات واقعاً، فإنّ ذلك لا يمكن معرفته للناس، وإنّما هو أمر قلبي لا يعلمه إلا الله تعالى، وكم من مؤمن في الظاهر كثير الصلاة والصيام متزهّد متنسّك وهو في الواقع منافق لا يظهر حقيقة حاله.

﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلى الْكُفَّارِ﴾، رجع رَجْعاً يأتي لازماً ومتعدّياً. وهذا هو صريح الحكم بالنسبة للنساء اللاتي هاجرن إلى المدينة وتركن أزواجهنّ وهم المراد بالكفّار في الآية.

والمراد بالعلم ما يشمل الوثوق، إذ لا يمكن العلم بسرائر القلوب، بل يمكن أن يكون المراد به العلم بما تظهره وتلتزم به، فيكون العلم مستعملاً في معناه، ولكن لا يقصد بالإيمان إلا النطق بالشهادتين والالتزام بلوازمهما.

﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ تعليل لعدم الرَّجْع، والجملتان تفيدان حكماً واحداً وهو انتفاء العلقة الزوجية، فـ«الحلية» هنا كناية عن الحكم الوضعي ولا يراد بها حلية الاستمتاع حتّى يستغرب من توجيه الخطاب للكافر. وعليه فالتكرار يحتمل أن يكون للتأكيد والمقام يقتضيه، إذ المفروض عدم وقوع ما يوجب انتفاء العلقة الزوجية وهو الطلاق. والعرف العربي كان يفرض الزوجة في حبالة الرجل، وكأنّها ملكه حتّى يطلّقها كما تفيده التعابير بالذمّة والحبالة والطلاق، بل

يعبّر عن العقد في زماننا أيضاً بالملك، فكان لا بدّ من التأكيد على عدم بقاء هذه العلاقة بعد إيمان المرأة وبقاء الرجل على شركه.

ويحتمل أن تكون الجملة الأُولى لبيان الحرمة الفعلية، والجملة الثانية لبيان حرمة تجديد العقد لأيّ تغيير آخر غير إيمان الرجل، كما لو حضر الرجل في بلاد المسلمين أو سكنت المرأة في بلد من بلاد الكفر. ويمكن أن يكون هذا هو السرّ في التعبير بالفعل المضارع في الجملة الثانية الدالّ على الاستمرار.

﴿وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا﴾، أي اعطوا أزواجهنّ الكفّار ما أنفقوا في سبيل الحصول على الزوجة التي آمنت، فانفصلت عنه بإيمانها. والظاهر أنّ المراد خصوص المهر وإن احتمل بعضهم شموله لكلّ ما أنفق. والخطاب فيه وإن كان للمؤمنين في ظاهر اللفظ إلا أنّ المباشر للتنفيذ هو وليّ الأمر أي الرسول ﷺ وخليفته بالحقّ.

ولعلّ الحكم بذلك من أجل عدم تصعيد الموقف المتدهور أساساً بين المسلمين والمشركين، إبقاءاً على حالة الصلح التي استفاد منه المسلمون بالحرية في تبليغ الدين بين قبائل العرب، فالوضع كان يستدعي نوعاً من اللين في موضع التشدّد، فحيث أُخذت منهم أزواجهم عوّضهم الله تعالى بإعطائهم المهور لئلا يتضرّروا مادّياً بعد تضرّرهم بتفكّك الأُسرة، ويبدو من ملاحظة الوضع الاجتماعي آنذاك اهتمامهم بالجانب المادّي من الزواج لصعوبة تحصيل المال لدى الغالب.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، «الجُناح»: الإثم. والأصل فيه الميل عن الشيء يقال: جنحت السفينة، إذا مالت في أحد شقّيها كما في

«الجمهرة»،[١] أي لا يوجب ذلك ميلاً وانحرافاً عن الحقّ. والغرض من هذا الحكم التأكيد على زوال الزوجية السابقة، فبإمكان المرأة أن تتزوّج بمن تشاء. ولعلّ التقييد بإيتاء الأجور ـ والمراد بها المهور ـ أنّ ما حصل من إرجاع ما استلمت من المهر إلى زوجها السابق من بيت المال لا يوجب سقوط حقّها في مطالبة المهر، فليست هي مسترقّة أو بحكمها.

﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾، «العِصَم» جمع عِصْمة. والعصمة: الحفظ والمنع، ويراد بها هنا الزواج حيث يعصم الزوجين من الوقوع في الحرام. و«الكوافر» جمع كافرة. والإمساك بعصمهنّ كناية عن إبقاء زواجهنّ، والمعنى أنّ المسلم إذا لم تسلم زوجته أو ارتدّت وكفرت وجب الانفصال عنها بمعنى عدم بقاء علقة الزوجية بينهما شرعاً، فلا حاجة إلى طلاق. هذا هو صريح الآية ويستفاد منها عدم الابتداء بالزواج بهنّ بطريق أولى.

إنّما الكلام في أنّ الحكم هل يشمل الكتابيات باعتبار أنّهنّ كوافر وفي الآيات مواضع صرح فيها بكفر أهل الكتاب منها قوله تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾[٣] وغيرهما؛ والسبب واضح، لأنّهم كفروا برسالة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، أم لا يشملهنّ؟

يمكن أن يقال: إنّ السياق هنا قرينة على إرادة المشركات بالخصوص.

---

١. جمهرة اللغة ١: ٤٤٢.

٢. البقرة (٢): ١٠٥.

٣. البينة (٩٨): ١.

والجواب عنه: أنّ مورد الآية وإن كان المشركات فقط إلا أنّ المورد لا يخصّص الحكم. ولكنّ الظاهر تخصيص الآية بقوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾[١]، فيجوز طبقاً لهذه الآية الزواج بالكتابيات إمّا مطلقاً أو في خصوص المتعة.

وهناك رواية تدلّ على نسخ هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾، روى الكليني بسند صحيح عن زرارة بن أعين قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، فقال: «هذه منسوخة بقوله: ﴿وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾».[٢]

والروايات مختلفة في هذا الباب والمسألة خلافية، وفيها كلام طويل يطلب من كتب الفقه.

﴿وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا﴾. حيث كان النهي عن إبقاء علقة الزوجية مع الكافرة يستلزم تركها للمدينة ورجوعها إلى بلاد المشركين ورد الأمر هنا ـ والأمر للجواز والإباحة ـ بمطالبة ما أنفق المؤمن للزواج، والظاهر أنّ المراد به المهر، فيجوز له أن يطالب الكفّار بما أنفقه من المهر.

ولعلّ تكرار الحكم بالنسبة للكفّار حيث أجاز مطالبتهم هنا لما أنفقوا بعد الأمر السابق في قوله تعالى: ﴿وَآتُوهُم مَا أَنْفَقُوا﴾ للإشارة إلى المقابلة بالمثل، فتكون النتيجة أنّ الحكم بجواز مطالبتهم لما بذلوا من مهور أزواجهم يتبع موافقتهم على بذل مهور اللواتي يذهبن إليهم من نساء المؤمنين أو بقين هناك

---

١. المائدة (٥): ٥.

٢. الكافي ٥ : ٣٥٨ ، الحديث ٨، باب نكاح الذمية.

بعد الهجرة ولم يهاجرن مع أزواجهنّ، فإن امتنعوا من دفعها لم يجب على المؤمنين دفع مهور أزواج الكفّار إذا هربن منهم.

﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ الإشارة في قوله: ﴿ذَلِكُمْ﴾ إلى الحكم السابق، ولم يقل «ذلك» ليكون الخطاب متوجّهاً إلى الجميع أي المؤمنين والكافرين. وقوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ جملة وصفية تشتمل على ضمير غائب يرجع إلى الحكم، أي يحكم به بينكم والخطاب هنا أيضاً للفريقين. وكلّ ذلك للتأكيد على الحكم السابق، وكذا تذييله بأنّه تعالى ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، أي عليم بالمصالح والمفاسد وحكمته تمنع من ترك الأُمور على عواهنها، فيشرّع الحكم اللازم في ظرف لزومه.

ويبدو من السياق أنّ بعض النفوس كانت تأبى ذلك أو تستعظمه، ولعلّ بعضاً من ذوي القلوب المريضة كانت تحاول بثّ الفتنة وتهييج المشاعر بأنّ هذا تضعيف للمسلمين وهم الآن في عزّة ومنعة، ولكنّ الحكمة الإلهيّة كانت تقتضي الإبقاء على حالة الصلح والتعامل مع المشركين بنوع من الإنصاف، فكان لا بدّ من التأكيد على أنّ هذا حكم الله وأنّه مقتضى العلم بالمصالح والحكمة لتقبله النفوس المضطربة وتنصاع لها. ولذلك ورد التذييل بالاسمين الجليلين.

﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾. كلمة «شيء» مبهمة يتعيّن المراد بها بما يأتي بعدها، فمعناه إحدى أزواجكم. و«الفوت» بمعنى التباعد، أي ذهبت بعض أزواجكم إلى الكفّار لارتدادها أو بقيت هناك ولم تهاجر مع زوجها لبقائها على شركها. والظاهر أنّ المراد بالمعاقبة أنّ المشركين لم يؤدّوا مهر هذه الأزواج بعد إبلاغهم الحكم

الإلهيّ العادل الذي سبق ذكره، فعاقبهم المسلمون بعدم دفع مهور نسائهم اللاتي آمنّ وأتين إلى المدينة.

وقوله: ﴿فَآتُوا﴾ أي ادفعوا للمؤمنين الذين ذهبت أزواجهم إلى الكفّار، فتضرّروا مادّياً بعد تضرّرهم بتفكّك الأُسرة، مثل ما دفعوا من المهر ليتمكّنوا من الزواج، فإنّ هذا الضرر إنّما لحقه لتمسّكه بدينه، فلا بدّ من تعويضه ليخفّ عنه الحرج ولئلا يحاول المشركون بذلك من التأثير في قلوب الضعفاء من المؤمنين ويهزّوا كيانهم ومشاعرهم.

وذكر المعاقبة ليس تقييداً للحكم، بل إنّما أُتي بها لدفع توهّم الاكتفاء بها في مقابلة الكفّار، فإنّ ذلك لا يغني هذا المؤمن المتضرّر شيئاً.

وقيل: إنّ المراد بالمعاقبة غزوهم وأنّ المهر يدفع من الغنائم المأخوذة منهم. ومعنى ذلك أنّ هذا المتضرّر لا ينتفع بشيء ما لم يحدث غزو بين ذلك القوم وبين المسلمين. وهو بعيد كما أنّ التعبير عن الغزو بالمعاقبة بعيد أيضاً، إذ ليست الغزوات دائماً تتّصف بذلك.

﴿وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾. لعلّ الأمر بالتقوى في هذا الموضع لاستثقال بعض النفوس من دفع هذا المال للمتضرّر من المؤمنين، كما أنّ المتضرّر أيضاً يجب أن يتّقي الله في تحديد المهر الذي دفعه ممّا لا يعلم عادة إلا من قبله. وتوصيف المخاطبين بالإيمان بالله تعالى لعلّه لتشجيعهم على التقوى وتحبيبها إليهم باعتبارها من مقتضيات الإيمان، وللإشارة إلى أنّهم ينبغي أن لا يكونوا كالمشركين، فإنّهم لا يتّقون الله لعدم إيمانهم به، وهذه المقارنة ممّا يزيد فيهم التحمّس للتقوى وللامتثال.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْـمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئاً﴾، نزلت الآية في مورد المؤمنات بعد الفتح كما ورد في رواية معتبرة، وسيأتي ذكرها إن شاء الله تعالى، ولكنّ ذلك لا يقتضي اختصاص الحكم بهنّ. والبيعة كانت تعني في ذلك العصر الالتزام بالطاعة للسلطان أو القائد والدفاع عنه وعن مبادئه، وكأنّه باع نفسه له وكانت البيعة تتحقّق عندهم بالمصافحة باليد، كما أنّ البيع كان كذلك. ولم يرد في الكتاب العزيز شرح لبيعة الرجال؛ لأنّ الغرض الأساس من البيعة معهم الدفاع عن الرسول ﷺ وعن دينه. وأمّا النساء فليس عليهنّ شيء من ذلك، فبيّن أنّ المبايعة معهنّ إنّما كانت على أُسس الدين والحفاظ عليها، وسيأتي في الحديث ما يدلّ على اختصاص هذه البيعة بهنّ.

وقوله: ﴿يُبَايِعْنَكَ﴾، أي يردن المبايعة، وهدفهنّ من هذه البيعة إعلان إسلامهنّ وذكر هذه الشروط للإشارة إلى ما يجب عليهنّ ذكره والالتزام به في البيعة والدخول في الدين، فالمراد بقوله: ﴿يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ ...﴾ أنّه إذا بايعنك على هذه التفاصيل فبايعهنّ، فهذا تعليم لهنّ بشروط البيعة، إذ لا شكّ أنّهنّ لا يبتدئن البيعة بهذه التفاصيل، ولا يعلمن بما يجب أن يبايعن عليه، فالغرض من الآية أنّ الواجب على الرسول ﷺ أن لا يبايعهنّ إلا بذكر هذه التفاصيل، ليتبيّن لهنّ الأُسس العملية للدين الذي يردن الدخول فيه. وعليه فجواب الشرط قوله تعالى: ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾.

وأوّل أمر يطلب منهنّ البيعة عليه عدم الشرك بالله تعالى؛ لأنّه الأصل الأوّل في ديانات السماء، ولأنهنّ كنّ مشركات، فطلب منهنّ التخلّي عن طريقة السلف. والتقييد بالشيء للتأكيد على عدم جواز أيّ نوع من الشرك في العقيدة

من حيث الخلق والربوبية والتأثير في الكون وفي مقام العمل أيضاً.

﴿وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ لعلّ التأكيد على السرقة من جهة ابتلائهنّ بسرقة أموال الأزواج، حيث إنّهم لم يكن لديهم محافظ للمال، فكانت أموالهم مخزونة في البيوت وكان لا بدّ من كون المرأة مأمونة على ذلك، ولذلك ورد في الحديث في صفات المرأة المفضّلة: **«وإذا غاب عنها حفظته في نفسها وماله»**.[1] وأمّا قتل الأولاد، فلعلّ الغالب من موارد ابتلاء النساء به هو إسقاط الجنين، ولكن قيل بأنّ بعضهنّ في ذلك الزمان كنّ يقتلن البنات خصوصاً إذا توالت ولادتهنّ، أو يساعدن أزواجهنّ في وأدهنّ. ولعلّ ذلك كان خوفاً من الطلاق.

﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾، «البهتان» مصدر من البَهت وهو التحيّر والدهشة، ويطلق على الكذب على أحد ومواجهته به ممّا يوجب اندهاشه وتحيّره. قال ابن دريد في «الجمهرة»: «ولا يكون البهت إلا مواجهة الرجل بالكذب عليه».[2]

وقوله: ﴿يَفْتَرِينَهُ﴾ أي يختلقنه، فإنّ القائل ربما ينقل كذباً وربما يختلقه، وأصله من القطع. و«فرى الشيء» أي قطعه. والظاهر أنّ هذا تعبير كنائي عن ما تمارسه بعض النساء بعد الفحشاء من نسبة الأولاد إلى أزواجهنّ مع علمهنّ بحقيقة الأمر، وهي جريمة فوق جريمة الزنا التي ارتكبتها، ولعلّها أعظم منها. وتترتّب عليها مشاكل في الأُسرة وفي الأحكام، وربما يترتّب عليها زواج غير صحيح وتوارث

---

١. الكافي ٥ : ٣٢٧، الحديث ٣، باب من وفّق له الزوجة الصالحة.

٢. جمهرة اللغة ١: ٢٥٧.

في غير موضعه وغير ذلك. فكون البهتان ممّا تفتريه بين يديها ورجليها كناية عن ولادة طفل منها وإسنادها له إلى غير أبيه الواقعي.

﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ التأكيد على إطاعة الرسول ﷺ لمزيد العناية بالأوامر الحكومية التي تصدر منه ﷺ، ولعلّ بعض النفوس تأبى من الطاعة نظراً إلى أنّها ليست من الشرع ومن أوامر الله تعالى، ونحن نجد حتّى الآن من لا يعتبر الرسول ﷺ إلا مبلّغاً عن الله لا تجب إطاعته في أوامره الشخصية والقرآن يؤكّد على وجوب إطاعته في كلّ ما يأمر به، وهو غير إطاعة الله تعالى في أوامره التي يبلّغها الرسول ﷺ.

والمعروف ما عرف بين الناس بكونه خيراً في قبال المنكر وهو ما يستنكره الناس والتقييد به ليس للاحتراز، فإنّه ﷺ لا يأمر بغير المعروف، وإنّما هو لبيان الوجه في لزوم الإطاعة، وهو أنّه ﷺ لا يأمر إلا بالمعروف. ويمكن أن يكون الوجه فيه تقييد سائر الإطاعات بالمعروف كإطاعة قائد الجيش أو وليّ الأمر لو كانت ولايته شرعية أو إطاعة الوالدين وإن لم تكن واجبة. ومنه يتبيّن سخافة قول من يدّعي لزوم إطاعة وليّ الأمر مهما كان ومهما قال.

وفي الحديث أنّ المراد به أُمور خاصّة، فقد روى الكليني ﵀ بسند معتبر عن أبي عبد الله ﵇ قال: «**لما فتح رسول الله ﷺ مكّة بايع الرجال ثمّ جاء النساء يبايعنه، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فقالت هند: أمّا الولد، فقد ربّينا صغاراً وقتلتهم كباراً، وقالت أُمّ حكيم بنت الحارث بن هشام وكانت عند عكرمة**

**بن أبي جهل: يا رسول الله ما ذلك المعروف الذي أمرنا الله أن لا نعصينّك فيه؟ قال: لا تلطمنَ خدّاً ولا تخمشنَ وجهاً ولا تنتفنَ شعراً ولا تشققنَ جيباً ولا تسوّدنَ ثوباً ولا تدعين بويل، فبايعهنّ رسول الله ﷺ على هذا، فقالت يا رسول الله: كيف نبايعك؟ قال: إنّني لا أُصافح النساء، فدعا بقدح من ماء، فأدخل يده ثمّ أخرجها، فقال: أدخلن أيديكنّ في هذا الماء، فهي البيعة».**[1] وفي ذلك روايات أُخرى في كتب الفريقين.

**﴿فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾**، جواب الشرط المذكور في أوّل الآية. ولعلّ في الأمر بالاستغفار إشارة إلى ما مضى منهنّ من ارتكاب الآثام، وفيه مزيد اطمئنان لهنّ في إيمانهنّ، وأنّ الله تعالى يغفر لهنّ ما سلف لأنّه غفور رحيم.

**﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾**، عود على ما بدأ به السورة المباركة من اجتناب تولّي أعداء الله وأعداء الأُمّة الإسلامية وتعميم للحكم ليشمل غير المشركين من الأعداء ومنهم اليهود، فقد مرّ في تفسير سورة المجادلة أنّ اليهود من المغضوب عليهم. ولا شكّ أنّ المراد بهم هنا غير المشركين، لأنّه شبّه يأسهم من الآخرة بيأس الكفّار من أصحاب القبور، والمراد بالكفّار المشركون، وكلّ من ينكر المعاد ومن هنا عبّر عنهم بالكفّار، ويأسهم من أصحاب القبور أي الأموات واضح، لأنّهم ينكرون الحياة بعد الموت، فمن مات وأصبح من أصحاب القبور، فلن يعود ولن يكون هناك اجتماع بينهم. هذا هو نتيجة إنكار المعاد، وتشبيه هذا القوم المغضوب عليهم بمنكري الآخرة يدلّ على أنّهم ليسوا منهم، وأنّهم قوم لا

---

١. الكافي ٥ : ٥٢٧، الحديث ٥، باب صفة مبايعة النبيّ ﷺ النساء.

ينكرون المعاد، فيأسهم من الآخرة ليس بمعنى الإنكار كما هو الحال في المشركين، بل بمعنى يأسهم من ثوابها.

ومن هنا يتبيّن أنّ الغرض من الآية التنبيه على أنّ هؤلاء مع إيمانهم ـ حسب الظاهر ـ بالآخرة يشاركون الكفّار في اليأس من ثوابها، وهذا لا يحدث إلا إذا ارتكب الإنسان من الفظائع والكبائر ما يوجب اليأس من رحمة الله تعالى، وهذا اليأس أكبر من كلّ تلك الكبائر، وهذا العنوان لا يختصّ باليهود وإن كانوا مشمولين بذلك، فإنّ في طواغيت هذه الأُمّة من هم أشدّ يأساً منهم وأحقّ بغضب الله تعالى حيث ارتكبوا أكبر الفظائع وقتلوا خيار الناس وأئمّتهم ومنعوا من تعظيم شعائر الله تعالى وفرّقوا الأُمّة ونشروا الفسق والفجور في المجتمع وإلى الله المشتكى.

والحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله الطاهرين.

# تفسير سورة الصفّ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ‌ۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ
﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَـٰنٌ مَّرۡصُوصٌ ﴿٤﴾

السورة مدنيّة، كما هو واضح من السياق، وتسمّى أيضاً سورة عيسى عليه السلام. ومحتواها الحثّ على الجهاد في سبيل الله تعالى والتنديد بالتقاعس عنه خصوصاً لمن أظهر استعداده ووعد بالمشاركة. وتحتوي أيضاً على الحثّ على إطاعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وعدم إيذائه ومخالفته مع أنّه مستغن بفضل ربّه عن غيره.

﴿سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ مرّ الكلام في تفسير الآية في تفسير سورة الحشر والحديد. ولعلّ مناسبة تسبيح الكون لمحتوى السورة ـ وهو الحثّ على الجهاد ـ التأكيد على استغنائه تعالى من نصرة الناس لدينه فهو المنزّه عن كلّ منقصة وحاجة.

قوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي الغالب، ولكنّه لحكمته يدعو المؤمنين إلى الجهاد

لينالوا خير الدنيا والآخرة، ولحكمته جعل لكلّ شيء سبباً وطرقاً طبيعية ومنها الغلبة على الأعداء، فلا بدّ في تحصيل ذلك من المواجهة والقتال.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ قيل: إنّه خطاب للمنافقين وأنّ المراد بمخالفة قولهم لفعلهم أنّهم آمنوا في الظاهر وأبطنوا الكفر والشرك والعداء للرسول ﷺ وأنّ التعبير عنهم بـ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ للتهكّم. وهو بعيد. والظاهر من التعبير كونه كغيره خطاباً لمن آمن بالرسول ﷺ، ولكنّه يشمل المنافقين أيضاً وإنّما وصفهم بالإيمان؛ لأنّ الإيمان ينافي أن يخالف قول الإنسان عمله، ففي ذلك تعريض لهم، أي كيف تقولون ما لا تفعلون مع أنّكم مؤمنون؟!

وقيل في شأن نزول الآية: إنّ رجالاً منهم تمنّوا في مجالسهم لو ينزل الوحي بأحبّ الأعمال عند الله تعالى، فلمّا نزل الأمر بالقتال تقاعسوا عنه وفرّ بعضهم في غزوة أُحد، فنزلت السورة. وهذا لعلّه أقرب ما قيل في شأن نزول السورة بمقتضى سياق الآيات.

وقيل: إنّ بعضهم ادّعى أنّه أبلى في الحرب وفعل كذا وكذا وهو لم يفعل وهو بعيد جدّاً. وقيل غير ذلك ممّا لا يقلّ عنه بعداً.

ومهما كان، فالسياق يدلّ على أنّ اللوم الوارد في هذه الآية يتعلّق بالجهاد. و«لِمَ» مخفّف «لما» و«ما» استفهامية، أي لأيّ سبب، أو لماذا تفعلون كذا، والغرض التعجيب منه. وظاهر الآية أنّ اللوم ليس على مخالفة الفعل للقول وعدم الوفاء بالوعد، بل على قول ما لا يريد الوفاء به وهو كذب ونفاق. ولكن ورد في بعض الروايات ما يدلّ على الشمول لخلف الوعد.

ففي «الكافي» بسند صحيح عن هشام بن سالم قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام

يقول: «عدة المؤمن أخاه نذر لا كفّارة لـه، فمـن أخلـف فبخلـف الله بـدأ ولمقتـه تعـرّض وذلك قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُـوا مـا لا تَفْعَلُونَ﴾».[1]

وفي «نهج البلاغة» في عهده عليه السلام إلى مالك الأشتر رضوان الله عليه: «إيّاك والمنّ على رعيّتك بإحسانك أو التزيّد فيما كان من فعلك أو أن تعدهم فتتبع موعدك بخلفك، فإنّ المنّ يبطل الإحسان والتزيّد يذهب بنور الحقّ والخلف يوجب المقت عند الله والنّاس، قال الله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ﴾».[2]

فيمكن القول بأنّ المراد في الآية الكريمة اللوم علـى مخالفـة القـول للفعـل، سواء قصد المخالفة حين القول، فيكون كذباً ونفاقاً أو قـصد الوفـاء، ولكنّـه لـم يف بما قال مع تمكّنه منه. ولـذلك احتـاط سيّدنا الأُستاد[3] بعـدم خلـف الوعـد احتياطاً وجوبياً. ولعلّه لم يفت بـه لعـدم إفتـاء المـشهور بـه مـع كثـرة الروايـات الظاهرة في وجوبه. ويتحقّق الاحتياط بالتعليق على المشيئة ونحوها، فـإذا وعـد، ولكنّه علّقه بقوله: «إن شاء الله» مثلاً لم يجب الوفاء.

ومن الفقهاء من حمل الآية علـى الأمـر بـالمعروف مـع تركـه أو النهـي عـن المنكر مع فعله، وقال: إنّ مضمونها كقوله تعالى: ﴿أَتَـأْمُرُونَ النَّـاسَ بِـالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾؛[4] وهو بعيد لفظاً عن ظاهر الآية، كما هو غير موافق لسياق الآيات حتّى لو لم نعتمد على ما روي في شأن النزول.

---

١. الكافي ٢ : ٣٦٤، الحديث ١، باب خلف الوعد.

٢. نهج البلاغة (صبحي الصالح): ٤٤٤.

٣. المرجع الديني الأعلى في هذا العصر سماحة السيّد علي السيستاني أطال الله بقاءه.

٤. البقرة (٢): ٤٤.

﴿كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾، «المقت»: البغض الشديد. وهو مصدر بمعنى المفعول، أي ممقوتاً وهو تمييز. وأكّده مع أنّه بذاته مشدّد بقوله: ﴿كَبُرَ﴾ والكبر هنا تعبير عن الشدّة كما توصف بعض المعاصي بالكبيرة. وفاعل كبر ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾، أي قولكم: ﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾، وقوله: ﴿عِنْدَ اللهِ﴾ متعلّق بالمقت، فالمعنى أنّ قولكم ما لا تفعلون، أي الوعد بما لا تريدون الوفاء به وعدم الوفاء بما تعدون أمران ممقوتان ومبغوضان عند الله تعالى بغضاً شديداً وعظيماً خصوصاً إذا كان في موضوع الجهاد في سبيل الله تعالى، كما يستفاد من السياق، فإنّ التقاعس عن ذلك أمر خطير جدّاً.

﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ الآية تحدّد مورد اللوم السابق وأنّ مورده الجهاد. ويظهر منها المراد بما قالوه ولم يفعلوه في الآيتين السابقتين. وفيها بيان لشرف عظيم للجهاد في سبيل الله تعالى. فإنّ الحبّ من الله تعلّق فيها بنفس المقاتلين، ولكن بشرط أن يكون الغرض القتال في سبيله تعالى لا في سبيل الوطن أو الدفاع عن النفس وإن وجب ذلك في بعض الموارد إلا أنّ المناط أن يقصد به التقرّب إليه تعالى.

و«الصفّ» جعل كلّ مجموعة من جنس واحد على خطّ منتظم واحد. وهو مصدر بمعنى اسم الفاعل وحال من ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ﴾، أي يحبّهم الله تعالى حال كونهم صافّين أو متصافّين، ويمكن أن يكون بمعنى اسم المفعول، أي مصفوفين؛ لأنّ القائد هو الذي يصفّهم، أي يجعلهم متساوين في الموقف.

وشبّههم أيضاً بالبنيان المرصوص، ومعناه أنّ حبّه تعالى مقيّد بهذا الوصف أيضاً. و«البنيان» مصدر كالبناء. والمراد به اسم المفعول، أي المبنيّ.

وفي «الصحاح»: «البنيان: الحائط».[1]

و«الرصّ» ضمّ أجزاء الشيء بعضه إلى بعض بحيث لا يبقى له خَلَل وفُرَج، ومنه الرصاص وهو معدن معروف. وفي «معجم المقاييس»[2] أنّه الأصل في هذه الكلمة، وقيل: إنّ البنيان المرصوص ما صُبّ عليه الرصاص الذائب ليشتّد تماسك أجزائه ولا يهتزّ ولا يمكن النفوذ منه.

والمراد بهذا التشبيه التكاتف والتعاضد بأقوى درجاته في الجيش المسلم المدافع عن الدين بحيث لا يمكن لعدوّ أن يشتّت شملهم، ويفرّق جمعهم ويدخل فيما بينهم لا بهجوم ومحاربة ولا بإلقاء الشبهات ولا بالتهديد والإرعاب ولا بأيّ طريق آخر.

ويتبيّن من الآية أنّه تعالى يحبّ أيضاً النظم والاصطفاف والتماسك بين الجنود في الحرب، بل لا يبعد أن يكون ذلك إشارة إلى أنّه تعالى يحبّ النظم في المجتمع الإسلامي بكلّ جوانبه ويحبّ تراصّ الصفوف وتماسكها أيضاً في كلّ المجالات، فالمطلوب وحدة الصفّ الإسلاميّ في مواجهة الأعداء، بل مطلقاً، ولكنّ كلّ ذلك بشرط أن يكون في سبيله تعالى، كما قال: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا**﴾[3] فليست الوحدة بذاتها مطلوبة، بل ضمن الاعتصام بحبله تعالى.

---

١. الصحاح ٦: ٢٢٨٦.

٢. راجع: معجم مقاييس اللغة ٢: ٣٧٤.

٣. آل عمران (٣): ١٠٣.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ﴾، أي واذكروا إذ قال موسى، والخطاب للذين آمنوا، والغرض الاستشهاد بتعامل بني إسرائيل مع الرسولين موسى وعيسى عليهما السلام وأنّ تخلّفهم عن إطاعتهما، بل مباشرتهم لإيذائهما تسبّب في انحراف بني إسرائيل عن دينهم وعن موضعهم الاجتماعي الذي أراده الله تعالى لهم في العالمين بأن يكونوا حاملي الرسالة الإلهيّة وفضّلهم بذلك على العالمين كما في آيات عديدة.

والظاهر أنّ المراد تحذير الأُمّة الإسلامية من سلوك نفس المسلك حيث بدت بوادره في مخالفتهم لأمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة أُحد ممّا أدّى إلى هزيمتهم واستشهاد خيارهم، فأراد الله تعالى أن يتمّ عليهم الحجّة بتحذيرهم من تبعات الاستخفاف بأمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ونهيه ليكونوا على بيّنة من أمرهم وممّا يفضي إلى هلاكهم وزوال ما وهبهم الله تعالى من النعم المادّية والمعنوية ببركة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

والواقع أنّ كلّ هذه التحذيرات المتكرّرة في الكتاب العزيز لم تحل بين بعض من سوّلت له نفسه وبين الركض وراء الأهواء، فانتهت الأُمور إلى ما انتهت

إليه من تفرّق الأُمّة وتشتّت أحزابها وابتعادها عن المسلك الحقّ الذي وضعه الله لها وتحقّق ما أخبر به الرسولﷺ من أنّ هذه الأمّة تسير على ما سارت عليه الأُمم السالفة حتّى لو دخلوا جحر ضبّ لدخلوه.

وقد ورد هذا المضمون في عدّة روايات في كتب الفريقين، وقد خصّص له البخاري في صحيحه باباً بعنوان «باب قول النبيّﷺ لتتّبعنّ سنن من كان قبلكم» فروى عن أبي هريرة عنهﷺ أنّه قال:«**لا تقوم الساعة حتّى تأخذ أُمّتي بأخذ القرون قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع**». فقيل: يا رسول الله كفارس والروم؟ فقال: «**ومن الناس إلا أُولئك**».[1]

وروى أيضاً عن أبي سعيد الخدري، عن النبيﷺ أنّه قال: «**لتتّبعنّ سنن من كان قبلكم شبراً شبراً وذراعاً بذراعٍ حتّى لو دخلوا جحر ضبٍّ تبعتموهم**». قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «**فمن؟!**».[2]

وهذا ما أشار إليه الكتاب العزيز في مواضع عديدة، حيث ذكر الأقوام المتتالية وعبّر عن مواقفهم تجاه الرسل بقول واحد، وجملة متكرّرة ممّا يوحي بتوافق البشر طيلة التاريخ على فكرة واحدة، بل صرّح به في قوله تعالى: **﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾**[3] فكأنّ كلّ سلف يوصي إلى خلفه باتّباع نفس الطريقة والإجابة بنفس الجواب. بل هناك آيات عديدة تشير إلى اختلاف الأُمم السابقة بعد رسلهم وبعد إتمام الحجّة عليهم وبعد إيمانهم بالرسالات وأنّهم ما اختلفوا إلا بغياً بينهم وفي

---

١. صحيح البخاري ٢٢: ٢٩٨، (على ما في المكتبة الشاملة).
٢. صحيح البخاري ٢٢: ٢٩٨، (على ما في المكتبة الشاملة).
٣. الذاريات (٥١): ٥٢ ـ ٥٣.

كلّ ذلك إشارة إلى ما سيحدث في هذه الأُمّة.

فمنها قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾،[1] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾،[2] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[3] وغيرها من الآيات.

والحاصل أنّ الاستشهاد هنا بما مرّ على قوم موسى وعيسى عليهما السلام يأتي في سياق الآيات التي تندّد بتقاعس القوم عن الجهاد ومخالفتهم لأوامر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. والمراد بإيذاء قوم موسى عليه السلام على ما يبدو من السياق هو مخالفتهم لأوامره وخصوصاً في مورد جهاد الأعداء، حيث قالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[4] وفي عبادتهم للعجل ونحو ذلك.

وقيل: إنّ المراد به ما أشار إليه تعالى في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا

---

١. البقرة (٢): ٢١٣.

٢. آل عمران (٣): ١٩.

٣. الجاثية (٤٥): ١٦ ـ ١٧.

٤. المائدة (٥): ٢٤.

﴿كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً﴾.[١] وقد مرّ الكلام في تفسير الآية، وأنّ المراد بالأذيّة فيها خصوص اتّهامه عليه السلام بأمر لا يناسب وجاهته عند الله بقرينة ذيل الآية، وهذه القرينة مفقودة هنا وليس هناك وجه مشترك بين الآيتين إلا التعبير بالإيذاء.

وقوله: ﴿وَقَدْ تَعْلَمُونَ﴾ جملة حالية، أي لماذا تؤذونني وأنتم تعلمون بما رأيتم من الآيات أنّي رسول الله إليكم؟! وكيف يمكن للمؤمن بالله تعالى أن لا يحترم ويوقّر رسول ربّه، فهذا ينافي الإيمان بالله والتذلّل له؟!

و«قد» لتحقيق الحال وليس للتقليل، والإتيان بالفعل المضارع للإشارة إلى استمرار ما يوجب العلم بذلك، أي الآيات والمعاجز.

وقوله: ﴿يَا قَوْمِ﴾ بحذف ياء المتكلّم، أي يا قومي، وفيه نوع من التودّد والتعاطف، وهكذا في كلّ العبارة المحكية حيث يستفسر عن سبب الإيذاء مع كونه رسولهم من عند ربّهم، فكأنّه يبرئ ذمّته عن كلّ ما يبرّر الإيذاء، فهو لم يرتكب إثماً ولم يظلم منهم أحداً، فبماذا يستحلّون إيذاءه عليه السلام؟!

﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾، «الزيغ»: الميل إلى جانب، والمراد انحرافهم عن الطريق الذي عيّنه الله تعالى لهم. والنتيجة أنّ الله تعالى جازاهم بأن أمال قلوبهم فلا يرون الحقّ ولا يهتدون السبيل. وهذه نتيجة طبيعية للانحراف عن الحقّ بعد معرفته وإنّما ينسب إليه تعالى؛ لأنّ كلّ أمر طبيعي مستند إلى إرادته التكوينية. وقد وردت الإشارة إلى هذه الحقيقة في موارد عديدة من القرآن.

﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ جملة تعليلية، فالقوم فسقوا باختيارهم فأتاهم

---

١. الأحزاب (٣٣): ٦٩.

الجزاء من ربّهم بتركهم في ظلمات والإنسان لا يهتدي إن لم يهده الله، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[١] وهذا هو الزيغ وميل القلب الحاصل بالطبع من انحراف الإنسان عملياً عن هدايات ربّه. والحاصل أنّه تعالى لا يضلّ أحداً ابتداءاً، بل هو يهدي الجميع إلا أنّ الإنسان بسوء اختياره يسلك سبيل الباطل ويصرّ على مخالفة ربّه وإيذاء رسوله فيُقلب قلبُه وتُمحى بصيرته.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾، تذكير برسالة عيسى عليه السلام وتعامل بني إسرائيل معه وهو رسول إليهم من أنفسهم، وقد أبلغهم أنّه ليس بدعاً من الرسل، وإنّما جاءهم مصدّقاً للرسالة السابقة ومبشراً بالرسالة اللاحقة، فالرسالات كلّها من عند الله وعلى أساس واحد ودين واحد وإنّما تختلف الشرائع في ما تقتضيه المرحلة التي وصلت إليها البشرية من فهم الدين ومعرفة الله سبحانه ولا تختلف الأحكام بتطوّر الحضارات كما يتوهّم.

والفرق بين الخطابين أنّ موسى ناداهم: «يا قومي» وعيسى ناداهم: «يا بني إسرائيل» والسبب أنّه كان لموسى عليه السلام يد عليهم حيث جمعهم تحت لواء واحد وأنجاهم من فرعون وجنوده وتشكّلوا أمّة واحدة بإمامته، ومن هنا كان أشبه الرسل برسولنا صلى الله عليه وآله وسلم، وأمّا عيسى عليه السلام فلم يتمكّن من ذلك في حياته وإنّما آمن به جمع قليل منهم.

وكون عيسى عليه السلام مصدّقاً بالتوراة ورد في الأناجيل الموجودة لدينا أيضاً، فقد

---

١. الجاثية (٤٥): ٢٣.

ورد فيها أنّه‌ عليه السلام أمرهم بالعمل بما في الناموس والمراد به التوراة، كما ورد في كتبهم منها ما ورد في إنجيل متى: «**لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّلَ. فَإِنِّي الْحَقّ أَقُولُ لَكُمْ: إِلى أَنْ تَزُولَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ لاَ يَزُولُ حَرْفٌ وَاحِدٌ أَوْ نُقْطَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ النَّامُوسِ حَتَّى يَكُونَ الْكُلُّ**»[١] والقرآن أيضاً يصرّح بأنه‌ عليه السلام أنّما رفع عنهم بعض ما كلّفهم الله تعالى لبغيهم، قال تعالى: ﴿**وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ**﴾.[٢]

وهناك أحكام شرّعت على اليهود جزاءاً، كما في قوله تعالى: ﴿**وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ**﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿**فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ**﴾.[٤]

وأما بشارته بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم فقد ورد أيضاً في مواضع أُخرى من القرآن، قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ**﴾،[٥] بل ورد ذكر الذين معه أيضاً كما في آخر سورة الفتح.

ويظهر من شعر أبي طالب عليه السلام أنّ البشارة كانت موجودة في ما وجده العرب من الكتب السابقة، مع أنّ أهل الكتاب كانوا يمتنعون من نشر هذه الحقائق، قال عليه السلام:

---

١. إنجيل متى ٥: ١٧ ـ ١٨.
٢. آل عمران (٣): ٥٠.
٣. الأنعام (٦): ١٤٦.
٤. النساء (٤): ١٦٠.
٥. الأعراف (٧): ١٥٧.

**ألم تعلموا أنا وجدنا محمّداً**

**نبيّاً كموسى خُطّ في أوّل الكتب**[١]

ويقال: إنّ هناك مواضع في الأناجيل الموجودة بأيدينا يظهر منها البشارة بالرسول ﷺ وهي مجموعة في كتب اُلّفت لهذا الغرض. ونذكر هنا خصوص ما ذكر بشأن هذه البشارة، أي التعبير بهذا الاسم الكريم «أحمد»، ففي تفسير «الفرقان» أنّ في «إنجيل يوحنا» ما ترجمته بالعربية، وهو من أصل يوناني: «وأنا أطلب من الآب «الخالق»، فيعطيكم «بيركلتوس» آخر ليمكث معكم إلى الأبد روح الحقّ الذي لا يستطيع العالم أن يقبله، لأنّه لا يراه ولا يعرفه. وأمّا أنتم فتعرفونه؛ لأنّه ماكث معكم ويكون فيكم».

وفي موضع آخر منه: «ومتى جاء «بيركلتوس» الذي سأرسله أنا إليكم من الآب «الخالق» روح الحقّ من عند الآب ينبثق، فهو يشهد لي وتشهدون أنتم أيضاً لأنّكم معي من الابتداء».

وفي موضع آخر أيضاً: «لكنّي أقول لكم الحقّ: إنّه خير لكم أن أنطلق؛ لأنّه إن لم أنطلق لا يأتيكم «البيركلتوس»، ولكنّي إن ذهبت أرسله إليكم».[٢]

ويقول المؤلف ما خلاصته: «أنّ ترجمة الآب بالخالق هو الموافق للغة اليونانية وقد حرّفت الكلمة إلى الأب ليطابق ما توهّموه من أنّ المسيح ابن الله سبحانه، وأمّا كلمة «بيركلتوس» فهو في اللغة اليونانية بمعنى الأكثر حمداً، وهو مطابق لاسم أحمد، ولكنّ المحرّفين حرّفوا هذه الكلمة إلى باراكلتوس وبالحروف

---

١. راجع: الكافي ١: ٤٤٩.

٢. الفرقان فى تفسير القرآن بالقرآن و السنّة ٢٨: ٣٠٦ ـ ٣٠٧.

العربية فاراقليط حتّى يعني «المسلّي» وفسّروه بروح القدس الذي كان مع المسيح عليه السلام يسلّيه ويؤيّده. وزعموا أنّ هذا الروح مع قساوستهم بموجب هذا النصّ، فهم أيضاً كالمسيح عليه السلام يوحى إليهم».

هذا، ولكن بعض العبارات المنقولة آنفاً لا تحتمل هذا الحمل، حتّى لو وافقنا هذا التحريف؛ لأنّه يقول في الموضع الأخير: «إنّه خير لكم أن أنطلق، لأنّه إن لم أنطلق لا يأتيكم البيركلتوس». وهل كان روح القدس ينافي وجود المسيح عليه السلام فلا ينزل إلا بعد ذهابه من بينهم؟! ويؤيّد ذلك اعتراف بعض الخبراء، ففي التفسير المذكور ينقل عن فتحي عثمان في كتابه «مع المسيح في الأناجيل الأربعة ص ٣٤٨) قلت له: أي الدكتور كارلونلينو: «ما معنى بيركلتوس؟ فأجابني: أنّ القسس يقولون معناها المعزي، فقلت: إنّي أسأل الدكتور «كارلونلينو» الحاصل على شهادة الدكتوراه في آداب اللغة اليونانية القديمة، فقال: إنّ معناه الذي له حمد كثير، فقلت: هل ذلك يوافق أفعل التفضيل أحمد؟ فقال: نعم، فقلت: إنّ رسول الإسلام من أسمائه أحمد!».[1]

ويؤيّده أيضاً عدم اعتراض علماء اليهود والنصارى على هذه الدعوى، ومنهم من آمن بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم ولم ينقل عنهم تشكيك في وجود هذه البشارات في العهدين.

وقد اعترض بعض المؤلّفين على الآية الكريمة بأنّ البشارة أنّما كانت بأحمد والرسول صلى الله عليه وآله وسلم اسمه محمّد ولم نسمع له هذا الاسم. ولكنّ الصحيح أنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان يسمّى بالاسمين، وذلك يظهر بوضوح بملاحظة أشعار أبي طالب عليه السلام فقد تكرّر

---

١. راجع: الفرقان فى تفسير القرآن بالقرآن و السنّة ٢٨: ٣٠٧، الهامش ٣.

فيها تسميته بـ «أحمد»؛ فمنها قوله عليه السلام في لاميته المعروفة:

**لعمري لـقـد كُلِّفْتُ وجداً بأحمد**

**وأحـبـبته حبّ الحبيب المواصل**[1]

ومنها قوله يخاطب حمزة عليهما السلام:

**فصبراً أبا يعلى على ديـن أحـمد**

**وكن مظهراً للدين وفـقـت صابراً**

**نـبـي أتـى بـالدين مـن عند ربّه**

**بصدق وحقّ لا تكن حمز كافـراً**

**فقد سرني إذ قلت لبيك مـؤمـناً**

**فكن لرسول الله في الدين نـاصراً**

**ونـاد قـريـشـاً بـالذي قـد أتيته**

**جهاراً وقل ما كان أحمد ساحراً**[2]

إلى غير ذلك، بل ورد أيضاً في شعر غيره ممّا لا حاجة إلى ذكره.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾. هناك اختلاف في تفسير هذه الجملة، والظاهر أنّ معناها «فلمّا جاء عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل بالبيّنات قالوا: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ والمراد بالبيّنات المعاجز والآيات الباهرة كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص. والغرض من هذه الجملة الإشارة إلى سوء معاملة القوم مع رسولهم واتّهامه بالسحر، مع أنّه أتاهم بالمعاجز والدلائل الواضحة، وذلك في

١. كنز الفوائد ١: ١٧٩.

٢. كنز الفوائد ١: ١٨١.

سياق تحذير المسلمين من سلوك نفس المسلك ممّا يؤدي بهم إلى الانحراف عن الحقّ.

ولا استبعاد في خطاب المؤمنين بهذا التحذير، فإنّ من آمنوا ظاهراً بالرسول ﷺ لم يكونوا كلّهم على نسق واحد من الإيمان كما هو واضح، بل كان فيهم مَن بقي في نفسه على اعتقاده أيّام الجاهلية، بل لعلّ بعضهم مع أنّه آمن واقعاً لا نفاقاً، إلا أنّه لمّا رأى بعض ما لا يروقه من الأحكام أو سمع بعض ما لا يعجبه من كلام الرسول ﷺ في تفضيل بعض على بعض ساوره الشكّ والاتّهام بالسحر وغير ذلك.

وهناك ممّا ينقل في الروايات والتاريخ ما يقرب هذا الاحتمال، حيث نجد أنّ بعض الأقربين لدى الرسول ﷺ وبعض الصحابة تفوّهوا بكلمات في لحظات حسّاسة ينمّ عمّا في الصدور فكيف بغيرهم؟! ومن هذا القبيل قول من قال: «أرى ربّك يسارع في هواك» ومن قال: «اعدل يا محمّد» أو «إنّ الرجل ليهجر» ونحوها.

ولكنّ كثيراً من المفسّرين ومنهم العلامة الطباطبائي ﵀ اعتبروا الضمير عائداً إلى ﴿رَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾، والضمير المنصوب إلى بني إسرائيل أو هم مع غيرهم، وقالوا: إنّ التفريع في قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ من جهة أنّ عيسى ؈ أخبرهم بمجيء الرسول ﷺ وبشّرهم به، ثمّ جاءهم الرسول ﷺ بالآيات، ومع ذلك لم يؤمنوا به، بل اتّهموه بالسحر. وقالوا: إنّ السياق لا يساعد على الاحتمال الأوّل.

وهذا وإن لم يبعد في نفسه، إلا أنّه يوجب عدم تناسق الآيات، إذ لا يكون

حينئذ للاستشهاد بقصّة عيسى عليه السلام وجه يناسب الخطاب الموجّه إلى الذين آمنوا في سياق قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ﴾ حيث إنّ المذكور من قصّته عليه السلام بناءاً على هذا التفسير مجرّد القول بأنّه مكمّل للشريعة السابقة ومبشّر بالرسالة اللاحقة ولا يبقى ما يكون مورداً لتشبيه الحالتين وتحذير هذه الأُمّة من متابعة نفس الطريق.

وإنّما التزموا بذلك وادّعوا أنّه مقتضى السياق، لأنّهم رأوا أنّ الآيات التالية تتعرّض لحال الكفرة من بني إسرائيل وأنّهم لا يؤمنون بالإسلام، مع وجود البيّنات والمعاجز، وأنّهم يريدون إطفاء نور الله تعالى، فيكون مورد هذه الآيات كفرة أهل الكتاب المعاصرين للرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم كما هو كذلك في مورد آخر نزل فيه مثل ذلك في سورة التوبة (٢٩ ـ ٣٣) فبحثوا عن جملة تبحث عن هؤلاء ليصحّ إرجاع الضمائر إليهم ولم يجدوا إلا هذه الجملة فقطعوها عمّا قبلها ليتناسب السياق.

ولكنّ الظاهر أنّ مورد الآيات التالية الكفرة الذين خرجوا من نفس المجتمع المؤمن في عهد موسى وعيسى عليهما السلام وهم المذكورون في الآيتين السابقتين، كما يتبيّن بملاحظة خطاب موسى عليه السلام ﴿يَا قَوْمِ﴾ وأيضاً خطاب عيسى عليه السلام لهم بأنّه لم يأت بجديد وإنّما هو مكمّل للرسالة التي آمنوا بها ومبشّر بما يأتي بعدها فهم مؤمنون ظاهراً، ولكنّهم كفروا برسولهم وخالفوا أوامره. وهذا هو الذي يناسب سياق الآيات السابقة التي تخاطب الذين آمنوا.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلى الْإِسْلَامِ﴾ استفهام إنكاري. و«الافتراء» اختلاق الكذب. وجملة: ﴿ وَهُوَ يُدْعَى إِلى الْإِسْلَامِ﴾ حالية، أي ليس هناك من هو أظلم من هذا، حيث إنّه يفترى على ربّه من دون عذر، إذ لا يدعوه إلى ذلك إلا عدم التسليم لأمر الله تعالى. والمراد بـ «الإسلام» دين الله أو التسليم لأمره تعالى.

والظاهر أنّ الآيات الثلاث استمرار للسياق وتعقيب على ما سبق من التعرّض لموقف بني إسرائيل من الرسولين الكريمين موسى وعيسى عليهما السلام وتحذير لهذه الأُمّة من اتّباع نفس المنهج.

وعبّر عن تكذيبهم للرسول بافتراء الكذب على الله، وذلك لأنّه حينما يكذّب الرسول في ما جاء به من الله تعالى وهو لا يعلم ما أرسله الله من معارف وأحكام فينسب إليه خلاف ما جاء به الرسول فيكون بذلك مفترياً على الله تعالى.

والإنكار يدلّ على أنّه ليس هناك من هو أظلم من هذا المفتري، وهو مبالغة يدلّ على عظم ظلمه، حيث إنّ الواجب عليه عندما يدعى إلى الإسلام أن يسلّم الأمر إلى الله وإلى الرسول ويرضى بكلّ ما يحكم به ربّه ويبلغه رسوله، ولكنّه يواجه هذه الدعوة الواضحة بالافتراء على الله تعالى، فمثل هذا أظلم الناس. وقد

مرّ أنّ الظلم يتحقّق من دون مظلوم، فلا حاجة إلى توجيه أنّ الظلم يقع على نفسه، أو على مجتمعه، أو على ربّه، كما قيل، فإنّ الظلم ليس إلا وضع الشيء في غير موضعه ولذلك كان الشرك ظلماً عظيماً.

﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. لعلّه إشارة إلى تطوّر حال هذا الشخص إلى أن بلغ إلى حدّ كونه أظلم الناس وهو أنّه ظلم في أوّل مواجهة له لحكم الله تعالى وأمر رسوله وخالف عناداً واستكباراً، فتركه الله في ظلمات الجهل والوهم، لأنّه لا يهدي القوم الظالمين، فبلغ به الحال إلى أن صار أظلم الناس.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾. الظاهر أنّ ضمير الفاعل في قوله: ﴿يُرِيدُونَ﴾ يرجع إلى كلّ من كان يفتري على الله الكذب بعدم تصديق الرسول بعد قيام الحجّة ومجيء البيّنات، سواء في الأمم السابقة أم في هذه الأُمّة، وسواء من كان منهم معتنقاً الدين في الظاهر ومن بقي في معسكر الأعداء، فكلّ هؤلاء يحاولون بمعاداتهم للرسل إطفاء نور الله تعالى الذي جعله مناراً لهداية البشر في الأجيال المتلاحقة.

وهذا تعبير يحتوي على استهزاء بهم، فإنّ إضافة النور إلى الله تعالى للإشارة إلى أنّه أعظم منبع للنور على وجه الأرض، بل في الكون أجمع وهو تشبيه لهدايات الرسل بالنور الحسّي فهو يشبه الشمس مثلاً في ما نراه من الأنوار المحسوسة، وهم مع هزالهم وضعفهم يحاولون إطفاء هذا النور العظيم بالنفخ بأفواههم وكأنّ الشمس يتراءى لهم كشمعة، مع أنّ نوره تعالى لا ينطفئ بأيّ شيء فكيف بالنفخ بالأفواه؟!

وهناك خلاف بين النحاة في اللام في قوله: ﴿لِيُطْفِئُوا﴾ ومرّ بعض الكلام

حوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُم﴾[١] وملخّصه أنّ هذه اللام التي تأتي بعد الأمر أو الإرادة تفيد معنى «أن» بحيث لو أبدلتها بها لم يختلف المعنى، ويتبيّن ذلك بوضوح بملاحظة موارد استعمالها في القرآن الكريم وقياسها بمثيلاتها التي استعملت فيها «أن»، منها هذه الآية مع قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾[٢] ومنها قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[٣] مع قوله: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾[٤] فلا نجد فرقاً بينهما.

﴿وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾. هذه الجملة تردّ على محاولتهم اليائسة فهم يريدون إطفاء نوره تعالى ولكنّه سيتمّ نوره، وأتى بالجملة الإسمية للتأكيد على أنّه واقع لا محالة. والمراد بإتمام النور إبقاؤه وإكماله إلى أن يبلغ حدّ الكمال المطلوب له وهو ما يبيّنه في الآية التالية.

ومعنى ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُون﴾ أنّه تعالى سيتمّ نوره بالرغم من كراهة الكافرين، فإنّهم لا يمكنهم مقابلة ما أراده الله تعالى وهو واضح، وما قيمة هذا الموجود الضعيف الجاهل في مواجهة الكون وخالقه؟! والمراد بـ «الكافرين» كلّ من يكفر بالدين الإلهيّ الذي نزل في زمانه، فيشمل في زمان النزول المشركين وأهل الكتاب وغيرهم ممّن كفر بالرسالة كما يشمل الكفّار من الأمم السالفة، فإنّ هذه الآية عامّة والقصد منها إتمام النور الإلهيّ في النهاية.

---

١. الشورى (٤٢): ١٥.

٢. التوبة (٩): ٣٢.

٣. التوبة (٩): ٥٥.

٤. التوبة (٩): ٨٥.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

هذه الآية تطبيق للآية السابقة، حيث كانت عامّة لجميع الأعصار، وهذه الآية تخصّ الرسالة الأخيرة. والمراد بـ «رسوله» هو الرسول الأكرمﷺ، وتقديم الضمير المنفصل للتأكيد على أنّ الرسالة منه تعالى فهو المتعهّد لنصره على مناوئيه وغلبة دينه على الدين كلّه. والمراد بـ «الدين» المغلوب هنا جنسه.

وهذه الآية تبيّن الحدّ المطلوب في رسالة السماء من حيث تكاملها وانتشارها ولا تبيّن الغرض من نفس الإرسال، فإنّه ليس إلا هداية الإنسان إلى ما يوجب سعادته الأبدية بتحصيل رضا الله تعالى، فاللام في قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ لام العاقبة، أي لبيان ما سيؤول إليه الأمر، وليست للتعليل وبيان سبب الإرسال كما قيل.

والباء في قوله: ﴿بِالْهُدَى﴾ للمصاحبة، أي ارسله ومعه الهدى ودين الحقّ، فيمكن أن يكون المراد بـ «الهدى» القرآن وبـ «الدين» الشريعة أو يكون المراد بـ «الهدى» ما تضمّنه الكتاب وسيرة الرسولﷺ من الآيات والمعاجز التي توجب هداية الناس ومعرفتهم بربّهم، أو يكون المراد هداية الله تعالى له في جميع اُموره ممّا يكون هو الأصلح له ولدينه ولاُمّته. والإضافة في دين الحقّ بيانية، أي الدين الذي هو الحق.

وخصّ الكراهة هنا بالمشركين، مع أنّ الكراهة لا تختصّ بهم، لأنّهم هم المناوئون للرسولﷺ وهم أوّل من يكره انتصاره وغلبته.

و«الظهور»: الغلبة، والظاهر أنّ المراد بها الغلبة الظاهرية، إمّا بأن يكون هذا الدين هو دين الأغلب من الناس فلا يعتنق غيره إلا النادر أو بمعنى بسط القدرة على الكرة الأرضية فيكون أتباع سائر الأديان تحت سلطة هذا الدين. وليس

معناه زوال سائر الأديان، بل ظاهر الآية أنّ سائر الأديان باقية، ولكنّها مغلوبة على أمرها.

ولكنّ كثيراً من المفسّرين فسّروا الظهور بالغلبة في مقام الاحتجاج فقط. والظاهر أنّ الموجب لهذا التأويل استبعادهم غلبة هذا الدين على الكون كلّه، ولكنّ الله على كلّ شيء قدير، وهذا وعده وهو ما بشّر به الرسول ﷺ طيلة حياته، وكذا من بعده من الأئمّة المعصومين عليهم السلام وهو يتحقّق بفضل الله وإرادته على يد المهدي المنتظر ـ سلام الله عليه وعجل الله فرجه ـ رغم أنف الحاقدين.

ويلاحظ أنّ هذه البشارة وردت في موارد عديدة من الكتاب العزيز، ومنها ثلاث آيات بهذا النصّ في حين أنّ الرسول ﷺ لم يفتح مكّة ولم تتجاوز سلطته المدينة وما حولها، فهذا من الأخبار الغيبية التي يشتمل عليها القرآن الكريم.

ومن الناس من يقول: إنّ البشارة في طريقها إلى التحقّق، وأنّ هذا الدين آخذ بالتوسّع والسيطرة على أفكار البشر، وأنّه يزيد تألّقاً يوماً فيوماً بالرغم من مقابلة الأعداء بكلّ الوسائل وبكلّ شراسة. ولكن لا يبدو هذا الكلام دقيقاً، فالعالم من جهة تقبّله للثقافة الإسلامية، بل للثقافة الدينية عموماً في حال كرّ وفرّ والتوجّه الديني وأن تحسّن في بعض الأزمنة، إلا أنّه سرعان ما يتقهقر، وخصوصاً في هذا العصر حيث ازدادت المعوّقات عن فهم الدين وتقبّله وأصبح الإنسان مشغولاً لاهياً بالتكنولوجيا بعيداً عن إدراك الحقائق الغيبية ومعرفة الله تعالى، فضلاً عن تقبّل الدين الإسلامي، فالصحيح كما ذكرنا أنّ البشارة المذكورة تنظر إلى الغلبة النهائية التي تحصل بظهور الإمام المهدي عليه السلام.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ
تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ
طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ
قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ
مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت
طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ
فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، يعود السياق إلى مخاطبة الذين آمنوا وإلى حثّهم على الجهاد في سبيل الله تعالى. والاستفهام للعرض كأنّه يريد أن يعرض عليهم متاعاً ينفعهم ويسمي ما يعرضه عليهم تجارة، فهم يدفعون ثمناً ويكسبون به ربحاً عظيماً لا يقدّر بقدر. والتنكير للتعظيم. وقوله: ﴿تُنْجِيكُمْ﴾ جملة وصفية للتجارة، فهي مضافاً إلى النفع العظيم تنجيهم من عذاب أليم. والعرض من الله تعالى، فما أعظم النعمة في نفس الخطاب فضلاً عمّا وعدهم به لو كانوا يعلمون؟!

﴿تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾. جملة استينافية تفيد الأمر وتفسّر التجارة المذكورة. قيل حيث كان الخطاب للذين آمنوا فالأمر بالإيمان قبل الجهاد بمعنى الجمع بينهما؛ لأنّ الإيمان حاصل بالفرض. وهو غير صحيح، بل المراد بالإيمان المفيد في التجارة مرحلة أُخرى من الإيمان، فلا يفيد

في التجارة مجرّد التشهّد بالشهادتين، وتسجيل الاسم في ديوان المؤمنين، بل الثمن اللازم للجنّة الإيمان الكامل والشامل والعميق الذي يستلزم التضحية بالنفس والنفيس بكلّ رحابة صدر واطمئنان. ثمّ لا يكفي الإيمان بالله تعالى، بل لا بدّ من الإيمان برسوله وهو التسليم لأمره بكلّ خضوع بحيث لا يشعر الإنسان بحرج في صدره من امتثال أوامره والتسليم لها مهما كانت وفي أيّ مجال، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾.[1]

والجهاد والمجاهدة استفراغ الوسع في محاربة العدوّ وهوى النفس. وأصله من الجهد وهو الطاقة، فكأنّه يفرغ كلّ طاقته في بذل المال والنفس، فيبذل كلّ ما لديه من مال أو جلّه بحيث لا يبقى له إلا القليل ويبذل نفسه بمعنى أنّه يوقعها في الأخطار ويصارع الموت ولا يهتمّ بنفسه في هذا السبيل ولا يخاف القتل، وهذا في غاية الصعوبة. وكون الجهاد في سبيل الله تعالى يحدّد النيّة والهدف، فهناك من يبذل نفسه وماله، ولكن في سبيل الوطن أو الدفاع عن النفس أو الأهل أو العشيرة ونحو ذلك، فهذا وإن كان مطلوباً، بل ربما يكون واجباً إلا أنّه خارج عن حدود هذه التجارة وليس ثمناً للجنّة إن لم يقصد به التقرّب إلى الله تعالى.

﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. هناك بحث وخلاف في معنى هذه الشرطية ونظائرها. وأحسن ما قيل في ذلك: أنّ الجزاء هو العلم بالخيرية لا نفسها، فجملة ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ تامّة، وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ جملة شرطية مستقلّة، ومفادها:

---

١. النساء (٤): ٦٥.

إن كنتم تعلمون ذلك لكنتم تعلمون أنّ الجهاد خير لكم.

ولا شكّ أنّ الجهاد خير للإنسان إن كان مؤمناً بالله واليوم الآخر؛ لأنّ البقاء في الدنيا للمؤمن لا قيمة له حتّى لو لم يكن هناك ما يدعو إلى الجهاد، فهو يعلم أنّ الحياة الدنيا إنّما هي مزرعة، والفائدة منها ما يحصده ويحصل عليه يوم القيامة، فكلّ ما يصرفه في سبيل عمران الدنيا وإطالة بقائه فيها والتنعّم بنعمها خسارة لا يعرف حدّها إلا بعد الموت، وإنّما يربح في ما يصرفه في هذه الحياة من مال وجاه وطاقة جسمية للحصول على الربح والغنيمة في الحياة الآخرة. وهذا الإيمان هو المراد بالعلم في هذه الجملة، فيكون محصّلها أنّكم إن علمتم وآمنتم بأنّ الآخرة هي الحياة وأنّ الدنيا لا قيمة لها لولا الوصول بالعمل فيها إلى ثواب الآخرة لعلمتم أنّ الجهاد خير لكم مطلقاً أو خير من البقاء في الدنيا.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ جزاء شرط محذوف تدلّ عليه الجملة السابقة، أي إن آمنتم وجاهدتم يغفر لكم، و«غفران الذنوب»: سترها. ولا شكّ أنّ ستر الذنوب هو الشرط الأوّل للسعادة والتنعّم بالجنّة في تلك الحياة، فلولاه لكان الإنسان ناكس الرأس أمام من يعرفه وإن فاز بالجنّة، بل الظاهر أنّ الغفران يشمل الستر عن نفسه أيضاً، فإنّ من أعظم العقوبات هو تذكّر الأعمال السيّئة.

ولعلّ ذكر «المساكن الطيّبة» بمناسبة أنّ المجاهد ترك بيته ومسكنه وحضر ميادين القتال. و«عَدْن» بمعنى الثبات والاستقرار، ومنه المعدن فالمعنى أنّ تلك الجنّات محلّ استقرار وثبات لا يخرجون منها ولا يبغون عنها حولاً. والفوز هو الظفر بما هو المطلوب في أيّ نشاط يمارسه الإنسان، فقد يفوز الإنسان في

الحرب أو في مسابقة أو في تجارة، وأعظم ما يفوز به هو الجنّة، ولذلك عبّر عن ذلك بما يدلّ على الحصر.

﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي ونعمة أُخرى تحبّونها، و﴿تُحِبُّونَهَا﴾ وصف آخر للنعمة المقدّرة. وفي هذا التوصيف تعريض؛ لأنّ المفروض أنّ المؤمن يرجّح الآخرة على الدنيا، ولا يهتمّ بالنعم العاجلة، ولكنّ هذه طبيعة الإنسان العجول، مضافاً إلى شكّ خفيف يختلج القلوب فتبحث عمّا يوجب طمأنينتها واستقرار إيمانها.

وتوصيف الفتح بالقريب؛ لأنّ الفتح البعيد حاصل لا محالة، ولكنّهم يتلهّفون إلى فتح قريب على الأعداء الألدّاء، وهم مشركو مكّة، فوعدهم الله تعالى بذلك، وهو من الأخبار الغيبية التي تحقّقت في وقت قريب، كما وعده الله تعالى حيث فتحت مكّة وانكسرت شوكة الأعداء وانتشر الدين في الجزيرة العربية ولله الحمد. ثمّ أمر الرسول ﷺ بأن يبشر المؤمنين بما مرّ ذكره من البشارات.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ﴾، لم يقل: «انصروا الله»، بل قال: كونوا أنصاره، بحيث تكون نصرتكم لله تعالى هي السمة التي تتّسمون بها، ولذلك شبّه هذا العنوان بحواريي عيسى عليه السلام. وطلب النصرة ممّا تكرّر في القرآن الكريم مع التأكيد على أنّ النصر من الله تعالى، فالمراد بالنصرة هنا نصرة الرسول ﷺ ونصرة دينه، وهو أمر يعود بالنفع إلى الإنسان نفسه، والله تعالى غنيّ عن عباده، وهو واضح، إلا أنّ في هذا التعبير تشجيع للمجاهدين في سبيل الله تعالى وتشريفهم بوسام شرف لا يضاهيه شيء.

﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ﴾،

«ما» في ﴿كَمَا قَالَ﴾ مصدرية، أي كقول عيسى عليه السلام، والتشبيه ليس على ظاهره، بل المراد تشبيه كونهم أنصار الله بكون الحواريين أنصاره، وهذا نظير تشبيه الحياة الدنيا بالمطر في موارد عديدة، كقوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾[1]، والغرض أنّ المطلوب من المؤمنين أن يكونوا كالحواريين، حيث قال لهم عيسى عليه السلام: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ﴾ فقالوا: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ﴾، فأصبحت هذه سمتهم يعرفون بها، بل أرسلهم رسلاً في البلدان على ما قيل.

والحواريون أنصار سيّدنا المسيح عليه السلام، واختلف في أصله اللغوي، فقيل: إنّ الأصل فيه التحوير، أي تبييض الثوب، وأنّ القوم كانوا قصّارين، أي عملهم غسل الثياب وتبييضها وهو أمر مستبعد ولا دليل عليه.[2]

وحكي عن ابن الأعرابي أنّ الحواريّ: الناصح وأصله الشيء الخالص، وكلّ شيء خلُص لونه فهو حواريّ والحواريّات من النساء النقيات الألوان والجلود، وعن الزجّاج أنّ الحواريّون خلصاء الأنبياء وصفوتهم. وقال: ما معناه أنّ تأويله في اللغة الذين أُخلصوا ونُقُّوا من كلّ عيب، وكذلك الحُوّار من الدقيق، وأنّ أصل التحوير الترجيع، فكأنّ هذا الإنسان روجع في اختياره مرّة بعد أُخرى، فوجد نقيّاً من العيوب.[3] ولا بأس بما قال.

ومثل هذا الحوار ورد في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ

---

١. الكهف (١٨): ٤٥.

٢. راجع: مجمع البيان في تفسير القرآن ٢ ـ ١: ٧٥٦.

٣. راجع: تهذيب اللغة ٥: ١٤٨.

**أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾**،[١] أي فلمّا أحسّ أنّ بني إسرائيل معظمهم لا يؤمنون به طلب من الحواريين وهم خواصّ أصحابه أن يكونوا أنصاره في طريقه إلى الله تعالى، أي في طريق أداء رسالته التي أُمر بإيصالها إلى الخلق. ويتبيّن من ذلك أنّ المراد بقوله تعالى هنا: ﴿**كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ**﴾، أي أنصار الرسول ﷺ في أداء رسالته ونشرها.

ويلاحظ الفرق بين طلب السيّد المسيح عليه السلام وجواب الحواريين، والعبارة منقولة بنفس الصيغة هنا، وفي سورة آل عمران، فهو عليه السلام طلب منهم أن يكونوا أنصاره إلى الله، وهم أجابوه ﴿**نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ**﴾، ولعلّ السبب أنّه عليه السلام طلب منهم مساعدته في نشر الدعوة، فيكونون أنصاره في الواقع، إلا أنّه ربط هذه النصرة بالله تعالى ليثير فيهم الرغبة إلى العمل وتمكن فعلاً من ذلك، فأجابوه بأنّهم أنصار الله تعالى في أيّ مهمّة سواء في نشر دعوتك أو أيّ أمر آخر تستدعيه نصرة الله تعالى، أي نصرة دينه.

﴿**فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ**﴾، التأييد: التقوية. و﴿**ظَاهِرِينَ**﴾، أي غالبين. ويبدو من السياق أنّ الحواريين بعد قبولهم دعوة عيسى عليه السلام انتشروا في البلدان ونشروا دعوته، فآمنت طائفة وكفرت طائفة وتحوّل الأمر إلى صراع بين الطائفتين والله تعالى نصر المؤمنين به وأيّدهم فغلبوا على كفرة بني إسرائيل، وهم المراد بعدوّهم. والعدوّ يطلق على المفرد والجمع.

والظاهر أنّ المراد غلبة أتباعه عليه السلام على اليهود طيلة التاريخ واليهود إلى يومنا

---

١. آل عمران (٣): ٥٢.

هذا من الذين كفروا بعيسى عليه السلام وإلا لكانوا يتبعونه فإنّه صاحب الشريعة الجديدة، وهذا يعلم بوضوح بملاحظة آيات سورة آل عمران في هذا الموضوع حيث قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ * إذ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[1] والمراد بـ«الذين مكروا» الذين كفروا به من بني إسرائيل، وقوله تعالى: ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يدلّ على أنّ المراد بغلبة أتباعه هذه الغلبة المستمرّة، فإنّ أتباع المسيح عليه السلام ولو بالاسم والظاهر أكثر بكثير وأقوى من اليهود الكافرين برسالته.

وفي ذلك إشارة إلى أنّ أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا آمنوا به إيماناً كاملاً وأطاعوا أمره وكانوا ثابتين في نصرته لا في خصوص ميادين الجهاد، بل في سبيل نشر الدعوة، فإنّ الله تعالى سينصرهم على أعدائهم. وقد تحقّق ذلك بحمد الله وفضله فآزره صلى الله عليه وآله وسلم جمع كثير ممّن اتبعوه ونشروا الدعوة وأبلوا في ذلك بلاءاً حسناً وعلى رأسهم أمير المؤمنين عليه السلام فنصرهم الله تعالى على أعدائهم ومحقهم وأخزاهم.

والحمد لله أوّلاً وآخراً والصلاة والسلام على رسوله الأمين وآله الميامين.

---

١. آل عمران (٣): ٥٤ ـ ٥٥.

# تفسير سورة الجمعة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ
ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾

سورة الجمعة مدنيّة، والغرض الأساس منها الحثّ على الحضور في صلاة الجمعة والاهتمام بها ومقدّمة لذلك يمنّ على المؤمنين بإرسال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إليهم ويندّد بمن كانوا قبلهم ولم يعرفوا قدر الرسول والرسالة، وما آتاهم من العلم ليكون حافزاً للمؤمنين على اكتساب العلم الديني والعمل به، وحمله إلى الأجيال الآتية بأمانة وصدق.

﴿يُسَبِّحُ للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمُلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾. مرّ تفسير الآية في سورة الحديد، وقلنا بأنّ بعض المسبّحات ابتدأت بالمضارع، وبعضها بالماضي، وأنّ الأوّل يدلّ على استمرار التسبيح الكوني ما دامت السماوات

والأرض، والثاني على قدمه بقدم الكون وأنّه ليس أمراً جديداً.

وزاد في الآية هنا التوصيف بـ ﴿الْـمَلِكِ الْقُدُّوسِ﴾، ومرّ أيضاً تفسيرهما في آخر سورة الحشر، وخلاصته أنّ الملك ـ بضمّ الميم ـ وهو السلطة قد تكون اعتبارية متقوّمة بالقانون الوضعي، وقد تكون حقيقية لا تتقوّم باعتبار معتبر، بمعنى أنّه بإرادته يتحكّم في الأشياء، وهذه السلطة موجودة في البشر أيضاً بصورة محدودة، والسلطة المطلقة على الكون لله تعالى فلا يمكن لشيء أن يتخلّف عن إرادته، بل الأشياء كلّها متعلّقة في وجودها وكيانها بإرادته تعالى.

و«القدّوس» صيغة المبالغة من القداسة، أي النزاهة فهو تعالى منزّه عن كلّ نقص وحاجة. ولعلّ الوجه في ذكره بعد «الملك» الدلالة على أنّ عموم سلطته وقدرته لا يستلزم أن يصدر منه تعالى ما ينافي العدل والحكمة لقداسته ونزاهته عن الظلم والجهل.

كما أنّ تعقيب «العزيز» بـ«الحكيم» لعلّه لدفع ما ربما يتبادر إلى الذهن من معنى العزّة والغلبة المطلقة أنّه إذا كان كذلك فلا مانع من أن يخلق شيئاً عبثاً لا فائدة فيه ولا غرض له، فلا مانع من أن يكون خلق السماوات والأرض عبثاً كما يتوهّمه المنكرون للخالق، ومن ذلك خلق الإنسان، فالقائل بالخالق أيضاً يمكن أن يصل إلى هذه النتيجة المحزنة أنّ الموت هو نهاية كلّ شيء لنا، فليس بعده حساب ولا جزاء ولا لذّة ولا شقاء، فالرابح من تلذّذ في هذه الحياة وتنعّم بها بمنتهى قوّته وقدرته، والخاسر من ترك هذه الحياة متأسّفاً فقيراً معدماً لا يملك شيئاً يتنعّم به، فالتوصيف بالحكيم يردّ هذا التوهّم.

و«الحكمة» المنع الذاتي، فالله تعالى وإن لم يمنع من نفوذ إرادته شيء ولا

يمتنع منه شيء إلا أنّه بذاته يمتنع من أن يخلق شيئاً عبثاً فهو حكيم بالذات لا يفعل إلا ما له هدف صحيح وإن خفي على الناس وجه الحكمة في كثير ممّا خلق.

ولعلّ وجه تقديم التسبيح مع ذكر هذه الصفات في هذه السورة هو أنّه لمّا أُريد بها الحثّ على الحضور في صلاة الجمعة وتعلّم أحكام الله تعالى والمعارف الإلهيّة مقدّمة لنشرها وتبليغ الدعوة الإسلامية لزم قبل ذلك التنبيه على تنزيهه تعالى وغناه عن كلّ شيء ليعلم المؤمنون أنّ ما يُدعون إليه إنّما هو لمصلحتهم في الدنيا والآخرة.

﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ**﴾. لعلّ تقديم الضمير الراجع إليه تعالى وتوصيفه بأنّه هو الذي بعث الرسول ﷺ للتأكيد على أنه أمر مقصود بالذات، وليس أمراً اتفاقياً وإن كان كلّ ما يحدث كذلك إلا أنّ الفهم الساذج ربما يتصوّر خلافه، بل سمعنا من بعض من يدّعون الثقافة الدينية ويتبجحون بالعرفان أنّ الرسل ممّن حالفهم الحظّ فأصبحوا رسلاً!

والمراد بـ﴿**الْأُمِّيِّينَ**﴾ العرب وإنّما وصفوا بذلك؛ لأنّ الأمّية، أي عدم القراءة والكتابة كانت سائدة فيهم ونادراً ما كان أحد منهم يجيدهما. والأمّية نسبة إلى الأُمّ باعتبار أنّ الأمّي باقٍ على حالته الأصلية كما ولدته أُمّه. والبعث فيهم لا يستلزم أن تكون الرسالة خاصّة بهم، ولكنّ الكلام يتضمّن منّة على العرب بأنّ الله اختارهم ليبعث رسول البشرية فيهم ومنهم.

وقيل: إنّ الأمّي نسبة إلى الأمّة وأنّ توصيف العرب بذلك من جهة أنّ اليهود كانوا يسمّونهم بهذا الاسم، واستند في ذلك إلى قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ**

عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾[1] والسرّ في هذا التعبير أنّ اليهود يرون أنفسهم شعب الله المختار، وكلّ من كان غيرهم فهو من سائر الأمم، فكانوا يعبّرون عن غيرهم بالأُمّيين بهذا الاعتبار. ونظير ذلك ما قاله العرب في غيرهم من الأمم بعد أن تسلّطوا على البلاد بأنّهم شعوبيون، لأنّهم لا يقبلون تفضيل العرب على غيرهم!

وربما يناسب هذا التفسير سياق الآيات حيث تتعرّض لحال اليهود وهم كانوا يتوقّعون أن يكون الرسول الموعود منهم لا من العرب، أي الأُمّيين فتحدّاهم القرآن بهذه الآية، وبأنّ الله تعالى أرغمهم وبعث الرسول الموعود من الأُمّيين.

ومن جهة أُخرى ورد في القرآن توصيف النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالأُمّي في آيتين، والخطاب فيهما أيضاً لأهل الكتاب، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾،[2] وكذلك في الآية التي تليها.

ولكن هذا التفسير خلاف ظاهر لفظ الأمّي خصوصاً بملاحظة قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾[3] والضمير يعود إلى بني إسرائيل المذكورين في الآيات السابقة، فالظاهر أنّ المراد به هو المعنى المعروف، أي الذي لا يقرأ ولا يكتب. والظاهر أنّه هو المراد أيضاً في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾[4] وإنّما كان اليهود يصفون غيرهم من الأمم بالأُمّية؛ لأنّهم هم أهل الكتاب فحسب، فالأُمّية عندهم أيضاً بمعنى الجهل.

وقد ورد تفسير الأُمّيين بأنّهم ليسوا من أهل الكتاب في «مفردات الراغب»

---

١. آل عمران (٣): ٧٥.
٢. الأعراف (٧): ١٥٧.
٣. البقرة (٢): ٧٨.
٤. آل عمران (٣): ٧٥.

نقلاً عن الفراء،[١] كما ورد أيضاً في بعض روايات أئمّة أهل البيت عليهم السلام ، ففي رواية في «تفسير القمي» عن أبي عبد الله عليه السلام قال: **«كانوا يكتبون ولكن لم يكن معهم كتاب من عند الله ولا بعث إليهم رسول فنسبهم الله إلى الأُمّيين».**[٢]

ثمّ إنّ الآية تمنّ على العرب بأنّ الرسول المبعوث فيهم منهم بمعنى أنّه من قومهم، أي العرب ولم يأتهم من بلد آخر، أو أنّه أيضاً أُمّي مثلهم، فيكون إشارة إلى وجه الإعجاز في رسالته. والرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان لا يقرأ ولا يكتب قبل النبوّة كما قال تعالى: **﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾**.[٣]

وهذه الآية بنفسها تشير إلى أنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان يعلم التلاوة والكتابة بعد النبوّة، بل يعلم كلّ شيء بفضل ربّه، وإنّما كان لا يعلم قبل الوحي لقوله: **﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾**، وهذا من معجزاته ودلائل نبوّته، ولذلك قال: **﴿إذاً لارتَابَ المُبطِلُونَ﴾**، أي لو كنت تكتب وتقرأ قبل النبوّة لارتابوا. ومعناه أنّ هذا دليل واضح لا يبقي مجالاً للريب في قلوبهم فمن يشكّك في نبوّته بعد ذلك فإنّما هو مبطل معاند للحقّ، وما ورد في بعض الكتب من أنّه صلى الله عليه وآله وسلم بقي على أُمّيّته خطأ محض ومخالف للقرآن الكريم.

**﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾**. «تلاه»، أي تبعه وتطلق التلاوة على القراءة باعتبار أنّ القارئ يتبع المقروّ جملة جملة، قال ابن دريد في «الجمهرة»: «تلوت القرآن إذا قرأته كأنّك اتّبعت آية في إثر آية».[٤] والمراد بـ «الآيات» القرآن الكريم. والآيات جمع آية وهي بمعنى العلامة والشخص

---

١. راجع: مفردات ألفاظ القرآن: ٨٧.

٢. تفسير القمي ٢ : ٣٦٦.

٣. العنكبوت (٢٩): ٤٨.

٤. جمهرة اللغة ١: ٤١٠.

والجماعة، فقيل: إنّ إطلاق الآية على كلّ آية من القرآن بلحاظ أنّه علامة على قدرته تعالى، وقيل: إنّه بلحاظ كونها مجموعة من الحروف.

وهذه استجابة لدعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في حقّ من كان يسكن تلك المنطقة، قال تعالى عن لسانهما: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾.[1]

و«التزكية» بمعنيين: التنمية والتطهير. والظاهر أنّ المراد بها هنا التطهير من الشرك ومن المعاصي والآثام والقبائح والجرائم العظيمة التي انتشرت بين تلك الأُمّة المتخلّفة من وأد البنات وقتل الأولاد خوفاً من الفقر، والاكتساب بالغارات ونهب أموال الآخرين، والاعتداء على النساء والضعفاء ونحوها وهي معروفة من العرب الجاهلي. والقضاء على هذه الصفات والمنكرات معجزة كبرى ظهرت على يد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ الله فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ الله مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ﴾.[2]

وأمّا «الكتاب» فالظاهر أنّ المراد به القرآن أيضاً، وتعليم الكتاب يختلف عن تلاوته، وليس تكراراً كما يتوهّم، فإنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم له وظيفتان بالنسبة للقرآن؛ تلاوته أوّلاً ثمّ تفسيره وبيان أحكامه ومعارفه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[3] ويمكن أن يكون المراد بالكتاب مجموعة الأحكام

---

١. البقرة (٢): ١٢٩.

٢. النساء (٤): ٩٤.

٣. النحل (١٦): ٤٤.

والشريعة، سواء كانت في القرآن أو لم تكن، والأصل في الكتاب كلّ مجموعة من المعارف. و«كتب» بمعنى جمع والأوّل أولى.

وأمّا تعليم الحكمة فلا يبعد أن يكون المراد به تعليمهﷺ إيّاهم ـ بالقول والعمل ـ الأخلاق الفاضلة التي تجنّبهم ارتكاب ما لا يليق بالمؤمن؛ لأنّ الحكمة في الأصل المنع والإنسان الحكيم من يحمل في طيات نفسه ما يمنعه من السفاهة، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾[1] ويشير بذلك إلى ما سبق في مجموعة من الآيات من الأمر والنهي وابتدأها بقوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾،[2] فالقرآن يشتمل على الحكمة، ولكن لا تنحصر مواعظ الرسولﷺ وحكمه في ما ورد في القرآن، بل أكثر تعلّم الناس منه كان بمتابعة سيرته الطاهرة.

﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾. «إن» مخفّفة من «إنّ» واسمه ضمير الشأن بدليل ورود اللام على خبر كان، وتدعى هذه اللام باللام الفارقة، لأنّها علامة تفرّق وتميّز بين «إن» المخفّفة و«إن» النافية، وهي لام القسم التي ترد على خبر «إنّ» غالباً، ففيه تأكيد لمضمون الكلام، والمراد أنّهم كانوا قبل بعث الرسولﷺ في غاية الضلال وهو الضلال المبين، أي الواضح بحيث لا يشكّون فيه بأنفسهم أيضاً، ولكنّهم لعدم الاعتقاد بالمعاد لا يرتدعون. وأكبر ضلالهم الشرك وعبادة الأوثان وعادات الجاهلية.

﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ اختلفوا في ما عطف عليه قوله: ﴿وَآخَرِينَ﴾، وفي

---

١. الإسراء (١٧): ٣٩.

٢. الإسراء (١٧): ٢٣.

مرجع الضمير في ﴿مِنْهُمْ﴾. وأقرب ما قيل: إنّه عطف على الضمير في ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾، أي ويعلّم آخرين وإن كان تعليمه إيّاهم بالواسطة، وأنّ الضمير في قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ يعود إلى ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ المعلوم من السياق، وإن لم يذكر صريحاً. ويفيد أنّ من يأتي بعد الصحابة من المؤمنين هم منهم؛ لأنّ الإيمان يجمعهم وهو أقوى مناطاً للجمع من القومية وغيرها. فالظاهر أنّ المراد بهم من يأتي بعدهم ممّن يؤمن بالرسالة ويتبع شريعة الإسلام من العرب وغيرهم. و «لمّا» لنفي ما يتوقّع تحقّقه، أي سيلحقون بهم، ولكنّهم لم يلحقوا حتّى الآن وهو من الأخبار الغيبية.

وقيل: المراد بهم غير العرب من المؤمنين بملاحظة رواية وردت في «صحيح البخاري» و«مسلم» عن أبي هريرة قال: «كنّا جلوساً عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة، ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾، قال: قلت: من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعه حتّى سأل ثلاثاً وفينا سلمان الفارسي، وضع رسول الله ﷺ يده على سلمان، ثمّ قال: **«لو كان الإيمان عند الثريّا لناله رجال أو رجل من هؤلاء»**.[1]

ولو صحّت الرواية فهي من باب التطبيق، وهناك روايات عديدة في هذا الموضوع، وردت في تفسير آيات أُخرى أيضاً، كقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾[2] وقوله تعالى: ﴿**وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا**

---

١. صحيح البخاري ٦: ١٥١، باب وآخرين منهم... (على ما في المكتبة الشاملة).

٢. المائدة (٥): ٥٤.

﴿أَمْثَالَكُمْ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾[٣]، ولكنّها في الغالب عن طرق العامّة.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. هذا التعقيب يرتبط بأصل البعث المذكور في الآية السابقة وهو نفس التعقيب الوارد في دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام المذكور في سورة البقرة[٤]، ولعلّ الوجه فيه أنّه الغالب القاهر فلا يمتنع من إرادته شيء، فيبعث من يشاء إلى من يشاء وهو في نفس الوقت حكيم فلا يفعل إلا ما هو مقتضى الحكمة والمصلحة.

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾. «الفضل»: الزيادة وكلّ ما منحته أحداً من دون استحقاق فهو فضل منك وزيادة، وحيث إنّ الله تعالى لا يستحقّ عليه أحد شيئاً فكلّ ما يؤتيه أحداً فهو فضل. وقوله: ﴿ذَلِكَ﴾، إشارة إلى النبوّة التي آتاها الله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أو الأمرين معاً، أي بعث الرسول والبعث في الأمّيين فهو فضل عليه وعليهم. وهو ﴿ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾؛ لأنّ كلّ ما في الكون من نعم فضل منه تعالى.

وفي الآية تقريع للمشركين الذين كانوا يحسدون الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حيث آتاه الله النبوّة وهم يعتبرون غيره أولى منه بذلك، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا

---

١. محمّد (٤٧): ٣٨.
٢. النساء (٤): ١٣٣.
٣. الشعراء (٢٦): ١٩٨ ـ ١٩٩.
٤. البقرة (٢): ١٢٩.

﴿الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾،[١] ولليهود أيضاً حيث كانوا يتوقّعون أن تكون النبوّة فيهم، ولذلك تجمعوا في جزيرة العرب ليكون منهم الرسول المبشّر به في كتبهم، ولعلّ كلّ قبيلة منهم كانت تتوقّع أن يكون الرسول منها، ولمّا رأوا أنّه من العرب كبر عليهم ذلك وأنكروا البشارة والرسالة، فالآية الكريمة تنبّههم أنّ الرسالة فضل من الله تعالى يؤتيه من يشاء.

---

١. الزخرف (٤٣): ٣١.

مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ
ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾
وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ
ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾، تتعرّض الآية لما جرى على بني إسرائيل حيث أنعم الله تعالى عليهم وأرسل إليهم موسى عليه السلام وأنزل لهم التوراة وحمّلهم كتابه وشريعته وأحكامه وجعل منهم الرسل الذين بلّغوا سائر البشر أمانته ونشروا دعوته، ولكنّ بني إسرائيل طغوا وأخذتهم الحميّة القومية واستأثروا بما لديهم من العلم وادّعوا أنّهم هم شعب الله المختار ولم يعملوا بما أمرهم الله تعالى في شريعته، فسلب الله منهم هذه النعمة.

وشبّههم هنا بالحمار الذي يحمل كتباً وهو لا يعلم بما فيها وهؤلاء يعلمون، ولكنّهم حيث لا يعملون بما فيها فكأنّهم لا يعلمون. وهذا المثل لا يختصّ بهم، فكلّ من يحمل علماً من الله تعالى، ولا يعمل به فمثله كمثل الحمار حامل الكتب حيث لا يتأثّر بها وبما فيها.

و«الأسفار» جمع «سفر» بكسر السين، أي الكتاب، سمّي به لأنّه يسفر عن الحقائق. والإسفار: الكشف. وهذا التمثيل غاية في التوبيخ والذمّ وهو في نفس الوقت واضح الانطباق، بل شأن حامل العلم الذي لا يعمل به دون

شأن الحمار لأنّه لا يعلم واقعاً.

ومعنى أنّهم حمّلوا التوراة، أي حمّلهم الله تعالى كتابه حيث أرسله إليهم وجعلهم حاملي رسالته إلى سائر الأُمم والأجيال الآتية. وأتى بالفعل مبنيّاً للمجهول تفادياً عن ذكر الاسم الجليل الذي يوجب لهم ميزة وارتباطاً به تعالى.

ومعنى عدم حملهم لها تركهم للعمل بما فيها وفسقهم، وأهمّ من كلّ ذلك خيانتهم في تبليغ كلّ ما فيها وإخفاؤهم للبشارات التي تنطبق على الرسولﷺ حقداً وحسداً.

و«ثمّ» للتراخي، أي بعد أن تحملوا الكتاب لتبليغه والعمل به لم يحملوه ولم يعملوا به.

والتعرّض لحال بني إسرائيل وموقفهم تجاه أحكام الله تعالى وشريعته وكتابه يترتّب عليه أمران:

الأوّل: التنبيه على أنّ بعث الرسول الأمّي في الأُمّيّين ممّا دلّت عليه الكتب السابقة، وأنّ البشارة بهﷺ وردت في التوراة، ولكنّ الذين حمّلوها لم يحملوها، بل خانوا الأمانة.

والثاني: تحذير المؤمنين من الوقوع في نفس الطريق الخاطئ. والغرض إتمام الحجّة عليهم، ولعلّ السبب في اختيار تلك المرحلة للتنبيه هو ما تعرّض له في آخر السورة من أنّ بعضهم ترك الرسولﷺ قائماً يخطب في الناس طلباً للّهو والتجارة، فإنّ ذلك من بوادر عدم الاهتمام بشأن الدين وحقائق الشريعة، فكان من اللازم قبل التنبيه عليه ذكر المثل من بني إسرائيل، واتّخاذ هذا الموقف الصريح والشديد في مواجهة استخفافهم بالدين ليكون حافزاً قويّاً للمؤمنين

للاحتفاظ بالأمانة التي حمّلهم الله تعالى ليبلّغوها سائر الأُمم والأجيال.

﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ المخصوص بالذمّ محذوف، أي بئس هذا المثل وهو تشبيههم بالحمار الحامل للأسفار مثلهم أو بئست الصفة صفتهم و﴿مَثَلُ الْقَوْمِ﴾ فاعل ﴿بِئْسَ﴾. وتوصيف القوم بأنّهم كذّبوا بآيات الله بمنزلة التعليل، فتكذيبهم بآياته تعالى هو السبب في استحقاقهم لهذا التمثيل.

والظاهر أنّ المراد بـ ﴿آيَاتِ اللهِ﴾ ما وجدوه من صفات الرسول ﷺ في كتبهم فكذّبوا بها ولم يؤمنوا بالرسالة حقداً وحسداً. ويمكن أن يكون المراد بها المعجزات التي تدلّ على الرسالة أو آيات القرآن بعد ما تبيّن لهم أنّه الحقّ.

و«الباء» لتأكيد التعدية واللصوق على ما قيل، فإنّ التكذيب يتعدّي بنفسه، ويمكن أن يقال: إنّ التكذيب إذا تعدّى إلى الشخص تعدّى بنفسه، فكأنّه بمعنى اعتباره كاذباً، وإذا تعدّى بما رواه أو حكاه تعدّى بالباء، فكأنّها للسببية، أي أنّه يكذّب القائل بسبب هذا الكلام، ويلاحظ أنّ التكذيب مع كثرة تكراره في القرآن لم يتعدّ إلى القائل بالباء، ولم يتعدّ إلى الكلام بدونها.

والجملة الأخيرة بمنزلة التعليل لما سبق، فإنّهم حُرموا من هداية الله تعالى وطُبع على قلوبهم، وذلك بسبب ظلمهم وإنكارهم للحقّ الواضح الذي وجدوه في صفات الرسول ﷺ. ويكفي الإنسان ضلالاً أن لا يهديه الله: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾، فهذه الجملة ترفع الاستغراب من وصول الإنسان إلى هذه المرحلة من السقوط بحيث يكون كالأنعام، بل أضلّ سبيلاً.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ للهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ

﴿صَادِقِينَ﴾ أمر الرسول ﷺ أن يخاطبهم بذلك ولم يخاطبهم مباشرة تأكيداً على نفي ما زعموه من أنّهم أولياؤه تعالى، فهم بعيدون عن عنايته بحيث لا يستحقّون الخطاب.

وقد تكرّر في القرآن الكريم ذكر ﴿الَّذِينَ هَادُوا﴾، فهو إمّا بمعنى أنّهم اتّخذوا اليهودية ديناً أومن الهَوْد بمعنى الرجوع والتوبة، لأنّهم تابوا من عبادة العجل، قال تعالى في حكاية دعاء موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾[1]، والمراد بهم هنا الذين اتّبعوا دين اليهودية المحرّفة.

وقد ورد في غير هذه الآية أيضاً دعواهم الاختصاص بالله تعالى بنحو من الأنحاء، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً﴾[3] وبمعناه قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ﴾.[4]

وورد مثل هذه الدعوى من اليهود والنصارى معاً كقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾،[5] وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾،[6] وغير ذلك ممّا يدلّ على أنّهم كانوا

---

١. الأعراف (٧): ١٥٦.
٢. آل عمران (٣): ٧٥.
٣. البقرة (٢): ٨٠.
٤. آل عمران (٣): ٢٤.
٥. المائدة (٥): ١٨.
٦. البقرة (٢): ١١١.

يدّعون ميزة على سائر البشر، وهم إلى يومنا هذا يزعمون أنّهم شعب الله المختار. وقوله تعالى: ﴿مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾، أي أنّ هذه الولاية لا تشمل أحداً من الناس غيرهم.

وهذه الآية تتحدّاهم بأنّ هذه الدعوى لو صحّت وأنتم تعتقدون بذلك وواثقون من اختصاصكم بهذه الولاية، فينبغي أن تتمنّوا الموت لأنّه موعد الإنسان للقائه بربّه، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ﴾[١] وفي دعاء أبي حمزة: **«اللهمّ حبّب إليّ لقاءك وأحبب لقائي واجعل لي في لقائك الراحة والفرج والكرامة»**[٢] وفي زيارة أمين الله: **«اللهم فاجعل نفسي مطمئنة بقدرك... مشتاقة إلى فرحة لقائك»**.[٣]

وهذا الأمر لا ينافي ما ورد من النهي عن تمنّي الموت؛ إذ يمكن أن يكون المراد بموارد النهي ما إذا كان تمنّى الموت تهرباً من مصائب الدنيا ومصاعبها، ولا ينبغي للمؤمن أن يتمنّى الموت لذلك، وأمّا تمنيه شوقاً إلى لقاء الله تعالى فهو غاية الكمال. والمراد باللقاء تخلّص الروح الإنساني من حصار الجسم ومحبس الطبيعة واتّصاله بحقيقة الكون اتّصالاً مباشراً فيدرك حينئذٍ بكلّ وجوده كلّ حقائق الكون، وإنّما عبّر عن هذا الإدراك باللقاء؛ لأنّه ليس علماً من قبيل التصوّر والتصديق، بل هو علم حضوري نظير علم الإنسان بنفسه.

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ شرط جزاؤه محذوف يدلّ عليه الطلب السابق، أي

---

١. العنكبوت (٢٩): ٥.

٢. مصباح المتهجد و سلاح المتعبد ٢: ٥٩٦.

٣. مصباح المتهجد و سلاح المتعبد ٢: ٧٣٨.

إن كنتم صادقين في دعواكم أنّكم أولياء لله من دون الناس فتمنّوا الموت؛ لأنّ الوليّ يحبّ لقاء الوليّ.

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، أي لا يتمنّون الموت إلى الأبد، فهم يطمعون في الخلود، والسبب في فرارهم من الموت ما عملوه من آثام وجرائم، وهي المراد بما قدّمت أيديهم، فإنّ الأعمال تسبق الإنسان وتسجّل عليه قبل الموت، فكأنّه قدّمها على نفسه. وهذا تعبير كنائي عن كلّ الأعمال مع أنّ العمل قد يكون بسائر الأعضاء إلا أنّه حيث كان غالباً بتوسّط اليد صحّ هذا التعبير.

والحاصل أنّهم لا يتمنّون الموت تخوّفاً من العذاب المتوقّع على أعمالهم. وهذا يدلّ أوّلاً على شيوع الإثم فيهم وبعدهم عن التقوى، وقد ورد التنويه على ذلك في عدّة من الآيات، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.[٢] ويدلّ ثانياً على يأسهم من رحمة الله تعالى وهو من أكبر الذنوب ولعلّه أكبرها بعد الشرك.

﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، أي لا ينفعهم تأخّر الموت، فإنّ الله تعالى عليم بما فعلوه من الظلم في حياتهم ومعذّبهم عليها عاجلاً أم آجلاً. وفي الآية التالية تصريح بذلك.

﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وورود «الفاء» على خبر «إنّ» بلحاظ معنى الشرط، فكأنّه قال: إن

---

١. المائدة (٥): ٥٩.

٢. المائدة (٥): ٦٢.

كنتم تفرّون من الموت، فلا ينفعكم الفرار، لأنّه ملاقيكم لا محالة، وأعاد حرف «إنّ» على الجواب لزيادة التأكيد.

والتعبير بـ «الفرار» كناية عن شدّة حذر الإنسان ومحاولته الإبقاء على نفسه في هذه الحياة، فإنّ الفرار واقعاً غير ممكن.

و«ثمّ» للتراخي فإنّ الإحضار للحساب متأخّر عن الموت.

ويلاحظ أنّ القرآن يؤكّد على التعبير عن الحضور لدى الله تعالى بالردّ والرجوع مع أنّه كغيره لم ينفصل ولم يستقلّ في وجوده لحظة. ولعلّ السبب أنّ الإنسان بسبب هذا الاختيار الذي منحه الله تعالى يشعر خطأً أنّه مستقلّ، بل يغفل عن ربّه بالمرّة، فإذا حضر في تلك النشأة فإنّه يتذكّر مبدأ وجوده، ويشعر بالرجوع إلى أصله، فلعلّ المصحّح للتعبير هو حالة الإنسان وتصوّره. ولعلّه أتى بالفعل المبنيّ للمجهول، لأنّهم لا يرجعون باختيارهم، بل لا يريدون ذلك لما قدّمت أيديهم وإنّما يُرجعون قسراً وعنوة.

وذكر الوصف: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ بدلاً عن اسم الجلالة للتنبيه على عدم الجدوى في التخفّي عن الله تعالى، فإنّه لا يختلف لديه الغيب والشهادة. وقد مرّ الكلام حول هذا الوصف في سورة الحشر، وقلنا: إنّ كلّ شيء مشهود لديه تعالى، فليس هناك غيب وشهادة، وإنّما توصف الأشياء بهما بلحاظ حالات الإنسان، فهناك أشياء غائبة عن بعض ومشهودة لبعض آخر أو غائبة عن الجميع.

والظاهر أنّ المراد بإنبائه تعالى بأعمال الإنسان تبيّن حقائق الأعمال للجميع بوضوح في الآخرة، فإنّ الإنسان مهما حاول أن يحاسب نفسه في الحياة الدنيا إلا أنّه لا يدرك حقيقة أعماله، ومدى تأثيرها في جانبي الصلاح والفساد وهناك يوم

تبلى السرائر ويكشف الغطاء وتحدّ الأبصار تتبيّن حقائق الأعمال.

هذا وقد ورد نظير هذه الآيات في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.[١]

---

١. البقرة (٢): ٩٤ ـ ٩٦.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ
ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي
ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً
أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ
خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾. هذه الآيات ـ كما مرّ ـ تتناول الهدف الأساس في السورة، وهو الحثّ على الحضور في صلاة الجمعة والتنديد بعدم الاهتمام بها في عهد الرسالة المجيدة. والمراد بالنداء للصلاة الأذان.

وقيل: إنّ قوله: ﴿مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾، أي في يوم الجمعة وأنّها قد أتت بمعنى «في» في قوله تعالى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ﴾،[1] ولكن يبقى السؤال عن سرّ التغيير لو صحّ كونها بمعنى «في»، و«من» في الآية المذكورة لا تعني «في»، بل هي هناك للتبعيض، أي من أجزاء الأرض أو ممّا في الأرض، إمّا بالتقدير أو بإرادة هذا المعنى مجازاً. وقيل: إنّها هنا أيضاً للتبعيض، وعليه فلا يبعد أن يكون تبعيضاً من كلّ ما ينادى له أو يطلبه الإنسان في يوم الجمعة من شؤون الدنيا والآخرة.

والمراد بـ«الصلاة» صلاة الجمعة التي يؤتى بها وقت الزوال، وليس كلّ صلاة في يوم الجمعة.

---

١. فاطر (٣٥): ٤٠؛ الأحقاف (٤٦): ٤.

و«الجمعة» بضمّ الميم، وإذا تلفّظ بالسكون فللتخفيف. وسمّي به هذا اليوم؛ لأنّه يجتمع فيه الناس على ما ذكروه، فتكون التسمية إسلامية. قالوا: واسمه في ما قبل الإسلام «عروبة» بفتح العين، وقيل: إنّ هذه اللفظة ليست عربية، بل هي تعريب لـ «أروبا» بالفتح في النبطية، أو «عروبتا» بسكون الباء في السريانية. وقيل: إنّ معناها الراحة وترك الأشغال اليومية.

وقيل: إنّ اليهود افتخرت على المسلمين بما جعل الله تعالى لهم من يوم اجتماع، وهو يوم السبت، فأنزل الله تعالى الأمر باعتبار يوم الجمعة يوم اجتماع لهم، كما أنّ النصارى تجتمع يوم الأحد، واختاروه ليكون فرقاً بينهم وبين اليهود.

وروى القوم أنّ المسلمين في المدينة قبل هجرة الرسول ﷺ اختاروا هذا اليوم لاجتماعهم، وأنّ الذي بادر إلى ذلك هو أسعد بن زرارة ، ولكنّ ذلك بعيد، ويشبه سائر ما يحاوله بعض الناس من إسناد كثير من محدثات الدين إلى الأشخاص. ولعلّ الأساس في هذا الوضع هو محاولة بني اُمّية من التقليل من شأن الدين وما أتى به الرسول ﷺ من أحكام وقوانين حتّى أنّ الأذان أيضاً نسبوه إلى بعض الصحابة.

ومن الطريف أنّ هذه الرواية تُسند إلى أسعد أنّه صلّى بهم يوم الجمعة ركعتين! ومن أين له ذلك؟! والفريضة أربع ركعات في كلّ الأيّام. فهذا الأمر بنفسه ممّا يدلّ على عدم صحّة الرواية. ولو صحّت فلا بدّ من توجيهها بأنّ ما فعله أسعد إنّما كان بإيعاز من الرسول ﷺ وهو بعيد.

﴿**فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ**﴾، «السعي» هو المشي السريع، ولكن لا يبعد أن يكون

المراد به هنا الاهتمام .وهذا تعبير متعارف يقال: إنّ القوم بادروا أو أسرعوا إلى امتثال الأمر، وذلك إذا لم يتوقّفوا ولم يتردّدوا في ذلك، ولا يعني نفس الإسراع. وإنّما يحمل على ذلك؛ لأنّ الروايات تحثّ على كون المشي إلى المساجد وإلى الصلاة بسكينة ووقار، فإنّ لكلّ خطوة ثواباً فيحاول الإنسان تكثير خطاه.

والمراد بـ ﴿ذِكْرِ اللهِ﴾، الصلاة أو مع الخطبة وإن كانت الصلاة أقرب إلى الذكر إلا أنّ الخطبة أيضاً تشتمل عليه، وحيث كان الغرض من السورة الحثّ على الاستماع إلى الخطبة ـ كما في الآية الأخيرة ـ فلا يبعد أن يراد بالذكر هنا ما يعمّ الخطبة.

﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾، أي واتركوا البيع، والظاهر أنّ المراد به كلّ ما يتعلّق بشؤون الدنيا من البيع والشراء والاستيجار والتأجير والصناعة والزراعة وغيرها من أنحاء المعاملات وغيرها للقطع بعدم الخصوصية، فليس هذا من القياس كما توهّمه بعضهم. فالغرض ترك شؤون الدنيا الاعتيادية غير الضرورية وغير التي لا تحتمل التأخير في هذه الفترة من كلّ أُسبوع والتفرّغ للمشاركة في إقامة ذكر الله تعالى والاستماع إلى الخطبة التي تدعو إلى الله تعالى، وإلى الاهتمام بشأن الدين في الحياة وتتناول الأُمور الاجتماعية والسياسية المهمّة في الوقت الحاضر.

وهذا هو الحكمة في تشريع الجمعة والاهتمام بشأنها، فهو الاجتماع الأُسبوعي الذي يحضر فيه المؤمنون من كلّ حدب وصوب للاستماع إلى القيادة الإسلامية أو من يقوم مقام الإمام في الشؤون التي تهمّ تلك المرحلة خاصّة والتي تهمّ المجتمع المسلم بوجه عام.

ولكنّ هذا سلاح ذو حدّين، فإذا تسلّط على رقاب الأُمّة قائد غير صالح

أمكنه التوسّل بهذه الوسيلة ليضفي على قيادته صبغة دينية تربطه بقلوب المجتمع ممّا يصعب على معارضيه الاعتراض على ممارساته، فضلاً عن النيل منه أو الثورة عليه. وهكذا كانت السلطات الجائرة الغاشمة طيلة التاريخ الإسلامي تستخدم هذه الوسيلة للوصول إلى أهدافها العدوانية وتمنع الولاية الشرعية من تولّي الأُمور التي أوكلها الله تعالى إليها، بل تمنع الهداة من نشر الهدايات الإلهيّة. ومن هنا نجد أنّ الأئمّة المعصومين عليهم السلام قاطعوا الجمعة، بل كان المنع من الحضور فيها واضحاً من مذهبهم بحيث لم نجد الاهتمام بالجمعة في المجتمع الشيعي حتّى في العصور التي كان بالإمكان إقامتها فيها.

والفقه الشيعي يختلف في وجوب إقامتها ووجوب الحضور فيها في عصر غياب الإمام المعصوم، والمشهور عدم الوجوب التعييني وأنّ المكلّف مخيّر بينها وبين الظهر، ومن الفقهاء من أفتى أو احتاط بالحضور إذا أُقيمت، وأنّ التخيير إنّما هو في أصل إقامتها وإقامة الظهر. ولكن مع كلّ هذا الاختلاف نجد أنّ التوجّه العامّ إلى عدم الإقامة مطلقاً، ولا نجد في تاريخ الشيعة إلا القليل من الفقهاء ممّن أقامها، وهذا كلّه يدلّ على أنّ المعلوم من مذهب أهل البيت عليهم السلام هو مقاطعة الجمعة إلا مع الإمام المعصوم، أو من ينوب عنه، والسبب في ذلك هو سوء استخدام المتسلّطين بغير حقّ من هذا المنبر الديني للتغلغل في قلوب المؤمنين.

وينبغي أن يقال: إنّ هذا المنبر لا مثيل له في الدين، فلا يقاس بالحجّ وبصلاة الجماعة اليومية كما قيل، فإنّ الحجّ ليس إلا اجتماعاً لعمل عبادي يضعف فيه الاستخدام المذكور، وكذلك الصلوات اليومية، وإنّما يطغى الجانب السياسي والاجتماعي في تجمّع الجمعة فحسب.

﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. مرّ تفسير نظيره في سورة الصفّ، وقلنا بأنّ أحسن ما قيل في تفسير هذه الشرطية أنّ الجزاء هو العلم بالخيرية لا نفسها، فهناك شيء لو علمتموه لعلمتم أنّ هذا خير لكم، وهو العلم بأنّ ما عند الله باقٍ وما في هذه الدنيا من النعم إنّما هي لابتلاء الإنسان وامتحانه وإن كان فيه تمتّع زائل أيضاً، فالاهتمام بشأن الآخرة وترك الدنيا وشؤونها في فترة النداء للصلاة من يوم الجمعة خير للمؤمن الذي يعلم بهذا الأمر، والخيرية لا تتوقّف على علمه بذلك إلا أنّ علمه بالخيرية يتوقّف عليه.

وفي الآية أبحاث فقهية تطلب من كتب الفقه كالبحث عن الوجوب التعييني والتخييري، وعن المراد بالنداء هل هو الأذان أو الإقامة؟ وأنّ الذكر هل يشمل الخطبة أم لا؟ وأنّ البيع بعد النداء هل هو حرام تكليفاً أم أنّه باطل، أم أنّ النهي تنزيهي؟ ونحوها.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، «قضيت» أي فرغ منها وانتهت، والأمر بالانتشار بمعنى أن يذهب كلّ أحد منكم إلى سبيله وإلى ما تقتضيه حاجته في الدنيا، وليس مقصوداً بعنوانه، فلو اقتضى الأمر اجتماعهم بعد الصلاة في موضع لأمر دنيوي أو ديني فالآية لا تقتضي خلافه، فالأمر بالانتشار للإباحة في مقابل الأمر بالاجتماع المستفاد من الحكم السابق حين إقامة الصلاة.

﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾، أي واطلبوا من فضله تعالى. وقد تكرّر هذا التعبير في القرآن لبيان طلب الرزق، كقوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ

١. المزّمل (٧٣): ٢٠.

فَضْلِهِ﴾[١] ومثله كثير، والأمر به للإباحة، لأنّه في مقابل المنع عن البيع في الحالة السابقة، أي وقت إقامة الصلاة، وقد مرّ أنّه لا يختصّ بالبيع، بل يشمل كلّ عمل غير ضروري خاصّ بشؤون الدنيا.

وقيل: إنّ المراد بـ«الابتغاء من فضله» طلب كلّ خير للدنيا والآخرة، بل قيل: إنّه تعالى لا يأمر بطلب الرزق، وإنّما يأمر بطلب العلم وخير الآخرة. وهو غريب، فإنّ الآيات التي تأمر بطلب الرزق كثيرة، وليس المراد بها الحثّ على طلب المال، فإنّ الإنسان لا يحتاج إلى حافز لذلك، وإنّما المراد التنبيه على أنّ كلّ ما تحصل عليه بطلبك فإنّما هو رزق وفضل من الله تعالى أو ابتلاء وامتحان لك.

﴿وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. الظاهر أنّ المراد به عدم الغفلة عنه تعالى لا خصوص الذكر اللفظي، والغرض التنبيه على أنّ طلب الرزق والكدّ من أجل المال يجب أن لا يوجب الغفلة عن ذكر الله تعالى، فإنّ ذلك أمر خطير؛ إذ لا بدّ من التقوى والورع حين المعاملة لئلا يقع الإنسان في الكسب المحرّم، وفي الاعتداء على حقوق الآخرين.

والتوصيف بالكثرة لعلّه بلحاظ أنّه أقلّ الواجب لصعوبة الذكر الدائم وتكرّر الغفلة من الإنسان حتّى لو كان مؤمناً تقيّاً وإلا فاللازم هو الذكر الدائم، أي في كلّ معاملة وفي كلّ الحالات، أو أنّ كثرة الذكر ككثرة التوبة والأوبة بمعنى أنّك كلّما بعدت عن الله تعالى بتوغّلك في شؤون الدنيا عُد إليه تعالى واذكره لئلا يقسو قلبك، فيكون التنبيه عليه في هذا المقام من جهة أنّ طلب الرزق

---

١. القصص (٢٨): ٧٣.

والكسب مدعاة للغفلة عن ذكره تعالى لدى عامّة الناس، ولكنّ المؤمن يجب أن لا يكون كذلك.

ويمكن أن يكون المراد الذكر اللفظي، فالكثرة بمعناها المتبادر والأمر للندب، فيكون المطلوب الإكثار من ذكره تعالى حين المعاملة، وساير ما يتعلّق بشؤون الدنيا، فإنّ تكرار الذكر اللفظي وكثرته يعمّق تأثير المعنى في النفس ويؤثّر في رسوخ التقوى.

و«الفلاح» هو الفوز والظفر بما يبتغيه الإنسان وهو رضا الله تعالى، فإنّه هو الحاصل بالذكر الكثير والتنبيه عليه هنا ـ مع أنّ الإنسان حسب الفرض في طلب الرزق والمال ـ لتذكيره بأنّ المطلوب الأوّل للمؤمن هو رضا الله تعالى حتّى حينما يبتغي الرزق، فالفلاح والظفر في الواقع ليس بكسب المال الكثير، بل بكسب رضاه تعالى.

والإتيان بفعل الترجّي ـ كما في غيره من الموارد ـ للتنبيه على أنّ ذلك إنّما يعدّ الأرضية الصالحة للفلاح، ولا يوجب ترتّبه جزماً، إذ يتوقّف على شؤون أُخرى من العمل الصالح وترك المنهيّات.

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً﴾. «إذا» ظرف يفيد معنى الشرط، ومعناه أنّ هذا كان دأبهم وديدنهم، ولا أقلّ أنّه تكرّر منهم كثيراً، وورد في بعض روايات العامّة أنّه وقع ثلاث مرّات كما سياتي، ولعلّه لو لم يتكرّر لم يستلزم هذا العتاب واللوم الشديد. وأوّل ما يدلّ على شدّة العتاب صرف الخطاب عنهم، مع أنّه كان متوجّهاً إليهم في الآية السابقة. ويظهر أيضاً تكرّر الحادثة من الترديد في قوله تعالى: ﴿تِجَارَةً أَوْ لَهْواً﴾ وأنّهم خرجوا للّهو مرّة

وللتجارة أُخرى، ولو كانت إشارة إلى حادثة واحدة لأُتي بالواو.

و«اللهو» كلّ ما يشغل الإنسان عن أمر مهمّ، والمراد به هنا على ما في الروايات المزامير والدفوف، والروايات كثيرة في هذه القصّة، وفي بعضها أنّ الدفوف إنّما استعملت لدعوة الناس إلى الشراء.

و«الانفضاض»: التفرّق. والضمير في «إليها» يعود إلى التجارة، وفي ذلك تقدير، أي إذا رأوا تجارة انفضّوا إليها وإذا رأوا لهواً انفضّوا إليه، كما ذكره الزمخشري،[1] ومثله كثير في القرآن وفي كلام العرب.

وهناك اختلاف في العدد الباقي مع الرسول ﷺ وأقلّ ما قيل: سبعة، وأكثر ما قيل: أربعون.

وفي «مجمع البيان»: «قال جابر بن عبد الله: أقبلت عير ونحن نصلّي مع رسول الله ﷺ الجمعة، فانفضّ الناس إليها، فما بقي غير اثني عشر رجلاً أنا فيهم، فنزلت الآية: **﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً...﴾**».[2]

وروى البخاري بسنده عن جابر بن عبدالله الأنصاري ﵁ قال: «بينما نحن نصلّي مع النبي ﷺ إذ أقبلت عير تحمل طعاماً فالتفتوا إليها حتّى ما بقي مع النبي ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً، فنزلت هذه الآية: **﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً﴾**».[3]

وروى البيهقي بسنده عن مقاتل بن حيّان أنّه قال: كان يخطب النبي ﷺ ويقوم يوم الجمعة قائماً وإنّ دحية الكلبي كان رجلاً تاجراً وكان قبل أن يسلم

---

١. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ٤: ٥٣٧.

٢. مجمع البيان في تفسير القرآن ١٠ ـ ٩: ٤٣٣.

٣. صحيح البخاري ٢: ١١٣، (على ما في المكتبة الشاملة)

إذا أقبل بتجارته إلى المدينة خرج الناس ينظرون إلى ما جاء به فيشترون منه، فقدم ذات يوم المدينة ووافق الجمعة والناس عند رسول الله ﷺ في المسجد وهو قائم يخطب، فاستقبل أهل دحية العير دخلوا المدينة بالطبل واللهو فذلك اللهو الذي ذكر الله، فسمع الناس في المسجد أنّ دحية قد نزل بتجارة عند أحجار الزيت وهو مكان في سوق المدينة وسمعوا أصواتاً فخرج عامّة الناس إلى دحية ينظرون إلى تجارته وإلى اللهو وتركوا رسول الله ﷺ قائماً ليس معه كثير أحد، فبلغني ـ والله أعلم ـ أنّهم فعلوا ذلك ثلاث مرّات في كلّ مرّة بعير تقدم من الشام للتجارة وكان ذلك يوافق الجمعة وبلغنا أنّ العدّة التي بقيت في المسجد مع النبي ﷺ عدّة قليلة، فقال النبي ﷺ عند ذلك: «**لولا هؤلاء** ـ يعني هؤلاء الذين بقوا في المسجد مع النبي ﷺ ـ **لقصدت إليهم الحجارة من السماء...**».[١]

ويستفاد من الآية أنّ الرسول ﷺ كان يخطب قائماً؛ وقيل: إنّ أوّل من جلس في حال الخطبة عثمان. وقيل: معاوية.

﴿**قُلْ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَ مِنَ التِّجَارَةِ**﴾ التعليق أيضاً لم يرد فيه خطاب لهم، بل لم يأمر الرسول ﷺ بمخاطبتهم، وإنّما أمره أن يقول حكماً عامّاً من دون توجيه خطاب إليهم، وهذا يمثل جهة اُخرى من عدم الاهتمام. والمراد بما عند الله الجزاء والثواب المتوقّع من الحضور في صلاة الجمعة والاستماع إلى خطبة الرسول ﷺ. والتعبير بأنّه عند الله باعتبار أنّه مخفيّ عن الإنسان في هذه الحياة.

والخيرية هنا ليست بمعنى الأكثر خيراً، فإنّ اللهو لا خير فيه، والتجارة أيضاً في هذا المقام لا خير فيها إلا من أجل الدنيا، فهذا نظير قوله تعالى: ﴿**أَفَمَنْ يُلْقَى فِي**

---

١. شعب الإيمان ٨: ٤٥٠، (على ما في المكتبة الشاملة)

النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.[١] ويمكن أن تكون بمعنى الأفضلية بلحاظ مذاق الإنسان وطبيعته، فإنّه يرى في اللهو والتجارة خيراً وإلا لم ينجذب إليهما.

﴿وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾، أي خير من يمكن أن يوصف بالرازقية، وليس معنى ذلك أنّ هناك مجموعة من الرازقين ورازقيته تعالى خير منهم، كما يوهمه عبارات بعض المفسّرين في مثل هذه الصفات الحسنى، مع أنّه لم يتعرّض أكثرهم لتوضيح ذلك، فإنّ رازقية الله تعالى ليس من قبيل رازقية الخلق، فهذا نظير قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[٢] مع أنّ الخلق ليس إلا منه تعالى. فالصحيح في تفسير هذه الأوصاف هو أنّه تعالى رازق بأفضل ما يمكن أن يتصوّر، وكذلك في خلقه وغفرانه ورحمته وكلّ صفة من صفاته الحسنى.

والحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله الطاهرين.

---

١. فصّلت (٤١): ٤٠.

٢. المؤمنون (٢٣): ١٤.

# تفسير سورة المنافقون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ
يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ
إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا
يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ
خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ
يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾

السورة مدنيّة، وتختصّ بمشكلة النفاق والمنافقين لتحذير المؤمنين من مغبّة الاعتماد عليهم، وتتعرّض السورة لكشف فضائحهم والتنبيه على بعض خصائصهم ليُعرفوا بها. والحديث عن دور المنافقين في مواجهة الإسلام والمسلمين، والتنبيه على خطرهم لا يختصّ بهذه السورة، فالقرآن الكريم تعرّض لهذا الأمر في كثير من السور المدنيّة، ولكن هذه السورة اختصّت بهم فسمّيت بهذا الاسم.

وكلمة «المنافقون» في اسم السورة ربما يتلفّظ بالواو باعتبار ورود هذه الكلمة بهذه الصورة في أوّلها، وربما يتلفّظ بالياء بإضافة السورة إلى المنافقين باعتبار أنّها تتعرّض لصفاتهم وبعض أحوالهم ومثالبهم.

و«النفاق» بمعنى إظهار الإيمان وإبطان الكفر، ولعلّ الأصل فيه إسرار ما يعلن خلافه مطلقاً، ومنه نافقاء اليَربُوع «دويبة أكبر من الجرذ»، أي المخرج السريّ الذي يصنع لنفسه ليهرب منه، فالمنافق يظهر الإسلام أمام الناس وهو يخرج منه عن الطريق المخفيّ.

ويقال: إنّ المنافقين برزوا في المدينة ولم يكن منهم في مكّة عين ولا أثر، وأنّ السبب في ذلك أنّ المسلمين كانوا في حالة ضعف في مكّة، فما كانت حالتهم تستدعي المداراة والنفاق وكان المخالف للدين يعلن مخالفته من دون أيّ حذر أو خوف، ولمّا جاء الرسولﷺ إلى المدينة وقد سبقه إليها الإسلام فقوي بالمؤمنين من أهلها وهم أكثر الناس، فمن بقي على كفره وشركه لم يتمكّن من إظهاره، وهكذا برزت ظاهرة النفاق في تلك الحقبة وكان على رأسهم عبد الله بن أُبيّ، لأنّه كان يطمع في أن يكون ملكاً من ملوك العرب، فانقطع أمله بهجرة الرسولﷺ إلى المدينة واجتماع العرب حوله وإيمانهم به ومبايعتهم له رسولاً وقائداً فامتلأ قلبه حقداً وغيظاً.

هكذا يقال، ولكنّ الصحيح أنّ بعض من أسلموا ظاهراً في مكّة لم يؤمنوا بالله ورسوله واقعاً، وإنّما أسلموا في الظاهر لِمَا علموا من مستقبل هذا الدين، فأرادوا أن يكون لهم قدم وسابقة فيه. وممّا يدلّ بوضوح على وجود النفاق في مكّة قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ وَلَئِنْ

جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْـمُنَافِقِينَ﴾[1] والآيتان في سورة العنكبوت وهي مكّية بلا خلاف.

ويدلّ على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾،[3] وقد أثبتنا دلالتهما على ذلك في تفسيرهما.

ومن الآيات ما تصرّح بوجود بعض من كان في قلوبهم مرض في مكّة وهو تعبير آخر عن النفاق، قال تعالى: ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾،[4] وهي في سورة المدّثّر، ولا شكّ أنّها مكّية.

ثمّ إنّ النفاق في المدينة أيضاً لا يختصّ بجماعة عبدالله بن أُبيّ كما يتوهّم وكما تحاول الأبواق الأُموية إعلامه، فهناك من هو أخطر من هذه الجماعة التي أعلنت نفاقها، فقلّ خطرها، ومن الطبيعي أنّ المنافق الحقيقي هو من لا يعرفه المسلمون ويظنّونه مؤمناً مخلصاً. وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾،[5] فهناك من المنافقين من لا يعرفه الرسول ﷺ والله تعالى لم يشأ أن يريهم إيّاه والمعرفة في لحن القول ليست كاملة كما لا يخفى. وقال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْـمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾،[6] ولا شكّ أنّ هؤلاء ليسوا من أصحاب عبد الله بن أُبيّ لأنّهم كانوا معروفين بنفاقهم.

---

١. العنكبوت (٢٩): ١٠ ـ ١١.

٢. الحاقّة (٦٩): ٤٩.

٣. المعارج (٧٠): ٣٦.

٤. المدّثّر (٧٤): ٣١.

٥. محمّد (٤٧): ٣٠.

٦. التوبة (٩): ١٠١.

وممّا يحاول بعض الناس التأكيد عليه أنّ النفاق كان مختصّاً بعهد الرسول ﷺ. وهذا غريب جدّاً، فالمنافقون كانوا يتربّصون به ﷺ الموت لينفذوا خططهم الإجرامية، بل كانوا يحاولون قتله ﷺ ليتخلّصوا منه، فكيف انقطعت آثارهم وجرائمهم بعده؟! والواقع أنّ الغريب ليس هو هذا الإصرار من هؤلاء الباحثين، بل الأغرب منه أنّ التاريخ أيضاً لا يذكر عنهم خبراً بعد وفاة الرسول ﷺ، فإلى أين انتهت مكائدهم، وهل بلغوا بوفاته ﷺ كلّ ما يبتغون ويركضون وراءه؟! الله أعلم.

والذي يشعر به الباحث المنصف أنّ النفاق تمكّن من التغلغل في صفوف المؤمنين وهم وإن كان هدفهم الأوّل أن يرجعوهم كفّاراً، كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ ... * وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾[1] ولكنّهم كانوا يبتغون لهم شتّى أنواع الفتن، وقد تمكّنوا من إلقاء الخلاف في صفوف المسلمين ومن تفريقهم عن الإمام المنصوب من قبل الله تعالى ومن الدسّ في السنّة المطهّرة واستئجار الوضّاعين، ولو أمهلهم الله تعالى لحرّفوا الكتاب أيضاً.

وقد نقل عن بعض من تسلّط على المسلمين أنّ الهدف الأوّل هو دفن اسم الرسول ﷺ حتّى لا يذكر على المنائر والمنابر في اليوم عدّة مرّات. ومن هنا يتبيّن أنّ خطر النفاق أعظم من خطر الكفّار والمشركين؛ لأنّهم يتغلغلون في صفوف المسلمين، ولأنّهم يظهرون بمظهر المؤمن المتّقي، وربما يبلغ بعضهم من اعتماد الناس عليه إلى أعلى المراتب، وهذا الأمر مستمرّ إلى يومنا هذا، ولا يختصّ بالمجتمع الإسلامي، بل هو مشكلة جميع الأحزاب والمنظّمات والدول.

---

١. النساء (٤): ٨٨ ـ ٨٩.

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ﴾. «إذا» ظرفية، وجوابه «قالوا»، فيستفاد منه أنّ هذا كان كلامهم كلّما جاءوا إلى الرسول ﷺ وهو بعيد، فلعلّ المراد أنّهم يقولون ذلك في الموارد المناسبة، أو أنّ حديثهم وحضورهم وتعاملهم مع الرسول ﷺ ومع المسلمين يوحي بأنّهم مؤمنون واقعاً ويشهدون بالرسالة، أو أنّهم في كثير من موارد حضورهم كانوا يقولون ذلك، وهذا شأن النفاق، فإنّ المنافق يكثر منه إظهار الودّ والإخلاص، لأنّه يتوجّس دائماً انكشاف أمره فيحاول الاستباق بإظهار غاية الإخلاص لئلا تحوم حوله الشبهة.

والشهادة إعلام بالرؤية فلا يصحّ من أحد أن يشهد بشيء لم يره، لأنّه مأخوذ من الشهود والمشاهدة، ولكن يقصد به في هذا المقام الإعلام بأنّه هو المعتقد القطعي، ومن هنا كانت الشهادتان المباركتان أساس الإسلام، ويقبل من كلّ أحد يتشهّد بهما لفظاً أنّه مسلم، لأنّه إعلام بغاية الاطمئنان والاعتقاد بالتوحيد والرسالة، فما لم يظهر منه بصراحة ما ينافي أحد الأمرين يعتبر مسلماً.

ثمّ إنّهم أكّدوا شهادتهم بالقسم، حيث تدلّ اللام على قسم مقدّر، أي نشهد والله إنّك لرسول الله. والقسم أيضاً من مزايا كلام المنافق، وقد ورد ذكره في كثير من حكاية كلامهم في الكتاب العزيز، قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾،[١] وقال: ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً﴾،[٢] وقال: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾،[٣] وقال أيضاً: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذا انْقَلَبْتُمْ إِلَيهِم

---

١. النور (٢٤): ٥٣.

٢. النساء (٤): ٦٢.

٣. التوبة (٩): ٦٢.

لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾[١]، وغير ذلك، بل يحلفون يوم القيامة أيضاً حلفاً كاذباً، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾،[٢] والسرّ في ذلك أيضاً تخوفّهم الدائم من اتّهامهم بالكذب لكثرة كذبهم.

﴿وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾، وهذا واضح لا يحتاج إلى تنبيه، وإنّما الغرض تقديم ذلك على الشهادة عليهم بالكذب، لئلا يوهم الكلام أنّ التكذيب يعود إلى المشهود به، وهو الرسالة، مع أنّه أمر غير محتمل إلا أنّ أدب الكلام يقتضي ذكره.

﴿وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾، أي كاذبون في قولهم: «نشهد»، فهم لا يشهدون على ذلك ولا يعتقدون به. ولا حاجة إلى تأويل الكذب إلى مخالفة المخبر به لما في القلب، لا لما في الواقع كما قيل، بل حتّى على المعنى المعروف للكذب وهو الخبر المخالف للواقع يصدق الكذب بوضوح؛ لأنّ الإخبار بالشهادة كذب، لأنّهم لا يشهدون به في الواقع، فالشهادة وإن كانت إنشاءاً إلا أنّها تفيد الإخبار أيضاً.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾، المراد بـ«الأيمان» ما يشمل حلفهم في الشهادة السابقة، فيكون في ذلك إشارة إليه لما قلنا بأنّ اللام في قولهم: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ﴾ يدلّ على قسم مقدّر.

وقوله تعالى: ﴿فَصَدُّوا﴾ يدلّ على أنّهم تمكّنوا من الوصول إلى مبتغاهم وهو المنع عن سبيل الله، فكان هناك آذان صاغية من الناس البسطاء. و«الصدّ»: المنع،

---

١. التوبة (٩): ٩٥.

٢. المجادلة (٥٨): ١٨.

و«الجُنّة» كلّ ما يتستّر به، وهم بهذه الأيمان كانوا يسترون كفرهم ونفاقهم، فيظنّ البسطاء أنّهم من خلّص المؤمنين ويتمكّنون بذلك من الاندساس في صفوفهم وإلقاء الشبهات في قلوبهم.

وفسّر الصدّ بعضهم بالإعراض، والصحيح أنّه يأتي بالمعنيين: الإعراض والمنع، إلا أنّه هنا لا يناسب الإعراض، إذ لا يترتّب الإعراض على الحلف الكاذب واتّخاذه جنّة أي التستّر به، بل الأمر بالعكس، فالحلف هو المترتّب على إعراضهم وكفرهم، فالمراد بالصدّ هنا المنع.

والمنع عن سبيل الله تعالى لا يختصّ بالكفر وعدم الإيمان بالله ورسوله رأساً، بل يشمل ما إذا تمكّنوا من منع قبول الناس لبعض ما جاء به الرسول ﷺ كما نجد منهم من منع الناس من متابعة الإمام الذي نصبه الرسول ﷺ مناراً للهداية بعده، فهذا أيضاً صدّ عن سبيل الله تعالى. والحاصل أنّ المنافقين تمكّنوا من الصدّ عن سبيل الله تعالى في موارد كثيرة، وإن لم يعتبر بعضها من الارتداد والكفر بأصل الرسالة.

﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، ساء استخفافهم بالحلف بالله تعالى وساءت شهادتهم بما لا يعتقدون به في دخيلة أنفسهم وساء نفاقهم وساء صدّهم عن سبيل الله تعالى. وأسوأ شيء منهم أنّهم اتّخذوا الأيمان جنّة للصدّ عن سبيل الله تعالى، فإنّ الإنسان ربما يكذب، بل يحلف كاذباً ليدفع عن نفسه أو عن الآخرين ضرراً بليغاً لا يستحقّه فهذا لا بأس به، بل ربما يجب، وربما يحلف لجلب منفعة لنفسه أو لدفع ضرر لا يهتمّ به أو لدفع ضرر يستحقّه، وهذا لا يجوز كما هو واضح، ولكن لا يبلغ من السوء ما إذا كان الغرض من الحلف الإضرار بالناس

وأيّما إضرار؟! فإنّ غرضهم هو إضلال الناس وإبعادهم عن الحقّ كأنّهم سفراء إبليس لعنه الله.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾، الظاهر أنّ الإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى نفاقهم الذي استتبع كلّ هذه الأعمال السيّئة، فتكون الآية بصدد تعليل تمكّن النفاق من قلوبهم. ولكنّ المفسّرين ذكروا غالباً أنّ الإشارة إلى أعمالهم السيّئة التي ورد ذكرها في الآية السابقة. وذلك لأنّهم فسّروا الإيمان هنا بالإيمان اللفظي غير الموافق للباطن، فلا يصحّ كون «ذلك» إشارة إلى النفاق؛ لأنّ النفاق هو بنفسه إظهار الإيمان وإخفاء الكفر فلا يمكن تعليله به.

ولكنّ الظاهر أنّ المراد بالإيمان معناه الحقيقي وينطبق على التصديق، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾،[1] ومهما كان فالمراد ـ على ما يبدو ـ أنّهم آمنوا واقعاً، ثمّ كفروا، وهذا هو الموجب للطبع على القلب، وأمّا مجرّد التلفّظ بالشهادة من دون تصديق فيبعد كونه سبباً للطبع على القلب، مع أنّ العطف في قوله: ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ أيضاً لا يناسبه، إذ أنّهم على هذا الفرض كافرون قبل التلفّظ بالشهادة، والقول بأنّ التراخي رتبي لا ينفع؛ لأنّه على كلّ حال يدلّ على حدوث الكفر، مع أنّه كان سابقاً على الإيمان ومستمرّاً.

ويلاحظ أنّ ما ذكروه يقلّل من شأن الآية الكريمة، إذ أنّ مردّ هذا القول إلى أنّ العلة في هذه الأعمال التي تصدر عنهم من الشهادة كذباً والحلف للصدّ عن سبيل الله ونحو ذلك هو إيمانهم ظاهراً وكفرهم باطناً، أي نفاقهم مع أنّ هذا أمر واضح، فإنّ صدور مثل هذه الأعمال من المنافق أمر طبيعي، وإنّما الغرض من

---

١. يوسف (١٢): ١٧.

الآية تعليل أصل النفاق، فإنّه ربما يستغرب ذلك، مع أنّهم بالقرب من الرسول ﷺ ويرون الآيات والمعجزات ويسمعون كلامه ويرون سيرته، كما أنّ استمرار ضلال المشركين أيضاً بحاجة إلى تعليل، وفي القرآن آيات عديدة في بيان ذلك وستأتي الإشارة إلى بعضها.

وقال بعضهم: إنّ المراد الإيمان واقعاً إلا أنّه خاصّ ببعضهم، فلعلّ بعضهم آمن واقعاً ثمّ ارتدّ وكفر. ولكنّ الظاهر أنّ الآية تعمّهم ولا أقلّ من شموله لأكثرهم ولكبرائهم كعبدالله بن أُبيّ، فالظاهر أنّ المراد بالإيمان درجة ضعيفة منه. ويظهر من الآيات تردّدهم بين الإيمان والكفر وتقلّب أحوالهم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً * ... مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾.[1]

وهذا التقلّب والارتداد نجده في كثير من الناس ضعفاء الإيمان إذا تغيّرت بيئتهم الاجتماعية، فنجد بعض الناس يعيش زماناً في بيئة مؤمنة متوغّلة في الإيمان فيتقشّف ويتزهّد ويتنسّك، وربما يفرط في التعبّد والالتزام، ثمّ تدور الدائرة ويهاجر أو يُهجَّر إلى بيئة كافرة أو فاسدة تكثر فيها مظاهر الانحلال الخلقي علانية وتغلب فيها المغريات المادّية، فيتحوّل شيئاً فشيئاً إلى ضدّ الحالة السابقة. وربما يرتدّ ويكفر خصوصاً إذا ابتلي بكافرة وتزوّج بها، وهذا يدلّ على أنّ الإنسان وإن كان صادقاً في إيمانه فكثيراً ما تتزلزل عقيدته ويتحلّل إيمانه تبعاً لأبواق الإعلام المضلّ وتأثير البيئة الفاسدة.

والحاصل أنّ الآية المباركة على ما يبدو تعلّل أصل النفاق وعدم هدايتهم

---

١. النساء (٤): ١٣٧ ـ ١٤٣.

إلى الإيمان وتبصّرهم لحقائق الأُمور بالرغم من مشاهدتهم لآياته تعالى ومعاجز الرسول ﷺ وأنّ السبب في ذلك هو ارتدادهم ورجوعهم عن الإيمان بعد أن لمسوا الحقّ ووصلوا إليه وأدركوه بكلّ مشاعرهم، فلم يكن كفرهم لبعدهم عن موجبات الإيمان، ولا لنقص في إدراكهم، ولكن لعدم ملاءمته لأهواءهم. وهذا هو الموجب للطبع على قلوبهم وهو استتباع طبيعي. والإتيان بالفعل المبنيّ للمجهول، أي ﴿فَطُبِعَ﴾ يفيد أيضاً كونه طبيعياً.

ونظيره ما ورد بشأن المشركين، قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾،[1] وليس المراد عدم إيمانهم في أوّل لقاء، إذ ليس هو المتوقّع في الحالات الطبيعية، بل المراد ـ والله العالم ـ عدم إيمانهم بعد تمامية الحجّة وإدراكهم للحقّ لأوّل مرّة، ولا يكون ذلك إلا لضغط من جهة خارجية أو اتّباع للهوى، وهو الذي يستلزم قلب الأفئدة والأبصار فلا يدركون ولا يعقلون ولا يبصرون الحقّ، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[2] ونظيره كثير في الكتاب العزيز.

والطبع على القلوب هو الختم كأنّها تقفل أوّلاً، ثمّ يختم عليها فلا تنفتح بذاتها، ولا يمكن لأحد فتحها لفهم الحقائق بسبب الختم، فلا تفقه أي لا تفهم شيئاً.

والمراد بـ «القلوب» النفوس والقوى المدركة. وأغرب من طبع القلوب قلب الأبصار، فلا يرى ما يراه الآخرون وهو يرى واقعاً، ولكنّه يراه مقلوباً، فيرى

---

١. الأنعام (٦): ١١٠.
٢. فصّلت (٤١): ٥.

المعجزات ولكنّه يأوّلها سحراً، ويرى العلم بما لا يدركه البشر العاديّ، ولكنّه يأوّله نبوغاً وهم لا يفقهون ما يتحدّث به الرسولﷺ لا لأنّهم لا يفهمون، بل لأنّهم لا يريدون أن يفهموا. ومن غريب الأمر أنّ من الناس من كانوا أقرب ما يكون إلى منبع النور الوهّاج ولم يستضيئوا بنوره.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾. الآية الكريمة تصوّرهم تصويراً مخزياً، وتذكّر بعض سماتهم التي يمكن معرفتهم بها، فهم على مظهر حسن ملفت وكلامهم حلو يعجب السامعين.

والظاهر أنّ الخطاب في قوله: ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾ وما بعده لكلّ مستمع أو قارئ لا الرسولﷺ، والمراد أنّهم حسن الظاهرِ في المنظر والمسمع، والظاهر أنّ حسن المنظر لا يقصد به صباحة الوجه كما قيل، بل حسن الملبس والمظهر كما لا يقصد به شخص خاصّ أو مجموعة خاصّة كما ذكروه في عبدالله بن أُبَيّ وبعض أصحابه، بل هو سمة النفاق، وحيث كان الخطاب للمؤمنين فالظاهر أنّ المراد حسن الظاهر الديني لا خصوص المظهر الاجتماعي. وهذا هو ما نلاحظه من النفاق دائماً، وفي كلّ مجتمع، فمن يظهر نفسه ثورياً لهدف غير مشروع يظهر نفسه في مظهره وكلامه بصورة أقوى المتحمّسين للثورة، وهكذا في الدين والمذهب.

والحاصل أنّهم يعجبون عامّة الناس بمظهرهم وبكلامهم المعسول. وقوله: ﴿تَسْمَعْ﴾، أي تستمع ولو كان المراد السماع لقال: «قولهم» بدون اللام. والاستماع هو الذي يتعدّى باللام. والمراد أنّ كلامهم ممّا يجذب الأسماع إليه، والظاهر أنّه لا يراد به خصوص الفصاحة والبلاغة كما قيل، بل اشتماله على ما يحبّه السامع

من الإطراء والمدح وأدب المجلس وما يستسيغه المجتمع. وهنا أيضاً يقصد على ما يبدو ما يخصّ المجتمع المتديّن خاصّة، فكلامهم ممّا يعجب به المؤمنون.

وكلّ ذلك حسن واقعاً ومطلوب، فالمؤمن ينبغي أن يكون كذلك يحفظ ظاهره من حيث الإناقة، ومن حيث المظهر الديني، ومن حيث الكلام أيضاً، فالذمّ بلحاظ الجمع بين هذا المظهر الأنيق وبين ما يأتي ذكره من دخيلة أنفسهم.

﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾. هذه الجملة تنبئ عن خُوائهم وفراغهم، فهم مع حسن الظاهر لا ينفعون كما لا تنفع الخشبة المسنّدة إلى حائط مثلاً، فالخشبة أيضاً لها ظاهر حسن، ولكنّها لا تنفع إلا إذا استخدمت في بناء أو صنع كرسي أو طاولة ونحو ذلك، أمّا إذا اُسندت إلى حائط ونحوه فهي لا تنفع شيئاً. والمنافق أيضاً كذلك، كلامه المعسول لا ينبئ عن حسن نيّة وظاهره الأنيق يخالف باطنه الخبيث. والجملة التالية توضح ذلك.

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾، «عليهم»، أي ضدّهم. وهذه صفة تميّزهم بوضوح، فهم لخوفهم من افتضاح أمرهم يتوجّسون الشرّ دائماً، وهذا شأن كلّ خائن لمجتمعه، فكلّما سمع صيحة توهّم أنّه سيقبض عليه. وهذه الجملة تنبئ بوضوح عن عدم ملاءمة ظاهرهم الأنيق ومنطقهم المقبول مع باطنهم الخبيث ومؤامرتهم ضدّ الرسول ﷺ والمؤمنين والمجتمع الإسلامي. كما قال الشاعر:

**هيهات لا تخفى علامات الهوى**

**كاد المريب بأن يقول خذوني**

﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾. العدوّ يتساوى فيه المفرد والجمع. والألف واللام يدلّ على الحصر، فكأنّه لا عدوّ غيرهم مع وضوح أنّ أعداء المسلمين لا ينحصرون

فيهم، فالمراد أنّهم أولى من يمكن توصيفه بالعداء. والسرّ فيه واضح، وهو أنّهم أعداء الداخل وبنفس درجة العداء التي تنطوي عليها نفوس أعداء الخارج كالمشركين واليهود أو أكثر، ومع ذلك فهم يعتبرون في الظاهر من نسيج المجتمع المؤمن، بل ربما يكون بعضهم ممّن لا يعرف نفاقه يتقرّب إلى الرسول ﷺ وإلى أكابر المؤمنين بما لا يمكن لغيره، وبذلك يتمكّن من دسّ السمّ في العسل ومن تنفيذ المخطّطات الشيطانية، ولعلّهم تمكّنوا من ذلك في بعض ما أرادوه كما مرّت الإشارة إليه، فالعداء الحقيقي منحصر فيهم حيث يظهرون الأُخوّة ويبطنون أشدّ العداء.

وينبغي أن تعدّ هذه الجملة من معاجز القرآن الكريم حيث حصر العداء في المنافقين وأمر بالحذر منهم، والظاهر أنّ الأمر لا يختصّ بالرسول ﷺ فيجب على المؤمن أن يفتح عينه ويتبصّر ويبحث عن آثار أقدام العدوّ الحقيقي للإسلام الذي سكن عقر داره ليجد ما ابتدعه من مؤامرة.

﴿**قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾، أي قتلهم الله، وهو دعاء عليهم يقصد به غاية التنديد بهم. والدعاء كثيراً ما لا يقصد به حقيقة الدعاء، ومثله ما تعارف بيننا من إظهار الودّ بالدعاء في الترحيب والتوديع، كما أنّ الصلاة على الرسول ﷺ وآله الكرام لا يقصد بها إلا إظهار الودّ والمتابعة لهم ولمنهجهم السامي، وكما أنّ الدعاء للتعجيل في فرج مولانا صاحب الزمان ـ سلام الله عليه ـ لا يقصد به إلا ذلك أيضاً، ويقصد أيضاً إعلام الاستعداد للتفاني والتضحية تحت لوائه المجيد، إذ لا ريب أنّ ظهوره عليه السلام أمر منوط بعوامل ومؤثّرات معقّدة لا يعلمها إلا الله تعالى، ولذلك استأثر الله تعالى بعلمه كما استأثر بالعلم بموعد البعث وإن كانت

الدعوات تؤثّر في استعداد المجتمع لتلقّي الظهور المبارك.

والحاصل أنّ الدعاء سواء كان لأحد أو ضدّه فهو في الغالب يقصد به إظهار الحبّ والتأييد أو البغض والتنديد، ومن ذلك ما ورد في الكتاب العزيز من اللعن والدعاء على الشيطان ومن تبعه.

و﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾، أي يُصرفون ويُذهب بهم، وفيه إشارة إلى أنّهم لا يتّخذون منهجاً وطريقاً على أساس التفكّر والدراية، بل يتّبعون عوامل شيطانية تذهب بهم إلى ما لا يحمد عقباه. والظاهر أنّ «أنّى» ظرف للدعاء، أي قتلهم الله أينما كانوا، ولكنّ أكثر التفاسير ورد فيها أنّ «أنّى» استفهامية، فهو سؤال يقصد به الاستنكار، أي أين يذهبون، كقوله تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾[1] وإنّما ورد بصورة المبنيّ للمجهول لما مرّ. ولكنّ الأوّل أولى لعدم تناسب هذا الاستنكار لسياق ما ورد قبله فيهم، إذ لم يسبق في الجمل السابقة ذكر لأفكارهم ومنهجهم ليناسب الاستنكار.

---

١. التكوير (٨١): ٢٦.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم
مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ
ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ
رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا
يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ
ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾. الظاهر أنّ الآية تنقل حادثة بعينها وليس مجرّد فرض، ولكنّها تبيّن في نفس الوقت سمة من سمات النفاق، ولذلك أتى بضمير الجمع مع أنّ مورده شخص واحد لو صحّت الرواية.

وقوله: ﴿تَعَالَوْا﴾ فعل أمر من العلوّ، والأصل فيه طلب الصعود إلى أعلى، ثمّ استعمل في كلّ طلب للقدوم، وفي الجملة تقدير، أي «تعالوا إلى رسول الله»، والقصد منه الحضور عنده ﷺ لإظهار الندم والتوبة. وقوله: ﴿يَسْتَغْفِرْ﴾ جواب الأمر، فالمعنى إن أتيتم الرسول تائبين يستغفر لكم. و«لوى رأسه»، أي أماله وهو تصرف يدلّ على الرفض. و«الصدّ» هنا بمعنى الإعراض.

والآية تنبئ عن صفة الاستكبار والغرور فيهم، مضافاً إلى عدم الإيمان بالله تعالى ورسوله، فإنّ المؤمن يتلهّف شوقاً إذا دعي إلى الرسول ﷺ ويتشرّف إذا استغفر له الرسول ويزيد وثوقاً وإيماناً وأملاً بذلك، ولكنّهم لا يؤمنون بالرسالة، فلا يرون في الرسول ﷺ ميزة عليهم ولا يجدون لهم حاجة إلى الاستغفار، بل

يعتزّون بإثمهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾.[1] وليّ الرأس يدلّ على غاية الاستكبار وازدراء الآخرين، بحيث لا يجد حاجة إلى الجواب اللفظي، بل يكتفي بليّ رأسه، ويعلم بذلك إعراضه وعدم استجابته للدعوة.

قيل: إنّ الآية نزلت في عبدالله بن أُبيّ بعد ما قال كلمته المذكورة في الآيات التالية، حيث أتاه بعض المؤمنين، أو بعض قومه على اختلاف الروايات، وطلبوا منه أن يحضر عند الرسول ﷺ ويعتذر ليستغفر له، فأعرض عن ذلك استكباراً. وهو حقيق بالاستكبار لجهله وعتوّه وطمعه في رئاسة القوم. ولكنّ الظاهر أنّ الآية عامّة، وأنّ هذا شأن كلّهم أو أكثرهم ولا يمنع ذلك من انطباقها على عبدالله في تلك الواقعة.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾، أي أنّ استغفارك وعدمه سواء، أي متساويان، و«سواء» مصدر فلا يجمع ولا يثنى. وقد ورد مثل ذلك في قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.[2]

وربما يستغرب عدم استجابة دعاء الرسول ﷺ، بل المساواة بينه وبين عدمه فهو لا يؤثر شيئاً مطلقاً. ولكنّه ليس مستغرباً، والله تعالى لا يستجيب من الدعاء إلا ما يصلح للاستجابة حتّى لو كان من رسله، كما قال تعالى لنوح عليه السلام: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[3] وكما لم يستجب دعاء الرسل في هداية قومهم؛ لأنّ السنة الإلهيّة تقتضي اختيار الإنسان في قبول العقيدة

---

١. البقرة (٢): ٢٠٦.

٢. التوبة (٩): ٨٠.

٣. هود (١١): ٤٦.

وردّها. هذا ويلاحظ أنّ الآية لا تدلّ على أنّه ﷺ استغفر لهم والله تعالى لم يغفر لهم، بل تدلّ على حكم تعليقي وهو عدم قبول الاستغفار لو وقع.

﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ حيث كان الاستغفار بنفسه غير مفيد ما لم يتب المذنب، وما لم يعد إلى حظيرة الإيمان ويترك فسقه وخروجه عن طاعة الله تعالى، أشار في هذه الجملة إلى سبب عدم استجابة الدعاء، وهو أنّ الاستغفار لا يفيد ما دام فاسقاً، فلا بدّ قبل تأثير الدعاء من هدايته، وهو لن يهتدي، لأنّه فاسق مصرّ على فسقه بعد تبصّره ومواجهته للحقّ وآياته البيّنات، ومن سننه تعالى عدم هداية الفاسق مع إصراره.

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا﴾، «الانفضاض»: التفرّق. وظاهر قوله: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ أنّ هذا من مبادئهم وعاداتهم، وليس كلاماً عابراً في قضية خاصّة، فهم يعتقدون أنّ اجتماع المؤمنين حول الرسول ﷺ ليس إلا لأنّهم فقراء فيجتمعون للتسكّع.

والظاهر أنّ خطابهم في النهي عن الإنفاق موجّه إلى أهل المدينة قبل الهجرة، فإنّهم كانوا أصحاب الثراء والأرض والرسول ﷺ ـ حسب ظنّهم ـ ليس له مال ينفق عليهم، فرزقهم يتوقّف على ما يتبرّعون به، فإذا امتنعوا من الإنفاق عليهم تفرّقوا عن الرسول ﷺ فتتحقّق أمنيتهم.

﴿وَلِلهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، هذا هو الجواب عن توهّمهم، فإنّ ما لدى الأثرياء من المال وإن اكتسبوه بعملهم إلا أنّه في الأصل من نتاج الطبيعة، وهي من خلق الله تعالى وكلّ ما في الكون منه، بل ما بذلوا من جهد وفكر وطاقة لتحصيله منه تعالى أيضاً، بل الإرادة والهمّ والتوفيق منه أيضاً، فالإنسان لا يمكنه

أن يكسب شيئاً إلا بإذنه تعالى وإرادته، بل لا يشاء إلا بمشيئته. وهو إن أراد أن يغني المؤمنين لفعل، ولكنّه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفقاً لنظام الكون والسنّة الإلهيّة وليبتلي الفقراء بفقرهم والأغنياء بغناهم.

و«الخزائن» جمع «خزانة» بكسر الخاء وهي ما يُحرز فيها المال ويُحفظ، والظاهر أنّ المراد بها هنا أمر معنوي، حيث إنّ أسباب النعم بيد الله تعالى، فكأنّها في خزانة مقفلة لا يملك مفتاحها إلا الله تعالى. والتعبير بـ ﴿السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، كما قلنا سابقاً يراد به الكون، أي كلّ ما في الكون من أسباب النعم فهي لله تعالى، فلا حاجة إلى البحث عمّا في السماء ممّا يؤثّر في نعم الأرض من أشعة الشمس والمطر وغير ذلك، ثمّ البحث عمّا يؤثّر فيها من العوامل الأرضية.

﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾. الفقه هو الإدراك العميق، وكون الأرزاق كلّها بيد الله تعالى يحتاج إلى درك عميق للكون، وارتباطه بالإرادة الإلهيّة وهو بعيد عن أفهام كثير من المؤمنين فضلاً عن المنافقين، كما أنّهم لا يفقهون أنّ الله تعالى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر وأنّ كلّ ذلك لحكمة إلهيّة وابتلاء للإنسان.

﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾، لا شكّ أنّ هذه الجملة تحكي عن قضيّة في واقعة، وأنّ مورد هذه الجملة حينما كان الرسول ﷺ وأصحابه خارج المدينة ومنهم المنافقون وصاحب هذه المقالة.

وقد ورد في أحاديث العامّة أنّ صاحب القول هو عبدالله بن أُبَيّ، وأنّه قال ذلك في غزوة بني المصطلق، والروايات مختلفة في نقل القصّة اختلافاً فاحشاً ممّا يمنع من الاعتماد عليها، حتّى أنّ بعض كبار مفسّريهم اعترف بذلك، وقد

ناقش بعض الأفاضل[1] في كتابه حول سيرة الرسولﷺ كلّ هذه الأحاديث، وبيّن وجوه الضعف والتناقض فيها، ولكن حيث لم يرد حديث في إسناد القول إلى غيره أو إليه في قصّة أُخرى، والآية كما قلنا ظاهرة في أنّ القول وقع في قصّة خاصّة، فلا يبعد أن يكون هو القائل، وأنّه قاله في نفس الواقعة، وإنّما الإشكال في ملابسات القضية ولا يهمّنا ذلك.

ونحن ننقل هنا القصّة باختصار من دون التعرّض لموارد الاختلاف، قالوا: إنّ رسول اللهﷺ بلغه أنّ بني المصطلق يجتمعون لحربه، فخرج إليهم حتّى لقيهم على ماء من مياههم يقال له المريسيع، فهزم الله بني المصطلق، فبينما الناس على ذلك الماء، إذ حدث بين رجلين ـ أحدهما من الأنصار، والآخر من المهاجرين ـ نزاع، فصرخ الأنصاري: يا معشر الأنصار، و صرخ المهاجر: يا معشر المهاجرين، فوقع القتال أو كاد أن يقع، فقال ابن أُبَيّ: قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال القائل: سمّن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ، يعني بـ «الأعزّ» نفسه وبـ «الأذلّ» رسول اللهﷺ، ثمّ أقبل على من حضره من قومه، فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم فضل الطعام لم يركبوا رقابكم ولأوشكوا أن يتحوّلوا من بلادكم ويلحقوا بعشائرهم ومواليهم.

فبلغ الرسولﷺ الخبر، فأرسل إلى عبد الله فأتاه، فقال: **«ما هذا الذي بلغني عنك؟»**، فقال عبد الله: والذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئاً من ذلك قطّ. ثمّ

---

١. راجع: الصحيح من سيرة النبي الأعظمﷺ، للسيد جعفر مرتضى ١٢ : ٢٧٩.

نزلت الآيات وتبيّن كذبه. وأشار بعضهم إلى الرسول ﷺ بقتله، فأبى، وقال: **«لا يتحدّث الناس أنّ محمّداً يقتل أصحابه»**.

ويلاحظ أنّه ﷺ عبّر عن هذا المنافق بأنّه من الصحابة، وهذه الجملة وردت في رواية الصحيحين أيضاً.

ثمّ رجعوا إلى المدينة، فلمّا أراد عبدالله أن يدخلها جاءه ابنه عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ حتّى أناخ على مجامع طرق المدينة، فقال: ما لك ويلك، قال: والله لا تدخلها إلا بإذن رسول الله ﷺ، ولتعلمنّ اليوم من الأعزّ من الأذلّ، فرجع حتّى لقي رسول الله ﷺ فشكا إليه ما صنع ابنه، فأرسل إليه النبي أن خلّ عنه يدخل ففعل.[1]

وبصورة عامّة يلاحظ الباحث أنّ هناك إصراراً من المؤرّخين والمحدّثين على حصر النفاق في عبدالله وأصحابه، وكلّ ما يروى من هذه القصص يقصد به ذلك، مع أنّ النفاق كان أخطر من ذلك، وفي القرآن الكريم أدلّة واضحة على أنّ خطرهم أكبر بكثير من خطر المشركين، وكذلك ورد في الأحاديث الكثيرة. كما أنّ الآيات تصرح بأنّ المنافقين غير معروفين، فلا يمكن أن يختصّ بهؤلاء الشرذمة، وقد تبيّن نفاقهم.

ومن المعروف في التاريخ والحديث أنّ الرسول ﷺ لم يخبر أحداً عن أسمائهم إلا حذيفة بن اليمان، وكان بعض الصحابة يتخوّف أن يكون من المذكورين، فيسأل حذيفة عن ذلك. ومع ذلك فلا يبعد أن يكون عبد الله هو صاحب هذا القول في قصّة غير واضحة في جزئياتها. والظاهر أنّ هناك أهدافاً

---

١. راجع: بحار الأنوار ٢٠: ٢٨١.

خاصّة وراء ذكر بعض الأسماء في هذه القصّة نعرض عن التعرّض لها.

﴿وَلله الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، تقديم الجارّ والمجرور للدلالة على الحصر، والمراد بـ«العزّة» هنا المَنَعة، وهي ما أراده المنافق في كلامه، ويقصد به أنّه يعتزّ ويتمنّع بقومه وعشيرته، وأنّ الرسول ﷺ دخيل عليهم، فليس له في هذه المنطقة قوم أو عشيرة إلا من كان معه من المهاجرين، وهم فقراء وعددهم قليل، فالآية ترد عليه بأنّ العزّة لله تعالى حصراً، كما أنّ كلّ شيء له حصراً، فلا يعتزّ أحد إلا به، وبما أولاه من قوّة ومَنَعة، فإن أراد أن يسلبه القوّة والمنعة فعل ولا يمنعه شيء فهو العزيز المطلق الذي لا يمتنع من إرادته شيء. وقد أولى هذه العزّة لرسوله ﷺ واعتزّ به المؤمنون. وما حدث بعد القصّة ممّا ورد في الحديث والتاريخ يؤكّد هذه العزّة، فقد قابله أقرب الناس إليه ولم يمنعه أحد منه إلا أمر الرسول ﷺ بإخلاء سبيله.

﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، لا يعلمون أنّ العزّة لله، وأنّ ما لديهم من عزّة إنّما هو منه تعالى، فإن نازعوا رسوله العزّة ووسموه بالذلّ فسيذلّهم الله تعالى في الدنيا قبل الآخرة كما فعل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١١﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾. بعد التعرّض لحال المنافقين وبعض أخطارهم وسوء صفاتهم ناسب أن ينهى المؤمنين من بعض ما يمكن أن يؤثّر في بروز صفة النفاق، فإنّ النفاق صفة نفسية ومرض في القلب، ربما يحصل للمؤمن، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ فلا بدّ للمؤمن من المجاهدة مع النفس الأمّارة المتقلّبة لئلا يفقد إيمانه أو يتزلزل ويضطرب، وكم رأينا وسمعنا في التاريخ من المؤمنين البارزين الذين قدموا تضحيات في سبيل الدين ثمّ استهوتهم شؤون الدنيا فانحرفوا عن الحقّ، ومع ذلك بقي الدين لعقاً على ألسنتهم، وهذا هو النفاق ـ نستجير بالله منه ـ فكلّ منّا مُعرَّض لهذا الامتحان.

ومن هنا يتبيّن أنّ الغرض من ذكر الأموال والأولاد أقوى الأمور التي يبتلى بها الإنسان بوجه عامّ في هذا المجال، وإلا فشؤون الدنيا الموجبة للتلهّي عن ذكر الله تعالى لا تختصّ بهما، بل ربما يكون منها ما هو أقوى إلا أنّه ليس من الشؤون التي يَعمّ الابتلاء بها كالسلطة والمنصب الرفيع ونحو ذلك.

و«الإلهاء» من اللهو بمعنى الانشغال بأمر تافه عن أمر مهمّ، وذكر الله تعالى أهمّ شيء في حياة الإنسان، لأنّه هو الذي يبعثه على التقوى ويمنعه من ارتكاب المآثم ممّا تكون فيه سعادته الأبدية.

والمراد بـ «ذكر الله تعالى» الذكر القلبي بمعنى استمرار الإنسان على ذكر ربّه في كلّ أحواله وخصوصاً إذا تعرّض لما يستهويه من المحرّمات والمآثم، ولا يبعد الشمول للذكر اللفظي أيضاً؛ لأنّه يقوّي الإيمان ويؤثّر بعمق في طمأنينة القلب، كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.[1]

ومن لطيف التعبير أنّ النهي وجّه إلى الأموال والأولاد، وطلب منها عدم الإلهاء، مع أنّ التكليف موجّه إلى الإنسان بأن لا يلتهي بها. ونظير ذلك كثير في القرآن وفي التعابير المتعارفة في شتّى اللغات، كما قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾،[2] وقال: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾.[3] ولعلّ السرّ في اختيار هذا التعبير تنزيه المخاطب من أن يكون هو بنفسه يعمل ما لا ينبغي، وإنّما تؤثّر عليه هذه العوامل الخارجية. وهذا يؤثّر تربوياً في نفسية المخاطب كما هو واضح.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، التعبير باسم الإشارة وضمير الفصل يفيد الحصر، أي من يلتهي بشؤون الدنيا عن ذكر الله تعالى هو الخاسر الوحيد؛ لأنّه اشتغل بأمر لا ينفعه، بل يضرّه، وانصرف عن أمر واجب تتوقّف عليه سعادته في الدنيا والآخر، وأيّ خسارة أعظم من هذا؟! والوجه في الحصر أنّ كلّ الخاسرين يوم القيامة يدخلون تحت هذا العنوان، أي الالتهاء بالدنيا عن ذكر الله تعالى.

ويلاحظ تبدّل التعبير، ففي الجملة السابقة اعتبر الإلهاء المنهيّ عنه من فعل

---

١. الرعد (١٣): ٢٨.

٢. الأعراف (٧): ٢٧.

٣. لقمان (٣١): ٣٣؛ فاطر (٣٥): ٥.

الأموال والأولاد، وفي هذه الجملة اعتبر موضوع الخسارة فعل المكلّف، والسبب أنّ ما استوجب عدم الخطاب في النهي صريحاً ـ كما ذكرنا ـ غير موجود هنا، لأنّه التهى حسب الفرض عن ذكر الله تعالى فتحقّقت فيه الخسارة بالفعل.

﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ بيان لأهمّ ما يترتّب على عدم الانشغال بالأموال والأولاد، وهو الإنفاق في سبيل الله تعالى، فإنّ من آثار عدم الالتهاء بالمال عدم الاهتمام به، ومن ثَمَّ إنفاقه على موارد الاستحقاق وهو أيضاً ينشأ من عدم الالتهاء بالأولاد غالباً؛ لأنّ الغالب في التقتير وترك الإنفاق هو من أجل الصرف على الأولاد والاهتمام بمستقبلهم وبصورة عامّة الإنفاق في سبيل الله تعالى لا يجتمع مع الالتهاء والانشغال بالدنيا.

والتعبير عن الأموال بقوله: ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ للتنبيه على أنّ ما تنفقونه ليس إلا من عطاء الله تعالى، فلا فضل لكم إن أنفقتم في سبيله تعالى، لئلا يستعظم الإنسان عمله. و«من» للتبعيض، أي أنفقوا بعض ما رزقناكم، والآية ليست في مقام بيان ما يجب إنفاقه وما يستحبّ، وإنّما القصد منها الحثّ على أصل الإنفاق وعدم البخل قبل فوات الأوان، فهناك موارد للإنفاق الواجب كزكاة المال والفطرة وما يوجبه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أو الإمام الحقّ ونفقة الزوجة والوالدين والأولاد ونحو ذلك، ومنها إنقاذ الجائع والمريض المشرف على الموت أو الضرر البليغ، فإنّ ذلك واجب كفائي على كلّ من اطّلع على حاله، ولا يجوز للإنسان أن يمتنع من الإنفاق على الفقير المشرف على الهلاك لجوع أو مرض، بدعوى أنّه أدّى الزكاة والخمس الواجبين.

﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ «أصّدّق» أي

أتصدّق، و«لولا» أداة تحضيض تفيد هنا الطلب والتمنّي، وهذا تمنّ بعد الموت، فقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾، أي قبل موته، وليس معناه ـ كما قيل ـ ظهرت له أمارات الموت؛ لأنّ نفس التعبير ورد في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾،[1] ومن الواضح أنّ المراد به بعد الموت لمكان قوله: ﴿ارْجِعُونِ﴾، فهو في الواقع يطلب الإرجاع لا الإمهال، والسبب في ذلك أنّ الإنسان لا ينتبه حتّى بعد ظهور أمارات الموت، وإنّما ينتبه بعده وبعد أن فات الأوان.

وهو يتمنّى التأخير إلى أجل قريب، أي مدّة قليلة مع أنه عمّر في الدنيا بمقدار يكفيه للعمل، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾،[2] ولكنّه لم يتنبّه طيلة هذه المدّة، وقد عاصرنا أُناساً ملكوا الملايين ولم يدفعوا الحقّ الواجب عليهم، حتّى بعد أن ظهرت أمارات الموت، وإنّما أوصوا بذلك بعد مماتهم واختلف الورّاث بعدهم ولم يعمل بوصاياه ولا أظنّ العمل بها يفيده.

ويلاحظ الفرق بين «أصّدّق» فقد أتى منصوباً و«أكن» حيث أتى مجزوماً، ولعلّ الوجه في ذلك أنّ الأوّل جواب التمنّي، حيث قالوا: إنّه يأتي منصوباً، كما في قوله تعالى: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[3] والثاني جواب شرط مقدّر، أي فإن أتصدّق أكن من الصالحين، فيظهر من ذلك أنّ من شروط الصلاح التصدّق بالمال. والمراد به الصلوح للدخول في حظيرة القرب لدى الله تعالى

---

١. المؤمنون (٢٣): ٩٩ ـ ١٠٠.

٢. فاطر (٣٥): ٣٧.

٣. الأنعام (٦): ٢٧.

ودخول الجنّة، فمن كان قادراً على الإنفاق ولم ينفق فقد خرج عن دائرة الصلاح.

والقرآن يؤكّد كثيراً على الدخول في مجموعة الخيّرين الصالحين والصادقين والراكعين، كما قال تعالى خطاباً لمريم عليها السلام: ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾،[١] وخطاباً للمؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾،[٢] ويمدح عيسى عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾،[٣] ومثل ذلك كثير. ولعلّ ذلك لتأديب المؤمن أن لا يشعر بميزة له على غيره في صلاته وصلاحه، بل يشعر أنّه ضمن مجموعة صالحة، بل يشعره القرآن بآياته أنّه يصلّي كما تصلّي كلّ أجزاء الكون: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾.[٤]

﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إذا جَاءَ أَجَلُهَا﴾، المراد بـ«الأجل» الوقت المحدّد في علم الله تعالى لموت الإنسان بلحاظ جميع المقتضيات والعوامل الخارجية والذاتية، فالإنسان له أجل ذاتي وهو ما تقتضيه عوامل البقاء في جسمه بحيث لو لم يطرأ عليه، أي عارض خارجي مهلك، فإنّه لا يتعدّى ذلك الأجل، وله أجل مسمّى، أي محدّد عند الله بلحاظ كلّ المؤثّرات الخارجية والذاتية، فقد يكون من قضاء الله تعالى أنّه يصاب بحادث فيموت قبل أجله؛ قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾،[٥] فالأجل الذي قضاه حين خلقه من طين، أي من الموادّ الأرضية هو ما تقتضيه ذاته من عوامل البقاء، والأجل المسمّى، أي

---

١. آل عمران (٣): ٤٣.

٢. التوبة (٩): ١١٩.

٣. آل عمران (٣): ٤٦.

٤. الإسراء (١٧): ٤٤.

٥. الأنعام (٦): ٢.

المقدّر بلحاظ كلّ المؤثّرات.

والأجل بهذا المعنى كسائر المقدّرات قد يكون محتوماً وقد يكون تابعاً للمتغيّرات، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾،[1] فالمحتوم لا يعلمه إلا الله تعالى وهو ما في أُمّ الكتاب، وهو ما لا يمكن أن يتغيّر، والمقدّرات المتغيّرة هي ما تمكن معرفته لبعض البشر بالطرق العلمية وبحساب الاحتمالات، ولبعضهم بطرق غيبية، ولكنّها ليست حتميّة لإمكان عروض ما يغيّر هذا التقدير.

والحاصل: أنّ الأجل المحتوم إذا جاء لا يمكن تأخيره طبيعياً، وكلّ ما لا يمكن طبيعياً إذا أُسند إلى الله تعالى أُسند بنحو نفي الأبد، وهذا ما يفيده «لن»، وذلك لأنّه تعالى لا يقيّد إرادته شيء حتّى ما قضاه وقدّره، ولكنّه لا يغيّر تقديره ولن يغيّره، فقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ﴾ بمعنى أنّه لا يمكن وقوعه خارجاً.

﴿وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. قيل: إنّ هذه الجملة تعود إلى كلّ الآيات حيث نهى عن التلهي وأمر بالإنفاق، فأعلمهم هنا أنّه خبير بحقيقة أعمالهم ليجازيهم بها، ولكنّ الأولى أن يقال: إنّها مكمّلة للجواب عن هذا التمنّي، وذلك كما جاء في آيات أُخرى أنّه لا فائدة من إرجاعكم، والله تعالى خبير بأعمالكم وما تستتبع من نتائج، فإنّكم حتّى لو عدتم لعدتم على نفس الوتيرة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا

---

١. الرعد (١٣): ٣٨ ـ ٣٩.

لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾،[١] وغير ذلك من الآيات.

والسرّ في ذلك أنّ الإنسان المعاند للحقّ يحاول أن يأوّل كلّ ما يراه حتّى لا ينصاع للحقّ، فلو أحيا الله تعالى أحداً منهم بعد ما رأى ما بعد الموت وتمنّى الرجوع ليصلح نفسه، فسيفرح بعافيته ويخدع نفسه بأنّ ما رآه لم يكن إلا كابوساً أو سحراً، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾.[٢]

والحمد لله أوّلاً وآخراً والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمّد المصطفى وآله الطيّبين الطاهرين.

---

١. الأنعام (٦): ٢٧ ـ ٢٨.

٢. الحجر (١٥): ١٤ ـ ١٥.

# تفسير سورة التغابن

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ
قَدِيرٌ ١ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٣
يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ
ٱلصُّدُورِ ٤

اختلفوا في أنّ هذه السورة مكّية أم مدنيّة، وحكي عن ابن عباس أنّها مكّية إلا الآيات الثلاثة الأخيرة. وقال العلامة الطباطبائي رحمه الله: إنّ سياقها تشهد على كونها مدنيّة،[1] وقيل بالعكس، نظراً إلى أنّ آياتها الأُولى أوفق بمخاطبة المشركين.

ولكنّ الظاهر أنّها مدنيّة؛ لأنّ الغرض الأساس منها ـ على ما يبدو ـ هو الحثّ على الإنفاق في سبيل الله وإطاعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وتبدأ بالتسبيح والتمجيد لبيان

---

١. الميزان في تفسير القرآن ٩: ٢٩٤.

استغنائه تعالى عن خلقه وعباده في إنفاقهم وطاعتهم. ولم يرد فيها ما يناسب الخطاب للمشركين، وإنّما ورد فيها التنبيه على الاعتبار بما نزل على الأُمم السالفة من العذاب، وأنّ ذلك أنّما كانت نتيجة عدم إطاعتهم لرسلهم، وهذا ممّا يؤكّد كونها مدنيّة وأنّ الخطاب للمؤمنين، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

﴿**يُسَبِّحُ لله مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ**﴾، مرّ مثل هذه الجملة في أوّل سورة الجمعة، ومرّ تفسير التسبيح الكوني في أوّل سورة الحديد، ونضيف هنا أنّ بعضهم توهّم أنّ التعبير لا يشمل نفس السماوات والأرض، فذكر أنّهما مقدّران.

ويمكن القول بأنّه لا حاجة إلى تقدير، وأنّ هناك فرقاً بين موارد تكرار «ما» الموصولة، كهذه الآية وما لم تتكرّر. فإذا لم تتكرّر «ما» يمكن أن يقال: إنّ السماوات والأرض كناية عن الكون كلّه، فمعنى الجملة يسبّح له تعالى كلّ ما في الكون، أي الوجود فيشمل نفس السماوات والأرض، وأمّا إذا تكرّرت فمعنى الجملة يسبّح له كلّ ما في السماوات وكلّ ما في الأرض، وحينئذٍ فيمكن تفسير السماوات بالعوالم العلوية الخارجة عن نطاق المادّة، وتفسير الأرض بالعوالم السفلية المادّية لتشمل كلّ الكون أيضاً، فإنّ السماوات ـ بناءاً على ما ذكرنا ـ لا يراد بها مكان خاصّ، بل عالم خاصّ وهو جامع اعتباري، وكذلك الأرض.

﴿**لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾، تقديم الجارّ والمجرور لإفادة الحصر، فالملك ليس إلا له تعالى، والحمد والثناء أيضاً خاصّ به، فمن يملك شيئاً أو يتسلّط على شيء، فإنّما هو بتمليكه وتسليطه تعالى وليس ذلك تفويضاً، بل الملك والسلطة كأيّ أمر آخر متقوّم بقاءاً أيضاً بإرادته تعالى، مع أنّ سلطة

غيره تعالى محدودة وخاصّة، فالسلطة الذاتية العامّة المطلقة ليست إلا لله تعالى، والملك ـ كما مرّ في تفسير سورة الحديد ـ هو التمكّن من التصرّف، وقد تعارف التعبير عن السلطة العامّة بالمُلك بضمّ الميم، وعن السلطة الشخصية على ما تحت اليد بكسره، وكلّ منهما قد تكون سلطة تكوينية، وقد تكون اعتبارية وقانونية.

والحمد كلّ الحمد أيضاً له تعالى، فكلّ ثناء لغيره يعود إليه؛ لأنّ الثناء والحمد لا يكون إلا لصفة حسنة أو لفعل حسن ولا يكون ذلك إلا بإيجاده تعالى. ويقصد بالطبع الحمد في مورد الاستحقاق، وأمّا ما يصدر من الثناء لمن لا يستحقّه ـ وهو أكثر موارده ـ فليس في الواقع إلا كذباً وتزويراً.

وحصر الملك والحمد فيه تعالى، وبيان عموم قدرته على كلّ شيء مقدّمة للأمر بالإطاعة والإنفاق. والغرض أن لا يتوهّم المخاطب أنّه تعالى يحتاج إلى إطاعة الإنسان أو عبادته أو إنفاقه، فهو المالك المطلق وهو قادر على كلّ شيء، فإنفاق العباد وطاعتهم أنّما تنفعهم فحسب، والحمد والثناء له إذا وفق الإنسان لصلاة أو زكاة أو غيرهما.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾. الخطاب للبشر وهو امتنان عليهم بالخلق والإيجاد. و«الخلق» في الأصل هو الصنع، وقيل: التقدير. والتعبير يفيد الحصر، وأنّه تعالى هو الخالق لا غيره حيث أتى بالضمير واسم الموصول. وفيه إشارة إلى استغراب الكفر من أكثر الناس وتوجّههم إلى عبادة غيره تعالى.

والفاء لبيان أصل تفرّع الإيمان والكفر على الخلق، ولا يفيد شمول الخلق للإيمان والكفر، وإن كانا كغيرهما مخلوقين لله تعالى إلا أنّ الآية لا يقصد بها إفادة ذلك، فلا وجه لما أطال بعضهم في تأويل الآية فراراً من القول بالجبر.

ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾،[١] فإنّ الفاء لا تدلّ هنا على أنّ السبب في الانقسام إلى مهتد وفاسق هو جعل النبوّة والكتاب في الذرّيّة، وإنّما تدلّ على أنّ الانقسام حصل فيهم بعد هذا الجعل.

و«من» للتبعيض، أي بعضكم كافر وبعضكم مؤمن. والغرض من بيان ذلك التنديد بمن كفر من البشر، فإنّ المتوقّع منهم جميعاً أن يؤمنوا بخالقهم. وفي التنبيه على كفر الإنسان بعد بيان أنّ كلّ الكون يسبّح لله استنكار شديد لتعنّت هذا المخلوق وعناده أمام الحقّ الذي إنصاع له الكون كلّه.

﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تحذير للإنسان بأنّ الذي خلقه لم يغفل عنه، بل يشرف على كلّ أعماله ونواياه، وإشرافه بالمباشرة فهو يبصر كلّ أعماله. وقد مرّ أنّ الإبصار لا يراد به العلم بالمبصرات ـ كما قالوا ـ فإنّه لا يؤثّر التأثير النفسي المقصود وهو الإحساس بمباشرة الإشراف والرقابة الإلهيّة على كلّ صغيرة وكبيرة وعلى كلّ ما يخطر بالبال، بل المراد به نفس الإبصار بحقيقته إلا أنّ الإبصار لا يجب أن يتمّ دائماً بالعين، فهو تعالى يبصر بغير آلة لأنّه محيط بكلّ شيء.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾، الظاهر أنّ المراد بالسماوات والأرض كلّ الكون بجميع عوالمه، سواء الطبيعة أو ماوراءها. والحقّ: الأمر الثابت. وفي المراد بالخلق بالحقّ احتمالان:

الأوّل: أنّ الكون يسير على سنّة ثابتة وقانون دائم متناسق لا تغيير فيه ولا

---

١. الحديد (٥٧): ٢٦.

تبديل، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾[١] ولعلّ الغرض من التنبيه على ذلك في هذا المقام إثبات كون الإنسان مراقباً بجميع أعماله، فإنّ مقتضى سلطة القوانين الصارمة الكونية أن لا يشذّ شيء ـ مهما كان حقيراً أو صغيراً ـ عن الرقابة الكونية الإلهيّة وعن المحاسبة وترتّب الآثار، إمّا في هذه الحياة، وإمّا في حياة أُخرى.

والثاني: أنّ الكون لم يخلق عبثاً ولعباً، بل لهدف مهمّ وهو ترتّب الجزاء على أعمال الإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٢] وعلى كلا التقديرين تكون هذه الآيات مقدّمة للتنبيه على البعث. ولذلك نبّه قبل هذه الآية على انقسام الناس إلى مؤمن وكافر.

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ عطف على ﴿خَلَقَكُمْ﴾. و«الصورة»: الشكل والهيئة. و﴿صَوَّرَكُمْ﴾ : أي منحكم الصورة، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾.[٤]

والمعروف في التفاسير أنّ المراد بالصورة، الصورة الإنسانية العامّة، وأنّ الحسن فيها أنّما يلاحظ بالنسبة إلى سائر الحيوانات، سواء في ذلك صورته الجسمية وصورته المعنوية؛ فالإنسان هو أكمل الأحياء في الأرض جسماً وروحاً وعقلاً وإدراكاً، ومن ثَمّ جعله الله خليفته في الأرض وهو من جهة الجسم يجمع

---

١. الأحزاب (٣٣): ٦٢.
٢. الدخان (٤٤): ٣٨ ـ ٤٠.
٣. آل عمران (٣): ٦.
٤. الانفطار (٨٢): ٨.

بين الكمال والجمال وإن اختلف الأفراد في الأمرين، إلا أنّ الشكل البشري العامّ جميل جدّاً، وفي غاية الجمال والكمال وكلّ أجزاء جسمه وروحه وإدراكه بوجه عامّ متناسقة، وكلّ منها يكمل الآخر، ولذلك كانت بأجمعها وافية بكلّ ما يراد منها في سبيل تكامل الإنسان وبلوغه الهدف الأسمى من خلقه.

ولكنّ الظاهر من الآية أنّ المراد بالصورة الهيئة التي يمتاز بها كلّ شخص عن غيره، لا الصورة العامّة لجسم الإنسان وروحه، وذلك لأنّه لو كان المراد هذا المعنى لكان الأولى، بل الصحيح أن يقال: فأحسن صورتكم؛ لأنّ المفروض أنّها صورة واحدة في جميع أفراد البشر، فهذه القرينة تدلّ على أنّ المراد الصور المختلفة التي يمتاز كلّ إنسان بها عن غيره، فالغرض أنّه تعالى هو الخالق المباشر لكلّ جزئية وخصوصية.

وكم في هذا التصوير من أسرار وآيات؟! فلكلّ إنسان هويّته البارزة في ملامح وجهه لا يشاركه فيها أحد، ولكلّ أحد هويّته الخاصّة به أيضاً في خطوط بنانه. ناهيك عن أسرار كلّ عضو داخلي وخارجي وخصائصه الغريبة، وأغرب منها خصوصياته النفسية والعقلية، فكلّ ذلك من عظمة التصوير. وكثير ممّا في الإنسان من خصائص أنّما هي من صورته الشخصية الخاصّة به، فإنّها هي التي تحكي عن الكيان الشخصي، والمادّة هي الأمر المشترك.

وعليه فالمراد بالحسن هو حسن صورة كلّ إنسان في نفسها، فالمعنى على الظاهر تناسب أعضاء كلّ إنسان بعضها مع بعض، وتناسب طبيعته مع البيئة التي يعيش فيها من حيث اللون والشكل والحجم، وتوافقها مع الغرض المنشود من خلقه، سواء في الطبيعة أو في النظام الكوني بوجه عامّ، ومنه خلافته

فـي الأرض ورجوعـه إلـى الله تعـالى الـذي يـشير إليـه فـي الجملـة التاليـة. وليس المراد من الحسن، الجمال وصباحة المنظـر، فإنّـه إنّمـا يُـدرك ويُلاحـظ بالقياس إلى غيره.

﴿وَإِلَيْهِ الْـمَصِيرُ﴾. «المصير»: النهاية. والظاهر أنّ الالف واللام بدل عـن ضـمير الخطاب، أي وإليه مصيركم. وربما يُتساءل: وهـل بَعُـد الإنـسان عـن ربّـه حتّـى يرجع إليه؟! فإنّ الواقع أنّه ـ كغيره من الموجودات ـ يستمدّ دائماً وأبداً من لطفه وعنايته ويعيش تحت عينه ورقابته، فما هو معنى الانتهاء إليه تعالى؟

والجواب: أنّ هناك خصوصية فـي الإنـسان تـدعوه إلـى الـشعور بالاسـتقلال والانفراد، وتلك الخصوصية سلطته على ما يريد وكونه مختاراً. وهـذا الأمـر هـو الذي استوجب له الخلافة الإلهيّة في الأرض، فمعنى رجوعه إلى الله تعالى سلب هـذا الاختيـار منـه فـي عـالم لا تحكمـه القـوانين الطبيعيـة فيـزول عنـه الـشعور بالاستقلال، وحيث إنّ الإنسان لا يشعر بسلب الاستقلال في هذه الحياة، فلا بـدّ من عالم آخر ينتهي فيه إليه تعالى شعوراً وإحساساً ويحضر لديه فقد يكون مقرّباً مثاباً، وقد يكون ملعوناً معذّباً.

﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، لا شكّ أنّه تعالى عالم بكلّ صغيرة وكبيرة فـي الكـون؛ لأنّ شـيئاً لا يحـدث إلا بأمره وإرادته وتحت سلطانه وتقديره. ولكنّ الغرض من التنبيه على عموم العلم هنا التنبيه على شمول علمه لكلّ ما يعمله الإنسان، وما يخطر بباله، وما ينويه فـي أعماله. فهذه الجملة مقدّمة لما يتلوها، فإنّ علمه الشامل لكـلّ شـيء ولكـلّ ذرّة وأصغر منها يشمل أيضاً ما يسرّه الإنسان من أعمال ويخفيها عن أعين الآخرين،

كما أنّه تعالى عليم بالنوايا وما يختلج في الأفئدة، والدوافع التي قد لا يلتفت إليها الإنسان بنفسه.

والمراد بـ «الصدور» القلوب تسمية للحالّ باسم المحلّ، ولا نقصد بالقلب العضو الخاصّ كما هو واضح، بل النفس الإنسانية. و«ذات» مؤنّث «ذو» بمعنى صاحب، فالمراد بـ «ذات الصدور» الأسرار الكامنة في النفس التي تصاحبها ولا تفارقها، حيث لا يبوح بها الإنسان لأحد، بل ربما يغفل عنها بنفسه أو لا يعلم بها أساساً.

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى
ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ
لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ
أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن
يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ذكر المفسّرون ـ حتّى من قال: إنّ السورة مدنيّة كالعلامة الطباطبائي ـ أنّ الخطاب في هذه الآيات للمشركين، وهو غريب. واعتبار السورة مكّية من أجل هذا الخطاب أغرب. ولا مانع من خطاب المؤمنين بهذه الآيات، تحذيراً من مخالفة الرسول ﷺ، وتنبيهاً على أنّ مخالفته حتّى في أمر واحد للتشكيك في صدق إنبائه عن الله تعالى كفر بالرسالة وموجب للهلاك. وقد مرّ قريباً وجود مثل هذا الريب في قلوب بعض المؤمنين حتّى المعروفين منهم بالصلاح والوفاق فضلاً عن أهل النفاق.

ومهما كان الخطاب، فالمراد تحذير من عاصر الرسول ﷺ أينما كانوا من مخالفة أمره فهو رسول من الله تعالى لجميع البشر. والتحذير يبتني على ملاحظة ما جرى على الأمم السالفة، حيث كذّبوا رسلهم، فنزل عليهم عذاب الدنيا

واستحقّوا بذلك عذاب الآخرة وهو المراد بالعذاب الأليم الموعود.

و«الوبال»: الثقل والشدّة، ومنه المطر الوابل، أي ما كان قطره كباراً. والمراد بقوله: ﴿أَمْرِهِمْ﴾ كفرهم ومخالفتهم لرسلهم، ووباله نتائجه السيّئة الوخيمة. والتعبير بـ«الذوق» بيان لشدّة تأثير العذاب عليهم، فإنّ التذوّق أقرب الأحاسيس إلى الإنسان، حيث إنّ ما يتذوّقه يدخل جسمه ويكون جزءاً منه. وهكذا كان عذاب الأُمم السالفة، حيث كان يقضي عليهم ويبيدهم عن آخرهم، ولا يبقي لهم حتّى ذكراً حسناً جميلاً بعدهم، ولذلك يعبّر عنه القرآن بعذاب الخزي.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ «ذلك» إشارة إلى نزول العذاب عليهم. والغرض تحذير الناس في عهد الرسول ﷺ من مغبة مواجهته بمثل ما سبق من الأُمم السالفة، حيث نزل عليهم العذاب في الدنيا وسيعذّبون في الآخرة أيضاً، وذلك لأنّهم استكبروا ورفضوا الانصياع لدعوة الرسل بحجّة أنّهم بشر مثلهم.

والتعبير بـ «أنّ الرسل كانت تأتيهم» يدلّ على استمرار الرسالات، وأنّ كلّها كانت تأتي بالحجج الواضحة البيّنة كلّ بمقتضى زمانه، فلم يكن هناك ما يقتضي الشكّ في صحّة الرسالة، ولم يكن للمرسل إليهم عذر مقبول، وإنّما تشبّثوا بعذر متكرّر بين الأقوام وهو الاستنكاف من قبول رسالة البشر، وأنّ الله تعالى لو أراد هدايتهم لأرسل إليهم ملائكة من السماء.

ويدلّ قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا﴾ بعد قوله: ﴿كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ﴾ ، أنّ هذا الجواب كان هو جواب الجميع وكأنّهم اجتمعوا وقالوا ذلك في كلمة واحدة. والاستفهام في ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ للاستنكار، ومعناه أنّه لا يمكن أن يهدينا البشر.

﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللهُ﴾. «التولّي»: الإعراض، والفاء تدلّ على الترتّب وأنّ كفرهم وإعراضهم نشأ من استكبارهم واستنكافهم عن قبول دعوة الرسل. و﴿اسْتَغْنَى﴾ وإن كان من باب الاستفعال، إلا أنّه ليس بمعنى طلب الغنى في هذه المادّة، بل بمعنى غَنِيَ، ومثله قرّ واستقرّ.

وقد وقع الإشكال في أنّ الفعل يدلّ على حدوث الاستغناء حين كفرهم وتولّيهم، مع أنّه تعالى غنيّ بالذات! فقيل: إنّه بمعنى الحال، أي كفروا والحال أنّه تعالى مستغنٍ عنهم. وقيل: إنّه بمعنى إظهار الغنى، فالذي حدث آنذاك أنّه تعالى أظهر استغناءه عنهم وعن إيمانهم، وذلك بأن أنزل عليهم العذاب وأهلكهم. وهذا القول أقرب. والغرض من ذلك بيان أنّه تعالى لا يبالي بأن يهلك قوماً بأجمعهم، بل يهلك من في الأرض جميعاً، فإنّ بعض النفوس يستبعد ذلك، والقرآن يصرّح بأنّ ذلك ليس على الله بعزيز، كما قال تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾،[1] وقال أيضاً: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شيئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾.[2]

﴿وَاللهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾، الجملة تعليل لما مرّ من إظهار استغنائه تعالى بإهلاك الأقوام السابقة، فإنّه تعالى غنيّ بالذات لا يفتقر إلى إيمان عباده أو عبادتهم ولا يهمّه بقاؤهم وحياتهم، ولا يثقل عليه هلاكهم، بل لا يهتمّ بفناء الكون بأجمعه، فهو لا يتعب ولا يثقل عليه خلق الكون بكلّ ما فيه من دقّة، فإنّما أمره إذا أراد شيئاً ـ مهما كان ـ أن يقول له كن فيكون.

---

١. الشمس (٩١): ١٤ ـ ١٥.

٢. المائدة (٥): ١٧.

ولعلّ توصيفه تعالى بـ «الحمد» بعد التوصيف بـ «الغنى» للإشارة إلى أنّه مع غناه التامّ لا يقدم على مثل ذلك ولا يهلك الناس جميعاً، بل لا يهلك الأقوام المستحقّين للهلاك أيضاً إلا في إطار السنة الإلهيّة العامّة، وذلك لأنّه حميد الصفات ومن صفاته الحميدة العفو والستر والرحمة، بل إنّ رحمته تعالى سبقت غضبه.

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾، «الزعم» هو القول المشكوك في صحّته، ويطلق على الادّعاء الباطل، أو ما يحتمل بطلانه، وهو من أفعال القلوب فيتعلّق بمفعولين، ولكنّ الغالب فيه تصدير متعلّقه بـ «أن» فيأول إلى مصدر مضاف يسدّ مسدّ المفعولين، والتأويل هنا «انتفاء بعثهم». و«لن» يدلّ على تأكيد النفي وتأبيده.

والمراد بـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، المشركون في الجزيرة العربية، ولا يختصّ بأهل مكّة كما قالوا ؛ لأنّ السورة مدنيّة، كما هو واضح من سياقها، وقد مرّ أنّ بعضهم توهّم أنّها مكّية لمكان هذه الآيات أو أنّ خصوص هذه الآيات مكّية.

والصحيح ـ كما مرّ ـ أنّ التعرّض لكلام المشركين وزعمهم لا يدلّ على كونها مكّية؛ لأنّ الأفكار الجاهلية كانت باقية في قلوب بعض من آمنوا ظاهراً، وهم المنافقون والذين في قلوبهم مرض، فكان من اللازم تحذيرهم من تبني هذه الأفكار الباطلة، مع أنّ المؤمنين الصادقين أيضاً كانوا في خطر من تأثير الرواسب الجاهلية، فتنبيههم بما ورد في هذه الآيات في محلّه، بل هو أهمّ من تنبيه المشركين.

وإنكار البعث من الأفكار التي يتبناها الوثنيّون قديماً مع اعترافهم بوجود الله تعالى وخالقيته للكون، وهو أمر خطير جدّاً، لأنّه يسلب المسؤولية عن الإنسان

أمام الله تعالى، فإن لم يكن هناك قانون نافذ وحكومة مسيطرة فإنّ الفساد والعدوان يعمّ المجتمع بلا وازع ولا رادع.

﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾، «بلى» حرف جواب يأتي بعد استفهام للنفي ويفيد الإثبات، كقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾[1] أو يأتي لإبطال النفي كما هنا. وأكّد الجواب بالقسم، وأقسم بربوبيته تعالى للإشارة إلى أنّ البعث مقتضى الربوبية، ولكنّه أضاف الربّ إليه ﷺ لأنّهم لا يعتقدون بربوبيته تعالى، فأراد بهذا الجواب إثبات الأمرين الذين ينكرهما المشركون، ثمّ أكّد أيضاً بالتصريح بالجواب بقوله: ﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾، مع أنّ ﴿بَلَى﴾ كاف في ذلك، وأتى به أيضاً مؤكّداً باللام والنون.

﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾، أي بعد البعث يأتي دور المحاسبة، وإعلام الإنسان بكلّ ما عمل في الدنيا، وهذا أيضاً مؤكّد باللام والنون وداخل تحت القسم، وهو الغاية من البعث، إذ لا أثر له لولا المحاسبة والجزاء. ويظهر من بعض الآيات أنّ إنباء الإنسان بأعماله يتمّ بعرض العمل بنفسه، فيرى الإنسان نفسه متلبّساً بالعمل وهو بذاته جزاء له أيضاً.

﴿وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾، التصريح بالاسم الجليل بدلاً عن الإتيان بالضمير، للإشارة إلى السبب، فالمعنى أنّ البعث والإنباء كأيّ أمر آخر يسير عليه، لأنّه هو الله تعالى خالق الكون من العدم. ويسير فعيل بمعنى المفعول من اليسر، أي ميسور وهو السهل الخفيف المنقاد. وكلّ شيء منقاد له تعالى، بل إنّ إعادة الخلق أسهل من خلق الكون ابتداءاً من العدم، وإن كانت الأمور متساوية بالنسبة

---

١. الأعراف (٧): ١٧٢.

إليه تعالى، فليس هناك سهل وأسهل.

﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾، الفاء للتفريع، فإنّ وجوب الإيمان مترتّب عقلاً على إمكان البعث والحساب. والآية السابقة تكفّلت لإثبات إمكانه بحجّة أنّ ذلك على الله يسير، فإذا كان البعث ممكناً وهو أمر خطير للغاية فالعقل يحكم بوجوب الإيمان بالله والرسول مقدّمة للعمل بما يوجب النجاة يوم الحساب.

والأمر بالإيمان يقتضي أن يكون المراد به أمراً اختيارياً لا حصول العلم أو الوثوق أو الظنّ. والواقع أنّ الإيمان كذلك، وهو ـ كما مرّ ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾[1] ـ العلم مع الالتزام وعقد القلب به بحيث يترتّب عليه لوازمه من العمل. وعقد القلب أمر اختياري، ولذلك قد يجتمع الكفر مع العلم، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾[2] وليس المراد الجحود باللسان، فإنّ المؤمن أيضاً قد يضطرّ إلى الإنكار.

والآية تدلّ على عدم كفاية الإيمان بالله تعالى وهو واضح؛ لأنّ العمل الصالح لا يمكن إلا بالإيمان بالرسالة التي هي الواسطة بين الله تعالى والخلق. ومن الإيمان بالرسالة الإيمان بالكتاب الذي أُنزل على الرسول ﷺ، وهو المراد بالنور الذي أنزله الله تعالى. والتعبير عنه بـ«النور» تكرّر في القرآن الكريم، كما عبّر عن التوراة والإنجيل أيضاً بذلك، نظراً إلى أنّ الكتاب المنزل من الله تعالى يشتمل على المعارف الإلهيّة التي ينير الطريق أمام السالك إلى الله تعالى،

---

١. الفتح (٤٨): ٤.
٢. النمل (٢٧): ١٤.

ويشتمل على شريعة السماء التي بالعمل بها يستنير الطريق إلى السعادة الأبدية يوم الحساب.

والملفت في التعبير الالتفات إلى ضمير المتكلّم مع الغير، مع أنّ المناسب ضمير الغائب لسبق ذكره تعالى، فقيل: إنّ السبب فيه التأكيد على كونه منزلاً من الله تعالى؛ لأنّ ضمير المتكلّم أقوى دلالة على المرجع من ضمير الغائب.

وقال العلامة الطباطبائي رحمه الله: لعلّ السبب التأكيد على كونه منزلاً منه تعالى بالشهادة، فهناك فرق بين أن يخبر أحد بشيء يسنده إلى أحد، وبين أن يسنده إلى نفسه، ففيه معنى الشهادة وهو آكد من الإخبار بقول مطلق.[1] وفي «روح المعاني»: إنّ السبب إبراز العناية بأمر الإنزال حيث أُتي بنون العظمة.[2] ولعلّ هذا أظهر الوجوه.

﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ تعليل لجملة مقدّرة داخلة في حيّز التفريع، كأنّه قال: فآمنوا بالله واعملوا ما شئتم من خير وشرّ، فإنّ الله خبير بما تعملون ويحاسبكم بأعمالكم يوم الحساب. وأُتي بالاسم الظاهر أيضاً للإشارة إلى السبب.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾، ظرف لقوله: ﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾ و ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾. والخطاب للبشر، فالله تعالى يجمعهم جميعاً من الأوّلين والآخرين يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾،[3] وقال أيضاً: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾،[4] وهو أمر في غاية الغرابة لا يكاد يتعقّله الإنسان.

---

١. راجع: الميزان في تفسير القرآن ٩: ٣٠٠.

٢. روح المعاني ١٤: ٣١٨.

٣. المرسلات (٧٧): ٣٨.

٤. الواقعة (٥٦): ٤٩ ـ ٥٠.

واللام في ﴿لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ بمعنى «في». و﴿يَوْمِ الْجَمْعِ﴾ يوم القيامة، وهو أيضاً «يوم الفصل» فهو يوم يجمع فيه الإنسان بعمله، ويجمع بين كلّ أحد وفريقه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾،[١] فإنّ الإنسان في هذه الحياة لا يعلم خصائص من يجتمع بهم، ولعلّه يرى حسب ظاهر الحال أنّ من يصادقه مناسب له، ويوم القيامة حيث تتبيّن كلّ الأسرار يعلم أنّه لا مناسبة بين بعض من اجتمعوا في صفّ واحد، فيذهب كلّ أحد إلى فريقه، وربما يفرّق بين الزوجين أو بين الآباء والأبناء أو بين الإخوان، فهناك يجتمع المتفرّقون هنا ويتفرّق المجتمعون، وهكذا يحدث الفصل والجمع معاً.

مضافاً إلى جمع كلّ البشر من الأوّلين والآخرين في مجمع واحد يتراءون ويتحادثون من دون تزاحم ومضايقة، وهو أمر في غاية الغرابة، ولكنّ الله تعالى قادر على كلّ شيء، وليس ذلك على الله بعزيز.

﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾. «الغبن» يأتي متعدّياً ولازماً، فالمتعدّي منه يستعمل في البيع ونحوه، ومعناه الخداع والتخسير في المعاملة، فيقال: غُبن الرجل في بيعه، أي ظُلم واهتُضم، واللازم منه يستعمل في الرأي، فيقال: غَبِن رأيُه إذا كان ضعيفاً. والمفسّرون واللغويون اعتبروا التغابن في هذه الآية من الأوّل، وقالوا: التغابن في القوم أن يخدع بعضهم بعضاً، وأنّ المراد تغابن الفريقين أهل الجنّة وأهل النار.

ومن الواضح أنّ الخداع لا يحصل في ذلك اليوم، فلو صحّ ما ذكروا، فالظاهر أنّ المقصود ظهور الخسارة لأهل النار في مواجهتهم لأهل الجنّة في الدنيا، حيث

---

١. التكوير (٨١): ٧.

إنّهم رضوا بالحياة الدنيا عن الآخرة، فتبيّن لهم يوم القيامة أنّهم قد خسروا المعركة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾،[١] بخلاف أهل الجنّة حيث قدّموا رضا الله تعالى على شؤون الدنيا، فربحوا أعظم ربح على الإطلاق.

بل هو في الواقع ليس من الخداع في شيء، فإنّ أهل الجنّة لا يحاولون في الحياة الدنيا إضلال غيرهم، بل إنّ ذلك يعتبر عندهم جرماً وإثماً عظيماً فهم يحاولون هداية أكبر عدد من البشر إلى ما هو الصلاح والفلاح، فالتعبير عنه بالغبن والخداع من هذه الجهة أيضاً بنحو من المجاز والتشبيه، أي إنّ حالهم كحال من خُدع في معاملته، فأحد الفريقين كأنّه غبن الفريق الآخر.

ولكن يمكن أن يكون التغابن من اللازم، وهو الضعف في الرأي أو الخسارة الذاتية من دون أن يكون هناك محاولة من الآخر لخداعه وتخسيره. وقد اشتبه بعض المفسّرين مع طول باعه في العربية، حيث اعتبره من باب المفاعلة التي تدلّ على الوقوع بين طرفين، مع أنّه تغابن، وليس مغابنة وهو من باب التفاعل، وهذا الباب لا يدلّ دائماً على ذلك، بل يختلف مدلوله بحسب الموادّ، فالتعالي والتعاظم والتنامي والتسامح والتساهل والتواني والتكاسل ونحوها لازمة وهي كثيرة، ومفادها يقرب من مفاد باب التفعل، نعم يفيد ذلك في مثل التضارب والتقاتل والتفاخر.

وعليه فيمكن أن يكون التغابن هنا من هذا القبيل، فلا يفيد معنى المغابنة، بل يفيد معنى التلبّس بالصفة أو ظهورها فيه، فكما أنّ التعالي بمعنى التلبّس بالعلوّ أو

---

١. الشورى (٤٢): ٤٥.

محاولته أو ظهور علوّه، كذلك التغابن يوم القيامة بمعنى التلبّس بالخسارة أو ضعف الرأي أو ظهور ذلك فيهم.

هذا، ويمكن أن يكون المراد الشعور بالخسارة لدى الجميع، فإنّ أهل الجنّة أيضاً إذا لاحظوا أهمّية العمل الصالح والآثار المترتّبة عليه يشعرون بالخسارة لما صرفوا من وقتهم في غير ذلك، وإن لم يتركوا واجباً ولا ارتكبوا محرّماً. وهذا نظير تسمية ذلك اليوم بيوم الحسرة، وهي الأسف، فإنّ ذلك أيضاً لا يختصّ بأهل النار.

ومهما كان فالإتيان باسم الإشارة مع كون الخبر معرفة يفيد الحصر ليبيّن أنّ الغبن والخسارة الواقعية هي ما يحصل في تلك الحياة لا الخسارة المادّية، فكأنّه لا خسارة إلا تلك الخسارة، كما أفاده أيضاً في آية سورة الشورى الآنفة الذكر حيث حصر الخاسرين في من خسروا في تلك الحياة.

**﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾** بيان لاختلاف حال الفريقين الموجب لحصول التغابن بأيّ معنى فرض، فالفريق الأوّل من يؤمن بالله ويعمل العمل الصالح. والفعل المضارع يدلّ على استمرار إيمانه وعمله، وليس بمعنى الاستقبال ـ كما توهّم ـ ليختصّ بمن يؤمن بعد نزول هذه الآية، إذ لا وجه للتخصيص.

وقوله: ﴿صَالِحاً﴾ صفة لمفعول مقدّر، أي ويعمل عملاً صالحاً. وقد ورد هذا التعبير في عدّة موارد من الكتاب العزيز. والصلوح معنى مبهم يختلف المراد به حسب الموارد، فهو هنا بمعنى العمل الذي يصلح للتقرّب به إلى الله تعالى، أو لنيل رضاه، أو دخول الجنّة. وقد ورد في القرآن بمعنى الصلاحية للزواج، قال

تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾،[١] أي الرقيق الذين يصلحون للزواج من مختلف الجهات، وقد يراد الصلوح لدخول الجنّة، كما في قوله تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾،[٢] فإنّ المراد هنا أنّ المؤمنين الموصوفين بأوصاف خاصّة في الآيات السابقة يدخلون جنّات عدن ويلحق بهم وبشفاعتهم آباؤهم وأزواجهم وذرّيّاتهم إذا كانوا يصلحون لدخول الجنّة، بأن لا يكونوا كفّاراً أو منافقين أو ممّن يلحق بهم في العقيدة أو العمل.

ولا يراد بقوله تعالى: ﴿وَيَعْمَلْ صَالِحاً﴾ كفاية العمل بواحدة من الصالحات في استحقاق الجنّة كما هو واضح، فلعلّ التنكير في الآية باعتبار اختلاف درجات الصلوح حسب اختلاف درجات الإيمان، فليس بالضرورة أن يعمل المؤمن ما هو الأصلح في كلّ مورد، وإنّما يجزيه أن يعمل ما هو الصالح.

كما أنّ التعبير بالعمل بالصالحات في آيات كثيرة جدّاً لا يعني العمل بجميعها حتّى لا يستحقّ الجنّة إلا من عمل بجميع الواجبات الشرعية ولم يأت بسيّئة إطلاقاً، فإنّه يختصّ حينئذٍ بالمعصومين وهو بعيد جدّاً، مع أنّه مخالف لموارد من هذا التعبير، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾[٣] حيث يدلّ على أنّ العمل بالصالحات لا ينافي وجود بعض السيّئات في صحيفة أعماله. ولكن لا يحتمل أن يكون المراد بها العمل ببعض الصالحات

---

١. النور (٢٤): ٣٢.
٢. الرعد (١٣): ٢٣.
٣. العنكبوت (٢٩): ٧.

على إطلاقه، إذ لا يخلو مؤمن من العمل ببعض الأحكام، مع أنّه ينافي قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾،[١] حيث يدلّ على أنّهم لا يستحقّون الجنّة بعملهم، مع أنّهم عملوا صالحاً.

ولم أجد من تطرق لهذا الموضوع إلا ما ذكروه باختصار في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الجنّة وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾،[٢] فإنّ الظاهر أنّ «من» تبعيضية، فتدلّ الآية على أنّ من يعمل بعض الصالحات يدخل الجنّة أيضاً، كما التزم به كثير من المفسّرين منهم الشيخ الطوسي من القدماء والعلامة الطباطبائي من المتأخّرين.[٣]

ولكنّ الزمخشري في «الكشّاف» أوّل الآية وتبعه جماعة بأنّ المراد العمل بما تحقّق موضوعه للمكلّف، فالوجه في التبعيض أنّ كثيراً من الناس لا يستطيعون العمل ببعض الأحكام كالحجّ والجهاد والزكاة لعدم تحقّق موضوعاتها بسبب فقدان بعض الشروط كالاستطاعة والسلامة والمال. ومعنى ذلك أنّ مناط الاستحقاق العمل بالجميع.[٤]

ولكنّه بعيد جدّاً، كما مرّ بيانه، مضافاً إلى أنّ هذا التوجيه غير صحيح أساساً، إذ لا عبرة بالأعمال التي لم يطلب من المكلّف، ولا تعتبر من الصالحات بالنسبة له، بل ربما يكون العمل من أحد صالحاً ومن آخر سيّئاً، فالمناط في صدق

---

١. التوبة (٩): ١٠٢.
٢. النساء (٤): ١٢٤.
٣. راجع: التبيان في تفسير القرآن ٣: ٣٣٩ و الميزان في تفسير القرآن ٥: ٨٧.
٤. راجع: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ١: ٥٦٨.

الصلوح هو ظروف المكلّف ومناط التكليف، ومن هنا ذهب بعضهم كالطبرسي إلى أنّ «من» زائدة،[1] وهو أيضاً بعيد، إذ ليس هذا من موارده.

والظاهر أنّ الوجه في التبعيض التخفيف على المؤمنين، والله تعالى خالق البشر والعالم بكلّ شؤونه، فلا يتوقّع منه أن لا يترك واجباً ولا يعمل حراماً مطلقاً، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾،[2] فالذي يبدو أنّ المناط في الاستحقاق هو ترك الكبائر والفواحش والاهتمام بالفرائض بمقدار الوسع والاستطاعة، فيكون المراد بالعمل بالصالحات أيضاً هذا المعنى، أي أنّه لا يعتبر العمل بالجميع ولا يكفي العمل بالبعض بإطلاقه، فيبقى مناط الاستحقاق بدقّة ممّا لا يعلمه إلا الله تعالى.

وتكفير السيّئات بمعنى سترها فلا يبقى لها أثر، ولا يفتضح الإنسان ـ مع الإيمان والعمل الصالح ـ بما عمله من السيّئات. والظاهر أنّها في مقابل الكبائر لقوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾،[3] وأمّا الكبائر فمرتكبها لا يصدق عليه أنّه ممّن يعمل بالصالحات إلا إذا تاب.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يشير إلى أنّهم الفريق الرابح؛ لأنّ الفوز هو الظفر بالخير المقصود، سواء كانت هناك مسابقة ممّا يستوجب المغابنة أم لا. وتوصيفه بالعظمة بلحاظ مقارنته بما يعتبره البشر فوزاً في هذه الدنيا، مع أنّ بعضه خسارة

---

١. راجع: مجمع البيان في تفسير القرآن ٤ ـ ٣: ١٧٥.
٢. النجم (٥٣): ٣٢.
٣. النساء (٤): ٣١.

في الواقع وليس فوزاً، وما يعدّ منه فوزاً للإنسان فهو فوز ضئيل جدّاً إذا قورن بالفوز في الآخرة.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، بيان لحال الفريق الثاني، وعقّب ذلك بأنّه: ﴿بِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ للإشارة إلى أنّهم الفريق الخاسر. وذكر الكفر والتكذيب بالآيات مع أنّ السورة خطاب للمؤمنين للإشارة إلى أنّ من لا يطيع الرسولﷺ يدخل في هذا الصنف وإن آمن ظاهراً كالمنافقين. وحاول بعض المفسّرين أن يفرق بين الكفّار، بدعوى أنّه تعالى لم يذكر في هذه الآية «أبداً» كما ذكره في بيان حال المؤمنين، وهذا يدلّ على أنّهم ليسوا جميعاً مؤبّدين في النار. وهذا باطل قطعاً للتصريح بذلك في سائر الموارد، ولكفاية التعبير بالخلود.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾

**﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ الله﴾**. «المصيبة» كلّ حادثة تصيب الإنسان بشرّ، مع أنّ الإصابة في الأصل تصدق في الخير والشرّ، إلا أنّها لا تستعمل إلا في الشرّ، ولعلّه من جهة تضمّن لفظ «الإصابة» بالذات أمراً غير متوقّع وغير مطلوب. و«الإذن» هنا ليس بمعنى العلم أو الإعلام ـ كما يقال ـ بل بمعنى الأمر، فإنّ كلّ حادث لا يحدث إلا إذا أمر به الله تعالى أمراً تكوينياً وإن منعه تشريعاً.

ومن ذلك ما ورد عن الإمام الحسين عليه السلام أنّه خاطب أصحابه يوم عاشوراء فقال: **«أشهد أنّه قد أُذِنَ في قتلكم يا قوم فاتّقوا الله واصبروا»**،[١] ومعنى أمره تكويناً أنّ العلل التكوينية لوجود الشيء قد تحقّقت خارجاً فهو حاصل لا محالة، والله تعالى لم يمنع من تحقّقها بإيجاد موانع خلافاً لسنّة الكون.

وموضع هذه الآية في سياق الآيات أنها مقدّمة جيء بها تمهيداً لما يأتي من الأمر بالإنفاق بعد الأمر بمطلق الإطاعة في الآيات التالية. والظاهر أنّه الغرض الأساس من السورة كما مرّ في بداية تفسيرها، وحيث إنّ من موجبات البخل وعدم الإنفاق هو خوف الإنسان ممّا يستقبله من مصائب الدهر، فالمناسب تمهيداً للحثّ على الإنفاق تقوية روح الإيمان في الناس وإزالة الخوف على المستقبل من نفوسهم، ومن الواضح أنّ الإيمان بأنّ كلّ ما يصيب الإنسان أنّما

---

١. كامل الزيارات: ١٥٣. ( رواه ابن قولويه بعدّة أسناد بعضها صحيح عن الإمام الصادق عليه السلام)

هو بأمر الله تعالى يقوي فيه العزيمة ويخفّف عنه الآلام ويبعثه على الصبر وتحمّل المشاقّ، كما ورد في خطاب الإمام الحسين لأصحابه عليه وعليهم السلام، فأثار فيهم الشوق إلى لقاء الله تعالى بحيث لم يجدوا ألماً من كلّ ما أصابهم من الضرب والطعن.

ولكن يجب أن لا يكون ذلك موجباً للتقاعس عن طلب الرزق والشفاء وغير ذلك من الطرق والوسائل الطبيعية التي جعلها الله تعالى، فإنّ تأثير كلّ ذلك بأمره، كما أنّ الدعاء والتوسّل أيضاً يؤثّران بأمره وإذنه تعالى. وقد ورد في حديث رواه الصدوق في «التوحيد» عن الأصبغ بن نباتة قال: **«إنّ أمير المؤمنين عليه السلام عدل من عند حائط مائل إلى حائط آخر، فقيل له: يا أمير المؤمنين! أتفرّ من قضاء الله؟ فقال: أفرّ من قضاء الله إلى قدر الله عزّ وجلّ»**.[1]

والقضاء يطلق تارة ويراد به الحكم الذي لا مردّ له، ويطلق أُخرى ويراد به القضاء غير المحتوم، وهو بهذا المعنى مساوٍ للقدر، فإنّ القدر هو تقدير الأشياء بطولها وعرضها وعللها ومعاليلها، والقضاء غير الحتم هو هذا المعنى، أي أنّ الله تعالى جعل لكلّ شيء قدراً، فإذا تحقّقت العوامل تحقّق الشيء، فقوله عليه السلام: **«أفرّ من قضاء الله»**، أي أفرّ من قضائه سقوط الحائط إذا بلغ الميل فيه إلى المرحلة التي توجب السقوط « **إلى قدر الله** »، حيث إنّه قدّر أنّ من لا يكون في تلك المرحلة عند الحائط فلا يقع عليه وكلّ منهما قضاؤه وقدره.

والحاصل أنّ ما يصيب الإنسان قد يكون لعمله دور فيه أو في عدمه، وهو أيضاً من الأسباب، فلا يصحّ أن يبرّر ترك التوسّل بأنّه تمّ بإرادة الله تعالى، وإنّما

---

١. التوحيد (الصدوق): ٣٦٩.

يفيد الإيمان به في إيكال الأمر إلى الله تعالى في ما ليس للإنسان دور في تحقّق ذلك، وهو كثير. ومن السفاهة ما يبرّر به بعض الظلمة عدوانهم على الأبرياء بأنّ ذلك من قضاء الله تعالى.

﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾، هذه الجملة تدلّ ـ كما أسلفنا ـ على أنّ الإيمان لا يراد به التلفّظ بالشهادتين، فإنّ ذلك لا يستتبع هداية القلب. ومن هنا يمكن أن يستنتج أنّ كلّ من لا يستتبع إيمانه هداية القلب فهو ليس بمؤمن بالله تعالى وإن تشهّد الشهادتين وصلّى وصام وحجّ البيت الحرام. ولعلّ في التعبير بـ «هداية القلب» إشارة إلى أنّ المراد ليس الإيصال إلى المطلوب وليس سدّ الطرق، بحيث لا يبقى له طريق إلا طريق الهداية، بل هو نور يقذفه في قلب المؤمن، فيبصر به الطريق ويهتدي إلى الحقّ باختياره.

كما أنّ مناسبة الجملة السابقة تفيد أنّ الإيمان بكون المصائب والحوادث كلّها من الله تعالى لا يؤثّر إذا كان مجرّد تعقّل وإدراك، وإنّما يؤثّر في حياة الإنسان ويبثّ فيه الطمأنينة والراحة إذا استشعر ذلك بقلبه، وهو مرحلة من الإيمان وراء الإدراك العقلي. وربما لا يناله كثير من العلماء والمتكلّمين بالرغم من تفوّقهم العلمي وتمكّنهم من الاستدلال على العقائد الحقّة بأقوى الأدلّة، وإنّما يناله الإنسان بالتقوى في مقام العمل.

ومن هنا يمكن أن يقال: إنّ المراد بالهداية خصوص هدايته إلى التوحيد الكامل الموجب لإسناد كلّ حوادث الكون إلى الله تعالى، فيسلّم أمره إليه ويتوكّل عليه، وربما يهديه إلى حسن الظنّ به تعالى وأنّ كلّ ما يفعله لعبده المؤمن خير له عاجلاً أم آجلاً، فيصل إلى مرحلة الرضا بقضاء الله تعالى.

ثمّ إنّ الإيمان المذكور في الآية مسبوق بهداية وملحوق بهداية أُخرى، إذ كيف يؤمن لولا هداية الله تعالى، فالهداية الأُولى إراءة الطريق وهو مشترك بين الكلّ، فإذا آمن العبد إيماناً كاملاً لحقته هداية خاصّة ونور يقذفه الله في قلبه وينير له الطريق.

﴿وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. لعلّ التعقيب بذلك للإشارة إلى أنّ هداية القلب حيث كانت جزاءاً للإيمان الكامل وهو أمر قلبي، فالله تعالى العليم بكلّ شيء يعلم ما تنطوي عليه القلوب ويعلم من يستحقّ ذلك.

﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، الأمر بإطاعة الله تعالى مقدّمة للأمر بإطاعة الرسول ﷺ، وهو المقصود والغرض الأساس، فإنّ وجوب إطاعة الله تعالى أمر عقلي وذاتي لا يحتاج إلى تشريع، بل لا يمكن تشريعه، لأنّها لو وجبت بأمر الله تعالى انتقل الكلام إلى وجوب إطاعة الأمر الثاني فهذا دور ومحال.

وإنّما يحكم العقل بوجوب إطاعة الله تعالى، إمّا لأنّه المنعم ويجب شكره عقلاً، وإمّا لأنّه مبدأ كلّ شيء، فتتوقّف سعادة الإنسان في كلّ مرحلة من مراحل الحياة ـ سواء في هذه الدنيا أو في عالم آخر ـ على كسب رضا الله سبحانه، فهو الذي يرجى ثوابه ويخاف عقابه، ولذلك لا يجوز أن يعبد إلا هو، والإطاعة من أنحاء العبادة فلا يطاع إلا هو، كما ستأتي الإشارة إليه في الآية التالية. وأمّا وجوب إطاعة الرسول ﷺ فليس أمراً ذاتياً وإنّما يثبت بتشريع من الله تعالى.

فالغرض من هذه الآية ونظائرها تنبيه الناس على وجوب إطاعة الرسول ﷺ كغيره من الرسل، حيث قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ﴾،[1] وإنّما

---

١. النساء (٤): ٦٤.

قدّم وجوب إطاعة الله للتنبيه على أنّ إطاعة الرسول ﷺ بمثابة إطاعته عزّ وجلّ.

والمراد بإطاعة الرسول ﷺ إطاعته في الأوامر الخاصّة التي يوجّهها إلى أشخاص بأعيانهم، والأوامر العامّة التي كان يصدرها من باب الحكومة والولاية لا من جهة الرسالة. وقد مرّ بنا أنّ بعض النفوس كانت ترفض التسليم لقضائه ﷺ أو لتوزيعه المال أو لأوامره الخاصّة، بل ربما كان بعضهم يستنكف من قبول بعض أوامره العامّة أيضاً ويسأل: «هل هذا منك أم من الله؟» خصوصاً في موارد الأمر بالجهاد وبالإنفاق في سبيل الله تعالى، فإنّ بعض النفوس كانت تأبى عن إطاعة الرسول ﷺ فيها ـ مع الإيمان برسالته ـ لما يصيبهم من الأذى والمشقّة في هذا المجال.

وأمّا تشريعه ﷺ لبعض الأحكام الشرعية، فالظاهر أنّها تعتبر ـ بعد تشريعه ـ من الشريعة الإلهيّة، فإطاعة هذه الأوامر إطاعة لله تعالى ابتداءاً. وتفصيل القول في ذلك له مجال آخر، وإجماله أنّ المستفاد من الروايات الكثيرة المتّفق عليها أنّ الله تعالى فوّض إلى رسوله ﷺ التشريع في بعض المجالات، ومن باب المثال فقد ورد أنّ الله تعالى فرض الصلاة ركعتين ركعتين، وأنّه ﷺ أضاف بعض الركعات،[1] كما ورد أنّ الله تعالى فرض الزكاة ووضعها الرسول ﷺ في تسعة أشياء وعفا عمّا سواها[2] وغير ذلك. وهو ما يدعى في الفقه بالسنّة الواجبة. ولكن ورد في بعض الروايات أنّ الله تعالى نفّذ هذه الأحكام بعد تشريعها من قبله ﷺ لتدخل في صلب الشريعة تحقيقاً لحصر الحكم في ما يشرّعه الله تعالى.

---

١. راجع: الكافي ١: ٢٦٦، الحديث ٤.

٢. الكافي ٣: ٥٠٩، الحديث ١.

روى الكليني ﵀ عن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن عمر بن أُذينة، عن فضيل بن يسار قال سمعت أبا عبد الله ﵇ يقول لبعض أصحاب قيس الماصر: «إنّ الله عزّ وجلّ أدّب نبيّه فأحسن أدبه، فلمّا أكمل له الأدب قال: ﴿إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ثمّ فوّض إليه أمر الدّين والأمّة ليسوس عباده، فقال عزّ وجلّ: ﴿ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ وإنّ رسول الله ﷺ كان مسدّداً موفّقاً مؤيّداً بروح القدس لا يزلّ ولا يخطئ في شيءٍ ممّا يسوس به الخلق، فتأدّب بآداب الله، ثمّ إنّ الله عزّ وجلّ فرض الصلاة ركعتين ركعتين عشر ركعاتٍ، فأضاف رسول الله ﷺ إلى الركعتين ركعتين وإلى المغرب ركعةً، فصارت عديل الفريضة لا يجوز تركهنّ إلاّ في السّفر وأفرد الرّكعة في المغرب فتركها قائمةً في السّفر والحضر فأجاز الله له ذلك كلّه، فصارت الفريضة سبع عشرة ركعةً، ثمّ سنّ رسول الله ﷺ النّوافل أربعاً وثلاثين ركعةً مثلي الفريضة، فأجاز الله عزّ وجلّ له ذلك والفريضة والنّافلة إحدى وخمسون ركعةً منها ركعتان بعد العتمة جالساً تعدّان بركعةٍ مكان الوتر، وفرض الله في السّنة صوم شهر رمضان وسنّ رسول الله ﷺ صوم شعبان وثلاثة أيّامٍ في كلّ شهرٍ مثلي الفريضة، فأجاز الله عزّ وجلّ له ذلك، وحرّم الله عزّ و جلّ الخمر بعينها وحرّم رسول الله ﷺ المسكر من كلّ شرابٍ، فأجاز الله له ذلك، وعاف رسول الله ﷺ أشياء وكرهها لم ينه عنها نهي حرامٍ، إنّما نهى عنها نهي إعافةٍ وكراهةٍ، ثمّ رخّص فيها فصار الأخذ برخصه واجباً على العباد كوجوب ما يأخذون بنهيه وعزائمه ولم يرخّص لهم رسول الله ﷺ فيما نهاهم عنه نهي حرامٍ ولا فيما أمر به أمر فرضٍ لازمٍ، فكثير المسكر من الأشربة نهاهم عنه نهي حرامٍ لم يرخّص فيه لأحدٍ، ولم يرخّص رسول الله ﷺ لأحدٍ تقصير الرّكعتين اللّتين ضمّهما إلى ما فرض الله عزّ وجلّ، بل ألزمهم ذلك إلزاماً واجباً لم يرخّص لأحدٍ في شيءٍ من ذلك إلاّ للمسافر، وليس لأحدٍ أن يرخّص ما لم يرخّصه رسول الله ﷺ فوافق أمر

**رسول الله ﷺ أمر الله عزّ وجلّ ونهيه نهي الله عزّ وجلّ، ووجب على العباد التسليم له كالتسليم لله تبارك وتعالى».**[1] وسندها صحيح.

فالحاصل أنّ الإطاعة في مثل هذه الأوامر تعتبر إطاعة لله تعالى، فيبقى وجوب إطاعة الرسول ﷺ منحصراً في ما مرّ ذكره.

**﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْـمُبِينُ﴾**، الخطاب للمؤمنين والتولّي هو الإعراض، كما مرّ وهو كناية عن العصيان وينطبق على معصية الله تعالى ومعصية الرسول ﷺ، وجواب الشرط محذوف تدلّ عليه الجملة التالية، وظاهرها حصر مسؤولية الرسول ﷺ في البلاغ الواضح الكافي لإتمام الحجّة على العباد، وهو كناية عن التهديد بأنّ مجازاة هذا العصيان أمر موكول إلى الله تعالى وهو شديد العقاب.

وقيل: إنّ الجزاء الذي تدلّ عليه الجملة هو أنّه لا مسؤولية على الرسول في عصيانكم، إذ أنّه قام بدوره بأكمل وجه وهو البلاغ المبين، فإن كان مقصّراً في الإبلاغ كان هو المسؤول، وأمّا مع قيامه بدوره بأحسن وجه فلا شيء عليه.

وهو بعيد عن السياق، إذ أنّه لا موجب للترديد في أنّ الرسول ﷺ قام بدوره، وليس هناك ما يستدعي الترديد في ذلك فالأوّل أولى، بل متعيّن. نعم في ما إذا كان الخطاب للرسول ﷺ يختلف الحكم كقوله تعالى: **﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾**،[2] فيمكن أن يقال هنا: إنّ الجواب في الواقع هو عدم مسؤولية الرسول ﷺ عن عصيانهم، وذلك لأنّ الغرض في مثل

---

١. الكافي ١ : ٢٦٧، الحديث ٤. (باب التفويض إلى رسول الله ﷺ)

٢. النساء (٤): ٨٠.

ذلك تطييب خاطره ﷺ حيث كان يحزن لضلال الناس وعدم إيمانهم.

﴿اللهُ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ﴾، «الإلـه»، أي المعبـود، والظـاهر ـ كمـا قـال العلامـة الطباطبائي ؒ ـ أنّ هذه الجملة تعليل لوجوب إطاعة الله سبحانه، حيث إنّه هو المعبود لا معبود سواه، والإنسان لا يعبد إلا خوفاً وطمعاً، والله تعالى هو الذي يخاف ويرجى، والإطاعة المطلقة نحو من أنحاء العبادة، ولذلك قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾،[1] مع أنّ الإنسان لا يعبد الشيطان إلا بالإطاعة.

﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾. تقديم الجارّ والمجرور يفيد الحصر، أي يجب على المؤمن أن لا يتوكّل إلا على الله تعالى، وهذا مقياس ذاتي للإنسان ليمتحن نفسه بنفسه ويعلم درجة إيمانه، فإنّ رتبة إيمانه تتبيّن بمقدار توكّله على الله تعالى، وهو أمر قلبي لا يعرفه الآخرون، وعلى كلّ مؤمن أن يحاسب درجة إيمانه بذلك. وقد مرّ معنى التوكّل.

والجملات الثلاث تحدّد مسار المؤمنين، فالإطاعة لا تكون إلا لله تعالى وللرسول ﷺ ولمن أمر الله بإطاعته، والعبودية لا تكون أيضاً إلا له تعالى، والتوكّل لا يكون إلا عليه عزّ وجلّ.

---

١. يس (٣٦): ٦٠.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ
وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ
فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ
خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ
قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ
وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾. «من» للتبعيض، أي إنّ بعض الأزواج والأولاد عدوّ للرجل. ويلاحظ أنّ بعضهم أعداء واقعاً ويريدون له الشرّ، ولكنّه نادر خصوصاً في الأولاد، ولكنّ الأمر الأخطر هو المحبّة والشفقة اللتان تمنعانه من أداء الواجب بسبب الزوجة والولد. وهذا ليس عداءاً حقيقياً، ولكنّه حيث يجرّ أكبر الضرر للإنسان فهو في النتيجة كأنّه عداء.

ونظير ذلك الحديث النبوي المشهور: **«أعدى عدوّك نفسك التي بين جنبيك»**،[1] والغرض أنّ الإنسان إذا استجاب لرغبات نفسه، فإنّه يضرّ بآخرته، بل ربما يضرّ بدنياه أيضاً، فيصحّ أن يعبّر عن النفس بأنّها «أعدى الأعداء» وذلك لقربها وتسلّطها على إرادة الإنسان، والمراد أهواء النفس.

وهناك من النساء والأولاد من يصرّ على الزوج والأب بأن يعمل ما يوافق هواه ويقصّر في أداء الواجب، بل يرتكب الحرام، فربما تطلب العائلة من الرجل من المال ما لا يقدر عليه إلا بالكسب الحرام، وربما تمنعه من الجهاد في سبيل

١. لم نجد له مصدراً في كتب الحديث الأصلية لدى الفريقين. راجع: بحار الأنوار ٦٧ : ٦٤.

الله تعالى أو الإنفاق في سبيله ومساعدة الفقراء والمحتاجين ونحو ذلك. وكلّ ذلك في الواقع عداء بصورة حبّ ووداد.

بل ربما يكون الوالدان أيضاً من الأعداء بهذا المعنى، فنحن نجد كثيراً من الأمّهات، بل حتّى الآباء لضعف في دينهم وشفقة على أولادهم يمنعونهم حتّى من الصوم بعد البلوغ بحجّة الصغر خصوصاً في البنات. وهذا مضافاً إلى الضرر الأُخروي ربما يسبب لهم مشاكل في الكبر لوجوب القضاء والكفّارة. ولكنّ الجهل وعدم الالتزام بأمر الدين يدفعانهم إلى ذلك.

والحذر منهم يتمّ بعدم الإصغاء لطلبات أفراد الأُسرة وأهوائهم إذا استلزم أمراً مخالفاً للدين، بل حتّى لو كان يضرّ بدنياه، كما لو استلزم التسوّل ومجانبة التعفّف.

وفي «تفسير القمي» في ذيل الآية رواية مرفوعة عن أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام: «**في قوله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾، وذلك أنّ الرجل كان إذا أراد الهجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله تعلّق به ابنه وامرأته، وقالوا: ننشدك الله أن تذهب عنّا وتدعنا فنضيع بعدك، فمنهم من يطيع أهله، فيقيم فحذّرهم الله أبناءهم ونساءهم ونهاهم عن طاعتهم، ومنهم من يمضي ويذرهم ويقول: أمّا والله لئن لم تهاجروا معي ثمّ يجمع الله بيني وبينكم في دار الهجرة لا أنفعكم بشيء أبداً، فلمّا جمع الله بينه وبينهم أمره الله أن يوفّي ويحسن ويصلهم فقال: ﴿وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾**».[1]

**﴿وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾**. «العفو»: الترك. و«الصفح»: الإعراض. والفرق بينهما أنّ الترك ربما يكون مع التوبيخ، والإعراض لا يتمّ إلا

---

١. تفسير القمي ٢: ٣٧٢.

بترك التوبيخ أيضاً. و«الغفران» هو الستر، فهو مرحلة أعلى من الصفح، فإنّ الصفح لا ينافي التشهير به أو لا يلازم الستر عليه. وجواب الشرط محذوف يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فيمكن أن يقدّر «يحبّه الله لكم» أو «يغفر الله لكم» وتكون الجملة المذكورة تعليلاً للمقدّر.

ومورد العفو والصفح والغفران ما إذا تبيّن للإنسان عداء الأُسرة له أو تضرّر من الاستجابة لطلبهم، سواء في دينه أو دنياه، فإنّه ربما يثير فيه حبّ الانتقام ولو بمنع بعض حقوقهم الشرعية وهو مجازاة قد لا تكون جائزاً شرعاً أو يكون منافياً للكمال، فالغرض من هذه الجملة المنع من ذلك، ولكنّه منعه بأُسلوب يبعث فيه روح الترفّع والتسامي عن المعاملة بالمثل ويثير فيه العطف والحنان.

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾. «إنّما» تفيد الحصر إمّا مطلقاً أو بحسب القرائن وهي هنا تفيده. و«الفتنة» في الأصل بمعنى الإحراق. وحيث إنّ إذابة المعادن بالنار تخلّصها من الشوائب أو تظهر خلوصها وعدمه عبّر عن كلّ امتحان للإنسان في حياته بالفتنة. وهي تشمل الخير والشرّ، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾،[1] فتبيّن بما مرّ أنّ المراد بالآية الكريمة أنّ الله تعالى يختبر الإنسان بأمواله وأولاده ليرى كيف يتعامل معهم؟ وهل تؤثّر حبّه لهم في مدى التزامه بالدين؟ وهو أمر صعب جدّاً.

ولذلك يصحّ أن يقال: إنّ اختبار الإنسان في الخير أشدّ وأخطر من اختباره بالشرّ، ولكنّ الإنسان لجهله وغبائه يحبّ الأوّل، وقلّ من يقوم بواجبه تجاه الأموال والأولاد وأقلّ منه من تكامل بذلك فأنفق ماله، بل ضحّى بأولاده في

---

١. الأنبياء (٢١): ٣٥.

سبيل الله تعالى، وهذا هو الفوز العظيم.

والحاصل أنّ الآية تريد أن تزهّد الإنسان في طلب المال والولد، وتبيّن له أنّ في ذلك مخاطرة بمستقبلك وبآخرتك وبدينك، وفي مقابل ذلك يمكنك أن تحصل على أجر عظيم لدى الله تعالى بالعمل الصالح وهو أجر ينفعك في الدنيا والآخرة، فتكون الجملة الثانية مكمّلة للغرض من الجملة الأُولى.

ولكنّ الوارد في التفاسير أنّ المراد بالجملة الثانية بيان ما يحصل عليه الإنسان إذا نجح في الامتحان بسبب الأموال والأولاد، وهو بعيد. ويتحصّل ممّا ذكروه أنّ الآية لا تزهّد في طلب المال والولد، وإنّما تحثّ على العمل بالواجب في هذا المجال، ولكنّ الظاهر ما ذكرناه وأنّ مفاد الآية كقوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾.[1]

﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾. «التقوى» مصدر من الوقاية بمعنى الاحتراز، والمراد حفظ النفس من مخالفة أمره تعالى ونهيه أو حفظها من سخطه وعذابه. و«ما» مصدرية ظرفية والظرفية مجازية، أي قدر المستطاع. والاستطاعة استفعال من الطوع وأصلها الاستطواع، وهو طلب الانقياد إلا أنّ الاستفعال هنا ليس بمعنى الطلب، بل فرض الانقياد على ما يريد، ولذلك تستعمل الاستطاعة بمعنى القدرة كأنّ ما يريده منقاد له.

وعليه فمحصّل معنى الآية التشديد في أمر التقوى، وبأنّه ليس له حدّ إلا القدرة والاستطاعة، ولا شكّ أنّ الإنسان لا يمكنه أن يفعل شيئاً فوق استطاعته. وبذلك يتبيّن أنّ هذه الآية لا تنافي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ

١. الكهف (١٨): ۴۶.

تُقَاتِهِ﴾،[١] بل تؤكّده، فلا وجه لما قيل من نسخ تلك الآية بهذه الآية، بل نسب إلى بعض الصحابة أنّ الأمر اشتدّ عليهم إلى أن نزلت هذه الآية فخفّف عنهم! نعم هذه الآية ربما تفسّر ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ وتبيّن أنّه لا حدّ للتقوى إلا القدرة والاستطاعة.

وهذا الأمر ليس أمراً مولوياً، بل هو إرشاد إلى ما يدركه العقل؛ إذ لا شكّ أنّ تقوى الله تعالى ليس له حدّ، وإنّما يتحدّد التكليف بالقدرة والاستطاعة، فما لا يقدر عليه المكلّف ليس مأموراً به ولا منهيّاً عنه، وكلّ ما يرد من الحثّ على التقوى لا يزيد على ما يدركه العقل من وجوب الحذر من الخطر المحدق بالإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾.[٢] والغرض من كلّ ما ورد في هذا الباب منع اغترار الإنسان بأنّ رحمة الله واسعة، أو أنّه أكرم من أن يهتمّ بالجزئيات في التكاليف، ويكفي أن تكون مؤمناً تؤدّي الفرائض ونحو ذلك ممّا يخدع به الإنسان نفسه، فلا يتّقي ربّه في مخالفة أحكامه الإلزامية اعتماداً على ذلك.

و«الفاء» في قوله: ﴿فَاتَّقُوا﴾ للتفريع، أي إذا علمتم أنّ الأموال والأولاد فتنة وأنّ الله عنده أجر عظيم، فاتقوا الله غاية التقوى في كلّ ما أمر به ونهى عنه وإن استلزم إنفاق المال أو التفريط في ما يطلبه الأولاد لتنالوا أجره وتبتعدوا عن سخطه.

﴿وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ﴾، أوامر مترتّبة على التقوى وبعضها مترتّب على بعض، فإذا تحلّى الإنسان بالتقوى لزمه سماع أوامر الله تعالى ونواهيه

---

١. آل عمران (٣): ١٠٢.

٢. آل عمران (٣): ٢٨ ـ ٣٠.

التي يبلّغها الرسول ﷺ ومنها إطاعة الرسول بنفسه، فإذا سمع الأوامر لزمته الطاعة على أساس التقوى.

ومن الأوامر التي تجب إطاعتها الأمر بالإنفاق ذكر بوجه خاصّ، لأنّه هو الغرض الأساس من السورة، ومن كلّ هذه المقدّمات على ما يبدو. وقوله: ﴿خَيْراً﴾ خبر تقديره: «يكن خيراً لكم»، ومثله قوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ﴾،[1] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ﴾.[2] والمراد أنّ الإنفاق لمصلحتكم.

والغرض الأسمى وإن كان هو خير الآخرة والأضعاف المضاعفة التي يجزى بها، إلا أنّه في هذه الحياة خير له أيضاً؛ لأنّ خير المجتمع ومصلحته يعود إلى الأفراد، وفي ظلّ نظام إلهيّ كحكومة الرسول ﷺ لا يمكن أن ينفق أحد مالاً إلا ويعود بالخير على المجتمع، سواء أنفق للحرب أو للمصالح العامّة أو للفقراء.

﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. مرّ تفسير هذه الجملة بعينها في سورة الحشر،[3] ومجمل القول أنّ «الشحّ»: المنع والبخل، وإضافته إلى النفس من جهة أنّ له أصلاً راسخاً في النفس وليس أمراً طارئاً. وأتى بالوقاية مبنيّاً للمجهول لأنّ فاعلها هو الله تعالى، فيدلّ على أنّ زوال هذه الصفة الدنيئة لا يكون إلا بعناية منه. و«الفلاح»: الفوز بما يبتغيه الإنسان. والمراد به هنا ثواب الآخرة، وكذلك ما يستتبع إنفاق المال من مصالح شخصية واجتماعية في الدنيا. وأتى باسم الإشارة للجمع، أي قوله: ﴿فَأُولَئِكَ﴾ باعتبار المصاديق.

---

١. النساء (٤): ١٧٠.

٢. النساء (٤): ١٧١.

٣. الحشر(٥٩): ٩.

ويستفاد من قوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْـمُفْلِحُونَ﴾ الحصر، وأنّه لا يفلح أحد غيرهم، وهو صحيح ودقيق، وليس من باب المبالغة كما قيل، وذلك لأنّ الشحّ لا يختصّ بالمال، بل هو المنع مطلقاً وإن كثر استعماله في ذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾،[١] فإنّ المراد بالشحّ هنا التشدّد والامتناع من الصلح، ومنه المشاحّة بمعنى التنازع والتمانع، ومنه «زند شحيح» إذا كان لا يوري وغير ذلك. فالشحّ في النفس يشمل كلّ ما يمتنع منه الإنسان ممّا يجب عليه أن يفعل، ولكنّ هذه القاعدة طبقت هنا على الشحّ بالمال.

﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾. مرّ الكلام حول إقراضه تعالى في تفسير سورة الحديد الآية (١١)، وقلنا: إنّ المراد بالإقراض التصدّق على الفقراء، وأنّه تعالى للطفه وكرمه اعتبره إقراضاً له، ولكنّه لا يرجعه كما هو، بل يضاعفه أضعافاً. والمعروف أنّ التوصيف بـ «الحسن» لإخراج ما إذا كان الإنفاق للرياء والسمعة وطلب الجاه، أو مع المنّة والتحقير للمستحقّ، أو مع إيذاء السائل. ولكن هذا صفة الإنفاق الحسن لا القرض الحسن، ولعلّ المراد من هذا الوصف أنّه قرض مضمون، بل مضمون أنّه يعاد إليكم أضعافاً مضاعفة؛ لأنّ المقترض هو الله الغنيّ الحميد. وقلنا بأنّ المراد بالمضاعفة لعلّه بملاحظة ما يتوقّعه الإنسان من الجزاء وإلا فسنخ ما يثاب به لا يقاس بما دفعه من المال حتّى يقال: إنّه ضعفه أو أضعافه. وأضاف إليه هنا المغفرة وهي أعظم الجزاء.

﴿وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾، «شكور» مبالغة في الشكر وهو عرفان الجميل وإظهاره. وإذا أُسند إلى الله تعالى، قيل: يراد به الثواب، ولكنّ الظاهر أنّه نفس المعنى،

---

١. النساء (٤): ١٢٨.

ولكن يضاف إليه الثواب، ولعلّه هو المراد بالمبالغة، فيكون المعنى أنّه تعالى يعترف بجميلكم ويظهره، بل يثيب عليه. والتوصيف بـ«الحليم» لعلّه لتعليل ذكر المغفرة جزاءاً للإنفاق.

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. لعلّ التوصيف الأوّل لبيان أنّه تعالى يعلم ما ينفق الإنسان سرّاً وعلانية، فلا تختلف عنده الغيب والشهادة ويثيب على كليهما، كما يمكن أن يكون تعليلاً لما سبق من الأمر بالتقوى والإطاعة، فيكون تحذيراً من مخالفة التقوى في الغيب. وتوصيفه تعالى بـ«العزيز» لعلّه لبيان غلبته على أمره فلا يمنع ما أراده شيء، وبـ«الحكيم»، لأنّه مع غلبته لا يعمل إلا وفقاً للحكمة فلا تدعوه عزّته وغلبته إلى ما ينافي الحكمة.

والحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على الرسول الأمين وآله الطاهرين.

# تفسير سورة الطلاق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ
رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ
وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ
بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ
وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ
يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا
يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ
شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾

السورة مدنيّة، تتعرّض لبعض أحكام الطلاق وشؤون الأُسرة، وتؤكّد على التقوى والحذر وخاصّة فيما يتعلّق بأحكام الأسرة ومراعاة حقوق النساء، وتتعرّض أيضاً لمواعظ عامّة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾، ابتدأ الخطاب بتوجيهه إلى

النبيّ ﷺ ثمّ توجيهه إلى جميع الأُمّة، لأنّه إمامهم، فالخطاب للجميع والحكم عامّ، وإنّما ابتدأ بتوجيه الخطاب له ﷺ، لأنّه هو المأمور بإبلاغه للجميع، ولم يرد مثل هذا الخطاب في غير هذا المورد من القرآن الكريم، وكلّ ما ورد فيه الخطاب له ﷺ كان الحكم خاصّاً به إلا هنا. ولعلّ ذلك يدلّ على الاهتمام بشأن هذا الحكم حيث لم يخاطب فيه المؤمنون.

وقوله: ﴿إذا طَلَّقْتُمُ﴾، أي إذا أردتم الطلاق، فإنّ الحكم مرتبط بكيفية إنشاء الطلاق، فلا يمكن أن يكون مورده بعد تحقّقه. والطلاق بمعنى تسريح المرأة وتخلية سبيلها، فإنّ عقد النكاح يعتبر في العرف العربي حبالة من الرجل حيث يحتفظ بالمرأة في البيت، فإذا طلّقها فقد رفع عنها الحبالة والشراك.

واللام في قوله: ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ بمعنى «عند»، نظير قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾[1] وعدّة المرأة هي الزمان الذي لا يجوز لها الزواج فيه بزوج آخر بعد الطلاق أو غيره من موجبات العدّة كالوفاة. ومعنى إيقاع الطلاق وقت العدّة، أي في وقت تبدأ عدّتها بعده فوراً. والنتيجة أنّه لا يجوز الطلاق في حال الحيض، لأنّها لا يمكنها الاعتداد من ذلك الوقت، بل بعد طهرها؛ لأنّ العدّة ثلاثة أطهار، لقوله تعالى: ﴿وَالْـمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾.[2]

كما يستفاد من الآية عدم جواز إيقاع الطلاق في طهر واقعها فيه زوجها؛ إذ لا يمكن أن يكون ذلك الطهر مبدأ الاعتداد لاحتمال تكوّن النطفة، فلا بدّ من الصبر إلى طهر آخر. وهكذا تدلّ الجملة المذكورة على شرطين من شروط

---

١. الإسراء (١٧): ٧٨.

٢. البقرة (٢): ٢٢٨.

جواز الطلاق، وبذلك وردت الروايات في كتب الفريقين.

وهذان الشرطان معتبران عندنا في صحّة الطلاق أيضاً، فلا يصحّ الطلاق في حال الحيض ولا في طهر واقعها فيه زوجها. وذهب فقهاء العامّة إلى أنّ الطلاق في حال الحيض وكذا في طهر المواقعة حرام، ولكنّه صحيح فيكون المنع تكليفياً فحسب، إلا أنّ جمعاً منهم قالوا بوجوب إجبار الرجل على الرجوع إذا طلّقها في الحيض أو النفاس فيما إذا أمكن الرجوع، أمّا إذا كان طلاقاً ثالثاً فلا يمكن إجباره عليه كما هو واضح. وقالوا بعدم إجباره إذا كان الطلاق في طهر المواقعة وإن أثم بذلك. وتمام البحث في الفقه.

إلا أنّه لا ينبغي أن نهمل هنا موضوعاً، وهو أنّ الأساس في ما ذهب إليه العامّة هو أنّ الأمر وإن دلّ على الوجوب، إلا أنّه لا يدلّ على الشرطيّة، فالاشتراط بحاجة إلى دليل آخر، بل ربما قال بعضهم بأنّ النهي عن معاملة يدلّ على صحّتها، فإذا ورد النهي عن بيع الغرر كان معناه أنّه بيع صحيح، ولكنّه حرام. فلا يبعد أنّ مثل هذا القائل يقول هنا بأنّ نفس هذا الأمر يدلّ على صحّة الطلاق بدون هذا الشرط وإن كان محرّماً.

وقد ردّ علماؤنا في الأُصول هذه النظرية، وقالوا: إنّ النهي يختلف معناه باختلاف متعلّقه، فإذا نهى المولى عن شيء يميل إليه الإنسان بدافع ذاتي كالأكل والشرب وسائر الأفعال التي تتعلّق بها إرادة الإنسان بدوافع ذاتية، فمعنى النهي هو الحرمة، وإذا تعلّق بشيء يقصد بها أداء واجب كلّفه به الشارع كقوله: **«لا تصلّ في وبر ما لا يؤكل لحمه»** فمعنى النهي أنّ الصلاة فيه باطلة، وأنّه لا يوافق المأمور به، وإذا تعلّق بشيء يقصد به ترتّب حكم شرعي آخر، أو ترتّب ملكيّة

أو زوجيّة أو بينونة ونحو ذلك، فمعنى النهي أنّ ما قصدته لا يترتّب على ذلك. وما هنا من هذا القبيل.

وهذا أمر عرفي واضح، فإذا صدر قانون عرفي يمنع من بيع خاصّ، أو في ظروف خاصّة، فليس معناه أنّ إجراء هذا العقد يعتبر جريمة أو يستوجب استحقاق غرامة مالية ونحو ذلك من العقوبات، بل معناه أنّه باطل لا يدعمه القانون ولا يدافع عن هذه الملكيّة والانتقال، فلو فرض أنّ المشرّع أراد أن يرتّب عليه غرامة، فلا بدّ من تشريع قانون آخر يصرّح بها، وإلا فالقانون الأوّل بذاته لا يقتضي ترتّب غرامة. وعليه فالنهي عن الطلاق في حال الحيض أو الطهر الذي حدثت فيه المواقعة ليس بمعنى أنّه محرّم يعاقَب فاعله عليه، بل بمعنى بطلان الطلاق لا غير.

﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾، الإحصاء هو العدّ بدقّة، فالظاهر أنّ المراد بهذه الجملة المنع من المسامحة في العدّة كما يتسامح العرف في كثير من الأُمور، خصوصاً إذا علم وجه الحكمة في الحكم، حيث نسمع من كثير من الناس عدم الحاجة إلى مراعاة العدّة في ما إذا تيقّنت المرأة عدم وجود حمل لديها وهو أمر ميسور في هذا العصر، ولكنّ الصحيح أنّه لا يجوز التسامح في أمر العدّة حتّى مع العلم بذلك.

ولو كانت هذه الحكمة هي السبب الأساس لاكتفي بحيضة واحدة أو حيضتين كما في عدّة المتعة على اختلاف الأقوال، خصوصاً بملاحظة ما يترتّب على رعاية العدّة من مصالح أُخرى، ومنها في خصوص الطلاق الرجعي، حيث يمنح الزوج فرصة للرجوع إليها، ولذلك منع الشارع من خروجها وإخراجها من

البيت، كما سيأتي في الآيات التالية، بل أمر بمراعاة الحقوق الزوجيّة كاملة طيلة أيّام العدّة حتّى وجوب تزيّن المرأة لزوجها، فإنّ الزوجية باقية مستمرّة إلى آخر العدّة.

ولإحصاء العدّة أثر آخر مذكور في التفاسير، وهو أنّ الزوج ربما كان يحتفظ بالمرأة بعد انتهاء العدّة يمنعها من الزواج لعلّه يرجع إليها، وفي ذلك ظلم على المرأة، فأمر الله سبحانه أن يحصى العدّة بدقّة ويخلّى سبيلها بانتهائها.

﴿وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾، تعاقب الجملتين من دون واو يدلّ على أنّ الأمر بالتقوى في هذا الموضع والتأكيد عليه ـ كما يلاحظ من السياق، وتكرار الأمر بالتقوى ـ يرتبط بالحكم بعدم إخراجهنّ من البيوت التي كنّ يسكنّها قبل الطلاق، أي بيت الزوجية. ولعلّ السرّ في هذا التأكيد من جهة تهاون الرجال في هذا الأمر وظلمهم للنساء، فكانوا يطلّقون المرأة ويخرجونها من بيتها، فتظلّ هائمة على وجهها. وفي ذلك مضافاً إلى الظلم القاسي من المفاسد ما لا يخفى.

ولعلّ إضافة وصف الربوبية للتأكيد على لزوم الحذر والتقوى في هذا الموضع، حيث إنّ هناك موجبات عديدة للتسامح بهذا الشأن من الغضب والحقد والبخل وغير ذلك. ووصف الربّ يوحي بأنّ تشريع هذا الحكم من أجل تربيتكم تربية صالحة، وهو ربّ الجميع، والحكم كما يصلح شأن المرأة يصلح شأن الرجل وشأن الأُسرة والأولاد. ويلاحظ التعبير عن البيوت بإضافتها إليهنّ مع أنّها في الغالب بيوت الرجال.

والغرض من وجوب الإبقاء والبقاء التأكيد على بقاء الزوجية ما دامت في

العدّة، وإلا لم يحلّ تواجدهما معاً لو فرض انقطاعها بالطلاق، والمرأة ربّة البيت ما دامت زوجة، ويعدّ البيت من أوجب النفقات، فلا يجوز إخراجها منه، وتدلّ الآية على وجوب سائر النفقات أيضاً.

ويترتّب على البقاء في البيت حكم مهمّ آخر في ما إذا تبيّن حملها أثناء العدّة، فإنّها تستمرّ في البقاء إلى أن تضع حملها؛ لأنّ عدّة الحامل لا تنتهي إلا بالوضع. وبذلك يحفظ الأنساب وينسب الولد إلى أبيه من دون ريب، ولا تتّهم المرأة في حملها. وفي ذلك أيضاً مجال أكبر لاحتمال التصالح والندم ممّا حدث من الانفصال، إذ ربما يكون الحمل بنفسه من دواعي الرجوع.

ولكنّ بعض المفسّرين اعتبر جملة: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ تأكيداً على لزوم إحصاء العدّة في مقابل من كان يطيل العدّة على المرأة بقصد الإضرار بها. وما ذكرناه هو الظاهر من اللفظ، كما أنّه هو الأنسب من جهة أنّ الغالب في موارد الطلاق هو الإخراج من البيت لا الإبقاء، بل الغالب الإخراج أو الخروج قبل الطلاق، وربما لمدّة طويلة.

﴿وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾، عطف على ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾، فكما يحرم على الرجال إخراجهنّ من بيوتهنّ يحرم عليهنّ الخروج من دون إذن الزوج لبقاء الزوجية، كما مرّ، وليترتّب على البقاء مصلحة جعل العدّة وهو إمكان المصالحة والرجوع. وفي هذا الحكم تنبيه لكثير من النساء حيث يتركن بيت الزوجيّة بمجرّد الطلاق طلباً للحرّية أو للرجوع إلى بيت الأُسرة أو لأهداف أُخرى، وهذا الأمر يضيّع فرصة الرجوع والتصالح على الرجل. والقصد من الخروج المنهيّ عنه ترك بيت الزوجيّة لا الخروج الموقّت.

و«الفاحشة» من الفحش، وهو كلّ ما تجاوز حدّه، وتطلق غالباً على ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال. و«المبيّنة» بمعنى الواضحة، أي وضوح كونها عملاً فاحشاً لدى عامّة الناس بحيث لا يتبع ذلك ذوقاً خاصّاً. وهذا واضح مع قراءة الكلمة بفتح الياء «مبيَّنة»، ولكن لا يختلف المعنى حتّى لو قرئت بكسرها، كما هو المشهور «مبيِّنة»؛ لأنّ التبيين يقصد به تبيين كون العمل فاحشاً من باب المبالغة، كأنّ العمل بنفسه يبيّن كونه فاحشاً.

والمراد بها هنا ما يشمل البذاء وسلاطة اللسان وسوء الخلق مع الزوج ومع أهل البيت بحدّ لا يتحمّل، ولا يختصّ بالزنا كما قيل وقد ورد ذلك في بعض الروايات؛ ففي «الكافي» عن الرضا عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾، قال: «أذاها لأهل الرجل وسوء خلقها».[1]

والظاهر أنّ الاستثناء يرجع إلى الإخراج فقط، إذ لو كان راجعاً إلى الخروج كان المعنى: «يحرم عليها الخروج إلا أن تأتي بفاحشة» فيكون الإتيان بالفاحشة أصلح لها، ورافعاً لحرمة الخروج عنها، وأمّا إذا رجع إلى الإخراج فالمعنى: أنّ الزوج لا يجوز له إخراجها إلا إذا أتت بالفاحشة، وأمّا جواز الخروج فيتبع فعلية الإخراج بمعنى: أنّ الزوج إذا أخرجها جاز لها الخروج حتّى لو لم تأت بفاحشة، كما هو الحال قبل الطلاق، وإذا تحمّلها الزوج حتّى مع إتيان الفاحشة فلا يجوز لها الخروج.

وهناك تفسير آخر للاستثناء المذكور يبتني على اختصاصه بالخروج كما هو الظاهر من تعقيبه به، وهو أنّ المراد به التأكيد على عدم جواز الخروج، وأنّه

---

١. الكافي ٦ : ٩٧، الحديث ١؛ والرواية مرسلة ومثلها رواية أُخرى بعدها.

بذاته يعتبر فاحشة مبيّنة، فالمعنى: لا يجوز لها الخروج إلا إذا أرادت أن ترتكب فاحشة مبيّنة بخروجها من البيت. ولكن هذا التفسير غير مقبول؛ لأنّ اعتبار الخروج من البيت فاحشة مبيّنة بعيد جدّاً.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾، أي ما مرّ من الأحكام حدود حدّها الله تعالى. وقد مرّ بعض الكلام حول حدود الله تعالى في تفسير الآية (٤) من سورة المجادلة، وملخّصه أنّ حدود الله ما منع من تجاوزها فإنّ الحدّ هو المنع، ولكنّه لا يمنع تكويناً، بل تشريعاً فمن يتجاوزها يعذّب يوم القيامة.

و«الظلم» وضع الشيء في غير موضعه عدواناً. ومن الواضح أنّ هذا أمر نسبي، وكلّ عمل يضرّ به الإنسان نفسه يعتبر ظلماً لها، ويختلف باختلاف نوع الضرر، فإن كان من قبيل تعريضها لغضب الله تعالى فهو أخطر الأضرار، والظلم يكون من أشدّ أنواعه، وتعدّي حدود الله تعالى من هذا القبيل.

وقد أشرنا في تفسير سورة المجادلة إلى أنّ السرّ في تشديد هذا الحكم ونظائره ممّا ورد في حقوق النساء لعلّه يكمن في أنّ موضع هذه الحقوق خبايا البيوت، وأكثرها لا يتجاوز مخدع الزوجية، حيث لا شهود ولا شرطة ولا مراقبة. ولذلك يصعب كثيراً على من أُنيط بهم تحقيق العدالة، الوصول إلى ما هو الحقّ في هذا المجال. ومن أصعب موارد القضاء تحقيق الحقّ وتحكيم العدل في موارد اختلاف الزوجين، خصوصاً في موارد حقوق الزوجية بالذات، وما يتعلّق بشؤون المخدع والفراش. ومن هنا فإنّ أفضل رادع ووازع من الاعتداء وتجاوز الحدود هو تمكين التقوى من القلوب وتحذير الطرفين خصوصاً الطرف الأقوى

من أنّ تجاوزها يثير سخط الله تعالى.

ومن هنا جاء الإبهام في ما يترتّب على هذا التعدّي، والاكتفاء بأنّه يعتبر ظلماً للنفس وإضراراً بها، فلا يعلم أنّه إضرار في الدنيا أم في الآخرة. وقد قلنا غير مرّة أنّ أكثر الناس يتأثّرون ويتخوّفون من عذاب الدنيا، حتّى لو كان خفيفاً أكثر ممّا يتخوّفون من عذاب الآخرة، مع أنّه أعظم وأشدّ وأبقى.

**﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْراً﴾**. الخطاب لمن يتعدّى الحدود ويظلم نفسه ويخرج مطلقته من بيتها، وكذلك المرأة إذا خرجت بنفسها، أي لا تدري أيّها الرجل أو المرأة ماذا سيحدث بعد هذا فلعلّ الله يحدث أمراً جديداً، ويشير بذلك إلى بعض ما يمكن أن يترتّب على هذا التعدّي، فمن ذلك ما إذا أخرجها من البيت أو خرجت هي بنفسها، فربما يقلّب الله تعالى القلوب، ويميل أحدهما أو كلاهما إلى التصالح ويجدان في ذلك مصلحة لهما أو لأولادهما، ولكنّ هذا التسرّع يفسد الأمر، ولا يبقي مجالاً للرجوع، فالمراد بإحداثه تعالى أمراً جديداً تحويل الأحوال وتقليب القلوب وتغيير الحالة النفسية وإزالة التوتّر والغضب ممّا يكون عادة السبب في الانفصال والفراغ العاطفي ونحو ذلك.

روى الكليني ﵀ بسنده عن زرارة، عن أبي عبدالله ﵇ قال: **«المطلّقة تكتحل وتختضب وتطيّب وتلبس ما شاءت من الثياب؛ لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْراً﴾، لعلّها أن تقع في نفسه فيراجعها»**.[1]

**﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾**، المراد بـ«الإمساك» إبقاء الزوجة في بيتها بالرجوع إليها، والمراد بـ«المفارقة» تركها وعدم الرجوع

---

١. الكافي ٦ : ٩٢، الحديث ١٤، باب عدّة المطلقة.

إليها. والمعروف ما عرف الناس حسنه، وهو يختلف باختلاف الموارد كما يختلف باختلاف المجتمعات والأعراف، فالمراد به هنا بقرينة المقام ما يعرف المتشرّعة حسنه بملاحظة ما ورد من الشرع، فإذا أرجعها فالإمساك بمعروف هو مراعاة الحقوق الشرعية بين الزوجين من النفقة والمبيت وحسن العشرة، بل الأفضل مراعاة ما ندب إليه الشرع كالتسوية بين الأزواج في كلّ شيء مع الإمكان والتوسعة عليهنّ. وإذا أراد مفارقتها فليخلّ سبيلها ويحسن إليها ويعتذر عمّا حدث، فهما بعد كلّ ذلك مؤمنان والمؤمنون إخوة، ولا ينبغي أن يكون الانفصال موجباً للتباغض والعداء.

و«الأجل» غاية الوقت المحدّد، فمعنى بلوغ الأجل الوصول إلى غاية العدّة وآخرها، وليس المراد انتهاؤها، إذ لا يجوز الإمساك بعد انتهاء العدّة، وليس المراد أيضاً تحديد جواز الإمساك والرجوع ببلوغ الأجل، إذ يجوز له الرجوع طول فترة العدّة، بل المراد تحديد التخيير بين الأمرين ـ الإمساك بمعروف والمفارقة بمعروف ـ بهذا الوقت، أي عند بلوغها آخر الأجل، فلا يجوز له أن يضرّ بها كما كان يفعله بعض الناس من إرجاء أمرها إلى آخر يوم من العدّة، ثمّ إرجاعها وطلاقها ثانية بعد المواقعة وإرجاؤها أيضاً إلى آخر العدّة، ثمّ طلاقها ثالثة لتطول عدّتها وتحرم من الزواج بغيره.

وهذا أيضاً هو الإمساك ضراراً الذي منع في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُواً وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ

**عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.**[١]

ويلاحظ في هذه الآية شدّة اللحن والتحذير البليغ، وأنّ عدم الاهتمام بهذه الأحكام يعتبر استخفافاً بآيات الله تعالى، واتّخاذها هزواً، ويعتبر كفراناً لنعمه. ويلاحظ أخيراً التحذير من علمه تعالى بما تنطوي عليه النفوس المريضة من سوء النيّة. وهذا يستبطن تهديداً بليغاً.

روى الصدوق بسنده عن الحلبي، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سألته عن قول الله عزّ وجلّ: **﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا﴾**، قال الرجل: **«يطلّق حتّى إذا كادت أن يخلو أجلها راجعها، ثمّ طلّقها، يفعل ذلك ثلاث مرّات، فنهى الله عزّ وجلّ عن ذلك».**[٢]

**﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾**. «العدل» مصدر بمعنى الاستواء والاستقامة وعدم الميل والانحراف، وهو يختلف باختلاف موارد استعماله، فالعدل في الحكم أن لا يجور الحاكم والقاضي، والعدل في الميزان أن لا يبخس حقّ أحد من المتعاملين، وهكذا. وأمّا العدل والعدالة في الشرع فقد اختلف في تفسيره الفقهاء، والظاهر أنّه الاستقامة العملية في طريق الشرع بأن يكون الإنسان ملتزماً بأحكامه في جميع شؤون الحياة. وذو العدل، أي صاحبه، ويقال له: عادل، وربما يطلق العدل على العادل مبالغة.

و«الإشهاد»: طلب الحضور من أحد ليشهد واقعة، ويتحمّل الشهادة بدقّة ليؤدّيها وقت الحاجة. وقوله تعالى: **﴿مِنْكُمْ﴾**، أي من الرجال المؤمنين، مع أنّ غير المؤمن لا يمكن أن يكون عادلاً إلا أنّه ربما يتوهّم كفاية كونه عادلاً في دينه

---

١. البقرة (٢): ٢٣١.

٢. من لا يحضره الفقيه ٣: ٥٠١.

ومذهبه فلزم التقييد. وقيد الرجولة أيضاً يستفاد من الضمير، فإنّ الخطاب موجّه للرجال، مضافاً إلى أنّه ظاهر التذكير في قوله: ﴿ذَوَيْ عَدْلٍ﴾ ومضافاً إلى الروايات الواردة في هذا الباب وفي أبواب الشهادات بوجه عامّ إلا بعض الموارد الخاصّة.

وظاهر الأمر بالإشهاد هو الوجوب، فالمستفاد من الجملة المذكورة وجوب إشهاد رجلين عادلين. إنّما الكلام في مورد هذا الإشهاد، فالوارد عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام أنّ المراد به الإشهاد في الطلاق، وبه أفتى فقهاؤنا أجمع. والعامّة قالوا: إنّ المراد الإشهاد في الرجوع والمفارقة بلحاظ أنّ الأمر به ورد بعد التخيير بين الإمساك والمفارقة إلا أنّه يستبعد جدّاً أن يكون أصل الطلاق من دون إشهاد، والرجوع أو المفارقة يتوقّفان على إشهاد أو يجب فيهما الإشهاد تكليفاً.

وفي توجيه ذلك قال بعضهم: «وفي حالتي الفراق أو الرجعة تطلب الشهادة على هذه وذاك شهادة اثنين من العدول قطعاً للريبة فقد يعلم الناس بالطلاق ولا يعلمون بالرجعة فتثور شكوك وتقال أقاويل...».[1] واختلفوا اختلافاً شديداً في وجوب الإشهاد في الأمرين أو في خصوص المفارقة، واختلفوا أيضاً في وجوبه وندبه، وفي أنّه شرط في الصحّة أم لا. ولعلّ الغالب يقولون بعدم كونه شرطاً كما لم يشترطوا ما ورد في الآية السابقة من شرطي الطلاق في صحّته، وقد مرّ بعض الكلام حوله. وما ذكرناه هناك يأتي هنا أيضاً، فلو فرضنا أنّ الأمر بالإشهاد متعلّق بالرجوع والمفارقة لزم القول باشتراطهما به.

وهنا تبدو المفارقة والاستغراب، فكيف يمكن أن يكون أصل الطلاق لا يشترط فيه شيء ويتمّ بمجرّد تلفّظ من الزوج وهما في حال شجار وعناد،

---

١. في ظلال القرآن ٦: ٣٦٠١.

ويتوقّف إبقاؤها في بيت الزوجية على إشهاد، مع أنّها تعتبر زوجته قبل انتهاء العدّة ويجوز له أيّ استمتاع منها؟! وكذلك مفارقتها فإنّها مقتضى الطلاق واستمرار عدم الرجوع، حيث إنّها تحرم عليه بذلك، ولابدّ من المفارقة ولا يجوز لها البقاء عنده بعدها، فما هو الموجب للإشهاد خصوصاً إذا لزم القول بالاشتراط؟!

ومهما كان فروايات أئمّة أهل البيت عليهم السلام هي المرجع عندنا لدى الاختلاف في فهم معنى الكتاب. والروايات التي تدلّ على وجوب الإشهاد في الطلاق كثيرة جدّاً، ونذكر هنا بعض ما يدلّ على أنّه هو المراد بالآية:

روى الكليني رحمه الله بسنده، عن محمّد بن مسلم قال: قدم رجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام بالكوفة فقال: إنّي طلّقت امرأتي بعد ما طهرت من محيضها قبل أن أُجامعها، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: **«أشهدت رجلين ذوي عدل كما أمر الله عزّ وجلّ؟** فقال: لا، فقال: **«اذهب فإنّ طلاقك ليس بشيء»**.[1]

وعن محمّد بن الفضيل قال: كنّا في دهليز يحيى بن خالد بمكّة، وكان هناك أبوالحسن موسى عليه السلام وأبو يوسف، فقام إليه أبو يوسف وتربّع بين يديه، فقال: يا أبا الحسن جعلت فداك، المُحرم يظلّل؟ قال: **«لا»**، قال: فيستظلّ بالجدار والمحمل ويدخل البيت والخباء؟ قال: **«نعم»**، قال: فضحك أبو يوسف شبه المستهزئ، فقال له أبوالحسن عليه السلام: **«يا أبا يوسف إنّ الدين ليس بالقياس كقياسك وقياس أصحابك، إنّ الله عزّ وجلّ أمر في كتابه بالطلاق، وأكّد فيه بشاهدين ولم يرض بهما إلا عدلين، وأمر في كتابه بالتزويج وأهمله بلا شهود، فأتيتم بشاهدين فيما أبطل الله وأبطلتم شاهدين فيما أكّد الله**

---

١. الكافي ٦: ٦٠، الحديث ١٤.

**عزّ وجلّ وأجزتم طلاق المجنون والسكران، حجّ رسول الله ﷺ فأحرم ولم يظلّل ودخل البيت والخباء واستظلّ بالمحمل والجدار، وفعلنا كما فعل رسول الله ﷺ فسكت».**[١]

وفي «تفسير العيّاشي» عن أبي بصير، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنّ عمر بن رباح زعم أنّك قلت: لا طلاق إلا ببيّنة، قال: فقال: **«ما أنا قلته، بل الله تبارك وتعالى يقول...».**[٢]

هذا وينبغي أن نلاحظ ما رواه القوم أيضاً، ففي «الدرّ المنثور» في تفسير الآية: «أخرج عبد الرزّاق وعبد بن حميد، عن عطاء، قال: النكاح بالشهود والطلاق بالشهود والمراجعة بالشهود».[٣] ولا شكّ أنّ مراده بالطلاق ليس المفارقة، بل أصل الطلاق.

وفيه أيضاً: «وأخرج عبد الرزّاق عن ابن سيرين رضي الله عنه أنّ رجلاً سأل عمران بن حصين عن رجل طلّق ولم يشهد وراجع ولم يشهد؟ قال: «بئسما صنع، طلّق في بدعة، وارتجع في غير سنّة، فليشهد على طلاقه وعلى مراجعته وليستغفر الله».[٤]

وفي «جامع البيان» للطبري في تفسير الآية: «حدّثني عليّ قال: ثنا أبو صالح قال: ثني معاوية، عن عليّ، عن ابن عباس قال: «إن أراد مراجعتها قبل أن تنقضي عدّتها أشهد رجلين، كما قال الله: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ عند الطلاق وعند المراجعة...».[٥]

---

١. الكافي ٤: ٣٥٢، الحديث ١٥.
٢. تفسير العيّاشي ١: ٣٣٠.
٣. الدرّ المنثور فى التفسير بالمأثور ٦: ٢٣٢.
٤. الدرّ المنثور فى التفسير بالمأثور ٦: ٢٣٢.
٥. جامع البيان في تفسير القرآن ٢٨: ٨٨.

وفيه أيضاً: «حدّثنا أحمد، قال: حدّثنا أسباط، عن السديّ، في قوله: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ قال: «على الطلاق والرجعة».[1]

وفي «مصنّف» ابن أبي شيبة: «حدّثنا يحيى بن عبد الملك بن أبي غنيّة، عن جويبر، عن الضحّاك في قوله: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ قال: «أمروا أن يشهدوا عند الطلاق والرجعة».[2]

وقال البيهقي: «قال الشافعي ﵀: قال الله جلّ وعزّ: ﴿ فَإِذَا فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فارقوهن بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾، فأمر الله جلّ ثناؤه في الطلاق والرجعة بالشهادة...».[3]

ومن هنا يتبيّن أنّ الآثار المحكيّة عن بعض الصحابة والتابعين أيضاً تدلّ على لزوم الإشهاد في الطلاق أيضاً وأنّه المراد بالآية. ولكنّ مفسّريهم لم يذكروا ذلك حتّى بصورة احتمال، بل قال الآلوسي: «وزعم الطبرسي أنّ الظاهر أنّه أمر بالإشهاد على الطلاق، وأنّه مرويّ عن أئمّة أهل البيت ـ رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ـ وأنّه للوجوب وشرط في صحّة الطلاق».[4]

﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ خطاب للشهود. وإقامة الشيء جعله قائماً ينتفع به. والشهادة إنّما يتحمّلها الشاهد حين وقوع الفعل ليؤدّيها وقت الحاجة، ليترتّب عليه الأثر المنشود، فإقامة الشهادة لا تتمّ إلا بأدائها بأحسن وجه، بأن لا يُخفي الشاهد شيئاً ممّا رآه أو سمعه ممّا له دخل في ترتّب الأثر، ولا يزيد على ما رآه

---

١. جامع البيان في تفسير القرآن ٢٨: ٨٨.
٢. المصنّف ٥: ٩.
٣. معرفة السنن والآثار ١٥: ٤٠٦.
٤. روح المعاني ١٤: ٣٣٠.

أو سمعه شيئاً وإن علم به من جهة أُخرى. وهنا لابدّ من التقوى والورع الشديد والدقّة في الأداء، ولذلك أمر تعالى بإقامة الشهادة لله، أي طلباً لرضاه ممّا يدلّ على أنّ له تعالى عناية خاصّة بتحرّي غاية الدقّة في أدائها، حفظاً لحقوق الناس وصيانة لاستقامة القضاء بينهم.

﴿**ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**﴾. «الوعظ» ـ كما قال الخليل رحمه الله ـ هو التذكير بالخير في ما يرقّ له القلب.[1] ويمكن أن يضاف إليه أنّه تحذير عن الشرّ أيضاً بطريقة مؤثّرة من الترغيب والترهيب.

والإشارة في قوله تعالى: ﴿**ذَلِكُمْ**﴾ إلى كلّ ما مرّ من الأحكام. واختصاص الوعظ بمن يؤمن بالله واليوم الآخر يشير إلى أنّ مقتضى الإيمان الاهتمام بهذه الأحكام، وفيه تهديد بأنّ الاستخفاف بها يوجب الخروج عن الإيمان والمسؤولية أمام الله تعالى في اليوم الآخر.

والفرق بين «من آمن» و«من كان يؤمن» أنّ الثاني يدلّ على استمرار الإيمان، فلا يكفي مجرّد حدوثه، وفيه إشارة إلى أنّه حتّى لو كان مؤمناً قبل الابتلاء بهذه الأحكام إلا أنّه إذا تهاون بها ولم يلتزم بها كما هو حقّه، فإنّه قد خالف مقتضى إيمانه، بل خرج منه. ولعلّ السرّ في الحكم بخروجه من الإيمان أنّ الغالب في موارد عدم الاهتمام بهذه الأحكام من الرجال نشأته من الاستعلاء على المرأة، وهو في الواقع استعلاء على حكم الله تعالى وشريعته.

﴿**وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً**﴾، أربع جمل من غرر الآيات

---

١. راجع: كتاب العين ٢: ٢٢٨؛ مفردات ألفاظ القرآن: ٨٧٦.

القرآنية، كما يقوله العلامة الطباطبائي. وهي في نفس الوقت محلّ اختلاف من حيث التأويل مع أنّ معناها ظاهر. ومفاد هذه الجمل عامّ لا يخصّ هذا المورد وإنّما ينطبق عليه.

ففي الجملة الأُولى حكم بأنّ كلّ من يتّقي الله ويكون في ضائقة في شأن من شؤون حياته يجعل الله تعالى له مخرجاً، أي طريقاً للخروج من هذه الضائقة، ويرزقه من طريق لا يحتسب، أي لا يظنّ ولا يتوقّع أن يرزق منه. والاحتساب يمكن أن يكون من الحسبان بمعنى الظنّ أو من الحساب بمعنى العدّ، أي لا يعدّ هذا الطريق من طرق الرزق، واعتبرهما في «معجم المقاييس» من باب واحد.

والظاهر أنّ المراد بذلك ما إذا كان نفس التقوى سبباً لضيقه. وهذا الأمر يتّفق كثيراً في شؤون الدنيا، فتجد أنّ الإنسان يجد طريقاً لكسب المعاش، وربما يكون ممّا يدرّ عليه خيراً كثيراً، بل ربما يكون أنسب طريق له في الكسب، بل ربما يكون على الظاهر هو الطريق الوحيد كما لو كان هو الموافق لتخصّصه العلمي وربما لا يجد عملاً آخر يوافق تخصّصه، وفجأة يواجه حقيقة مُرّة، وهي أنّ هذا العمل حرام شرعاً كالعمل في المجال الربويّ أو تعليم الموسيقى. وهذا محلّ ابتلاء كثير من الشباب في هذا العصر.

وتطبيق الآية في مثل ذلك بأنّه إذا اتّقى ربّه وترك هذا العمل تجنّباً من الحرام وتورّعاً من أكل المال بالباطل وفّقه الله تعالى لتحصيل طريق آخر للمعاش يدرّ عليه مالاً حلالاً وإن لم يكن بتلك التوسعة، بل ربّما يوفّقه لأفضل منه حتّى من الجهة الماديّة. وقد وجدنا لذلك أمثلة كثيرة في حياتنا.

وأمّا تطبيقها في مورد الآية، وهو الطلاق والأحكام السابقة المتعلّقة به، فهناك

موارد ربما تقتضي مصلحة أحد الزوجين ما ينافي التقوى، منها ما مرّت الإشارة إليه من مكايدة بعض الرجال في عدم الرجوع طول العدّة والرجوع إذا قاربت النهاية، ثمّ تطليقها وتكرار ذلك فربما تفعل المرأة ما يوجب خلاصها، ولكنّه غير جائز كإعلامها رؤية الدم كذباً لتنتهي عدّتها، وربما يكون الرجل مضطرّاً لإبقاء زوجته وهي تضغط عليه للطلاق، وهو لا يمكنه إبقاؤها إلا بتلك المكيدة التي لا يجيزها الشرع.

وهناك موارد يمكن أن لا يتورّع فيها في باب الشهادة، سواء من قبل الشهود أو من قبل أحد الزوجين، وموارد تحاول المرأة فيها منع الرجل من الطلاق خوفاً من الفقر فترتكب ما لا يجوز، وغير ذلك من الموارد، والآية تشمل كلّها. والغرض الأساس هو التنبيه على أهميّة هذه الأحكام في الشريعة.

والجملة الثانية: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ تؤكّد مضمون الجملة السابقة، فإنّ الأساس فيها هو التوكّل على الله تعالى ومن يتّقيه في ترك الطريق الذي يراه صالحاً لمجرّد كونه مخالفاً للشرع يرجو من ربّه أن يعوّضه ويغنيه. وهذه الجملة تؤكّد أنّ الله تعالى يكفي من وثق به وتوكّل عليه.

و«حسب» مصدر بمعنى الكفاية، ويحمل على الذات مبالغة، فمعنى الجملة: «فهو كافيه». والتوكّل عليه تعالى بمعنى إيكال الأمر إليه، ولا يراد به أنّ الإنسان لا يعمل ما تقتضيه طبيعة الشيء المطلوب، فإذا أراد الشفاء لا بدّ من مراجعة الطبيب والعمل بما ينصحه، وإذا أراد الرزق لا بدّ من طلبه بالوسائل المتاحة، وإذا أراد العلم لا بدّ من التعلّم وهكذا... وإنّما التوكّل عليه تعالى فيما هو خارج عن إرادة الإنسان من الأسباب والمؤثّرات، بل وفي تأثير المؤثّرات أيضاً، ولولا

توفيقه تعالى وعنايته لم يصل الإنسان إلى ما يبتغيه مهما كان حاذقاً ومهما حاول واجتهد. وهناك روايات عديدة ترتبط بهذا الموضوع في كتب الفريقين.

منها ما رواه الكليني بسنده عن علي بن عبدالعزيز قال: قال لي أبو عبدالله عليه السلام: **«ما فعل عمر بن مسلم؟»**، قلت: جعلت فداك! أقبل على العبادة وترك التجارة، فقال: **«ويحه! أما علم أنّ تارك الطلب لا يستجاب له، إنّ قوماً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله لما نزلت ﴿وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أغلقوا الأبواب وأقبلوا على العبادة، وقالوا: قد كُفينا، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وآله فأرسل إليهم فقال: ما حملكم على ما صنعتم؟ قالوا: يا رسول الله تُكُفِّلَ لنا بأرزاقنا، فأقبلنا على العبادة، فقال: إنّه من فعل ذلك لم يستجب له، عليكم بالطلب»**.[1]

والجملة الثالثة: ﴿إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ تعليل لما تقدّم، فإنّ الله إذا أراد شيئاً بلغه وحقّقه لا يمنعه من ذلك مانع، فهو القادر على ما يريد. والمراد بالأمر في قوله: بـ﴿أَمْرِهِ﴾ كلّ أمر يريده.

ولكنّ قد يقال: ربما نجد في بعض الموارد من اتّقى الله تعالى ولم يجد مخرجاً من الضيق الذي وقع فيه. وكم من مؤمن ترك وظيفته تورّعاً، ولكنّه لم يجد وظيفة تناسبه وضاقت به سبل الرزق؟! فكيف يمكن تفسير الآية بحيث يبقى الحكم على شموله؟

والجملة الأخيرة توضح المعنى بحيث لا يبقى مورد للسؤال، فإنّ الله تعالى قد جعل لكلّ شيء قدراً وحدّاً محدوداً، فهو يهدي المرتاد إلى الوسائل التي توصله إلى هدفه المشروع ويوفّقه ويهيّء له المقدّمات، ولكن حيث كان لكلّ شيء

---

١. الكافي ٥ : ٨٤، الحديث ٥، باب الرزق من حيث لا يحتسب.

قدراً ـ والقدر مبلغ الشيء وحدّه ونهايته ـ فإنّ بعض ما يطلبه الإنسان ويرتاده قد يكون وراء الحدّ الذي يناسبه، فقد لا يمكن الوصول إليه، وقد لا يكون من صالح الإنسان أن يبلغه وإن طلبه وأصرّ عليه. فالآية الكريمة نظير ما ورد في استجابة الدعاء، فإنّ عدم قضاء بعض الحاجات قد يكون أصلح للإنسان وهو لا يعلم، وربما يكون ما طلبه غير ممكن أو غير صالح لآخرته وإن كان له منافع في الدنيا.

وَٱلَّـٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّـٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴿٥﴾ أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ﴿٧﴾

﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْـمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾، أُشير في الآيات السابقة إلى عدّة المطلّقة وإن لم يُبيّن مقدارها، لذكرها قبل ذلك في سورة البقرة: ﴿وَالْـمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾،[1] والظاهر أنّ سورة البقرة نزلت قبل سورة الطلاق. وقد اختلف في كتب الفقه واللغة في معنى «القرء» هل هو الطهر أم الحيض؟ ولكنّه حسب روايات أهل البيت عليهم السلام بمعنى الطهر.

والروايات كثيرة، منها: ما رواه الكليني بسند صحيح عن زرارة قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام سمعت ربيعة الرأي يقول: من رأيي أنّ الأقراء التي سمّى الله عزّ وجلّ في القرآن إنّما هو الطهر فيما بين الحيضتين، فقال: «كذب، لم يقله برأيه ولكنّه إنّما بلغه عن علي عليه السلام»، فقلت: أصلحك الله أكان علي عليه السلام يقول ذلك؟ فقال: «نعم إنّما

---

١. البقرة (٢): ٢٢٨.

**الطهر يقري فيه الدم فيجمعه فإذا جاء المحيض دفقه».**[١]

وفي «معجم مقاييس اللغة» أيضاً أنّ «القرء» بمعنى الجمع والاجتماع،[٢] ومهما كان فلم يرد في هذه الآيات ذكر لعدّة المطلّقة إذا لم تر الدم، لحمل أو كبر أو صغر أو مرض، فهذه الآية تعرّضت لذكر عدّتهنّ بالتفصيل.

والكلام هنا فيما هو المراد باليأس من المحيض وبقوله: ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ فإنّ اليأس يحصل بعدم رؤية الدم مدّة طويلة، ولكن لا يرتاب حينئذٍ في الحمل عادة، فإنّ اليائسة لا تحمل بصورة طبيعية فما هو المراد بالجمع بين الأمرين؟

ذهب فقهاء السنّة ومفسّروهم إلى أنّ المراد بلوغها سنّ اليأس التامّ، حيث لا ترى الدم بعد ذلك أصلاً. واختلفوا في تحديده، فقيل: ستّين، وقيل: خمس وخمسين، وقيل غير ذلك. واختلفوا أيضاً في المراد بقوله تعالى: ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ فقال الأكثر: إنّ المراد به الجهل بحكم العدّة في اليائسة، حيث لم يرد في الكتاب، ورووا في ذلك روايات تدلّ على أنّ بعض الصحابة تساءلوا فيما بينهم أو سألوا الرسول ﷺ بعد نزول آية العدّة عن حكم العدّة في من لا ترى الدم فنزلت هذه الآية.

وعليه فلا مفهوم لهذه الجملة الشرطية؛ لأنّ معناها إذا شككتم في حكمها فهذا حكمها، وعلى هذا الأساس حكموا بوجوب العدّة لليائسة وإن بلغت ما بلغت.

وقال بعضهم: إنّ المراد بالارتياب الشكّ في حال المرأة، إمّا من جهة كون

---

١. الكافي ٦ : ٨٩، الحديث ١؛ وليس في النسخة المطبوعة: قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام. وإنّما ورد في الوسائل.

٢. راجع: معجم مقاييس اللغة ٥: ٧٩.

الدم النازل حيضاً أو استحاضة أو أنّها بلغت سنّ اليأس أم لم تبلغ ونحو ذلك، ولكنّهم اصطدموا بلزوم المفهوم في الجملة الشرطية، ومقتضاه عدم ثبوت هذه العدّة مع عدم الارتياب، والحال أنّهم متّفقون على ثبوت هذه العدّة على اليائسة مطلقاً، وإن نسب الخلاف إلى بعض فقهائهم، وأمّا فقهاؤنا فقالوا بعدم ثبوت العدّة عليها، إلا من شذّ ومنهم السيّد المرتضىﷺ

والظاهر أنّ المراد باليأس ليس هو اليأس من الحيض المصطلح في الفقه، أي التي لا تحيض نهائياً، بل عدم رؤيته مدّة يوجب اليأس، ولكن لا تعلم هل كان ذلك من جهة بلوغها سنّ اليأس أو لعارض فتحتمل كونه لحمل. ومنه يعلم أنّ المراد بالارتياب الشكّ في كون عدم الحيض لحمل أو مرض أو يأس. ولا شكّ أنّه هو ظاهر اللفظ في اليأس وفي الارتياب، وإنّما اضطرّ القوم إلى حمله على الجهل بالحكم تهرّباً من مفهوم الشرط ونحن نقول به، وبأنّ اليائسة غير المسترابة لا عدّة عليها، كما ورد في عدّة من الروايات، والمراد بالمسترابة من لا تحيض وهي في سنّ من تحيض لانقطاع حيضها بمرض ونحوه.

ومن هنا يتبيّن أنّه لا حاجة إلى تأويل في الآية وارتكاب لما هو خلاف الظاهر، بل لا يصحّ ما ذكروه من التأويل أوّلاً؛ لأنّ الارتياب بمعنى الشكّ لا الجهل بالحكم. وثانياً: أنّ قوله تعالى: ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ معناه الاشتراط مع أنّ الجهل حسب الفرض كان حاصلاً فلا معنى لاشتراطه. ولذلك قالوا: إنّ «إن» هنا بمعنى «إذ» ولم يرد ذلك في اللغة، وكان المفروض ـ بناءاً على هذا الرأي ـ أن يقول: «إذ ارتبتم» فلماذا التغيير لو صحّ أنّ «إن» بمعنى «إذ»؟! هذا مضافاً إلى أنّ حمل الارتياب على حالة انتظار نزول الحكم من السماء أمر غريب جدّاً.

وربّما يقال: لو كان كذلك لقال: «إن ارتبن» فتوجيه الخطاب للرجال يناسب ما ذكروه من الجهل بالحكم. والجواب أنّ احتساب العدّة من وظائف المجتمع، وفيها تكليف للزوج والزوجة وسائر الرجال. ولذلك يخاطب به بالضمير المذكّر. ويظهر ذلك بوضوح في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذا نَكَحْتُمُ الْـمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾.[1]

فتبيّن أنّ منطوق هذه الجملة تدلّ على حكم اليائسة المسترابة، وأنّ عدّتها بالشهور، ومفهومها تدلّ على حكم اليائسة القطعية، وأنّها لا عدّة لها، وذلك لأنّ معنى قوله: ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ أنّه إن لم يكن ريب في عدم الحمل من جهة اليأس من الحيض، فلا تعتدّ هذه العدّة، أي ثلاثة أشهر وإلا لم يكن وجه للاشتراط وليست هناك عدّة أُخرى غيرها.

وأمّا أنّ اليأس التامّ متى يحصل فهناك اختلاف بين فقهائنا لاختلاف الروايات، فذهب بعضهم إلى أنّه في القرشية ستّين وفي غيرها خمسين. وذهب سيّدنا الأُستاذ[2] ـ حفظه الله تعالى ـ إلى أنّه يحصل بانقطاع دم الحيض وعدم رجاء عوده لكبر سنّ المرأة ببلوغها خمسين سنة قمرية، سواء في ذلك القرشية وغيرها. وتمام الكلام في الفقه.

ثمّ إنّ المراد بالأشهر، الهلالية لأنّها هي المتعارفة لدى العرب المخاطبين، وهناك بحث فقهي في كيفية احتساب الثلاث إذا وقع الطلاق في غير الساعة الأخيرة من الشهر، كما هو الغالب، حيث إنّه إذا وقع في الساعة الأخيرة تكون

---

١. الأحزاب (٣٣): ٤٩.

٢. مرجع الأُمّة وقائدها سماحة السيّد السيستاني أدام الله عزّه.

العدّة ثلاثة أشهر هلالية كاملة، أمّا إذا وقع قبل ذلك فهناك شهران كاملان وتكمل العدّة بتلفيق أيّام من الشهر الرابع ليكتمل الشهر الأوّل، إلا أنّ الكلام في أنّ اللازم إكمالها ثلاثين يوماً أو بمقدار ما مضى منه قبل الطلاق، فلو كان الشهر تسعاً وعشرين يوماً ووقع الطلاق في العشرين من الشهر، فهل تنتهي العدّة بإكمال تسعة أيّام من الشهر الرابع أو عشرة، ليكون ثلاثين يوماً، وحيث لم يرد دليل قاطع من الشرع في ذلك احتاط سيّدنا المرجع بإكماله ثلاثين يوماً.

﴿وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ عطف على ﴿اللَّائِي يَئِسْنَ﴾، فيلحقه الشرط أيضاً، ويكون التقدير: واللائي لم يحضن إن ارتبتم فعدّتهنّ ثلاثة أشهر، وعليه فالمراد بهنّ من لم تحض أصلاً مع كونها في سنّ من تحيض ليتحقّق الارتياب. والتقييد بكونها في سنّ الحيض لإخراج الصغيرة، أي التي لم تبلغ التسع، فإنّها حتّى لو رأت دماً لا يعتبر حيضاً في الشرع، فإذا دخل بها زوجها خطأ أو على وجه محرّم، ثمّ طلّقها فلا عدّة عليها أصلاً؛ لأنّ الشرط وهو الارتياب لا يأتي فيها. والخلاف السابق في عدّة اليائسة يأتي هنا أيضاً.

﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾. معنى الآية واضح، وأنّ عدّة الحامل وضع الحمل، وإن اختلف الفقهاء في بعض الجزئيات كإسقاط العلقة والمضغة. وظاهر الآية اختصاص هذه العدّة بالمطلّقة، لأنّها هي موضوع الكلام وبيان الأحكام ولا علاقة لها بالحامل المتوفّى عنها زوجها. وأصحابنا يقولون فيها تبعاً للروايات: أنّها تعتدّ بأبعد الأجلين من العدّة ووضع الحمل. والعدّة ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً﴾.[١]

---

١. البقرة (٢): ٢٣٤.

وذهب فقهاء العامّة تبعاً لما رووه من الصحابة بأنّ آية سورة البقرة تخصّص بهذه الآية، فعدّة الشهور خاصّة بغير الحامل، وأمّا هي فتنتهي عدّتها بالوضع حتّى لو كان زوجها ملقى على سرير الموت أو المغتسل. وقال بعضهم في توجيه ذلك: إنّه لا وجه للحكم ببقاء عدّتها بعد الوضع لعدم احتمال الحمل إلا الحزن على الزوج وهو منهيّ في السنّة. وهذا كلام غريب، فإنّ الحكم بالحداد على الزوج مسلّم في الشريعة.

وما ذكروه مبنيّ على تعارض الآيتين بالعموم من وجه، فالموضوع في آية سورة البقرة المتوفّى عنها زوجها، وهو يشمل الحامل وغيرها، والموضوع في هذه الآية الحامل ويشمل المطلقة والمتوفّى عنها زوجها، فتتعارض الآيتان في الحامل المتوفّى عنها زوجها، ولا بدّ من تقديم الآية الثانية لتأخّرها فهي تنسخ حكم الأولى أو تخصّصها.

والصحيح أنّه لا تعارض بينهما كما أشرنا إليه لاختصاص هذه الآية بالمطلّقة، فإنّها هي موضوع الأحكام من بداية السورة، وعلى فرض كون الأرملة الحامل مورداً للآيتين فلا تعارض في الحكم أيضاً، لإمكان الجمع بينهما والحكم بأبعد الأجلين.

ويمكن أن يقال مع قطع النظر عن الروايات: إنّ هذه حكمها الاعتداد عدّة الوفاة حسب آية البقرة إلا أنّها إذا بقيت حاملاً فلا يمكنها الزواج إلى أن تضع حملها.

وقد روى القوم عن أمير المؤمنين عليه السلام وابن عباس القول بأبعد الأجلين، ولكن رجّحوا عليه قول عبدالله بن مسعود وغيره. ونحن لا نقارن بقول أمير المؤمنين

ـ سلام الله عليه ـ قولاً من أحد، لأنّه لا يقول إلا ما أخبره به النبيﷺ وقد قال هو بنفسه: **«لا يقاس بآل محمّدﷺ من هذه الأُمّة أحد».**[١]

**﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾**. مرّ بعض الكلام في نظيرتها آنفاً. و«اليسر» خلاف العسر، ومعناه السهولة واللين والانقياد. والمراد بتقوى الله تعالى في هذا المجال هو رعاية حدوده في تعيين العدّة والالتزام بها وبأحكامها، فعلى الزوج أن ينفق على المرأة ويسكنها في فترة العدّة ولا يحاول الإضرار بها بعد انتهائها بمنعها من الزواج، قال تعالى: **﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إذا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾**.[٢]

وعلى المرأة أن لا تخرج قبل انتهاء العدّة ولا تتزوّج ولا تتبرّج ولا تظهر زينتها لغيره. وعلى سائر الرجال أيضاً عدم التعريض بالخطبة في فترة العدّة.

والمراد بـ «أمره» ما تعسّر عليه من شؤون حياته. وفي تيسير العسير احتمالان: أحدهما: أن يغيّر الله تعالى حاله ويسهّل أمره ويرفع الإشكال، والآخر: أن يقوّي إرادته وإيمانه وعزيمته فتذلّ له الصعاب من دون تغيّر فيها. ولعلّ الثاني هو الأكثر في مورد الآية، وهو رعاية حدود الله تعالى، فإنّها في حدّ ذاتها أمر ممكن، وإنّما يصعب على بعض الناس الالتزام بها لضعف الإيمان ولمتابعة الأهواء، ومن الطبيعي أنّ المتّقي يسهل عليه ذلك.

**﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾** إشارة إلى ما مرّ من الأحكام. و«الأمر» بمعنى

---

١. نهج البلاغة (صبحي الصالح): ٤٧، الخطبة الثانية.
٢. البقرة (٢): ٢٣٢.

التكليف. وهذا تأكيد على أنّ ما مرّ من الأحكام ليست أوامر ندبية ولا إرشادية ولا أخلاقية، بل هي تكاليف وواجبات مهمّة من صلب الشريعة الإلهيّة. والتأكيد على أنّ هذه الأحكام من أمر الله تعالى يضفي عليها اهتماماً خاصّاً. والتعبير بالإنزال من جهة أنّ الأحكام تصدر من مقام الربوبية، فالمراد بالعلوّ المفهوم من الإنزال رفعة المقام.

وقد مرّ أنّ سبب هذا التأكيد المتكرّر في هذا الباب بالخصوص، أي أحكام الأُسرة هو تهاون المجتمع آنذاك وإلى يومنا هذا بهذه الشؤون وبكلّ ما يرتبط بالمرأة استعلاءاً من الرجل، والله تعالى لا يختلف لديه الرجل والمرأة.

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً﴾، تكفير السيّئة محوها وسترها. والظاهر أنّ مضمون الآية حكم عامّ طبّق هنا لمزيد التأكيد على هذه الأحكام. ولا يبعد أن يكون المراد بالتقوى الموجب لتكفير السيّئات اجتناب الكبائر ـ كما ذكره العلامة الطباطبائي ﵀[1] ـ لتتّفق الآية مضموناً مع قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾،[2] فيكون المراد بالسيئات خصوص الصغائر.

توضيح ذلك أنّ المراد بالتقوى إن كان ترك الكبائر والصغائر لم يبق مورد للتكفير والستر، وإن أُريد بالسيئات ما يشمل الكبائر ـ كما ظنّ بعضهم ـ كان معنى الآية كفاية أن يتّقي المكلّف في كبيرة واحدة، فيغفر الله له سائر الكبائر وإن لم يتب، وهو بعيد جدّاً خصوصاً على ما ذهب إليه ذلك البعض من أنّ مخالفة أحكام العدّة والطلاق ليست من الكبائر، ولا شكّ أنّ المراد بالتقوى هنا

---

١. راجع: الميزان في تفسير القرآن ١٩: ٣١٦ ـ ٣١٧.
٢. النساء (٤): ٣١.

ما يشمل مورد الآية، أي مخالفة أحكام الطلاق والعدّة. والنتيجة أن يقال بكفاية ترك صغيرة في تكفير الكبائر.

ثمّ إنّ ظاهر الآيتين ـ كما أشرنا إليه ـ أنّ اجتناب الكبائر يوجب تكفير الصغائر حتّى لو لم يتب منها، إذ مع التوبة يكفّر الكبائر أيضاً. وقد مرّ بعض الكلام حول الكبائر والصغائر في تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾.[1]

وتبيّن من خلال البحث أنّ المستفاد من هذه الآية ـ كما قال العلامة[2] ـ هو أنّ مخالفة هذه الأحكام من الكبائر ولا وجه للاستبعاد. وقد قلنا سابقاً أنّ الغالب من المخالفة فيها هو ما ينشأ من استعلاء الرجل وهو نحو من الطغيان.

ثمّ إنّ التقوى واجتناب الكبائر أمر وجودي، فلا يقصد بهما مجرّد الترك ليصدق حتّى مع عدم وجود الدافع النفسي أو وجود مانع طبيعي أو عدم تهيؤ الأسباب والأرضية المناسبة. ولا بدّ هنا من تنبيه الشباب بأن لا ىتمنّوا لأنفسهم مراعاة التقوى بعد الكبر والكهولة، فإنّا وجدنا الغالب من الناس الذين لم يتّقوا في شبابهم لم يتّقوا أيضاً في الكبر، وإنّما اختلف المجال، مضافاً إلى أنّ التقوى بعد فقدان دوافع الإثم أو ضعفها لا أثر له، بل ربما لا يصدق التقوى.

والظاهر أنّ المراد بإعظام الأجر للمتّقي أنّ ما يعمله من الأعمال الصالحة كالعبادات والصدقات ونحوها يتعاظم ويتضاعف أجرها إذا اتّقى الإنسان ربّه عند مواجهة الكبائر، فهذا أيضاً ميزة خاصّة للمتّقين الذين تلبّسوا بالتقوى إيجاباً. وفي تنكير الأجر أيضاً نوع من التفخيم.

---

١. النجم (٥٣): ٣٢.

٢. راجع: الميزان في تفسير القرآن ١٩: ٣١٧.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾. الضمير يعود إلى المطلّقات الرجعيّات، فإنّ كلّ من سبق ذكره من النساء في الآيات السابقة منهنّ بناءاً على ما ذكرناه. والجملة مستأنفة من دون واو؛ لأنّها تفصّل كيفية التقوى المأمور بها في الجملة السابقة وفي خصوص مورد الآية، كأنّ سائلاً يسأل كيف نتّقي في حقّ المطلّقة الرجعيّة؟ فالآية تجيب: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ ...﴾ ويمكن اعتبارها تفصيلاً، لقوله تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ ...﴾ واختلف فقهاء العامّة في وجوب السكنى والنفقة للمطلقة البائنة لاختلاف رواياتهم، وقال بعضهم: إنّ ظاهر الآية هو العموم، ولكنّه غير ظاهر؛ لأنّ مورد الآيات هو الطلاق الأوّل وهو رجعيّ في من تجب عليها العدّة. ولذلك ورد ضمن الآيات الحكم بجواز الرجوع في قوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ...﴾.

ومهما كان فلا خلاف عندنا في اختصاص السكنى والنفقة بالرجعية، ورواياتنا تصرّح بذلك. وهم أيضاً يروون قصّة فاطمة بنت قيس، وهي على ما في «صحيح مسلم» هكذا: «عن فاطمة بنت قيسٍ قالت: طلّقني زوجي ثلاثاً، فلم يجعل لي رسول الله ﷺ سكنى ولا نفقةً»[1] والروايات في قصّتها كثيرة ومرويّة في الصحاح والمسانيد، وفي «صحيح مسلم» فقط أربعة عشر حديثاً في ذلك.

ولكنّ المرويّ أنّ بعضهم رفضوا قبول روايتها، وحكي ذلك عن عائشة وعمر بن الخطاب ومروان بن الحكم وغيرهم. ولم يظهر من كلام عائشة تكذيبها، ولكنّها قالت: «لا خير لها «أي لفاطمة» في ذكر هذا الحديث»، ويبدو من بعض ما حكي عن عائشة أنّها كانت ترى أنّ ما حكم به الرسول ﷺ في مورد فاطمة

---

١. صحيح مسلم ٤: ١٩٨.

بنت قيس خاصّ بها لخصوصية فيها.

والظاهر أنّ «من» في ﴿مِنْ حَيْثُ﴾ زائدة، أي أسكنوهنّ حيث سكنتم، أي في نفس البيت. ولكنّ المعروف أنّها تبعيضية، أي أسكنوهنّ بعض ما سكنتم. و«الوجد» بفتح الواو وكسرها وضمّها، بمعنى القدرة المالية، أي ليكن البيت مناسباً لها حسب قدرتكم على الموسع قدره وعلى المقتر قدره. ويلاحظ أنّ الآية تذكر قيدين لمسكنها: أحدها: أن يكون مسكن الزوج، فلا يفصلها عن مسكنه، والآخر: أن يكون مناسباً لها حسب قدرة الزوج.

﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾. «المضارّة» مفاعلة من الضرر، والمعنى واحد، قال في «الصحاح»: «وقد ضرّه وضارّه بمعنى، والاسم الضرر»،[1] أي لا تضرّوا بهنّ لغرض التضييق عليهنّ في المسكن أو النفقة أو غيرهما، حيث كان بعضهم يضيّق عليها في المسكن أو النفقة لتخرج من بيته، أو للتشفّي والانتقام. والتعليل للإشارة إلى ما هو الغرض غالباً، وليس تقييداً للحكم، فإنّ الإضرار بهنّ حرام مطلقاً وإن لم يكن لغرض التضييق.

﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، الظاهر أنّ تخصيصها بالذكر من جهة أنّ بعض النفوس الخسيسة تستعجل في الخلاص من نفقة المطلّقة، فربما يتشبّث بعضهم بما مرّ من تحديد العدّة بالأشهر فيمتنع من الإنفاق والإسكان بعد ذلك، فورد التأكيد على الحوامل بلزوم الإنفاق إلى الوضع، مع أنّه معلوم ممّا سبق؛ لأنّ عدّتها لا تنتهي إلا بالوضع، والنفقة واجبة ما دامت في العدّة كما مرّ.

---

١. الصحاح ٢: ٧١٩.

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، أي أُجور الإرضاع. ويستفاد من الآية أنّ الأُمّ أولى بإرضاع ولدها إذا اتّفق الوالدان على الأُجرة، أو طالبت بأُجرة مساوية لغيرها أو أقلّ. واستحقاق الأُمّ للأُجرة لا يختصّ بحال الطلاق في مذهبنا، وكذا قال بعض فقهاء العامّة. وقال بعضهم: إنّ الزوجة لا تستحقّ شيئاً زائداً على نفقة الزوجية. ويظهر من الآية أنّ الإنفاق على الولد من حقوقه على الأب، فمن هنا وجب عليه أن يدفع أُجرة الإرضاع لأُمّه.

﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾. «الائتمار»: المشاورة، مأخوذ من الأمر بمعنى الطلب، حيث يطلب كلّ واحد من الآخر شيئاً إلى أن يصل الأطراف إلى حدّ مقبول للجميع. وقوله: ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾، أي بأجر معروف، أي متعارف فلا يبخل الرجل بأن يدفع لها المقدار المتعارف، ولا تطالب المرأة بأكثر منه، ولكنّ كلّ ذلك على فرض الاتّفاق، فلا تجبر المرأة على القبول، كما لا يجبر الرجل على دفع الزائد إلا أنّ الأولوية للأُمّ، كما يستفاد من الجملة السابقة وقد مرّ.

﴿وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى﴾. «التعاسر» تفاعل من العسر، أي الصعوبة والشدّة، فمعناه أنّ كلّ واحد من الوالدين المتفارقين يحاول تشديد الأمر على الآخر في الاستئجار لرضاع طفلهما، فالأُمّ تطالب بأُجرة أكثر من المتعارف أو الأب يرفض دفع المتعارف ويطالب بأقلّ منه، فلا يحصل الاتّفاق.

والغرض من هذه الجملة المحافظة على حقّ الولد في الرضاع، والتأكيد على أنّ التعاسر لا يسقط حقّ نفقة الولد على الوالد، بل عليه أن يستأجر مرضعاً غيرها تقبل بأُجرة أقلّ، وإنّما لم يذكر الحكم بصورة الأمر، بل بالإخبار عن المستقبل للتأكيد على أنّه أمر لا بدّ منه، كما يقال لمن أتى بما يبطل الصلاة: «يعيد

صلاته»، وهذا التعبير أقوى في الدلالة على الوجوب من الأمر، مضافاً إلى أنّ في هذا الإخبار تحذير للوالدين من التعاسر، لأنّه يستلزم استرضاع غير الأمّ وهو بالطبع غير مطلوب لهما.

﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ﴾. «السعة»: الزيادة على مقدار الحاجة، فالسعة في المكان بأن لا يكون محدوداً بمقدار ما هو متمكّن فيه، والسعة في الحال بأن لا تكون القدرة الاقتصادية محدودة بمقدار حاجته، وهي أوسع من الغنى، فإنّ الغنى يصدق في ما إذا ملك مقدار حاجته فحسب، والسعة في المال تدلّ على أكثر من ذلك.

و«القدر»: الحدّ والمبلغ والنهاية. والذي قدر عليه رزقه، أي كان رزقه محدوداً بمقدار حاجته فهو أحسن حالاً من الفقير. و﴿آتَاهُ اللهُ﴾ أي أعطاه الله.

ومعنى الآية واضح، وهو عدم تحديد النفقة الواجبة بحدّ معيّن كما يحدّه بعض المحاكم في هذا العصر، فهي كما تختلف حسب حاجات الشخص المنفق عليه من رجل وامرأة وطفل وصحيح ومريض ومعاق وغير ذلك، وكما تختلف أيضاً باختلاف الأزمنة والأمكنة، وما يعتبر من النفقة المتعارفة حسب المستوى الاقتصادي للمجتمع، كذلك تختلف حسب تمكّن المنفق الذي كلّف بالإنفاق، فإن كان ذو سعة وغنى فلا يجوز أن يبخل على المنفق عليه، بل يوسّع عليه في النفقة، وإن كان فقيراً أو متوسّطاً فالواجب عليه أن ينفق بمقدار طاقته، فلا يحقّ للمنفق عليه المطالبة بأكثر منه.

وبذلك يتبيّن أنّ هذا ليس أمراً ندبياً أو أخلاقياً، وليس المطلوب من المنفق أن يتفضّل على المنفق عليه بالتوسعة، بل هو أمر واجب وحقّ للمنفق عليه ثابت

في ذمّة المنفق، مضافاً إلى وضوح الأمر بملاحظة الجملة التالية.

وقال بعض المفسّرين: إنّ الآية خاصّة بالمطلّقة المرضعة، لأنّها هي التي سبق القول عليها في الآية السابقة. ولكن لا وجه للتخصيص، فلا شكّ في أنّ الحكم يشمل كلّ من سبق ذكرها من المطلّقات، بل لا يبعد أن يكون هذا حكماً عامّاً يشمل جميع موارد النفقة الواجبة.

والظاهر أنّ المراد بالضيق في قوله تعالى: ﴿قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ ليس ما يحصل من كسل المكلّف، فالإنفاق الكامل واجب عليه مع تمكّنه من التحصيل وإن لم يكن غنيّاً بالفعل، كما سيأتي.

﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا﴾، أي لا يكلّفها إلا بمقدار ما أعطاها من طاقة ومال. وهذا قانون عامّ طبّق على هذا المورد، ومثله قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾.[1] وهذه الجملة تعليل للحكم السابق، أي عدم الوجوب على المنفق أكثر من طاقته وهي كالصريحة في أنّ الحكم السابق تكليف على المنفق، وليس أمراً مستحبّاً فحسب. وتدلّ أيضاً على ما ذكرناه آنفاً من وجوب تحصيل النفقة على المتمكّن منه وإن لم يملك مالاً بالفعل؛ لأنّ قدرته على التحصيل ممّا آتاه الله فيشمله التكليف.

﴿سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾ بشارة لمن قدر عليه رزقه، وترغيب له في أنّ لا يبخل خوفاً من الفقر، فالسنّة الإلهيّة في الكون تقتضي أن تتحوّل حالات الإنسان من عسر إلى يسر وبالعكس، فلا ينبغي للمؤمن أن ييأس من تبدّل فقره إلى غنى. و«العسر»: الضيق والشدّة والفقر، و«اليسر» خلافه.

---

١. البقرة (٢): ٢٨٦.

وورد في التفاسير أنّ هذه الجملة إشارة إلى تبدّل حالة المسلمين إلى السعة والغنى نتيجة للفتوحات. وإنّما أوّلوا الآية إلى هذا المعنى الضيّق؛ لأنّ المشهود في حالات بعض الناس عدم تبدّل فقرهم إلى غنى وعسرهم إلى يسر، فلا يمكن حمل الآية على ظاهرها خصوصاً بملاحظة الوعد القطعي فيها من دون الإشارة إلى ما يقتضي أنّه محتمل ومرجوّ، كما قال تعالى في آية سابقة: **﴿لَعَلَّ اللهَ يُحدِثُ بَعدَ ذَلكَ أمرَاً﴾** .

والصحيح أنّ هذه الجملة ليست إلا بياناً للحالة الطبيعية في تبدّل المستوى المعيشي للبشر، فإنّ المجتمع البشري لا يبقى على حال واحد، بل هو دائماً في تطوّر وتكامل، ومن نجده اليوم فقيراً، فهو في حال أحسن بكثير من بعض الأغنياء في القرن السابق، مضافاً إلى تبدّل حالات كلّ إنسان في حدّ ذاته.

ومن جهة أُخرى لم تذكر الآية أنّ اليسر والعسر يتعاقبان من جهة واحدة، بل ورد التعبير بهما نكرة ممّا يدلّ على أنّ بعض من هو في عسر من جهة من جهات الحياة قد يكون بعده في يسر ورخاء ولو من جهة أُخرى وفي مجال آخر، فيمكن أن يكون العسر من جهة المال مثلاً، واليسر من جهة العافية، بل في سورة الانشراح أنّ كلّ عسر ينطوي فيه يسر في نفس الوقت، قال تعالى: **﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾**[1] وليس ذلك إلا مع اختلاف الجهة. والجملة مع ذلك تبعث الأمل والرجاء في نفوس المخاطبين.

---

١. الانشراح (٩٤): ٥ ـ ٦.

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا
عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ
عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾
رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ
ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ
وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ
أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِه﴾. «كأيّن» تكتب بالنون كما هنا، وبالتنوين «كأيّ» ويقال: إنّها كلمة مركّبة من كاف التشبيه و«أيّ» وهي بمعنى «كم»، ولذلك تأتي للتكثير والاستفهام وفيه خلاف.

و«القرية» بمعنى المجتمع البشري، من قرى بمعنى جمع، أي كم من مجتمع كان كذا... فلا حاجة إلى تقدير «أهل» كما ذكره بعضهم.

و«عتت» من العتوّ، أي الترفّع والتأبي والاستكبار، وأمّا العتوّ في الشيخ كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً﴾[1] فلعلّه من نفس المعنى باعتبار أنّ الشيخوخة داء تتأبّى عن المعالجة.

ومعنى الآية أنّ هناك في ما تقدّم من الزمان مجتمعات كثيرة من البشر استكبروا وامتنعوا عن امتثال أمر ربّهم وأوامر رسله، فعاقبهم الله تعالى وعذّبهم.

---

١. مريم (١٩): ٨.

وهذا ـ أي المعاقبة والجزاء ـ هو مورد التعجيب من الكثرة.

ولعلّ السرّ في التنبيه على هذا الأمر في هـذا الموضع هـو تحـذير المجتمع الإسلامي في ذلك العصر وفي كلّ عـصر مـن عـدم الاهتمـام بـالأوامر المتعلّقـة بحقوق النساء وأحكامهنّ. وقد تكـرّر التحـذير ـ كمـا تقـدّم التنبيـه علـى ذلـك، وتكرّر أيضاً في سورة البقرة وهي متقدّمة على هذه السورة ـ لأنّها من أوائـل مـا نزلت في المدينة. وقد بيّـنّـا أنّ السرّ في هذا التأكيـد لعلّـه عـدم اهتمـام الرجـال بحقوق النساء والاستخفاف بها خصوصاً في ذلك العصر القريـب مـن الجاهليـة. كما بيّـنّـا أيضاً أنّ اهتمام القرآن بالتنبيه على ذلك لا يبعد أن يكون من جهة أنّ منشأه هو الكبر والترفّع الذكوري، كما يشير إليه في هذه الآية المباركة بـالتعبير عنه بالعتوّ.

ولعلّ الوجه في التعبير بالكثرة التنبيه على ملازمة العتـوّ والاسـتكبار للغـضب الإلهـيّ ونـزول العـذاب لـئلا يتـوهّم أنّ توافقهمـا فـي بعـض المـوارد مـن بـاب المصادفة. ويستفاد من هذه الآية أيضاً أنّ إطاعة الرسل عليهم السلام في صفّ إطاعـة الله تعالى من حيث الأهميّة، والترفّع على أوامرهم كالترفّع والطغيان علـى الله تعـالى في استنزال العقاب؛ لأنّ إطاعتهم إطاعته ومعصيتهم معصيته عزّ وجلّ.

﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيدً﴾. «المحاسبة»: العدّ. والمعنى أنّا أعـددنا علـيهم كـلّ صغيرة وكبيرة، فإمّا أن يراد بها نفس المحاسبة ليجزون بموجب أعمالهم، أي أنّ الله تعالى لم يعف عن بعض ما يـستوجب العقـاب مـن أعمـالهم، وإمّـا أن يـراد بالمحاسبة العذاب، كما يعبّر بها عنه من باب أنّها السبب القريب.

والظاهر أنّ المراد بها المحاسبة في الدنيا، فإنّ ما ينزل على الإنسان من نوازل

الدهر أنّما هي نتيجة أعماله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾،[١] وكما يحاسب الفرد يحاسب المجتمع أيضاً، وكما للفرد عمله وكتابه ونفسياته كذلك للمجتمع أيضاً عمله وكتابه ونفسياته. وفي يوم القيامة أيضاً هناك كتاب لكلّ فرد وكتاب للأُمّة، قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً * اقْرَأْ كِتَابَكَ ...﴾[٢] وقال أيضاً: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا ...﴾.[٣]

﴿وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْراً﴾. «النكر» بضمّ الكاف وسكونه، أي المنكر، ومعناه العذاب الفظيع الذي تنكره النفوس ولم يعهده المجتمع البشري، وهو عذاب الاستئصال الذي لا يُبقي من المجتمع أحداً ومن حضارتهم أثراً إلا ما يكون عبرة للآخرين.

﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾. «الوبال»: الثقل والشدّة والوخامة. والضمير المؤنث يعود إلى القرية، والمراد بها أهلها أو أنّها بمعنى أهلها كما مرّ. والمراد بأمرهم عتوّهم وطغيانهم على ربّهم وعلى رسله. ووباله نتائجه السيّئة الوخيمة، أي عذاب الاستئصال. والتعبير بـ «الذوق» بيان لشدّة تأثير العذاب عليهم، فإنّ التذوّق أقرب الأحاسيس إلى الإنسان، حيث إنّ ما يتذوّقه يدخل جسمه ويكون جزءاً منه.

﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً﴾، الظاهر أنّ هذه الجملة إشارة إلى عاقبة أمرهم في الآخرة بقرينة الآية التالية، فالخسارة الواقعية ما يحصل هناك لمن يدخل النار،

---

١. الشورى (٤٢): ٣٠.
٢. الإسراء (١٧): ٣٠ ـ ٣١.
٣. الجاثية (٤٥): ٢٨.

حيث يفقد الإنسان كلّ ما لديه من مقوّمات كيانه ويفقد الأمل من إمكان جبر الخسارة في ما بعد.

﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً﴾. «الإعداد» بمعنى إيجاد أمر قبل موعد تنفيذ العمل المطلوب منه، فالمعنى أنّ عذاب الآخرة مهيّأة لهم قبل حضورهم وهو ينتظرهم. والجملة تفسّر الجملة السابقة، ولذلك أتت بعدها مباشرة بدون حرف العطف.

﴿فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، الفاء للتفريع، فالمعنى أنّ استذكار ما جرى على الأُمم السالفة من العذاب والاستئصال والخسران جراء طغيانهم على ربّهم وعلى رسله الذين بعثهم لقيادتهم إلى برّ الأمان يستدعي التقوى من الله تعالى لتجنّب العذاب.

و«اللبّ»: العقل، ووصف المخاطبين بأنّهم أولو الألباب لحثّهم على النظر إلى أنفسهم، وإلى مستقبل أُمورهم بتعقّل وتدبّر، ثمّ وصفهم بـ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ليكون حافزاً على التقوى من الله تعالى الذي آمنوا به.

كلّ ذلك لحثّهم على الاهتمام بأحكامه تعالى وشرائعه وعدم الاستعلاء والترفّع عن تطبيقها، وإن لم تناسب أهواءهم وأفكارهم وعقائدهم ورواسبهم التي توارثوها من آبائهم وأسلافهم، ومن ذلك ترفّع الرجل عن مساواته مع المرأة أمام القانون والشرع. وهذا الترفّع والاستعلاء هو السبب في عدم اهتمام المجتمع بشؤون المرأة وعدم التورّع من ظلمها والاعتداء عليها، ومن جانب آخر امتناع المجتمع من التدخّل في شؤون الأُسرة بحجّة أنّ الرجل وليّ أُسرته، وليس لأحد أن يتدخّل في ما يخصّ أُسرة غيره.

﴿قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً * رَسُولاً ...﴾. تعقيب هذه الجملة للأمر بالتقوى من

دون فصل بالعطف ونحوه يدلّ على أنّ هذا هو مورد التقوى، أي اتّقوا الله في الاهتمام بالعمل بما أنزل عليكم من أحكام وشرائع.

واختلفوا في المراد بـ «الذكر»، فقيل: إنّ المراد به الرسول، وهو جبرئيل عليه السلام وذلك لأنّ «الرسول» بدل أو عطف بيان عن الذكر، ولأنّه هو المناسب للتعبير بالإنزال.

وهو بعيد لتوصيف الرسول في الآية بأنه يتلو عليكم آيات الله. وتوجيه ذلك بأنّه يتلو على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهو يتلو على الناس، فإسناد التلاوة إليه باعتبار أنّه السبب توجيه بعيد لا يصحّح التعبير عرفاً، مضافاً إلى أنّ نزول جبرئيل عليه السلام وتلاوته للكتاب ليس ممّا يشعر به المخاطبون، فلا ينبغي أن يذكر هنا، والمقام مقام امتنان على الأُمّة وتحفيز لهم على التقوى.

وقيل: إنّ المراد بالذكر والرسول هو الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم لتصحّ البدلية، وأنّ التعبير عنه صلى الله عليه وآله وسلم بـ «الذكر» من جهة أنّه هو المذكِّر، فأُطلق عليه مبالغة. واختاره العلامة الطباطبائي رحمه الله[1] وهو أيضاً بعيد ولا يناسب التعبير بالإنزال.

والأقرب أنّ المراد بـ «الذكر» الكتاب العزيز، كما عبّر عنه به في آيات عديدة وهو الأنسب بالتعبير عنه بالإنزال، والمراد بـ «الرسول» الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، فإمّا أن يكون بتقدير فعل آخر، أي «وأرسل رسولاً» أو يكون بدلاً من باب المبالغة، كأنّه صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي يجسّد الذكر بتلاوته وبسيرته. والتعبير عن الكتاب بـ «الذكر» من باب المبالغة أيضاً، أو فيه نوع من التجوّز؛ لأنّ الذكر مصدر بمعنى الحفظ والاستحضار، والكلام سبب له.

---

١. راجع: الميزان في تفسير القرآن ١٩: ٣٢٥.

﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، جملة وصفية تبيّن شأن الرسول ﷺ ودوره في المجتمع البشري وفي عاقبة أمر الإنسان، فهو يتلو على الناس آيات الله حال كونها مبيّنات، أي تبيّن حقائق الأمور ممّا هي بعيدة عن أفهام الناس ودخيلة في سعادتهم وفي خروجهم من ظلمات الجاهلية إلى نور الدين وهداية الله تعالى.

واللام في ﴿لِيُخْرِجَ﴾ تعليل للتلاوة أو لإنزال الذكر وإرسال الرسول، فعلى الأوّل يكون المخرج هو الرسول ﷺ وعلى الثاني يكون هو الله تعالى وهو أولى؛ لأنّ المقام مقام الامتنان بنعمة الهداية منه تعالى والحثّ على تقواه.

ولم يقل «ليخرجكم»؛ لأنّ الخطاب لا يخصّ المؤمنين الذين يعملون الصالحات، بل الخطاب موجّه لأُولي الألباب الذين آمنوا، وهو يشمل كلّ من آمن في الظاهر وإن عمل السيّئات. وليس كلّ من خوطب بالقرآن وتلا عليه الرسول ﷺ آيات الله تعالى وآمن به ظاهراً اهتدى بها وخرج من الظلمات إلى النور كما هو واضح، بل إنّ بعضهم ما زادته التلاوة إلا خساراً ونفاقاً، وإن كان الهدف هو إخراج الجميع، بل إخراج جميع الناس، إلا أنّ الإخراج حقيقة لا يتمّ كما لم يتمّ إلا لبعضهم.

فتبيّن أنّ تقييد الإخراج إلى النور بالإيمان والعمل الصالح إشارة إلى شرط الخروج، وأنّه لا يحصل إلا بهذين الشرطين، وإن كان الغرض من إنزال الكتب وإرسال الرسل هداية الجميع، كما تبيّن أيضاً أنّ المراد بـ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هنا مغاير للمراد بقوله: ﴿أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وأتى بـ «الظلمات» جمعاً وبـ «النور» مفرداً، لكثرة وجوه الضلال ووحدة الصراط المستقيم.

﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، الظاهر أنّ ذكر هذه الجملة الشرطية العامّة لتعميم الحكم على غير المخاطبين، ولذلك لم يذكر الإيمان بالرسولﷺ ليشمل من كان مؤمناً بالرسالات السابقة قبل البعثة أو حتّى بعدها قبل أن يصل إليه نداء الرسالة الجديدة. وقوله: ﴿صَالِحاً﴾ صفة لمفعول مقدّر، أي ويعمل عملاً صالحاً. وقد ورد هذا التعبير في عدّة موارد من الكتاب العزيز، منها في سورة التغابن الآية (٩)، وقد مرّ بعض الكلام في تفسيرها ممّا يفيد في هذا الموضع.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقاً﴾، حال من الضمير المفعول في «يدخله» وأتى به بصيغة الجمع بلحاظ المعنى والمصاديق. وأبداً تأكيد على الخلود أو لدفع توهّم إرادة طول البقاء، حيث يستعمل الخلود في هذا المعنى أيضاً، وقوله: ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقاً﴾، حال آخر من الضمير المذكور. و﴿رزقاً﴾ مفعول أحسن. و«الرزق»: النصيب ممّا ينتفع به. ويستفاد من التعبير بـ «الإحسان» التعجيب ممّا رزقه الله تعالى في الجنّة وما أعظم ما يمدحه الله تعالى ويستحسنه؟! وما في بعض التفاسير من شمول ذلك لما رزقهم الله تعالى في الدنيا من الإيمان غير صحيح؛ لأنّ الجملة حالية تبيّن حالهم بعد دخولهم الجنّة.

﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾، هذا الختام أيضاً يأتي في سياق التأكيد على الاهتمام بالأحكام السابقة باعتبار أنّها أحكام الله تعالى، وهو العالم بكلّ شيء، فلا يحكم بأمر إلا ما تقتضيه الحكمة، وهو القدير على كلّ شيء، فإذا حذّر من عاقبة المخالفة فلا بدّ من الحذر. والأمر الذي ينبّه عليه في هذه الآية هو عموم قدرته تعالى، فهو الذي خلق الكون بكلّ عظمته، وكلّ ما يجري في الكون فإنّما

يجري بأمره، وأمره يتنزّل منه إلى كلّ كائن من خلال النظام الذي جعله وهو نظام الأسباب والمسبّبات غيبيّة وطبيعيّة.

وقد مرّ الكلام حول السماوات السبع في قوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾،[١] وقلنا: إنّ الظاهر أنّ التحديد بالسبع مقصود، وذلك بدليل التعبير بالقضاء ممّا يدلّ على أنّه في مقام التحديد، وبدليل التأكيد على هذا العدد بالذات في موارد كثيرة من الكتاب العزيز، فليس المراد التنبيه على الكثرة فحسب وإن كان ذلك محتملاً أيضاً.

وقلنا: إنّ من المحتمل أن يراد بها العوالم العلوية الغيبية التي هي مساكن ملائكته، كما يظهر من قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شيئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾[٢] وقد عبّر عنها أمير المؤمنين عليه السلام كما في «نهج البلاغة»[٣] بمسكن الملائكة، وإن كنّا لا نعلم كيفية تعلّقهم وارتباطهم بها، كما يحتمل أن يراد بها خصوص الأجرام الفلكية، ويمكن اختلاف المعنى باختلاف الموارد.

﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾، ظاهر، بل واضح من التعبير أنّ المراد بالمثلية المثلية في العدد، وذلك لأنّه لم يذكر صفة أُخرى في السماوات غير العدد. ولكن ما هو المراد من الأرض؟

قيل: إنّ المراد الكرة الأرضية، وأنّ المعنى أنّ هناك سبع كرات أو عدد كبير عبّر عنه بالسبع، وكلّ هذه الكرات تشابه أرضنا، وتشتمل على مخلوقات مثل ما

---

١. فصّلت (٤١): ١٢.

٢. النجم (٥٣): ٢٦.

٣. نهج البلاغة (صبحي الصالح): ١٥٠، الخطبة ٩٠.

على هذه الأرض، بل ادّعى بعضهم أنّ ما اكتشف من الكواكب المشابهة لأرضنا عدد هائل. ولكنّ هذا غير صحيح، ولم يثبت حتّى الآن وجود كوكب مشابه وإن كان ذلك محتملاً. ومهما كان فهذا أمر محتمل في حدّ ذاته، ولكن لم يرد في القرآن إشارة إليه في غير هذا المورد.

وقيل: إنّ المراد سبع طبقات من أرضنا هذه. وهذا بعيد جدّاً، إذ لا يعبّر عن ذلك بأنّها مثل السماوات في العدد. ومثله في البعد تقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم على الاختلاف في ذلك.

ويحتمل أن يكون المراد بالأرض كلّ ما نجده ونعلمه أو نشعر به من الكون الطبيعي، أي كلّ هذه الأجرام الفلكية من نجوم ومجرات وشموس وأقمار وكواكب، فكلّ ذلك يعتبر أرضاً واحدة، ولله تعالى أرضون بهذا المعنى عددها سبع أو هي من الكثرة بحيث يعبّر عنها بالسبع.

ولا يبعد التعبير عن كلّ عالم الطبيعة الذي نعرفه بالأرض، فإنّ الأرض لا تعني هذا الكوكب بالذات، كما أنّ السماء لا تعني ما نراه فوقنا بالذات، فالسماء من السموّ بمعنى العلوّ، وهو أمر نسبيّ وتقابلها الأرض، فكلّ ما يكون أعلى من شيء سماء وما تحته أرض له.

وعلى ذلك فلا مانع ولا استبعاد أن يراد بالسماء العالم العلويّ، أي الخارج عن نطاق الطبيعة، وهو ليس علوّاً مادّياً كما يتوهّم، ويراد من الأرض عالم الطبيعة. والله تعالى لا يحدّ قدرته شيء فلا استبعاد أن يخلق أكواناً كهذا الكون، ويعبّر عن كلّ منها بالأرض بالنسبة إلى السماء التي هي خارجة عن نظام الطبيعة. ولعلّ التعبير بالمثليّة يدلّ على أنّ كلّ سماء بهذا المعنى لها أرض.

وهذا التفسير لا بدّ منه في بعض موارد استعمال لفظ السماوات والأرض كقوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾،[١] فإنّ الكرسي تعبير عن الحاكمية المطلقة، وهي محيطة بكلّ الكون من الطبيعة وما وراءها. وهكذا كلّ ما ورد من أنّ: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ﴾ أو ﴿لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ﴾ وهو كثير، وكذا مثل قوله تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾،[٣] وغير ذلك.

﴿يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ قرينة السياق تدلّ على أنّ المراد بـ«الأمر» الأوامر التكوينية الصادرة من الله تعالى بشأن كلّ حادث في الكون. والتعبير بـ «التنزّل» ربّما يدلّ على التدرّج. قال في «الصحاح»: «التنزّل: النزول في مهلة»،[٤] ويساعده التعبير بالبينيّة. ويفهم من ذلك أنّ ما يصدر منه تعالى من أمر يسري عن طريق الأسباب إلى المسبّبات، وهكذا يتنزّل تدريجاً إلى أن يتحقّق الكائن. والأسباب منها غيبيّة بمعنى أنّها غائبة عن أبصارنا وبعيدة عن أفهامنا، ومنها ما هي طبيعية وهي الأسباب الكونية التي نحاول فهمها واستخدامها للوصول إلى مآربنا.

قال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شيئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾،[٥] و«الشفاعة» هي الوساطة، فالملك شفيع ووسيط بين الله تعالى وبين الخلق، والأمر يتنزّل بوساطة الملك. ولعلّ التعبير بـ«التنزّل» المقتضي للتدرّج

---

١. البقرة (٢): ٢٥٥.
٢. آل عمران (٣): ٨٣.
٣. الأنعام (٦): ٧٥.
٤. الصحاح ٥: ١٨٢٩.
٥. النجم (٥٣): ٢٦.

يدلّ على وجود مراتب في الملائك، فهناك من ينقل الأمر إلى غيره، وهناك من يباشر الإيصال إلى الكائن، قال تعالى: ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾،[١] والمراد به جبرئيل عليه السلام فهو سيّد الملائكة والمطاع بينهم.

والضمير في قوله تعالى: ﴿بَيْنَهُنَّ﴾ يعود إلى السماوات، وهو أيضاً يدلّ على تدرّج نزول الأمر من كلّ سماء إلى سماء أُخرى، وليس معنى ذلك أنّ الكائن يتحقّق بعد مدّة من صدور الأمر الإلهيّ، بل ليس هناك فاصل زمنيّ أبداً، وإنّما المراد التنبيه على أنّ الكون يسير على نظام محدّد وسنن إلهيّة لا تتغيّر.

﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾، «الإحاطة بالشيء» الإطافة به، وقوله: ﴿عِلْماً﴾ تمييز لبيان أنّ الإحاطة ليست إحاطة جسمية، بل هو تعبير عن العلم بكلّ ما يتعلّق بالشيء، والإحاطة العلمية بالأشياء خاصّة به تعالى.

واللام في أوّل الجملة قد تكون للتعليل، ولكنّ الجملة ليست تعليلاً للخلق ليكون المعنى أنّ الله تعالى خلق الكون من أجل أن يعلم الإنسان عموم قدرته وعلمه تعالى كما في بعض التفاسير، بل هي تعليل لما مرّ من بيان خلق الكون لا لأصل الخلق، فالمعنى أنّ الله تعالى يبيّن لكم وينبّهكم على عظمة الخلق لتعلموا عموم قدرته وإحاطة علمه بكلّ شيء.

ويمكن أن تكون اللام لبيان الغاية المترتّبة على الخلق، فالمراد أنّ هذا العلم يترتّب لا محالة على هذا الخلق، وهذا النظام الدقيق في الكون، والله العالم.

وله الحمد أوّلاً وآخراً والصلاة والسلام على سيّدنا وحبيبنا محمّد وآله الطيبين الطاهرين.

---

١. التكوير (٨١): ٢١.

# فهرس المطالب

## تفسير سورة الحديد


سورة الحديد (١ ـ ٣) ........ ٧

سورة الحديد (٤ ـ ٦) ........ ٢٤

سورة الحديد (٧ ـ ١٠) ........ ٣٥

سورة الحديد (١١ ـ ١٥) ........ ٥٥

سورة الحديد (١٦ ـ ١٩) ........ ٧٧

سورة الحديد (٢٠ ـ ٢٤) ........ ٨٨

سورة الحديد (٢٥ ـ ٢٧) ........ ١٠٤

سورة الحديد (٢٨ ـ ٢٩) ........ ١١٥


## تفسير سورة المجادلة


سورة المجادلة (١ ـ ٤) ........ ١٢١

سورة المجادلة (٥ ـ ٧) ........ ١٣٦

سورة المجادلة (٨ ـ ١١) ........ ١٤٥

سورة المجادلة (١٢ ـ ١٣) ........ ١٥٨

سورة المجادلة (١٤ ـ ١٩) ........ ١٦٤
سورة المجادلة (٢٠ ـ ٢٢) ........ ١٧٢

## تفسير سورة الحشر

سورة الحشر (١ ـ ٤) ........ ١٨٣
سورة الحشر (٥ ـ ١٠) ........ ١٩١
سورة الحشر (١١ ـ ١٧) ........ ٢١٧
سورة الحشر (١٨ ـ ٢٤) ........ ٢٢٦

## تفسير سورة الممتحنة

سورة الممتحنة (١ ـ ٣) ........ ٢٤٩
سورة الممتحنة (٤ ـ ٦) ........ ٢٥٩
سورة الممتحنة (٧ ـ ٩) ........ ٢٦٩
سورة الممتحنة (١٠ ـ ١٣) ........ ٢٧٣

## تفسير سورة الصفّ

سورة الصفّ (١ ـ ٤) ........ ٢٨٩
سورة الصفّ (٥ ـ ٦) ........ ٢٩٤
سورة الصفّ (٧ ـ ٩) ........ ٣٠٥
سورة الصفّ (١٠ ـ ١٤) ........ ٣١٠

## تفسير سورة الجمعة

سورة الجمعة (١ ـ ٤) ........ ٣١٩
سورة الجمعة (٥ ـ ٨) ........ ٣٢٩
سورة الجمعة (٩ ـ ١١) ........ ٣٣٧

## تفسير سورة المنافقون

سورة المنافقون (١ ـ ٤) ........ ٣٤٩
سورة المنافقون (٥ ـ ٨) ........ ٣٦٣
سورة المنافقون (٩ ـ ١١) ........ ٣٧٠

## تفسير سورة التغابن

سورة التغابن (١ ـ ٤) ........ ٣٧٩
سورة التغابن (٥ ـ ١٠) ........ ٣٨٧
سورة التغابن (١١ ـ ١٣) ........ ٤٠١
سورة التغابن (١٤ ـ ١٨) ........ ٤٠٩

## تفسير سورة الطلاق

سورة الطلاق (١ ـ ٣) ........ ٤١٩
سورة الطلاق (٤ ـ ٧) ........ ٤٣٩
سورة الطلاق (٨ ـ ١٢) ........ ٤٥٤